

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مكتبة الدراسات الأدبية

٢٢

دكتور جودت الركابي

في الأدب الأندلسي



دار المغارف بمطرو

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

في الأدب الأندلسي

مكتبة الدراسات الأدبية

٢٢

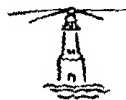
في الأدب الأندلسي

تأليف

دكتور جودت الركابي

أستاذ ذو كرسي بجامعة دمشق

الطبعة الثانية



دار المعارف بمصر

١٩٦٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذه محاضرات في الأدب الأندلسي ألقيتها على طلاب شهادة آداب اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة دمشق خلال عدة سنوات .

وما كنت أحسب أنني سأنشرها في كتاب بعد أن تداولها الطلاب وأصبحت في أيديهم ، وبعد أن اتصلت بأوساط المدرسين والأساتذة . ولكن رغبتي في أن تخرج هذه المحاضرات عن جوها التعليمي وتنطلق إلى ميادين الأدباء هي التي دفعتني اليوم إلى نشرها .

وقد حاولت في مطلع هذه المحاضرات أن أدرس الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية لبلاد الأندلس بشكل عام ، وأن أصور حياة الشاعر الأندلسي وبيئته الثقافية بشكل خاص كي لا يبقى عالم الأندلس مغلقاً أمام الطلاب في أثناء دراساتهم لأدبائه وأعلامه .

ولكن هذه الحياة الأندلسية كانت غامضة الجوانب قليلة المصادر . ولذلك كان من الخير أن أفيض في وصفها بعض الشيء علماً مني بأن تفهيم البيئة يجب أن يعيره مؤرخ الأدب أقصى اهتمامه .

ثم أتيت على عرض موجز للأغراض الشعرية الهامة التي طرقها شعراء الأندلس ؛ ووقفت ، بشكل خاص ، عند شعر الطبيعة فأوضحت بواعثه وذكرت خصائصه وأوردت طائفة من المنتخبات الشعرية لبعض أعلام شعراء الطبيعة أمثال ابن حمديس وابن خفاجة وغيرهما .

وقد حاولت . في هذا . أن أوضح جانباً هاماً من جوانب أدبنا العربي في الأندلس ، وأبين كيف أن هذا الأدب لم يعيش فقط بين جدران القصور وإنما

عاش أيضاً في رحاب الرياض الأندلسية وجاء ثمرة لتلك الطبيعة النديّة التي عرف الشاعر الأندلسي كيف يصف جمالها ويصف ما فيها من حب وهو وطرب ، في كثير من الحذق والفن والأصالة .

وشئت بعدئذ أن أقدم في شخص ابن زيدون مثلاً فذاً للشاعر الأندلسي ، ولذا جئت على دراسته بروح جديدة تعكس أصالته الأدبية وترسم من قريب خصائص الشعر الأندلسي الذي بقي على الرغم من جدّته ينظر إلى الشرق في شوق ولهفة .

وكان عليّ ، بعد هذا ، أن أبين الميزة التي انفرد بها أدب الأندلس عن أدب المشرق فقمّت ، لهذه الغاية ، بدراسة « الموشح » هذا الفن المستحدث الذي غذّته طبيعة الأندلس الحميلة ، وجادت به عبقرية العرب الخالدة . وقد تحرّيت واستقصيت ما وسعني التحري والاستقصاء في أثناء دراستي لهذا الفن الجديد ، وحاولت أن أقدم عن « الموشح » بحثاً أزعم أنني كشفت فيه النقاب عن كثير من النواحي الغامضة التي قلما عني بها الباحثون .

وإنني أرجو أن أكون قد أفدت بعملی هذا إخوانی الطلاب وأسهمت في مدّ خزانة الأدب الأندلسي بهذا الجهد المتواضع الذي آمل أن يجد الأدباء والنقاد في قراءته والبحث عن هفواته ما يساعد على كشف ما غمض من أدبنا العربي في تلك الديار الأندلسية .

ولا يسعني ، آخر الأمر ، إلا أن أشيد بفضل من سبقني من الأدباء والباحثين الذين عنوا بتراث الأندلس الأدبي ، من عرب ومستشرقين ، والذين كان لدراساتهم التي عدت إليها الأثر الأوفى في تغذية هذه الفصول ومدّها بالأفكار التي هدتني سواء السبيل ، والله من وراء القصد وله الحمد أولاً وآخرآ .

جودت الركابي

دمشق في ١٥ شباط (فبراير) ١٩٦٠

الباب الأول

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية

الفصل الأول

الفتح

الأندلس - المعنى الجغرافي والعنصري ^(١) :

سمى العرب جميع البلدان الإسبانية التي فتحوها باسم « الأندلس » . وليس من السهل شرح هذه التسمية . ويمكن تقريبها من اسم جماعات الفنداليين Les Vandales الذين هاجموا إسبانيا ومروا بها مهاجرين إلى إفريقيا الشمالية في مبدأ القرن الخامس الميلادي . إذ يقال إن هؤلاء الفنداليين عند قطعهم مضيق جبل طارق سُمي المرفأ الذي أبحروا منه . ولعله مرفأ طريف Tarifa أو الجزيرة Algéciras . سُمي باسمهم وقيل له فندلس . وقد حافظ هذا المرفأ على هذا الاسم حتى جاء المسلمون فجعلوه شاملا لجميع البلدان التي احتلوها بعد أن حرقوه وجعلوه « أندلس » .

ومن المؤرخين من يقول إن إقطاعية إسبانيا الجنوبية كلها . التي كانت تسمى في العهد الروماني إقطاعة بيتيك Bétique ، قد سميت بـ « فندالسيا Vandalicia » عند مرور الفنداليين من إسبانيا الجنوبية أثناء هجرتهم إلى إفريقيا الشمالية ، ولكن هذا الزعم الأخير لم تؤيده الوثائق .

ومهما يكن من أمر فإن كلمة الأندلس قد استعملها المؤرخون العرب والجغرافيون بسرعة وتقبلوها بسهولة . وكانت تدل بادئ ذي بدء على إسبانيا كلها ثم أخذت تقتصر على المنطقة التي احتلها المسلمون من الأرض الإسبانية ، ونرى ، حتى هذا اليوم ، أن مقاطعات إشبيلية وقرطبة وغرناطة قد حافظت على هذا الاسم . هذا وإن كلمة « أندلس » كانت تدل على مختلف العناصر التي سكنت

(١) انظر : Lévi - Provençal, L'Espagne musulmane au Xe siècle p. 5 et suiv.

انظر أيضاً : بطرس البستاني ، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ، ص ٢ وما بعدها

القسم الذى احتله المسلمون من الجزيرة الإسبانية ، سواء أكانوا من الفاتحين العرب أم من سكان الجزيرة الأصليين الذين خضعوا أو لم يخضعوا للإسلام ، ولهذا لم تكن كلمة « أندلس » لتدل إلا على وحدة خيالية ، وكان على الحكام المسلمين أن يواجهوا فى جميع عصور احتلالهم للأندلس معضلة العناصر والأجناس ، فزاهم أحياناً يعملون من ناحية على قمع ثورات وطنية يقوم بها الإسبانىون المغلوبون على أمرهم ، وزاهم من ناحية ثانية يضطرون فى أوقات كثيرة إلى قمع حركات داخلية تقوم بها العناصر الفاتحة التى جاءت من مختلف المناطق : من الشرق ومن إفريقيا ومن المغرب ، وهكذا سرى أن تاريخ الأندلس السياسى كان دائماً مهدداً بخطرين : خطر سكان البلاد الأصليين ومخطر العناصر الفاتحة ولا سيما البرابرة .

الفتح :

كانت إسبانيا ، فى الوقت الذى أخذت تجذب فيه أنظار العرب على أسوأ حالة من الضعف السياسى والاجتماعى . وهذا ما ساعد على فتحها . فإن الضرائب الباهظة امتصت ثروة الطبقة الوسطى ، واستبد الموسرون ، على قلوبهم . بأراضيهم الخصبة وأخذوا يستغلونها لترفهم وملذاتهم بينما كان الفلاحون عبيداً مرهقين . ولم تبدل النصرانية ، على رغم انتشارها فى إسبانيا ، كثيراً من الشرائع الرومانية القديمة . فظلت السيادة لأصحاب الإقطاعات والعبودية للفلاحين والضعفاء . وكان القوط Wisigoth هم الذين دخلوا هذه البلاد فى القرن الخامس للميلاد وأقاموا مطمئنين بعد أن قضوا على سلطان الرومان وأقاموا سلطانهم وانتحلوا النصرانية ديناً ، ولكنهم صاروا بها إلى الاضطهاد وإلى احتقار الرومانيين لأنهم مغلوبون . فطبعى أن تُفضى هذه الحالة إلى اختلال فى بناء الدولة ، وأن يمحها أكثر الشعب ويتمنى زوالها .

وكان على إسبانيا ملك يقال له لدرىق Roderic اغتصب العرش القوطى بعد وفاة الملك غيطشة Witiza . وكانت مدينة سبتة Ceuta الواقعة فى أقصى شمالى المغرب يحكمها عامل لقيصر الروم يدعى يليان julien ، وكانت بينه وبين لدرىق عداوة شديدة لا ندخل فى أسبابها ، إلا أن هذه العداوة حملت يليان على السعى

لإسقاط لذريق وثلّ عرشه . لذلك ليس عجيباً أن نراه يساعد العرب ويمهد لهم سبيل الفتح .

« فكتب يليان إلى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك في المغرب يُزيّن له فتح الأندلس ، ويصف خصب أراضيها ووفرة أموالها وسهولة التغلب عليها لتخاذل أهلها وانقسام بعضهم على بعض ، ووعدّه بالمساعدة ، فاستأذن موسى بن نصير الخليفة بغزو الأندلس فأذن له على أن يأخذ حذره ويخوضها أول الأمر بالسرايا ، ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فبعث موسى مولى له من البرابرة يقال له طريف بن مالك النّخعي . في أربعمئة راجل ، ومائة فارس ، فحملتهم أربع سفن ليليان إلى جزيرة الفندال التي اشتق منها اسم الأندلس ، فسميت جزيرة طريف Tarifa لتزوله بها ، وأقاموا فيها أياماً ثم كروا إلى المغرب وقد أصابوا مالاّ جسيماً وسبياً لم ير موسى وأصحابه مثله .

« وعاد يليان يجرّض موسى على اقتحام الأندلس حتّى أغراه ، وفي الواقع لم يكن موسى ليريد أن يقوم بحملة كبيرة ، إنما كان يرغب القيام بغزو متبعاً بذلك توصية الوليد^(١) . وبدافع هذه الفكرة دعا ببربري من مواليه اسمه طارق بن زياد . فعقد له ، وبعثه في سبعة آلاف من البربر ليس فيهم إلّا ثلثمائة من العرب ، فأقلّتهم سفن يليان التجارية لحمس خلون من رجب سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م ، فسارت بهم تعبر بحر الزقاق من سبتة إلى جزيرة الفندال . ويسمى العرب الجزيرة الخضراء ، وكان نزولهم عند جبل كلبه Calpé فقيل له جبل طارق^(٢) .

ولن ندخل في تفاصيل الحوادث . فقصة الفتح وما رافقها من زيادة أو نقص موجودة في مختلف الكتب التاريخية . ولكننا نشير فقط إلى أن العنصر البربري هو الذي كان يهيمن في هذه الحملة الأولى وأن المقاومة التي لاقاها العرب في الجزيرة الخضراء لم تكن شديدة . فعندما علم ملك الإسبان لذريق بتقدم المسلمين حشد الجيوش وكتب إلى أولاد غيطشة يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العرب ، ويحذرهم

(١) يرى هذا الرأي ليفي برونسال ، انظر المصدر السابق ص ٩ .

(٢) بطرس البستاني . المصدر السابق ص ٣ - ٤ .

من القعود عنه ، فلم يجذوا بدءاً من إجابته ومضوا معه وهم مرصدون لمكروهه لأنه كان قد اغتضب الملك من أبيهم — كما ذكرنا — . وفي وادي بككة Bekka التقى الفريقان ، وكان جيش طارق قد أمد بخمسة آلاف بربري جاءوه من المغرب فبلغ اثني عشر ألفاً ، سلاحهم حسن ، وقلوبهم متحدة على الغزو واقتسام الغنائم ، وكان جيش لدريق ، على رواية ابن خلدون ، أربعين ألفاً . وعلى رواية المقرئ مائة ألف ، وينقل بطرس البستاني في كتابه أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث عن كليمان هوار قائلا : « إن جيش الإسبانيين كاد يكون خلوّاً من الفرسان : وإن أغلب سلاحه العصي والمقاليع » ولا ندري إلى أي حد يمكن أن نؤمن بهذا القول . وتحمل البرابرة صدمة الجيوش القوطية وظفر المسلمون ظفراً لم يكونوا ليحلّموا به بعد معارك دامت ثمانية أيام وتمّ النصر للمسلمين في رمضان سنة ٩٢ هـ .

على أن أولاد غيطشة ويليان صاحب سبتة لم يظاهروا العرب في غارتهم على الأندلس إلا لاعتقادهم أنهم قوم غزاة لا يلبثون بعد الغنيمة أن يعودوا إلى بلادهم ، فشدوا أزرهم للتخلص من لدريق . والعرب أنفسهم لم يكونوا مصممين على البقاء في إسبانيا عند ما اقتحموها ؛ يدل على ذلك حديث رواه المقرئ لميمون العابد . وكان في عداد الشاميين الذين دخلوا الأندلس ، فقد قال لأحد أولاد غيطشة : « إنا قدمنا إلى هذا البلد غزاةً نحسب أن مقامنا فيه لا يطول ، فلم نستعد للمقام ولا أكثرنا من العدة » (١) .

وبلغ موسى بن نصير فتح الأندلس . فحشد طارقاً . وطلب إليه أن يتوقف عن الإيغال في البلاد حتى يأتي إليه . ولكن طارقاً لم يطعه بل تابع الفتح . وأراد موسى بن نصير أن يناله نصيب من المحل فحشد جيشاً يزيد على عشرة آلاف من البربر والعرب (٢) وعبر بهم بحر الزقاق ودخل الأندلس في شهر رمضان سنة ٩٣ هـ ولكن عوضاً عن أن يلحق بطارق أخذ يعمل لحسابه الخاص فافتتح إشبيلية وماردة Mérida في غربي إسبانيا واستعمل دار السكة وضرب باسمه نقوداً ذهبية .

(١) بطرس البستاني . المصدر نفسه ص ٥ .

(٢) يقول ليني بروفنسال إن هذا الجيش كان كله من العرب هذه المرة وفيه كثير من اليمانيين

والقيسين مع مواليم . انظر المصدر السابق ص ٩ .

هذا وقد كانت جيوش طارق قد افتتحت أكثر الأندلس عند ما ذهب موسى إلى طليطلة فاستقبله فيها طارق ، ونزل إليه إعظماً إلا أن موسى قد ونحه على عصيانه ثم أظهر الرضا عنه ، وتابع وإياه الفتح متوغلين في بلاد الفرنجة . وبينما كانا ينتقلان من بلد إلى آخر إذا بأمر الوليد بن عبد الملك يدعو موسى إليه وقد بلغه ما أصاب من الأموال والغنائم فولّى موسى ابنه عبد العزيز على الأندلس وعاد مع طارق قاصدين الشرق . وكانت إسبانيا المسلمة قد أدركت حدودها النهائية في الفتح .

ومنذ أن ترك موسى ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس بدأ عهد الولاة .

الفصل الثاني

عهد الولاة ٩٢ هـ / ٧١٠ م - ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م

إن عهد الولاة في الأندلس يبدأ في الواقع بطارق بن زياد ، ثم بموسى بن نصير ثم بابنه عبد العزيز ، فبعد مقتل عبد العزيز هذا بقيت الأندلس نحو ستة أشهر دون أن يرسل بنو أمية والياً إليها . فاجتمع زعماء البربر واختاروا أيوب بن حبيب اللخمي ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، فحكم في قرطبة مدة قصيرة ، ثم تعاقب الولاة بعدئذ على الأندلس ، فمنهم من كان يعينهم الخليفة ، ومنهم من كان يعينهم عامل إفريقية . وافتتحت بلاد جديدة في عهدهم كبرشلونة Bercelone وقشتالة Castille وأغار العرب على شواطئ الرون فبلغوا ليون Lyon وتقدموا في قلب فرنسة حتى بلغوا تور Tours وكادوا يعبرون اللوار عندما هب لملاقاتهم شارل مارتل بجموع الفرنجة في سهل بواتيه ، وردّهم على أعقابهم ، وقُتِل في الواقعة قائد العرب عبد الرحمن الغافقي وإلى الأندلس وكان ذلك سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م .

ولم يقتصر عهد الولاة على الحروب بين المسلمين والنصارى في أوروبا بل حدث شقاق عظيم في المسلمين أنفسهم . فعهد الولاة كان عهداً مضطرباً ، قامت فيه من ناحية ثورات البرابرة ضد العرب ، واستحكمت الشقاق والتنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق وانتقلت معهم العصبية القبلية وبدأ نزاعها ظاهراً بين القيسية واليمانية .

ولن نشير هنا إلى تفصيل الحوادث بل نكتفي بالقول إن ثورات البرابرة خلال هذا العهد ليست سوى صدى للحوادث الدامية التي كانت تجري في المغرب . فقد حدث أن ثار البرابرة في المغرب على الشاميين والمصريين فتحرك برابرة الأندلس وثاروا بوالها عبد الملك بن قطن ، هذا فضلاً عن أن البربر كانوا يعتدّون بأنفسهم لأن الفاتح منهم والفتح قد تم على أيديهم ، ويرون أنهم أول من غيرهم بتقليد الحكم . وقد حملت ثورات البرابرة الخليفة هشام بن عبد الملك على أن يرسل نجدات إلى

إفريقية وكان من بينها نجدة الجند السوريين تحت قيادة بلج بن بشر الذي استطاع أن يخذل ثورتهم في إسبانيا .

هؤلاء الجند الشاميون يجلبون انتباهنا ، إذ أنهم سيلعبون دوراً هاماً في تأسيس الدولة الأموية في الأندلس ، وسينقلون إليها النظم الشامية والتقاليد العسكرية التي كانت سائدة في الشام ، والتي ستبقى من مميزات الدولة الأموية في الأندلس .

وقد أخذ الجند الشاميون يتصرفون في بلاد الأندلس بحسب أهوائهم ونزعاتهم القبلية ، إلا أن إقامتهم فيها قد كوَّنت نواةً عربية هامة أخذت تقاوم نشاط البرابرة وتخفف من غلوأهم .

ومن السهل ، بعدُ ، أن نلاحظ أن وضع المغرب الإسلامي المضطرب كان يستدعى أن يدفع العرب إلى التفكير في تأسيس دولة قوية فيه ، وستقع مهمة تأسيس هذه الدولة على عاتق عبد الرحمن الداخل بعد أن تضعضعت سلطة الأمويين في الشرق بنشاط الدعوة العباسية .

الدولة الأموية

إمارة قرطبة المستقلة وعبد الرحمن الداخل حتى خلافة عبد الرحمن الثالث

(١٣٨ هـ / ٧٥٦ م — ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م)

بعد أن انهار البيت الأموي في الشرق وأعمل العباسيون السيف في رقاب الأمويين ، استطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن مروان ، وكان شاباً ، أن ينجو من بطش العباسيين ويفرّ مستخفياً مع مولاة بدر حتى خلس إلى المغرب . وقد بقى خلال أربع سنوات هائماً على وجهه في شمال إفريقية حتى نزل على أخواله بنى نفقةً بالقرب من سبتة . وكان عبد الرحمن في أثناء اتجواله يظهر نشاطاً سياسياً ، فهل كان يرغب بتأسيس دولة في إفريقية ؟ إن هذا ممكن ، إلا أن الأرض المواتية لطموحه السياسى ما كانت إلا الأندلس التي تضم نواة أموية شامية وهي جند بلج ، أضف إلى ذلك العوامل الأخرى التي كانت تساعد لتحقيق ما يبغي

كحماية البربر له لأن أمه كانت بربرية .

وقد استطاع عبد الرحمن في كثير من الحذق السياسى أن يستثمر لصالحه الخاص المنازعات القائمة بين القيسيين واليمانيين ، وكانت كل هذه العوامل سبباً في نجاحه ، لذلك لم يطأ أرض الأندلس حتى استُقبل استقبالاً فاق حدّ خياله . فانتصر على الصُمَيْل ويوسف الفهري ، والي الأندلس ، وأهلكهما . ودانت له الأندلس وأصبح أميرها ولُقِّبَ بالداخل لدخوله إياها ولقَّبَه أبو جعفر المنصور بصقر قریش ، وكان دخوله قرطبة ، التي جعل فيها سرير ملكه ، في العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٩ هـ . فقطع الخطبة عن بني العباس ودُعِيَ له على المنابر وبني المسجد الجامع في قرطبة واختطّ مدينة الرُّصافة في شمالها على مثال رُصافة الشام لجدّه هشام ، وجعل بلاطه كبلاط لذريق في عظمتة وبهائه ، وبدأت منذ ذاك العهد إمارة قرطبة المستقلة وتأسست الدولة الأموية .

فما هي صفات هذا التأسيس وما هو منهج مؤسس هذه الإمارة ؟

لم يكن عهد إمارة قرطبة المستقلة في الواقع سوى عهد طويل لتعزيز السلطة الأموية في الغرب الإسلامي ، ويجب علينا أن نتنظر عهد خلافة عبد الرحمن الثالث لكي تتمركز نهائياً هذه السلطة وتبلغ الحضارة الأموية أوجها وعهدها الذهبي . ومنذ أن أصبح عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس أخذ في تحقيق برنامجه . وكان هذا البرنامج يرمى إلى أمور ثلاثة :

١ - تنظيم الجيش الذي قاد إلى الظفر .

٢ - فتح أبواب الأندلس أمام الأمويين المضطهدين في الشرق .

٣ - إيجاد التفاهم بين عناصر العرب ولا سيما القبائل التي تحارب بعضها بعضاً ، ودعم السلطة الأموية باللجوء إلى توطيد الأمن في جميع أنحاء البلاد الأندلسية .

ولم تكن سياسته سوى سياسة جلب واسترضاء ، وكان من نتائجها أن أخذت وفود المهاجرين الأمويين تنثال على بلاد الأندلس لدعم هذه الدولة الناشئة ، وتعزيزها ، وكون الروائيون ما نسميه اليوم بالطبقة الأرستقراطية أو الخواص .

هذا وإن حملة شارلمان الشهيرة تقع في النصف الثاني من حكم عبد الرحمن

الداخل ، فقد قطع شارلمان جبال البرنه في جيش من الفرنجة وجاء فحاصر سرقسطة سنة ١٦٢ هـ / ٧٧٨ م إلا أنه اضطر لترك الحصار فجاءة عندما استدعى للعودة إلى شواطئ الرين ، فقام عبد الرحمن عندئذ ، مستفيداً من عودة شارلمان ، وحاصر سرقسطة واحتلها مدة قصيرة ثم أرسل حملة لحقت بشارلمان في مقاطعة الباسك وأنزلت به هزيمة فادحة .

وكان من نتاج هذه المعارك بين العرب وشارلمان في شمال الأندلس تلك الملحمة الرائعة « أنشودة رولان » التي هتف بها شعراء مجهولون مجدوا فيها مصرع أبطال شارلمان وعلى رأسهم الفارس الكبير رولان وغيره من الأبطال الذين كان يعتز بهم شارلمان .

وقد كانت مدة ملك عبد الرحمن الداخل أربعاً وثلاثين سنة (من سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م إلى ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م) وعند وفاته كانت الدولة الأموية في الأندلس تتمتع من الناحية السياسية والاجتماعية بجميع صفات الدولة القوية المنظمة ، وكانت تمتاز بطابعها الشامي ، هذا الطابع الذي أخذ يظهر في التقاليد وفي نمط النظم وأشكال البلاط حتى أصبح لدى كل أمير أموي ميل "لوسم الأندلس بالسماط التي كانت تمتاز بها الدولة الأموية في الشرق سواء أكان ذلك في العادات أم في نمط الحكم أم في تنظيمات الدولة .

وتداول الملوك بعد عبد الرحمن الداخل أبنائه وأحفاده نذكر من بينهم هشاماً الأول والحكم الأول وعبد الرحمن الثاني وغيرهم . وفي أثناء حكم عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م — ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م) قدم الأندلس من بغداد المغني زرياب تلميذ إسحاق الموصلي ، وقد كان له تأثير كبير في نقل كثير من العادات الشرقية السائدة في بلاط بني العباس إلى بلاد الأندلس . وقد أخذت تلك العادات الحضريّة تنتشر في كثير من التائق والذوق الناعم وتبدو على الأخص في المأكّل وفي قوانين المآدب والحفلات ، وقد كان لقدم زرياب تأثير كبير في الحياة الاجتماعية والأدبية والفنية .

إن نجاح صقر قريش في تأسيس الدولة الأموية في الأندلس يعدّ حادثاً هاماً

في تاريخ العرب ، وإذا كانت الدولة الأموية قد وطّدت دعائمها في هذا العهد، عهد إمارة قرطبة المستقلة ، فإنها بلغت أوجها من الرقي والحضارة في عهد عبد الرحمن الثالث . فبمملكه تبدأ الخلافة الأموية في قرطبة سنة ٣٠٠ للهجرة . هذه الخلافة التي ازدهر فيها الأدب والفن ازدهاراً سنرى مداه ونشعر بأصالته وغزيرته .

الفصل الثالث

خلافة قرطبة وعبد الرحمن الثالث

عند ما تقلّد عبد الرحمن الثالث زمام الحكم كان قد بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة . وعلى الرغم من صغر سنه فقد اختاره جده عبد الله لما توسم فيه من المقدرة والصفات الحسنة . وقد دام ملكه خمسين حَولاً من سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م إلى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م . ولم يعرف التاريخ الإسلامي عهداً زاهراً كعهده ، وقد سمحت له مدة مُلكه الطويلة أن يؤمّن سياسته نوعاً من الاستقرار لم يعرفه الملوك الذين سبقوه ولا الذين لحقوه . فتّهد إلى الميادين يحمّد الفتن ومراكز الثورات التي لم تنطفيء ناراها منذ أن قدم المسلمون إلى الجزيرة الإسبانية عاملاً على إخضاع العصاة وجمع كلمة المسلمين ، ثم قام بغزوات لقهر المناوئين من ملوك الإسبان فدان أكثرهم له ووفدوا إلى بلاطه خاضعين وذاع صيته وانتشرت سطوته فوفد إلى حضرته السفراء من القسطنطينية وألمانيا وإيطاليا وفرنسا ، وجعل الأندلس أمة واحدة تحت سلطانه واستكثّر من الصقالبة واعتمد عليهم في الجيش وخطط الدولة ، فأزال بهم زعامة الأرستقراطية العربية .

وكان أمراء بنى أمية يطمعون في استرجاع الخلافة ويتحينون لها الفرص ولم يتلقبوا أول أمرهم بألقابها مخافة أن يجد المسلمون في عملهم بدعة لأن الخلافة العباسية كانت في إبان عظمتها ، فلا مسوغ لقيام خلافة أخرى ، فلما صار أمرها إلى الضعف وبدأ الانحلال والوهن يدب في جسمها حتى أصبح الخليفة ألعبوبة في أيدي الجند من الأتراك ومن مواله سنحت الفرصة للملك الأندلس ، فاغتنمها عبد الرحمن الثالث وأعلن نفسه خليفة ولُقّب بأمر المؤمنين الناصر لدين الله ، سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م .

وكان الناصر أعظم ملوك الأندلس وأول خليفة فيها . بلغت الأندلس في زمنه أوج مجدها ، واحتلت مكانة سياسية ومدنية عظيمة في نظر المسيحية والعالم

الإسلامي نفسه . ونهضت الآداب والعلوم نهضة مباركة ونافست قرطبة بغداد في أعظم أيامها . فبلغ عدد سكانها فيما يروون نصف مليون وكان فيها مئة وثلاثة عشر ألف جامع وثلاثمائة حمام وثمان وعشرون ضاحية ، حتى لم يعد لها في كل المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة المحال وفسحة الأسواق وكثرة العمارات والحمامات والفنادق ^(١) .

وبنى الناصر على مقربة من عاصمة ملكة قرطبة قصرأ أسماه الزهراء باسم جارية له كانت تمت عليه أن يبنى لها قصرأ . فكانت الزهراء هذا القصر الفخم الذي قضى الناصر في بنائه وإعداده خمساً وعشرين سنة واستدعى للعمل فيه مهرة البنائين من بغداد والقسطنطينية ، وأجرى فيه المياه وأنشأ حوله الحدائق والبساتين بحيث أصبحت قرطبة وزهراؤها مدينةً سحرية تخلب الناظرين بجملها .

وقد ذكر المقرئ : « أن مُلُكَ الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن وهادته الملوك وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعةً راغبة وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية الكبرى فإنه هاداه ورغب في موادعته » ^(٢) وقد زحرت بيوت الأموال في زمنه فبلغ دخل الخزينة نحو ستة ملايين دينار في العام . وكان الناصر يقسم الجباية أثلاثاً : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مُدَّخر .

وقد أنشأ أسطولاً زاحم به أسطول الفاطميين وجيشاً قوياً سيطر به على أكثر بلاد الأندلس ، وأسس المدارس ، وشجع العلماء ، ونهضت الآداب والفنون في زمنه نهضة مباركة .

ولما توفي عبد الرحمن الناصر كان له من العمر سبعون عاماً . وقد عرفت بلاد الأندلس في زمنه حياة الدعة والرخاء ، وحقَّ لقرطبة أن تدعى مدينة العلم والأدب والفن .

(١) انظر : جبرائيل جبور ، من مقال له عن الأدب الأندلسي في مجلة الأبحاث - بيروت ، السنة ٢ الجزء ٢ ، حزيران ١٩٤٩ .
(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٩ .

الحكم بن عبد الرحمن الناصر :

انتقلت الخلافة بعد عبد الرحمن الناصر إلى ابنه الحكم ، وجرت بيعته في حفل عظيم وصفه المقرئ وصفاً مفصلاً يدل على أبهة المراسيم التي جرت^(١) . كان الحكم كأبيه حازماً حسن التدبير ، أخضع الثائرين من الفرنجة ، وملك خمس عشرة سنة (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) في يَمُنٍ وإقبال. وكان الحكم ميالاً إلى العلوم والآداب محبباً لها مكرماً لأهلها جَمَّاعاً للكتب بأنواعها ، ذكر المقرئ أن عدد الفهارس في خزانة العلوم والكتب في عهده بلغت أربعاً وأربعين فهرسة ؛ في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين لا غير^(٢) .

وقد امتاز عهده بإنشاء المدارس والمكاتب فابتنى في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة . وجعلها مجاناً للطلاب ، وأتم بناء الجامع الكبير الذي كانت تدرس فيه العلوم والآداب العالية ، وأرسل البعوث العلمية إلى الشرق فكانت تنسخ له الكتب وتأتي بها إليه حتى جمع في خزانته أربعمئة ألف كتاب ، وذكر المقرئ أنه اشترى نسخة من الأغاني بمبلغ ألف دينار من الذهب .

الحاجب المنصور - استبداد العامرين :

كان الحكم قد عهد ، في حياته ، أمر الإشراف على ابنه هشام إلى محمد بن أبي عامر ، وكان شاباً ذكياً استطاع بدهائه أن يكسب عطف الملكة صُبُح ، امرأة الحكم ، الإسبانية الأصل ، وقد كانت تهواه . واستطاع أيضاً أن يتقلب في مناصب عالية حتى أصبح حاجباً ، وبعد موت الحكم استبد بشؤون الدولة مستغلاً حداثة سن هشام ، فأخذ يتخلص من منافسيه واحداً واحداً حتى تنكَّر في النهاية إلى صبح نفسها واستلم زمام الأمور بيده واستبد بالملك وأصبح ملكاً على الأندلس ولتَقَبَّ نفسه بالحاجب المنصور ، ودُعِيَ له على المنابر ، ولم يترك للخليفة غير الدعاء ليلة الجمعة .

(١) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ١٨٢ .

وقد كان المنصور كثير الغارات قام بنحو عشرين غزوة استرد بها ما كان فقدته ،الحكَمَ في أواخر عهده حين انصرف بكليته إلى الآداب والعلوم . وقد أعاد إلى الملك سطوته ومجده وهابه ملوك الإسبان . وبموته سنة ٣٩٣ هـ وموت ابنه المظفر من بعده ينتهى حكم العامريين المستبد وتعود السلطة إلى البيت المروانى ويطرأ على الدولة الفساد وتسود الفوضى ويضطرب الأمن وتسير خلافة قرطبة نحو الاضمحلال والضعف .

وقد تجلّى بطش المنصور في غزواته الكثيرة على الفرنجة وهدمه مدنهم حتى أنزل الرعب في قلوبهم . وقد كان محبباً للفلسفة فرُميَ بالزندقة ، وقرب العلماء والشعراء وأحسن صلاتهم فنطقوا بحمده وأشادوا بذكوره .

وقد كانت الفترة التى تلت موتَ المنصور فترةً مضطربة تعاقب فيها خلفاء ضعفاء إلى أن انتهت بخلع هشام الثالث سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م ، فكان آخر خليفة فى قرطبة ، فانقطعت الخلافة الأموية ، وصار الأمر فى قرطبة إلى الطبقة الأرستقراطية . ثم قام رؤساء الطوائف فى الولايات ، من بربر وعرب وموال ، يقتسمون خططها ويستبدون بأمرها ، فعُرف هؤلاء الرؤساء بملوك الطوائف .

الفصل الرابع

ملوك الطوائف

٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م - ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م

عند ما أخذ الضعف يدب في جسم الدولة الأموية ، بعد أن استبد العامريون بأمر الخلافة ، بدأ رؤساء الطوائف يستقلون بالإمارات التي يحكمونها فعرفوا بملوك الطوائف .

وقد أصبحت المدن الهامة في الأندلس عواصم لهذه الدويلات الصغيرة . ومن أهم هذه الدويلات (١) :

الدولة الزييرية : استقلت في غرناطة سنة ٤٠٣ هـ ، وهي دولة بربرية ، ظل مسلكها إلى سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م .

والدولة الحمودية : استقلت في عهد المستعين الأموي سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، وهي شيعية من المغرب تنتسب إلى إدريس من سلالة الحسن بن علي . تنقلت بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء ، وانقرضت سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م

والدولة الهودية : في سرقسطة Saragosse من سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م إلى سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م وهي دولة عربية أشهر ملوكها المقتدر بالله وابنه المؤمن .

والدولة العامرية : في بلنسية Valence من سنة ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م إلى سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م وهم من موالي بني عامر .

والدولة العبادية : في إشبيلية من سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م إلى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م وهي عربية من بني لحم من ولد النعمان بن المنذر ، وقد اتصل بملوكها الشاعر بن زيدون . وهي من أبهج الدول في الكرم والفضل والأدب .

(١) انظر : تاريخ ابن خلدون . وقد استقينا هذه المعلومات باختصار عن كتاب أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث لبطرس البستاني .

ودولة بني الألفطس : في بطليوس Badajoz من سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م إلى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م وكانت دولة متحضرة نهضت بالعلوم والفنون .

والدولة الجهورية : في قرطبة من سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م إلى سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م قامت بعد سقوط الخلافة الأموية . فتولى الأمر عميد طبقة الخواص في قرطبة أبو الحزم بن جهور ثم توارث الحكم أبناؤه من بعده .

ودولة ذي النون : في طليطلة من سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م إلى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٧٥ م وهي بربرية من قبائل هواره .

وقد قامت بين ملوك الطوائف حروب متصلة ، وكان القوى فيهم يغلب الضعيف فيزيل سلطانه كما حدث أن أزال ملوك بني عباد حكم بني جهور في قرطبة . ولم يتوان بعضهم عن أن يستنجد بملوك الفرنجة ، فيغتنم هؤلاء الفرصة ويهاجمون الأندلس ويستولون على عواصمها ويخضعون ملوكها ويجعلونهم عمالاً لهم ، كما فعل فرديناند الأول بالمظفر ملك بطليوس ، وبالمأمون ملك طليطلة ، وكما فعل ألفونس السادس بملك سرقسطة .

ولم يكن التنافس بين هؤلاء الملوك سياسياً فقط ، بل كان أيضاً عمرانياً وأدبياً وفنياً ، فتنافسوا في ابتناء الحصون والقلاع وتنافسوا في مجالس الأدب والطرب وفي تشجيع الشعراء والكتاب والمغنين .

وكان من بين هؤلاء الملوك من خطب الخلفاء بني أمية وإن زالت خلافتهم ومنهم من خطب لبني العباس على رغم بعدهم عنهم ، ومنهم من تقلب بنعوت الخلفاء كبنى عباد فكان منهم المعتضد والمعتمد .

ومن أجل تهاقهم على هذه النعوت العباسية قال الشاعر أبو بكر بن عمار يهجوهم :

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صورة الأسد

ومن الإنصاف لهؤلاء الملوك أن نذكر أنهم رعوا حركة الأدب وقربوا أصحابها وكانت أكثر عواصمهم أسواقاً لها ، وكان منهم أدباء وشعراء كالْمظفر وابنه المتوكل مَسْكِيّ بظليوس ، والمعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، وكان أكثرهم يدعو إلى بلاطه العلماء والشعراء والفلاسفة يحاضرهم ويجالسهم ، وفي عهدهم ظهرت الفلسفة وعلى رأسها ابن باجة .

ودام أمر الطوائف نحو مائة سنة تقريباً استطاع في أواخرها ملوك الإِسبان من جمع كلمتهم فهاجموا هذه الدويلات واحدةً واحدةً وقضوا عليها حتى بلغوا إشبيلية عاصمة بني العباد فضايقوا المعتمد حتى اضطر إلى أن يطلب النجدة من أمير المرابطين في العدو الإفريقية . فجاء يوسف بن تاشفين أميرُ المرابطين ومحا ملوك الطوائف ، إلا دولة سرقسطة فإن صاحبها اعتصم بالفرنجة فحموها حيناً ، ولم ينل منها المرابطون إلاّ في سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، واستعادها ألفونس الأول ملك أرغون Aragon سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م .

دولة المرابطين^١

تنحدر هذه الدولة من قبيلة لمتونة من برابرة صنهاجة في المغرب ، وكان من عاداتهم أن يضعوا لثاماً على وجوههم فلقبوا باللمثمين .

وسُمُّوا بالمرابطين لأن أحدهم يحيى بن إبراهيم أسلم فجاء بفقيه اسمه عبد الله بن ياسين ليعلم قبيلته القرآن وأحكام الدين . ثم مات يحيى فتنفر الناس عن الفقيه ، فلم يفت ذلك في عضده بل جمع فئة منهم واعتزل بهم في جزيرة من السنغال ، وابتنى لهم رباطاً فسموا المرابطين^(٢) .

ولما كثر عددهم حتى بلغوا الألف قام عبد الله وحضهم على الجهاد في سبيل الحق وأمرهم بإرشاد عشائريهم ، ولما أبت هذه أن تهتدى بهديهم شنوا عليها الغارة وقتلوا منها خلقاً كثيراً حتى أسلمت . ثم تابعوا الغزوات في بلاد المغرب يدعون الناس إلى دينهم ناشرين الرعب والهول في تلك الأنحاء .

وجعل عبد الله قيادة الجيش ليحيى بن عمر ، وكانت له زعامة في قبيلته لمتونة ، فابتدأت به دولة المرابطين سنة ٤٨٨ هـ . فلما مات خلفه أخوه أبو بكر ، ثم تنازل أبو بكر لابن عمه يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٣ هـ ، فدوخ يوسف المغرب وفتح فاس وطنجة وسبتة وبني مراکش وجعلها داراً له فعظمت هيئته وذاع ذكره .

وكانت الأندلس في تلك الحال تعاني أشد الضيم من ملوك الإشبانية . فإن ألفونس السادس صاحب قشتالة غزاها غير مرة ، وأثنى في المسلمين ، وأخضع ملوك الطوائف ، حتى بلغ جزيرة طريف ، وأدخل قوائم فرسه في البحر وقال : « هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته » فلما بلغ الضعف بالمسلمين حدّه أجمعوا رأيهم على استنفار يوسف بن تاشفين ، فكتب إليه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية

(١) باختصار عن بطرس البستاني ، المصدر السابق .

(٢) الرباط والرابطة : مكان يفرد به المسلمون للعبادة ويتأهبون فيه للجهاد . فهو بيت دين

يعلمه بحال الأندلس ويسأله النصر والإعانة ، وكتب إليه أهل الأندلس كافة يستنجدونه على العدو المغير ، فجمع جيشاً كثيفاً وجاء إلى نجدة المعتمد في كتائب بربرية من قبائل زناتة ومصمودة وقهر الإفرنج في واقعة الزلاقة الشهيرة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، فازداد يوسف بن تاشفين عظمة بهذا الانتصار وتلقب منذ ذلك اليوم بأمر المسلمين وأتاه به تقليد الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله ، ولقبه ناصر الدولة . ثم رجع يوسف إلى المغرب ظافراً منصوراً بعد أن ثبتت للمعتمد سلطته .

وما كادت تنقضي ثلاث سنوات حتى أعاد الإفرنج الكرّة وطلب المعتمد النجدة ثانية فعاد ابن تاشفين وقضى على المناوئين سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، وهنا طابت لابن تاشفين الأندلس ورياضها الغناء وقصورها ومناها (١) ومواردها الصافية فاستبد بالملك لنفسه ، وانتحل الحصومة مع المعتمد وأخذ أسيراً إلى أغمات في أفريقية حيث قضى غمّاً وحزناً في منفاه وملك ابن تاشفين الأندلس .

وتوفى يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، بعد أن أصبحت الأندلس ولاية للمرابطين ، وآلت إمارة المسلمين بعده إلى ولده عليّ ، فجعل مقره مراکش وترك في الأندلس أخاه .

ولم تنعم الأندلس في دولة عليّ فإن تعصبه الشديد للدين ، واستمساكه بمذهب مالك وكُرهه غيره من المذاهب جعله آلة بيد الفقهاء فساد التعصب والإرهاب ، وكثرت الوشايات ، وخُنفَت حرية الفكر . وفي أيامه ظهر المهديّ محمد بن تومرت في جبال المصامدة بالمغرب فكان ظهوره وبالا على دولة المرابطين وسبباً لقيام دولة الموحدين .

ودام حكم المرابطين في الأندلس نحو ستين سنة أدبيل منهم بعدها إلى الموحدين .

(١) منى : ج منية ، وهي قصر يحيط به روض .

دولة الموحدين

(٥٢٤ / ١١٢٩ م - ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م)

الموحّدون طائفة أخرى من إفريقية من أصحاب ابن تومرت الذى أراد أن يضع للدين عهداً جديداً فدعا نفسه بالموحّد وجمع حوله الأنصار وأعلنت شيعته بعد ذلك الجهاد على المرابطين فغلبوهم فى إفريقية ثم نقلوا الحرب إلى الأندلس وغلبوهم أيضاً فيها . وإليك نبذة عن نشأتهم (١) .

نشأ محمد بن تومرت فى جبل السوس من المغرب الأقصى وقومه من بنى مصمودة ، وهى قبيلة شديدة البأس كثيرة العدد . وبدت عليه دلائل التقوى منذ حدثته فكان يزور قبور الأولياء ويتبرك بها . وطلب العلم فى بلده فوجد أن المدارس فى الغرب لا غناء فيها فرحل إلى الشرق وجاء بغداد ، وتلمذ لأبى حامد الغزالى فى المدرسة النظامية ، فأخذ عنه طرفاً صالحاً من العلم وأصول الدين .

فلما رجع إلى المغرب شرع يدعو الناس إلى التمسك بأهداب الشرع وإقامة أحكام السنة ، ويبين لهم فساد الملوك والأمراء وظلمهم ويدعوهم إلى عصيانهم ، وأطلق على طريقته اسم التوحيد ، فتبعه خلق من بنى قومه عرفوا بالموحدين . ثم أوقع فى خلدّهم أن النبى بشر بالمهدي الذى يملأ الأرض عدلاً ، وقال إنه يخرج من المغرب الأقصى . فقام إليه عشرة رجال وقالوا له : « أنت المهدي » ، وباعوه ، وساروا فى ركابه ، يثون له الدعوة فى بلاد المصامدة ، حتى كثر أتباعه ، ورسخت تعاليمه ، فدعاهم إلى جهاد المرابطين ، وأباح لهم دماءهم ، فباعوه على الموت ، فراحوا يغزون فى بلاد المغرب ويوقعون بالمرابطين حتى بلغوا مراکش فحصروها ، ولكنها امتنعت عليهم ، ومات المهدي سنة ٥٢٤ هـ ، قبل أن يفتحوها ، وكان قد أوصى بعده لعبدالمؤمن بن على ، أحب صحابته إليه ،

(١) باختصار عن : بطرس البستاني ، المصدر السابق .

فبايعوه بالخلافة وتلقّب بأمير المؤمنين . وتابع عبد المؤمن جهاده حتى أزال دولة المرابطين وأقام دولة الموحدين ، وجاءته الوفود من الأندلس تدعوه فأجاز إليها جيشاً من الموحدين وامتلكها وجعلها من ولاياته .

وبلغت دولة الموحدين أوج عزها في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخليفة الثاني بعد المهدي (دامت خلافته من سنة ٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) ثم في عهد ولده أبي يوسف يعقوب الخليفة المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) .

ومع تمسك الموحدين بأمور الدين ، كانوا أكثر ميلاً من المرابطين إلى تشجيع العلوم والآداب وأعلق منهم بالحضارة : فإن أبا يعقوب استقدم الفلاسفة إلى بلاطه كابن طفيل وابن رشد ، وعنى بالعمارة ، ومن آثاره الباقية منارة الجامع الكبير في إشبيلية .

وقد دام ملك الموحدين نحو مئة وثلاثين سنة استطاع بعدها ملوك النصارى في الأندلس قهرهم وإخراجهم من الجزيرة والاستيلاء على أكثر إماراتها .

دولة بني الأحمر^١

بعد زوال الموحيدين من الأندلس ، استطاع محمد بن هود صاحب بطليوس أن ييسط سلطانه على كثير من المدن الأندلسية فشمّل به بطليوس ومرسية وقرطبة وإشبيلية . وكان يرى في مقاتلة أعدائه النصارى عاملاً لدعم قوته وسلطانه ، ولكنه كان أضعف من أن يردّهم عن مملكته ويحرس استقلالها . وفي هذا الوقت الذى كانت فيه الأندلس ترزح تحت عبء الفتنة والضعف كان فى أرجوة ، من حصون قرطبة ، قبيلة عربية من بني الأحمر عميدها محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر سليل بني نصر ، فقام هذا أيضاً بقتال النصارى ، ولكن روح التنافس والضعف لم تكن لتسمح للمسلمين بالتفوق ، واستطاع الإفرنج أن يستولوا على المدائن والحصون حتى بلغوا قرطبة فحاصروها ستة أشهر ثم سقطت فى أيديهم سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م ، وكان سقوطها كارثة عظيمة بعد أن لبثت نحو خمسمائة وعشرين سنة عاصمة مملكة إسبانيا المسلمة^(٢) . وقتل ابن هود فى المرية Almería ولم يبق للمسلمين غير إقطاعة الأندلس وعاصمتها غرناطة يتولاها ابن الأحمر أمير المسلمين من قبل فرديناند الثالث . وهذه الدولة الصغيرة استطاعت أن تقف فى وجه التوسع الإفرنجى مدة طالت نحو قرنين ونصف ، ويعود ذلك إلى أن الملوك الإسبانيين كانوا يشغلون عنها بمحاربة بعضهم بعضاً ، وأنها كانت تستنجد سلاطين المغرب فى ضنكها فيجيزون إليها جيوشهم لدفع المسيحيين عن أرباضها .

وقد عرفت غرناطة فى حكم بني الأحمر أزهى عصورها وفيها شيدت قصور الحمراء التى لا تزال ماثلة حتى اليوم . وامتاز عصرهم بتعزيز الآداب ، فنبغ فى دولتهم جملة من الشعراء والكتاب ، وعُرف جماعة من سلاطينهم بالشعر والنثر ،

(١) باختصار عن : بطرس البستاني ، المصدر السابق . انظر أيضاً : محمد عبد الله عنان .

نهاية الأندلس ص ١٨ - ٤٠ .

(٢) راجع سقوط قرطبة فى تاريخ ابن خلدون وفى نفح الطيب .

كأبى عبد الله محمد بن محمد المخلوع ثالث ملوكهم .
 وفي سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م ، أى بعد نحو ثمانية قرون من عام الفتح ،
 هاجم فرديناند وإيزابيلا بنى الأحمر فسقطت غرناطة ، آخر معقل للفاطحيين ،
 وسلم أبو عبد الله ، آخر ملوكها ، مفاتيح الحمراء إلى الغالبين .
 ويروى أن أبا عبد الله قد أعطى ضيعة يقيم فيها ، فخرج وأهله من قصر
 الحمراء حزيناً منخلع القلب ، ومشى مطرقاً إلى منفاه ، حتى إذا انعطف به
 الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنه ، أرسل إليها النظرة الأخيرة ، وهطلت عيناه
 بالدموع ، فقالت له أمه عائشة :

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولا يزال هذا الموضع يسمى إلى اليوم زفرة المغربى . وأقام أبو عبد الله في
 ضيعته الجديدة مدة قصيرة ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، ونزل بفاس واتخذها مقراً
 حتى مات . وهكذا زال ملك العرب من بلاد تركوا فيها مجدهم وآثارهم وحضارتهم
 وجلا آخر عربى تحت تأثير اضطهاد الإسبانيين الذين لم يفوا بعهودهم وأقفر
 الفردوس المفقود .

وصارَ ما كانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ كَمَا حَكَمَى عَنْ خِيَالِ الطَّيْفِ وَسَنَانُ

السمات المميزة لهذه الأدوار (١) :

تتسم مختلف هذه العصور بسمات خاصة : فالدور الأموى الذى يشمل عهد
 الولاة وعهد الإمارة وعهد الخلافة كان دور السيادة العربية . فيه نزع إلى
 الجزيرة الإسبانية أكثر من جاء إليها من العرب ولا سيما أهل الشام وتفرقوا في المدن
 الأندلسية . وقد نشط العمران في هذا الدور وتوضّحت في آخره أسس النهضة
 الأدبية والغنائية .

(١) باختصار عن الدكتور جبرائيل جبور ، من مقال له في مجلة الأبحاث عن الأدب
 الأندلسى .

أما الدور الثاني دور طوائف الملوك فقد تميز بازدهار الحركة الأدبية وكثرة الشعراء والشاعرات وشاع فن الموشح بعد أن ظهرت طلائعه في مطلع هذا الدور .
واتسم دور المرابطين بالتعصب الديني وبتسلط البرابرة وضعف الحركة الأدبية وظهور الزجل ، هذا الشعر العامي الشعبي الذي لاقى زواجاً كبيراً في هذا العهد وكاد ينافس الشعر التقليدي .

وتميز دور الموحدين بالحماسة الدينية ، ولكنها لم تقيد الفلاسفة فنمت الحركة الفلسفية نمواً دعا إليه التأمل الديني من ناحية والتفكير الفلسفي الحر من ناحية أخرى .

أما دور بني الأحمر والحلاء فقد عُرف بحياة الرخاء وحياة القلق ، رخاء داخلي وقلق يبيته في النفوس عدوً متربص شَعَرَ بضعف الفاتحين واستسلامهم فأخذ ينزل بهم النكبة تلو النكبة ، وفي هذه الغمرة أخذت النفوس الحساسة تنشر شعر الأنين حيناً وتجأر بشعر الاستنجاد والصريخ حيناً آخر . وقد نضجت في هذا الدور تلك الفنون الأدبية التي استحدثت في الأندلس من موشحات وأزجال وساعدت أوزانها وتقاسيمها على أن تجد في اللحن والغناء طريق ذيوها وانتشارها بين الناس بعد أن وجد لها الغناء نفسه طريق نشأتها وسبيل بزوغها^(١) .

وقد شهد هذا الدور أعظم محنة نزلت بالعرب على أيدي ملوك الإفرنج وزعمائهم الدينين ، وتجلّت في ألوان من الاضطهاد الديني والقسوة والتعذيب الذي لم ينته إلا بعد أن تمّ الحلاء الأخير سنة ١٦٠٩ م . وكانت دواوين التفتيش التي أنشأها الإفرنج لحوكل أثر للإسلام والعرب ، لطخة عار في تاريخ المدنية . وقد أحرقت تحت تأثير هذه الحملة التعصبية الكتب العربية الكثيرة وأبيدت روائع الفكر الإسلامي وأتلفت آثار العبقريات ، ولولا أن هذه العبقريات العربية كانت أقوى من يد

(١) يرى الدكتور جبرائيل جبور أن اتصال هذه الفنون الجديدة بحياة العامة من سكان الجزيرة الأصليين كان عاملاً على ظهور فن شعري غنائي عند التروبادور Troubadours وليس لدينا ما يثبت هذا القول إلا أنه من الممكن أن يكون التروبادور أنفسهم قد أثروا في نشأة بعض هذه الفنون الشعرية الأندلسية وأثر فيها أيضاً أدب اللغة الرومانية roman نفسها وقد كان معروفاً على حدود الدولة الإسلامية القائمة في إسبانيا .

الإنسان الغاشم لما كنت ترى اليوم ما يشهد على ما شاده الفكر العربى فى بلاد الأندلس من مجد وما مدّ به الحضارة الأوربية والإنسانية من روح أصيل . كل ذلك قد جرى مقابل اللين والتساهل اللذين أبداهما الفاتحون العرب للنصارى واليهود فى الأندلس والتشجيع الذى أغدقوه لنقل العلوم الأجنبية إلى اللغة العربية فى جميع الأمصار التى فتحها العرب .

* * *

وقد شهدت بلاد الأندلس طوال هذه الأدوار مختلف المعارك وضروب المحن والهوى والاضطهاد والتساهل ، وجرى فيها كثير من الاختلاط بين الأجناس والأقوام ، فالعرب الذين تحدّروا إلى الأندلس ، جاءوها بطوائفهم الكثيرة وقبائلهم المختلفة ومواليهم الذين ينتمون إلى شتى الجنسيات فى الشرق ، والبربر إنما نزلوا بها مع الفاتحين ، وامتزجوا جميعاً بسكان الجزيرة الأندلسية وما يجاورها من قوط وإسبان وصقالبة وغيرها من شعوب الفرنجة . ونشأ من هذا الاختلاط أجيال جديدة مولّدة ، لم تتصف بها الأقطار الأخرى التى دخلها العرب فى فتوحاتهم . وسنرى تفصيل هذه العناصر التى كوّنت شخصية الأندلسى .

الفصل الخامس

عناصر الشعب الأندلسي

لدراسة عناصر الشعب الأندلسي^(١) يجب أن نبدأ بعهد الفتح الذي يسوغ الهجرات الأولى التي هي في نظرنا أهم الهجرات ، ثم نستعرض الحوادث السياسية التي كانت سبباً ، في التالي ، لدفعات شعبية نحو الجزيرة من أصل شرقي أو إفريقي . وهذه الدفعات العربية والبربرية لا يمكن تفريقها ، فالحوادث التي سببها مختلطة في تشعبات تاريخ مبدأ الإسلام في إسبانيا .

وما لا شك فيه أن إسبانيا قد فتحت في بادئ الأمر بعون البربر ، بل لعل الحملة الأولى كانت مؤلفة من برابرة فقط كما ذكرنا وكما يؤكد المستشرق ليفي بروفنسال ، ولم يدخل العنصر العربي الجزيرة الإسبانية إلا عند ما قدم إليها موسى ابن نصير ، وبين جنوده العرب عدد كبير من اليمانية والقيسية .

ويظهر لنا أنه بعد أن تم الفتح وعاد طارق وموسى إلى الشرق . بقي الجنود الفاتحون ، خلال السنين الأولى ، في الجزيرة لا يغادرونها ، فأقاموا في هذه البلاد الجديدة وتزوج أكثرهم بنساء الشعب المغلوب وأسسوا أسراً .

ولكن هذه النواة البربرية العربية العسكرية قد تبعها ، خلال القرن الثامن الميلادي ، دفعات أخرى هامة إفريقية وشرقية ، ويظهر أن الولاة الذين كانت تعينهم دمشق لم يحبذوا بادئ الأمر إسكان الجزيرة بالعرب ، ويتراءى من إشارات المؤرخين أن بربر المغرب قد قدّموا الجزيرة مدفوعين بخيراتها . ولكنهم منذ البدء لم يلاقوا استقبالا حسناً ، وهكذا أخذ المغاربة البرابرة يتدفقون نحو الجزيرة ويكوّنون الأكثرية الإسلامية فيها ، واستطاعوا بهذه الكثرة أن يقاوموا العرب ويقوموا بفتن عديدة ، وكانت كل ثورة يقوم بها البرابرة في المغرب تجد صداها في بلاد الأندلس ، وما إرسال جنود بلكج الشاميين إلى بلاد المغرب ومنها إلى الأندلس إلا

لقمع هذه الثورات ، وقد استطاع هؤلاء الجنود الشاميون سحق البرابرة إلا أن خطرهم كان جاثماً .

إن قدوم عبد الرحمن الداخل إلى الجزيرة قد سبب تدفقاً جديداً للعرب نحوها . وقد استدعى إليها عدداً كبيراً من المغاربة المسلمين ، بينهم عدد من البربر لتقوية جنده . ويشير المقرئ إلى أن عبد الرحمن الداخل قد اعتمد على البرابرة في مبدأ حكمه ليقاوم العناصر العربية المناوئة ولكن هذا لم يمنع البرابرة أيضاً من القيام بحركات عصيان . ومهما يكن من أمر فإن اضطراب هذه العناصر البربرية والعربية لم يهدأ إلا عندما استطاع عبد الرحمن الثالث إخضاعهم إلى الطريق السوي ، فأذعنوا عندئذ لهيبة الملك ، وخضعوا للسلطان الذي شاءهم وهكذا نلاحظ أن مجرى الهجرة نحو إسبانيا كان تابعاً للحوادث السياسية لاسيما في العهدين الأولين : عهد الولاة وعهد الإمارة ، وكانت الصبغة البربرية هي الطاغية إلى أن جاء عهد الخلافة .

* * *

يُميز المؤرخون بين العناصر العربية أو البربرية التي جاءت فحلت الجزيرة الأندلسية منذ الفتح وبين العناصر الإسبانية التي اعتنقت الإسلام ، وهذه العناصر الإسبانية المسلمة تسمى ، عند المؤرخين العرب ، بالمسالمة أو بالمولدين . فاسم المسالمة يطلق على الإشبانيين الذين اعتنقوا الإسلام ، واسم المولدين على نسلهم . أما الإشبانيون الذين احتفظوا بدينهم فيسمون بالعجم أي الأغراب أو الأجانب . وكان المولدون يؤلفون زمن الأمويين القسم الهام من شعب الدولة الأموية . لقد اعتنقوا الإسلام بسرعة وأصبح من الصعب ، بعد عدة أجيال مضت ، تمييزهم عن المسلمين الذين جاءوا الجزيرة . وقد أخذ عددهم في الازدياد منذ حكم عبد الرحمن الثاني إذ قد اعتنق في عهده كثير من الإشبانيين الدين الإسلامي ، وكان بينهم من دخل في خدمة العرب المسلمين وأصبحوا موالى لأسيادهم وتلقبوا بألقابهم ، ومنهم من احتفظ باسمه الإشباني ، ومن هذه الأسر الإسبانية التي اعتنقت الإسلام من كانت غنية وقوية لاسيما في إشبيلية التي وجد فيها الإسلام أنصاراً منذ ظهوره في الجزيرة ، ولا شك أن الصلات أصبحت وثيقة بين العرب والمولدين

على أثر الاختلاط والزواج ، ولم يبق بين أكثر العرب من لا يجري في عروقه دم إسباني . وهذا الاختلاط قد كثر زمن الخلافة الأموية ولا سيما في المدن .

هذا وقد قلّ شأن الدور السياسي والاجتماعي الذي لعبته الأسر العربية الكبيرة في مبدأ الاحتلال ، وأخذت هذه الأسر تخضع للنظام الأموي الذي عمّ الجزيرة منذ نهاية القرن التاسع الميلادي .

وعندما حلّ عهد ملوك الطوائف كنت ترى من كان أصله بربرياً ومن كان أصله عربياً ، إلا أن الصفة الأندلسية هي التي كانت تربط العرب بعضهم ببعض ، فهم أندلسيون قبل كل شيء ، ولهذا يجب ألا نتحدث إلا عن طائفة أندلسية وأخرى بربرية وثالثة صقلبية نسبة إلى الصقالبة ، أما الطائفة العربية فهي بالأحرى تلك التي نسميها أندلسية .

وكان من عادة مؤلفي التراجم عندما يذكرون ترجمة رجل عربي أن يأتوا على ذكر نسبه مشيرين إلى اسم الجدد الأول الذي جاء إلى الأندلس ، فيسلسلون نسبه عادة إلى أن يصلوا إلى عهد موسى بن نصير أو يجعلونه منحدرًا من أحد الأشخاص الذين جاءوا مع حملة بلج ، ومن النادر ألا يكون هذا الجدد الأول من رجال ما يسمونه (الطالعة الأولى) أو البلديين أي من رجال حملة الفتح ، أو من رجال (الطالعة الثانية) أي جند بلج أو الشاميين . وقد حافظ عرب إسبانيا على تقسيمهم القبلي حتى جاء المنصور بن أبي عامر ، ويشير المقرئ إلى ذلك فيقول : « وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعماثر والبطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس »^(١) وقد رأينا أن المهاجرين الأولين قد نقلوا معهم نزاعهم القبلي : بين قيسيين ويمانيين ، وعندما هدأ هذا التنافس ، مع الزمن ، لم يمح مع ذلك هذا التقسيم العنصري الذي كان أساساً لكتاب الأنساب الذي ألفه ابن حزم ، وظهر أيضاً في رسالة ابن غالب « فرحة الأنفس » التي يذكرها المقرئ^(٢) والتي تقدّم لنا معلومات قيمة عن أنساب

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٩ - العماثر : ج عميرة وهي الحى العظيم .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٨ .

العرب وقبائلهم التي قطنت الأندلس في عهد الدولة الأموية .
ولكن رسالة ابن غالب لم تشر ، أثناء تعدادها لقبائل العرب وتوزيعهم في
مختلف الأقاليم الأندلسية ، إلى ذكر جند بلج ، هذه الطبقة الشامية الخاصة التي
سكنت الأندلس منذ سنة ١٢٥ هـ ، وتوزعت في الأقاليم الجنوبية ، والتي
نقلت إلى الأندلس التقاليد العسكرية السائدة في الشام . وكان هؤلاء الجند يعيشون
من إقطاعات منحها لهم حكومة قرطبة ، ولهذا كانوا على استعداد لإجابة رغباتها
والدفاع عنها كجندها الخاص ، وقد أقاموا في المدن واستخدموا عمالاً يستثمرون لهم
إقطاعاتهم التي كانوا يعيشون من وارداتها لأنهم لم يعتادوا حياة الزراعة .

وكذلك نزلت هذه النزعة أسرٌ عربيةٌ أخرى تنحدر من رجال (الطالعة
الأولى) أو البلديين ، فكانوا يفضلون سكنى المدينة ، ورأينا معظم الأسر العربية
الأرستقراطية تقطن مدن الأندلس الجنوبية ، بينما تركّ إلى طبقة المولدين استثمار
الأرض ضمن شروط حرة أو مقيدة .

وقد جذبت العاصمة قرطبة خلال القرن العاشر الميلادي كثيراً من الأسر
العريقة لما فيها من مباحج الحياة المدنية .

ولم يكن الأمر كذلك فيما يخص العنصر البربري . فقد فضّلت أقلية ضئيلة
سكنى المدن . هذا ولا نملك مصادر كثيرة تتعلق بسكنى العناصر البربرية القادمة
من إفريقية ، وليس لدينا إلا صفحة من كتاب ابن حزم وبعض الإشارات
الموزعة في تاريخ ابن خلدون . ويجب أن نلاحظ أنه إذا كانت العناصر العربية
قد تركزت منذ القرن التاسع للميلاد في بلاد الأندلس ولم يأتها بعد ذلك إلا دفعات
ضئيلة فإن الهجرة البربرية إلى الأندلس قد امتدت حتى عصر الموحدين . فالسياسة
الإفريقية التي كان يتبعها الخليفة عبد الرحمن الناصر والخليفة الحكم الثاني والمنصور
من بعدهما كانت تساعد هذه الهجرة وتحبذها ، إذ أن خطر الفاطميين جعل
هؤلاء الخلفاء ينتهون إلى تقوية مركزهم بالاعتماد على العناصر البربرية ، ولقد رغبوا
فيها لتقف في وجه الأرستقراطية العربية من ناحية وفي وجه الأرستقراطية الصقلية
من ناحية أخرى .

نعم ؛ لقد جددت هذه الهجرة البربرية التي كثرت خلال آخر القرن العاشر الميلادى وأوائل القرن الحادى عشر - أقول لقد جددت عناصر الشعب الإسلامى ، إلا أنها أدّت إلى كثير من الفوضى والاضطراب وقادت الخلافة إلى الانهيار كما رأينا .

هذا ويشير المؤرخون العرب ولا سيما ابن العذارى إلى أن أكثر المستعمرات البربرية كانت قائمة فى الجبال ولا سيما فى الجبال الجنوبية كفحص البلوط وجبال كرمونا وغيرها وفى المرتفعات الغربية أيضاً .

وقد كانت قرطبة تضم بين سكانها عدداً من البرابرة ، ولكن أكثرهم كانوا موالى للأمرء الأمويين منذ سنين عديدة ، حتى إنهم قد نسوا ، بتأثير اتصالهم الطويل بالحياة المدنية ، كل علاقة تربطهم بأصلهم الإفريقى الجبلى .

ولم يكن الناصر أول خليفة قلد بعض البرابرة القاطنين قرطبة مناصب القيادة العسكرية والإدارة والقضاء ، بل رأينا عدداً منهم قد وصل إلى أمثال هذه المناصب العالية فى عهود أخرى تلت عهد الناصر . وهؤلاء البرابرة الذين تمصّروا هم الذين يشير إليهم ابن حزم فى الصفحة المخصصة لهم فى كتابه الأنساب ، ويؤكد لنا أصل الشاعر ابن درّاج القسطلّى ويقول إنه بربرى ، وابن دراج هذا مع ابن صاعد البغدادى يمثلان البيئة الأدبية فى قرطبة أثناء عهد الخلافة أصدق تمثيل .

الصقالبة :

وهناك طبقة اجتماعية أخرى أخذت تلعب دوراً هاماً فى حياة الأندلس السياسية والاجتماعية ، ولا سيما فى قرطبة ، هم أولئك الموالى المنحدرون من أصل أجنبى ، الذين كان يسميهم العرب الصقالبة . وهذه التسمية التي كانت تدل على الشعوب التي كانت تقطن الأراضى الممتدة بين الآستانة وبلاد المجر بدأت تأخذ معنى خاصاً فى إسبانيا . ويظهر أنها كانت تشمل فى الأندلس الأسرى الذين كانت تأسرهم الجيوش الجرمانية ثم تأتى بهم فتيعهم إلى مسلمى إسبانيا . ولكن فى عصر ابن حوقل ، أى حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى ، كان يُقصد بهذه التسمية

جميع العبيد الأجانب الأوربيين الذين دخلوا في عداد جنود الخليفة ، أو أنهم قبلوا للقيام بخدمات في البلاط . ويؤكد ابن حوقل قائلاً إنه عندما جال في إسبانيا ، زمن الحكم الثاني ، كان أكثر الصقالبة الذين شاهدتهم هناك لا ينحدرون فقط من شواطئ البحر الأسود ، بل هم أيضاً من المقاطعات الإسبانية الشمالية كمقاطعات جليقية Galice وكاتالون Catalogne أى (بلاد الإفرنج) ، ولومبارديا في إيطاليا .

وفي الواقع ، فقد كان أكثرهم أسرى جلسبهم رجال* من القرصان المغاربة أو الأندلسيين أثناء غاراتهم على الشواطئ الأوربية للبحر الأبيض المتوسط ، أما من كان مُعداً لحراسة الحرم في البلاط ، فكان يشتريهم من فرنسا تجار مختصون من اليهود ، وكان لهم في فيردان Verdun سوق خاصة بهم^(١) . وكانوا على الأغلب صغار السن عند مجيئهم إلى الأندلس ، ولكن سرعان ما يتعلمون العربية واللغة الرومانية Roman ويصبحون مسلمين .

وقد أخذ عددهم في الازدياد وبلغوا كما يقول المقرئ في عهد عبد الرحمن الثالث (٣٧٥٠) صقليين* ثم ازدادوا إلى (٦٠٨٦) وارتفع هذا العدد حتى بلغ (١٣٧٥٠) واستطاع فريق منهم أن يتحرر من العبودية ويشغل مكاناً لائقاً في الحياة الاجتماعية ، ومنهم من امتلك الأراضي وأصبح غنياً . وقد تهذبت طباعهم بالاحتكاك بالحضارة الأندلسية فربوا فيهم بعض الأدباء والشعراء والمؤلفين ، وإذا صدقنا ابن الأبار والمقرئ علمنا أن أحدهم ويدعى حبيباً للصقلي قد ألف كتاباً يعدد فيه مناقبهم بعنوان « كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » .

وكلما ازداد عدد الصقالبة ازداد تأثيرهم وقاموا يلعبون دوراً سياسياً هاماً ، وقد بدأوا في عهد عبد الرحمن الثالث بتقلد المناصب العالية في الدولة حتى إنهم قد قلدوا مناصب القيادة العسكرية ، وكان الخليفة يستخدمهم ليضعف من سلطة الأرستقراطية العربية ويحاربها . وهكذا لم يتردد الخليفة الناصر في أن يعهد

(١) هذه السوق يسميها دوزي « مصانع الخصيان Manufactures d'ennuques » .

إلى الصقلي نجدة بقيادة حملة وجهها ضد ملك مقاطعة جليقية الإسباني على الرغم مما أبدته حاشيته من استياء . وقد أظهر خليفة الناصر ، الحَكَمُ الثاني ، كثيراً من التساهل تجاه الصقالبة مما جعل المؤرخين العرب يدهشون لموقفه ، ولا سيما بعد أن أخذوا يمعنون في التكبر والوقاحة . وعندما توفي الحَكَمُ الثاني كان الصقالبة أسياد الموقف . ويشير ابن العذارى في (البيان المغرب) إلى أن عدد الحصيان في قصر الخليفة الحَكَمُ الثاني قد زاد على الألف . وكان حرس مدينة قرطبة بقيادة صقليين ، هما فائق النظامي وجؤذر .

ومجمل القول أن الدور الذي لعبه الصقالبة أثناء ضعف الخلافة الأموية كان شيئاً يشبه الدور الذي لعبه البرابرة ، إذ اشتركوا في جميع المؤامرات التي كانت تحاك في قرطبة ضد الكيان الأموي في نهاية القرن العاشر الميلادي .

* * *

يضاف إلى هذه العناصر الشعبية عددٌ كبير من الإسبانيين الذين لم يعتنقوا الإسلام ، ومن بينهم المسيحيون واليهود . والمصادر العربية التي لدينا عن هاتين الطبقتين قليلة ، بل هي أقل مما نملكه من المصادر عن العناصر الأخرى التي ذكرناها ، ولكن هناك مصادر لاتينية ومصادر عبرانية قد كشفت النقاب عن كثير من الأمور المتعلقة بحياة هاتين الطبقتين^(١) .

وقد بدأ ، منذ خمسين سنة ، اهتمام المؤرخين بالعناصر المسيحية التي كانت تقطن الأندلس ، وأخذ يسند إليها دور هام لعبته في الحياة الاجتماعية الأموية . ولكن بعض هذه الأبحاث التي كتبت في هذا الصدد لا تخلو من التحزب ولا سيما عند ما يولون هذه العناصر مكانة تفوق مكانتها والدور الذي لعبته .

(١) هناك مصدر لاتيني هام للمؤلف Simonet عن تاريخ مسيحي الأندلس ، ويسميه المؤلف

باسم الـ Mozarabes هو : Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid 1903

أما المصدر العبراني فهو للمؤلف Groetz ترجمة Stenne وعنوانه :

Les Juifs d' Espagne, Paris 1872

وقد أصبح هذا المرجع اليوم قديماً في نظر المؤرخين .

ومهما يكن من أمر فإن عدد الذميين كان كبيراً وكانوا على جانب من الانتظام أكثر مما كانوا عليه في أية بقعة إسلامية أخرى . وقد جرى بينهم وبين الفاتحين من الاختلاط والتأثير المتبادل الطويل ما لم يجر مثله في أى صقع إسلامي آخر . وقد أظهر الإسلام تجاههم كثيراً من التساهل على خلاف ما عاملوا به العرب الفاتحين عند ما زال سلطان الإسلام من تلك البلاد .

هذا وقد كانت هذه العناصر المسيحية مراكز للمقاومة الوطنية التي تحاك ضد الفاتحين ، ولئن كان المسلمون قد أخمدوا حركاتهم الثورية بشيء من القسوة أحياناً ، إن الدافع إلى هذه القسوة كان سياسياً لا دينياً .

وكذلك فقد كان العنصر اليهودي كبيراً في الدولة الأموية ، وقد استقبل هذا العنصر الفاتحين العرب كمحررين لأن القوط كانوا يسمون اليهود أنواع العذاب ولهذا فقد قدموا للعرب المساعدة ، وفي القرن العاشر الميلادي كانت قرطبة أكبر مدينة إسبانية تضم يهوداً ، وكانوا يمتنون تجارة العبيد وبيع أدوات الزينة . وقد تقلب بعضهم في مناصب الدولة ولا سيما في عهد الناصر ، أما في عهد المرابطين والموحدين فقد نالهم العذاب .

* * *

هذا الاستعراض لمختلف العناصر الجنسية التي تألفت منها الدولة الأموية يبين لنا كيف كانت هذه الدولة مزيجاً متبايناً من عناصر تختلف في العرق وفي الدين وفي الأهواء والغايات . وقد أدى هذا المزيج إلى أن تتصف الدولة بصفة خاصة تتميزها عن باقي الدول الإسلامية . ولهذا كان الشاغل الأول الذي يشغل حكامها وخلفاءها هو أن يحققوا ، ضمن هذا المزيج ، وحدة تستند قبل كل شيء إلى القوة ، وأن يمنحوا دولتهم بناءً متيناً يشبه بناء الخلافة الشرقية في أوج مجدها أو بناء الدولة الفارسية أو البيزنطية ، آخذين بعين الاعتبار العناصر المختلفة التي يجب أن تبقى دائماً في خضوع تام للسلطة الحاكمة . وقد استطاع هؤلاء الحكام أن يحققوا الغاية التي يرمون إليها خلال قرن من الزمن يمكن اعتباره عصر الأندلس الذهبي . ولكن

عند ما بدأ يضعف السلطان الأموي وتظهر الرغبات الكامنة في قلوب هذه العناصر المختلفة ، أخذ ذلك البناء الذي شاده عبد الرحمن الثالث بحزمه وقوته يتأرجح شيئاً فشيئاً ، حتى جاءت الفتنة إثر الفتنة ، وكان هذا الاختلاف الجنسي من أعظم الأسباب التي أزلت مُلْكَ الإسلام في الأندلس .

الفصل السادس

شخصية الأندلسي

هل يمكننا أن نتكلم عن مجتمع أندلسي ؟ للإجابة عن هذا السؤال يجب ألا ننسى ما قلناه سابقاً عن العناصر المختلفة التي تؤلف الشعب الأندلسي ، وعلى رغم اختلافها وتعددتها الظاهر فقد تركت في الأندلسي صفات مشتركة استطاعت أن تمنحه شخصيةً خاصةً به ؛ فالطبيعة نفسها فرضت سلطانها في تكوين هذه الشخصية ، والاختلاف العنصري نفسه لعب أيضاً دوره في تكوين هذه الشخصية ، إذ — سواء أكان الأندلسي عربياً أم بربرياً ، أم صقليياً ، أم إسبانياً — محافظاً على دينه — كنت تراه يتميز بصفات لا تجدها عند هذه العناصر التي بقيت خارجة عن محيط الأندلس . ولكن هذه الشخصية لم تكن لتستدعي أن تمحو كل الصفات الأخرى التي تميز العربي عن البربري وعن الصقلي وعن الإسباني ، كما يريد أن يعتقد به المستشرق هنري به رس^(١) . فالشخصية الأندلسية إذاً موجودة ضمن هذا الاختلاف العنصري ، ومما لا شك فيه أن ظواهر هذا الاختلاف نقل عند ما ننظر إلى الشعر الأندلسي من خلال الطبقات التي يتألف منها ، فالطبقة الأرستقراطية مثلاً أو طبقة الحكام قد تجمعها صفات واحدة على رغم اختلاف العناصر الجنسية التي تتألف منها . وكذلك الطبقات الأخرى المتوسطة أو الدنيا التي تشمل سائر غوغاء السوق . ومن المفيد أن نشير إلى أن لسان الدين بن الخطيب قد نظر إلى الشعب الأندلسي هذه النظرة أي من خلال الطبقات التي يتألف منها ولم يهتم كثيراً بالفوارق العنصرية ، وقد عدّ المستعربين أي الإسبانيين الذين حافظوا على دينهم والذين نسميهم : (Mozarabes) عدّهم من طبقة الأشراف . ونجد تقسيمه هذا في كتاب « أعمال الأعلام » عند كلامه على

حكم هشام المؤيد^(١).

بعد هذه الملاحظات يمكننا أن نتكلم على صفات الأندلسي ، وقد أشار إليها كثير من المؤلفين العرب :

فابن غالب في رسالته « فرحة الأنفس » التي يذكرها المقرئ^(٢) يصف لنا الأندلسي رجلاً مهتماً بلباسه وهندامه وطعامه محباً للهو والغناء والموسيقى ، ونجده أيضاً ، إلى جانب هذه الحياة اللاهية ، حسن التدبير محباً للعلوم والفلسفة والعدالة . نعم إن الذي لا شك فيه أن الأندلسي قد تمتع بصفات تنحدر من باخوس (Bacchus) إله الخمر واللهو كما تنحدر من أبولون (Apollon) إله الفن والشعر ، ولهذا فليس عجباً أن نراه محباً للفن شاعراً ولاهياً عابثاً ثم بعد هذا منصرفاً إلى التفقه في العلوم والتشريع والدين والفلسفة بتأثير الدافع الإسلامي وحب التأمل وفهم أسرار الحياة . وقد عدّ ابن غالب من فضائل الأندلسيين اختراعهم للموشحات التي استحسناها أهل المشرق وصاروا يترعون منزعها .

هذا وابن غالب لا يكتفى بذلك بل يحاول أن يجد بين الأندلسيين والشعوب الأخرى بعض المشابهات فيقول : « أهل الأندلس عربٌ في الأنساب والعزة والأثقة وعلو الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما في أيديهم ، والتزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية ؛ هندیون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحُبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم ، يونانيون في استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب القراصات واختيارهم لأجناس الفواكه وتديبرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة^(٣) » .

مما لا شك فيه أن هذه الأقوال التي تصف الأندلسي تميزه بأمور لا نجدها عند عربيّ البادية ، ولا شك في أن للطبيعة الأندلسية أثرها في صقل هذه الشخصية

(١) نشر المستشرق ليبي بروفنسال هذا الكتاب سنة ١٩٣٤ في مدينة الرباط .

(٢) نفح الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ - ٧٦٤ .

(٣) نفح الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ .

وجعلها تتلاءم مع الأرض والمحيط ، ولكن لا يجب أن نرى فيها ما يحمل على الاعتقاد مع هنرى به رس أن الأندلسى شخصية قطعت صلاتها بأصلها وجنسها ، وإنما هى شخصية عرفت التلاؤم مع المحيط بل عرفت أن تعيش فيه . وإذا كنا نراها بعيدة فى نمط عيشها عن نمط عيش البدوى فما ذلك إلا لاختلاف الحياتين . ولكن وسائل التعبير بقيت هى هى ، وبقي الأندلسى ينظر إلى عبارة الشرق وأسلوب المشاركة وحياتهم الفكرية نظرة مثالية فيها كثير من الشوق وكثير من العز وكثير من الرغبة فى عدم الابتعاد عن تقاليدهم المرسومة كما سئرى .

هذا ونرى ابن حزم يحدو حدو ابن غالب فى وصف الأندلسى فيجد فيه من المزايا ما تقربه من شعوب أخرى فيقول : « إن أهل الأندلس صينيون فى إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ، تركيئون فى معاناة الحروب ومعالجات آلاتها والنظر فى مهماتها » (١) .

وإذا كانت هذه المقارنات توحى إلى نفوسنا ببعض الفكر الصحيحة عن صفات الأندلسى فإنها لا تصل إلى تعريفه تعريفاً صادقاً . ونشعر حقاً أن اللعب بالألفاظ قد يطول ، إذ أنها تستند إلى ضروب البيان والبلاغة والمدح أكثر من استنادها إلى علم الاجتماع . والأدب العربى حافل بأنواع هذه المشابهات وهذه الأوصاف التى لا يتردد الأدباء فى منحها لفريق دون فريق ، وقبيلة دون أخرى أو شخص مفضل دون آخر .

هذا وقد وصف اتترى أيضاً أهل الأندلس بصفات خاصة وامتدح ظرفهم وأدبهم وقال إن فيهم صفات متأصلة تميزهم عن غيرهم ويتناقلها أولادهم وعلمائهم وكبرائهم . لامراء فى أنه من العبث أن نحاول فى كلمات محدودة تعريف الأندلسى المسلم ، ولكن جميع الصفات التى وردت فى الأقوال السابقة لا يمكن إهمالها

(١) نفح الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ . فى الصفحات التالية من نفح الطيب نجد نص رسالة لابن حزم كتبها ردأ على أبى الحسن بن محمد بن الربيب التميمى القيروانى الذى ذكر تقصير أهل الأندلس فى تخليد أخبار علمائهم وسير ملوكهم فأجابه ابن حزم داحضاً مزاعمه ومشيراً إلى من ألف فى تخليد أخبار علماء الأندلس وما أثرهم فى رسالة قيمة تذكر لنا أسماء طائفة من العلماء مع مؤلفاتهم وتطلعنا على مظاهر من مظاهر الحركة العلمية والأدبية فى ذلك العصر .

عندما نرغب في تعريفه ، وهي تثبت أن الأندلسي ، في نظر المؤلفين العرب ، لم يكن عربياً صرفاً؛ إنه عربي وشيء آخر اكتسبه من الحياة الجديدة التي عاشها؛ ولذلك يحاول هؤلاء المؤلفون أن يجدوا بينه وبين الشعوب الأخرى بعض الصفات التي تقربه منهم ، فالاختلاط والحياة الجديدة والأصل العربي ، بل الحياة العربية التي تملأ تخيلته ، هي عناصر ثلاثة كوَّنت الأندلسي المسلم في الجزيرة الإسبانية . نعم إنه أندلسي ولكن عند قراءة آثاره ولا سيما شعره لا نستطيع أن نتكر أصله العربي وصفته الشرقية ، فقد بقي هذا الأندلسي شقيقاً في تفكيره شقيقاً في أسلوب تعبيره إلى جانب بعض المميزات التي لا يمكن الفرار منها والتي هي ناجمة عن اختلاف المحيط الجغرافي والإنساني . لهذا نحن لا نستطيع أن نقول مع هنري به رس إن الأندلسي المسلم هو امتداد عنصري للشعوب الأصلية التي سكنت الجزيرة الإسبانية ، إن مثل هذا الحكم الجازم لا نستطيع أن نوافق المستشرق عليه ، ولا نستطيع الآثار نفسها أن توافقه على ما زعم . بقي علينا أن نعلم ما إذا كان هذا الأدب هو ظل للأدب الشرقي ، وهذا ما سنراه في الفصول المقبلة ، وسنرى أنه ظل لشرق وحقيقة لأندلس .

الفصل السابع

سمات العصر الأندلسي في السياسة والاجتماع والفكر

يتصف العصر الأندلسي بصفتين متناقضتين هما : التعصب والاستبداد من ناحية ، والتساهل والحرية من ناحية أخرى .

أما التعصب فلم يكن على درجة واحدة وقوة واحدة في مختلف الأدوار التي مر بها هذا العصر . ولقد كان لوجود المسلمين في بقعة تتاخمها النصرانية ويتناصبهم أهلها العداء أثر كبير في إذكاء الشعور الديني في نفوسهم ، وقد ساعد الفقهاء في دعم هذا الشعور وتقويته لما لهم من نفوذ ديني .

ولكن هذا التعصب الذي كان خيراً في سبيل دعم القوة الإسلامية ضد أعدائها ، كان في الوقت ذاته شراً على الحرية الفكرية عند المسلمين أنفسهم . وذلك أن الفقهاء ، حرصاً منهم على سيادتهم ، كانوا يثيرون العامة في كثير من الأوقات على المفكرين والفلاسفة ومنّ نظروا في أمور الدين والشرع والسنة ، ولا يحجمون عن أن يطلبوا من الخلفاء أنفسهم أن يمعنوا في التضييق على رجال الفكر . ولهذا كنت ترى عامة الشعب ، تحت تأثير دعوة الفقهاء ، ساحطين على الفلاسفة الذين كان ينظر إليهم أحياناً كزنادقة وملحدين . وكان من الطبيعي أن تروج الدسائس والسعايات في مثل هذا الجو ، وأن يلقى المفكرون العنت والشر فيعمد الخلفاء أحياناً في سبيل التودد إلى الفقهاء والعامة إلى حرق كتبهم واضطهادهم . فقد نكّب ابن رشد وأصحابه ونُفي ابن هاني عن الأندلس ، وامتدت النقمة إلى الوزراء والقضاة فنالهم السجن والاضطهاد كابن زيدون وابن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

ولئن كانت الصفة الغالبة هي التعصب ؛ لقد كانت تمر فترات يأتى فيها ملوك عادلون ينتصرون لحرية الفكر دون أن يثيروا الفقهاء كما كان الشأن زمن الموحدين حيث انتعشت الفلسفة وقلت الوشايات ذات الصبغة الدينية .

إلى جانب هذا التعصب الديني الذي كان يكمن الأفواه ، كنت ترى حياة الدعة والتساهل منتشرة ، فقد كانت الحياة الخاصة متعة متصلة الحلقات ، وهنا تبدو الحرية ما دامت لا تتصل بأمور السياسة والدين والحكم ولا تتصدى للمصالح الذاتية ، ولهذا كنت ترى الأندلسي يتهتك دون وازع ، وقد انغمس الشعراء والكتاب في حمأة الدعارة ونطقوا ألسنتهم بأفحش الأقوال ، وامتدت هذه الحرية إلى الملوك فرأيتهم يرخون العنان للهوهم وطربهم واللهو الناس وطربهم ، ما دام هذا اللهو وهذا الطرب لا يمسان الدين الذي له حرمة في النفوس . فانتشرت الخلاعة وعمت مجالس اللهو وساءت الأخلاق وكان ضرر هذا التسامح أبلغ أثراً من ضرر التعصب ، إذ قد أفسد النفوس فاستسلمت للراحة والدعة وهان عليها أن تقبل الصدمات والذل ولا تثور لكرامتها فبقيت خانعة باكية معولة تحن إلى مجد آفل وعز سليب .

ومن أمثلة هذه المجالس اللاهية ما يرويه لنا ابن خاقان في المطمح عن مجلس مُرَج فيه الجحد بالهزل قد أقامه الوزير أبو عامر بن شهيد^(١) في ليلة سبع وعشرين من رمضان في هذه الليلة المباركة التي يجب أن ينقطع فيها الإنسان إلى التهجذ والعبادة: قال الفتح بن خاقان : « وأخبرني الوزير أبو الحسين بن سراج وهو بمنزل الوزير أبي عامر بن شهيد ، وكان من البلاغة في مدى غاية البيان ، ومن الفصاحة في أعلى مراتب التبيان ، وكنا نحضر مجلس شرايه ، ولا نغيب عن بابه ، وكان له بيباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ، ولا يخليه عن نثر درره وأزهاره ، فقعده فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان في لُمة من إخوانه ، وأئمة سلوانه ، وقد حَقُّوا به ليقطفوا نخب أدبه ، وهو يخلط لهم الجحد بهزل ، ولا يفرط من انبساط مشتهر ولا انقباض جنزل ، إذا يجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواربها ، من يسترها ويواربها ، وهي ترتاد موضعاً لناجاة ربها وتبتغي منزلاً لاستغفار ذنبها ، وهي متتعبة ، خائفة ومن يرقبها مترقبة ، وأمامها طفل لها كأنه

(١) من شعراء الدولة العامرية ، ولد سنة ٣٨٢ هـ وتوفي بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ .

غصن آس ، أو ظبي يمرح في كناس ، فلما وقعت عينها على أبي عامر ولتت
سريعة ، وتولت مَرُوعَة ، خيفة أن يشببها ، أو يشهرها باسمها ، فلما نظرها ،
قال قولاً فضحها به وشهرها :

وَنَاطِرَةٌ تَحْتَ طَىِّ الْقِنَاعِ	دَعَاها إِلَى اللَّهِ لِلْخَيْرِ دَاعٍ
سَمِعَتْ خَفِيَّةً تَبْتَغِي مَنَزَلاً	لِوَصْلِ التَّبَتُّلِ وَالْإِنْقِطَاعِ
وَجَالَتْ بِمَوْضِعِنَا جَوْلَةً	فَحَلَّ الرَّبِيعُ بِتِلْكَ الْبِقَاعِ
أَتَنَّا تَبَخَّرُ فِي مَشْيِهَا	فَحَلَّتْ بَوَادٍ كَثِيرِ السَّبَاعِ
وَرِيعَتْ حَذَارًا عَلَى طِفْلِهَا	فَنَادَيْتُ يَا هَذِهِ لَا تُرَاعِي
غَزَالُكَ تَفَرِّقُ مِنْهُ اللَّيْثُ	وَتَنْصَاعُ مِنْهُ كُماةُ الْمَصَاعِ
فَوَلَّتْ وَلِلْمَسْكِ مِنْ ذَيْلِهَا	عَلَى الْأَرْضِ خَطٌّ كَظْهِرِ الشُّجَاعِ

وهذا أبو القاسم بن العطار أحد أدباء إشبيلية ونحاتها ، كان رجلاً مستسلماً
إلى الصباية ، كما يقول الفتح بن خاقان في قلائده ، لا يحفل بلام ولا ينتقل عن
المدام ، فلنسمعه يتغزل بهذه الأبيات الرقيقة :

هَبَّ النَّسِيمُ مَعَ الْعَشَى فَشَاقَنِي	إِذْ كَانَ مِنْ جِهَةِ الْحَبِيبِ هُبُوبُهُ
قَدْ كُنْتُ وَدَعْتُ الصَّبَابَ وَدَاعِهِ	وَأَخُو الصَّبَابَةِ لَا تَفِيقُ نُدُوبُهُ
فَدَعَا الْهَوَى لِي دَعْوَةً لَمْ أَغْصِهَا	وَالصَّبُّ رَاحَةُ قَلْبِهِ تَعْذِيبُهُ
لَوْ لَمْ أَجِبْ دَاعِيَ الْهَوَى وَعَظْمِيَّتُهُ	لَغَدَّتْ جَفُونِي بِالْدموعِ تُجِيبُهُ

ومن مظاهر هذه الحياة الالهية أيضاً علاقة الشعراء وغير الشعراء بالمسيحيين
والمسيحيات من سكان الأندلس ، وعندما يحدثنا الشعراء عن هذه العلاقات ،

لا يكتفون بتصوير الجانب اللاهى من الحياة الأندلسية وإنما يقدمون لنا معلومات ذات قيمة عن حياة هؤلاء المستعربين Mozarabes وعن لباسهم وأزيائهم ، وعن الحرية التى كانوا يتمتعون بها فى قيامهم بشعائهم الدينية وعن اختلاط المسلمين الأندلسيين بهم اختلاطاً كبيراً ، فقد ذكر ابن خاقان فى المطح (١) « أن أبا عامر بن شهيد قد بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة وقد فُرِشتْ بأصغاث آس ، وعُرِشت بسرور واستثناس ، وقَرَعُ النواقيس يُبْهِجُ سَمْعُهُ وِبرقُ الحُمَيْمِ يَسْرَحُ لَمْعُهُ ، والقَسُّ قد بَرَزَ فى عِبدَةِ المسيح ، متوشَّحاً بالزنانير أبدعَ توشيح ، قد هجروا الأفراح ، واطرَّحوا النعمَ كلَّ اطرَّاح :

لا يَعمَدُونَ إلى ماءٍ بآنيةٍ إلا اغترافاً من الغدران بالراح

وأقام بينهم يرشف حمىً ، كأنما يرشف من شفةً لمياً ، وهى تَنفُحُ له بأطيب عَرَف ، كلما رشفَ أعذبَ رَشَف ، ثم ارتجل بعدما ارتحل ، فقال :

وَلَرُبَّ حَانٍ قَدْ شَمَمْتُ بِدَيْرِهِ	خَمَرَ الصَّبَا مُزِجَتْ بِصِرْفِ عَصِيرِهِ
فى فتيةٍ جَعَلُوا السُّرُورَ شِعَارَهُمْ	متصاغرينَ تَخَشُّعاً لِكَبِيرِهِ
وَالْقَسُّ مِمَّا شَاءَ طَوَّلَ مُقَامِنَا	يَدْعُو بِعُودِ حَوْلِنَا بَزْبُورِهِ
يَهْدِي لَنَا بِالرَّاحِ كُلَّ مَصْفَرٍّ	كَالْخَشْفِ خَفَرَهُ التَّاحُ خَفِيرِهِ
يَتَنَاوَلُ الظُّرْفَاءُ فِيهِ وَشُرْبُهُمْ	أَسْلَافُهُمْ وَالْأَكْلُ مِنْ خِنْزِيرِهِ

هذه الأبيات الصريحة التى لا يستبعد أن تكون صراحتها مقصودة تشير إلى

أكثر مما أشار إليه المستشرقون عندما ذكروها فى مؤلفاتهم . ورسالة ابن عبدون (٢)

(١) ص ٢١ .

(٢) تبحث هذه الرسالة عن الحياة المدنية والمهن فى إشبيلية فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى .

نشرها المستشرق لى برونسالى سنة ١٩٣٤ فى الجريدة الآسيوية (عدد : نيسان - حزيران) .

تثبت لنا أن هناك امتزاجاً شديداً بين الأندلسيين والمسيحيين المستعربين مما يؤيد أن الصورة التي يقدمها أبو عامر بن شهيد في الأبيات السابقة ليست على صراحته كثيرة المبالغة .

هذا عدا مشاهد الحب التي كان يصورها الشعراء والتي كانت ترسم لنا علاقات الأندلسيين بالمسيحيات والمستعربات ، وهي علاقات ما كانت لتقتصر على الطبقات العليا بل نجدتها في مختلف طبقات الشعب الأندلسي ولا سيما الطبقات الوسطى والدنيا . فالشاعر الرمادي^(١) يشير إلى نوع من العلاقات الماجنة بشيء من الصراحة أحياناً ، فيقول مخاطباً الساقى النصراني :

أَدْرِهَا مِثْلَ رِيْقِكَ ثُمَّ صَلِّبْ كَعَادَتِكُمْ عَلَى وَهْمِي وَكَاسِي
فَقَضَى مَا أَمَرْتُ بِهِ اجْتِلَاباً لمسرورى وزادَ خُنُوعَ رَاسِي^٢

ويقول في مكان آخر :

قَبْلَتُهُ قُدَّامَ قِسِّيْسِهِ شَرِبْتُ كَاسَاتٍ بِتَقْدِيسِهِ
يَقْرَعُ قَلْبِي عِنْدَ ذِكْرِي لَهُ مِنْ فَرَطٍ شَوْقِي قَرَعَ نَاقُوسَهُ^٣

* * *

وإذا كان الشعراء قد تعيبروا في حُبهم وذكر علاقاتهم بالأوساط المسيحية فهناك آخرون قد أظهروا لنا وجهاً عفيفاً محبباً لهذا الاختلاط ، كما فعل أبو عبد الله بن الحداد^(٤) أخذ شعراء بلاط المرية زمن المعنصم بن صمادح ، وإذا ما تلونا أشعاره التي نجدتها في الذخيرة والتي تصور لنا حبه لأولئك النصرانيات كحبه لنُويْرة ،

(١) هو أبو عمر يوسف بن هارون المعروف بالرمادي ، شاعر قرطبي مجيد ، سريع القول ، عاصر المتني ، توفي سنة ٤٠٣ هـ .

(٢) المطمح ص ٨٠ . نفح الطيب ج ٥ ص ١٨٠ (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد) .

(٣) المطمح ص ٨٣ .

(٤) توفي هذا الشاعر سنة ٤٨٠ هـ .

أقول إذا تلونا هذه الأشعار شعرنا بنفحة عذرية بدا مثلها فيما بعد على أشعار التروبادور . وأشعار ابن الحداد لها فائدة أخرى فهي تمنحنا صورة واضحة عن طريقة إحياء المسيحيين والمسيحيات لشعائهم الدينية كما كانت معروفة عندهم . ولعلنا ، ونحن نرغب أن نعرض وجهاً من وجوه حياة الأندلس اللاهية التي امتاز بها العصر ، قد استطعنا أن نبين لكم مدى الاختلاط الذي نشأ بين الأندلسيين المسلمين والإسبانيات اللواتي حافظن على دينهن ، ولا شك أن الأثر الذي تركه هذا الاختلاط في الشعر والأدب لا يمكن نكرانه .

* * *

والآن يجدر بنا ، كخاتمة لهذا الباب ، أن نلم بوصف مجمل لإدارة المجتمع الأندلسي والحياة العقلية فيه .

إدارة المجتمع الأندلسي :

من الكتب القيمة التي تصف الحياة الاجتماعية الأندلسية ومنظمتها السياسية والإدارية والقضائية كتاب المستشرق ليفي بروفنسال المسمى (إسبانيا المسلمة في القرن العاشر الميلادي) (١) . لقد خصَّ المستشرق بحثه في هذا الكتاب بالقرن العاشر الميلادي إلا أن ما جاء فيه يمكن أن ينطبق على سائر العصور التي مرت بالأندلس بعد السنين الأولى من الفتح ؛ فما هي أبرز صفات هذه الحياة الاجتماعية التي كانت مسرحاً لحياة عقلية خصبة ؟

كانت السلطة العليا في الأندلس في مختلف العهود السياسية التي مرت بها بيد الأمير أو الخليفة . وكان يساعده في أمور المالية والأعمال الخارجية ورفع المظالم (القضاء) والإدارة الحربية أربعة وزراء ، وكان له مستشاران يسميان بالوزيرين ، وكثيراً ما كان يطلق على كل منهما اسم ذى الوزارتين ، وكان لكل مصلحة في الدولة كُتَّاب مختصون بها ، ككُتَّاب الرسائل وكُتَّاب الذمام الذين ينظرون في شئون أهل الذمة . وكان يتوسط نقل الأوامر بين الخليفة والوزراء رجل يسمى

(١) أشرنا إليه سابقاً ، واسمه بالفرنسية

بالحاجب صارت وظيفته فيما بعد أعظم من وظيفة الوزير ، وقد استبد بعض الحجبّاء بالخلفاء كما فعل الحاجب المنصور ، وكثيراً ما كان يتسابق ملوك الطوائف إلى أخذ هذا اللقب ، وكان في كل مدينة قاض وكان قاضى الجماعة أى قاضى القضاة يقيم في قرطبة ، ولا يشغل مناصب القضاة سوى أكابر العلماء والفقهاء .

وكان إلى جانب وظيفة القضاء وظيفة العدالة ويقوم صاحبها بتسجيل العقود والاتفاقات ، وكان يعهد بحفظ النظام والأمن إلى رئيس الشرطة ويعتبر منصبه من أعظم المناصب القضائية والإدارية . ويقوم المحتسب على شئون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراقبة الأسواق ، ومن خصائصه مطاردة المنكرات والتأديب والعمل على احترام الأحكام الشرعية وقمع الغش والاختلاس في المعاملات . وكان للأندلس في عهدها الزاهر أسطول قوى كان يسمى قائده بأمير الماء ، ووضعت أنظمة للجيش متأثرة بأنظمة الإفرنج وبضرورات الحياة التي كانت تحيط بالأندلسيين . وكان إلى جانب الطبقة الحاكمة طبقة الفقهاء التي كان لها نفوذ واسع حاولت كثيراً أن تستغله في السياسة وتدير الملك ، وفي القضاء على الروح العلمية والثقافية بل كثيراً ما دبّرت الثورات لقلب الحكم كما أشرنا إلى ذلك سابقاً^(١) .

وقد ساعدت تنحية العرب عن الجيش في زمن عبد الرحمن الداخل على وجود طبقة الجنود المتطوعة من بربر وصقليين ، فقامت بنصيبها الكبير من الفتن ، بل إن طبقة الحصيان والموالى أصبحت في عهود ضعف الدولة تتصرف في شئون الخلافة والملك كما ذكرنا . وقد ضعفت الروح الحربية عند العرب كما ضعف الروح الاجتماعى وتدهورت الأخلاق وساعد الغنى ونحسب البلاد على انصراف الناس إلى اللهو والملاذات كما قلنا ، وظهر فيهم شعور الأثرة حتى استنجد المسلمون بالفرنجة أعدائهم . ونشأ من بين العرب أنفسهم طبقة الزراع والتجار والصناع الذين قاموا بنصيبهم في رقى الأندلس وحضارتها ، أضف إليهم طبقة الموالى المؤلفة من الإيبانيين وغيرهم الذين دخلوا في الإسلام . وطبقة اليهود الذين كانوا منتشرين في إسبانيا .

(١) انظر ص ٢٧ و ٤٧ من هذا الكتاب .

ويجب ألا ننسى عاملاً اجتماعياً هاماً ساعد على تقويض الأندلس وضعف الروح الحربية في الأندلسيين وميلهم إلى الترف وهو تزوجهم أو تسريحهم بالقوطيات (الإسبانيات) اللاتي أضعفن روح العروبة في أبنائهن كما بدا لنا ذلك أثناء البحث عن عناصر الشعب الأندلسي .

وقد انتشرت في الأندلس روح الفتوة التي سادت بنفس الوقت لدى الإسبانيين والغربيين قاطبة وكانت لها قوانين متبعة وأصول مقررة إذا خالفها الفارس أدخل بشرفه .

وقد بقيت الفروسية الأندلسية عصوراً تجذب الأنظار إليها باكتماها وروعها إلا أنها لم تستطع أن تذكى في نفوس أكثر العرب روح الحرب لانصرافهم عنها إلى اللهو والرخاء ، وظلت على الأكثر مظهراً من مظاهر المباهج والتسامح . وقد كثر الشغف بالفروسية في حكم دولة بني الأحمر وكانت مبارياتها وحفلاتها من أجمل المباهج العامة التي تجرى في غرناطة . وكثيراً ما اجتمع فيها الفرسان المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ويسوون منازعاتهم . وكان من أهم مميزات هذه الحفلات اختلاط الجنسين ، فكان نساء غرناطة ، البارعات في الحسن والأناقة ، يشهدن هذه الحفلات وغيرها من المحافل العامة سافرات ، ويخلعن عليها جواً من السحر والروعة ينم عما كن يتمتعن به من الحرية^(١) .

(١) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٣٣١ .

الحضارة الأندلسية والحياة الفكرية

عرفت الحضارة الأندلسية تطورات مختلفة ، متبعة تطور تاريخ الأندلس السياسى . فقد وصلت هذه الحضارة إلى ذروة القوة فى عهد الخلافة الأموية أيام حكم عبد الرحمن الناصر وولده الحكم ولكنها لم تصل إلى ذروة نصجها الفكرى ، ولما أنهارت الخلافة الأموية وسادت الفوضى أرجاء الأندلس فى عهد الفتنة ذوت الحضارة الأندلسية ونجبت مظاهرها العمرانية والفكرية حتى جاءت دول الطوائف فاستطاعت على رغم تطاحنها أن تعيد بهاء الحضارة الأندلسية فى قصورها ومنشآتها ومجتمعاتها ، وسطعت شمس الأدب والفكر ، وعرفت الأندلس فى هذه الحقبة المضطربة من تاريخها طائفة من أعظم مفكرىها وأدبائها وشعرائها أمثال الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ والمؤرخ ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩ هـ والشاعر ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٢ هـ والشاعر الأديب ابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ وغيرهم من المفكرين والأدباء والشعراء الذين ذكرهم ابن خاقان فى « قلائد العقيان » والمقرئ فى « نفع الطيب » . بل إن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا — كما قدمنا — فى طليعة الأدباء والشعراء ، كالعالم عمر بن الأفطس صاحب بطليوس ، والمعتضد والمعتمد صاحبى إشبيلية ، والمعتصم بن صمادح صاحب المرية .

ولكن هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ما عتمت أن توقفت عقب تضعضع دول الطوائف واستيلاء المرابطين على الأندلس سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، فقد كان هؤلاء المرابطون ، كما ذكرنا^(١) ، شديدى التعصب ، قساة غلاظاً ، ألقوا الحرب والحشونة فلم تجد دولة الفكر والأدب فى ظلهم مرتعاً خصباً . نعم لقد تألفت فى عهدهم القصير بعض الأسماء اللامعة أمثال الطبيب أبى القاسم خلف بن عباس القرطبي^(٢) والفيلسوف ابن باجة^(٣) والفتح بن خاقان^(٤) وابن بسام^(٥) صاحب

(١) انظر ص ٢٦ ، ٣٢ من هذا الكتاب . (٢) توفى سنة ٥١٦ هـ .

(٣) توفى سنة ٥٢٣ هـ . (٤) توفى سنة ٥٣٥ هـ .

(٥) توفى سنة ٥٤٢ هـ .

كتاب « الذخيرة » ، وابن قزمان^(١) صاحب الأزجال الشهيرة ، ولكن ظهورهم وأضرابهم في هذه الفترة لم يكن إلا امتداداً للنهضة الفكرية التي ازدهرت في عهد ملوك الطوائف .

ثم جاءت دولة الموحدين ، فانتعشت الحضارة الأندلسية ونشطت حركة التفكير . لقد نشأ الموحدون كالمرابطين في مهاد الحشونة والتقشف ولكنهم كانوا أوسع أفقاً ، وكان مؤسس دولتهم المهدي بن تومرت من أئمة التفكير الديني . وأظهر خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون ، وأطلقت حرية التفكير والبحث بعد أن قيدت في عهد المرابطين وأفرج عن كتب الغزالي وغيره من مفكرى المشرق ، وكانت قد كوفحت ومنعت في أيامهم بالمغرب والأندلس . وفي هذه الفترة ، أى في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، بلغت النهضة الفكرية في الأندلس ذروة نضجها وظهرت طائفة من أقطاب العلم والأدب ، وفي طليعتهم أبو جعفر بن الطفيل الإشبيلي صاحب رسالة « حى بن يقظان » المتوفى سنة ٥٧١ هـ والفيلسوف ابن رشد القرطبي المتوفى سنة ٥٩٤ هـ ، والرئيس موسى بن ميمون القرطبي المتوفى سنة ٦٠٢ هـ وكان يهودياً وهو من أشهر الأطباء والفلاسفة في عصره .

وقد كان ابن رشد أعظم فلاسفة الإسلام ومفكره في ذلك العصر ، ومن أهم آثاره شروحه لفلسفة أرسطو في المنطق وما وراء الطبيعة ، وقد ترجمت إلى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر وكانت مفتاح الدراسات الأرسطوطالية في العصور الوسطى . وغدت شروح ابن رشد أساساً لكثير من المباحث الفلسفية التي ازدهرت أيام حركة الإحياء الأوربي . وكانت الأندلس ، بفضل ابن رشد وأمثاله من الفلاسفة والعلماء العرب ، عاملاً هاماً في رقى أوربا . فغن طريق الأندلس بالدرجة الأولى اطلع الأوربيون على الفلسفة والعلوم اليونانية القديمة .

وظهر في تلك الفترة ، إلى جانب هؤلاء العلماء ، عدد من أعلام الشعر والأدب مثل أبي القاسم خلف بن بشكوال القرطبي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ وهو مؤلف كتاب الصلة ، وابن بدرون الإشبيلي المتوفى في فاتحة القرن السابع ، وهو شارح

قصيدة ابن عبدون الشهيرة في رثاء بني الأفطس .

وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس ، وكانت المعاهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف ، ومقصد الطلاب من كل فج ، وفيها المكتبات التي تضم الكتب النفيسة والتأليف النادرة في مختلف العلوم والفنون . وعنى الموحدون أيضاً برعاية الفنون وأقيمت في عهدهم طائفة من المساجد والأبنية الفخمة التي تمتاز بجمالها الفني .

ولما اضمحل شأن الموحدين ، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس ، في أوائل القرن السابع الهجري ، واجتاحت الفتنة معظم البلاد والثغور الأندلسية ، قام المتغلبون يتنافسون في اجتناء أسلاب الدولة الداهية ، وبدأت قواعد الأندلس تسقط تباعاً في يد النصارى ، وشغلت الأندلس بمحنتها ، وانصرفت إلى متابعة الجهاد ومدافعة المغيرين ، فانكمشت فنون السلم ، واضطربت دولة التفكير والأدب ، ومع ذلك فقد ظلت تمتاز بكثير من نواحي القوة والنضج ، وقد أثرت المحنة في نفوس الشعراء فأذكت عواطفهم بشعر اللوعة وبعثت إلينا بطائفة من المراثي التي ما زالت تحتفظ إلى يومنا بكثير من قوتها وروعها^(١) .

وغادر الأندلس في تلك الفترة كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير ، وآثروا العمل في جو أكثر استقراراً وطمأنينة ؛ مثل الشيخ محي الدين بن العربي شيخ المتصوفين الشهير^(٢) ، وابن البيطار المالقي^(٣) وابن الأبار القضاعي^(٤)

(١) من هذه المراثي مرثية أبي البقاء صالح بن شريف الرندي ، وكان أديباً وشاعراً جزلاً من أهالي رندة عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري وعاصر الفتنة التي تيمضت عن قيام مملكة غرناطة ، ولا نعرف كثيراً عن حياته .

(٢) ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ونزح إلى الشرق وبقي فيه حتى توفي بدمشق سنة ٦٣٨ هـ .

(٣) العالم النباقي والطبيب المشهور ولد بمالقة في أواخر القرن السادس الهجري : غادر الأندلس في شبابه وطاف بأنحاء المغرب وقدم إلى مصر والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، ودرس عليه ابن أبي أصيبعة وتوفي بدمشق سنة ٦٤٦ هـ .

(٤) ولد سنة ٥٩٥ هـ وبرز في الفقه واللغة والنثر والنظم ، تولى الكتابة للأمير أبي جميل زيان أمير بلنسية ، ولما سقطت بلنسية بيد النصارى نزح إلى تونس وتوفي قتيلاً بتحريض خصومه سنة ٦٥٩ هـ . وكتب ابن الأبار في الأدب والتاريخ ومن آثاره تكملة كتاب لابن بشكوال .

وابن سعيد الأندلسي^(١) ، وكثيرون غيرهم ممن رحلوا إلى المشرق أو عبروا البحر إلى المغرب .

وانجلت الفتن الداخلية ، وانجلى الصراع بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن ، عن سقوط معظم القواعد الأندلسية في يد النصارى ، وانكمشت رقعة الأندلس تباعاً ، وانحصرت في الركن الجنوبي الغربي للمملكة الإسلامية القديمة ، في مملكة غرناطة الصغيرة ، التي برزت من غمر الفوضى وتأسست على يد محمد بن الأحمر زعيم بني نصر كما تقدم ذكره^(٢) وإليها هربت معظم الأسر الأندلسية القديمة وغدت ، خلال مدة تزيد على القرنين ، مستودع تراث الأندلس القومي والسياسي ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسي .

وفي ظل مملكة غرناطة أخذت الحركة الفكرية في الاستقرار وبدأت الأندلس حياتها الجديدة وآتست جواً من الطمأنينة والهدوء . وكان ملوك غرناطة من حماة الآداب والعلوم ؛ وسطع بلاط دولة بني الأحمر بتقاليده الأدبية الزاهرة على غرار قصور ملوك الطوائف .

ويجب أن نلاحظ أن الحركة الفكرية الأندلسية في عصر بني الأحمر تكاد تنحصر في النواحي الأدبية ، فقد ازدهر الأدب والشعر وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء ، ولكن العلوم العقلية أصابها الركود ، وقلما نجد في هذه الفترة أحداً من أقطاب الطب والفلسفة أو غيرها من العلوم المحضة التي ازدهرت من قبلُ بالأندلس^(٣) .

(١) أديب ورجالة ولد في غرناطة سنة ٦١٠ هـ وطاف بقواعد الأندلس والمغرب والمشرق وتوفي بدمشق سنة ٦٧٣ هـ وله كتاب « المغرب في حلى المغرب » .

(٢) انظر ص ٣٠ من هذا الكتاب .

(٣) من بين من اشتهر من العلماء والأدباء والشعراء في هذه الفترة :

— الكاتب الوزير ابن الحكيم أبو عبد الله محمد بن يحيى اللخمي الرندى ولد بربدة سنة ٦٦٠ هـ .
— وأبو حيان الغرناطي ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ وتوفي بمصر سنة ٧٤٥ هـ وكان بارعاً في اللغة والأدب ونظم الموشحات .

— ولسان الدين بن الخطيب قطب الحركة الأدبية في مملكة غرناطة ولد في لوشة من أعمال غرناطة سنة ٧١٣ هـ وأخباره نجدها في نفع الطيب في مجلدين ضخمين .

— ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب تزعم من بعده الحركة الأدبية في الأندلس . ولد سنة ٧٣٣ هـ وقتل سنة ٧٩٧ هـ .

هذا عرض تاريخي لأهم مظاهر الحياة العقلية في بلاد الأندلس ، والناظر إليها يرى أن العقلية العربية في الأندلس قد أثر فيها الاختلاط العنصري تأثيراً كبيراً ، إذ قد صنع الأمويون في الغرب الإسلامي صنع العباسيين مع الفرس وقربوا القوط إليهم كما ذكرنا فكان من أثر هذا الاختلاط امتزاج العقلية الآرية بالعقلية السامية فنضجت العقلية العربية وزهت الآداب وازدهرت الحضارة واقتبس الإسبان من ثقافة العرب لأنهم كانوا دونهم ثقافة ، ودخلوا في دينهم وتعلموا لغتهم وأدبهم وهجروا اللاتينية وأعرضوا عن كتب المسيحية ، حتى أصبح رجال الدين الإسبان يشكون من انصراف الإسبان المسيحيين عن اللاتينية إلى اللغة العربية ، ويأسفون على حماسهم الشديدة للغة العرب وعلى ضياع اللاتينية بين المسيحيين الذين يقبلون على العربية والشعر العربي ويدرسون كتابات متكلمي الإسلام وفقهائه لا ليفندوها بل لكي يكتبوا العربية في صحة وإتقان^(١) .

وقد رأينا كيف شيد الأندلسيون المدارس حتى أصبح أكثر الناس متعلمين ، وكيف ازدهرت الآداب والفنون ازدهاراً يقوى وينخفض بحسب الظروف السياسية والعهد المختلفة التي مرت بها الأندلس ، وكيف أن روح التعصب قد حدثت أحياناً من نشاط الفلسفة والعلوم العقلية .

ويحسن أن نشير في النهاية إلى أن الأندلسيين كانوا في آدابهم مقلدين للمشاركة لأنهم كانوا يرون فيهم المثل الأعلى لشعرهم وأدبهم ، ويجدونهم منبع علومهم وآدابهم وفنونهم ، وقد ظلت معاني الشعر الأندلسي سطحية ليس فيها إكثار من الحكم وطرق المعاني الفلسفية وذلك لعدم إقبال الشعراء والأدباء على الفلسفة العقلية ولانصرافهم إلى اللهو والحياة السهلة .

وقد كان من نتيجة انتشار الكتابة فيهم وقلة الأمية أن كان عدد الشعراء والأدباء كبيراً ، فقد كان أكثر الخلفاء والفقهاء والوزراء ينظمون الشعر ، بل نجد روايات أدبية تذكر أن بعض السوق ينظمون الشعر باللغة العربية الفصحى ،

وعلى رغم كثرة عدد الشعراء ووجود طائفة من النابغين فقد قصّروا عن اللحاق
بفحول الشعراء المشرقيين ، وذلك لإقبالهم على اللهو وانصرافهم عن كل ما يكده
الذهن من دراسات عقلية ، ولنظرتهم المثلى لكل ما كان يرد من الشرق من فكر
وأدب وفلسفة والنسج على منواله دون أن يعمدوا ، على الغالب ، إلى إبداع أصيل .

الباب الثاني

الشاعر الأندلسي - أغراض الشعر الأندلسي - شعر الطبيعة

الفصل الأول

الشاعر الأندلسي وطرق التعليم

تهيأت لأهل الأندلس أسباب الشعر ، وتوافرت لديهم دواعيه ؛ فطُبعوا على الشغف به ، وانبسطلت ألسنتهم بقوله ، حتى قل أن تجد منهم من ألمَّ بطرف من الآداب ولم يقل شعراً .

وقد كان لطبيعة الأندلس الزاخرة بالمفاتيح أثر كبير في طبعهم على هذه الشيمة ، حتى لم تخل مدينة من مدنها من شاعر حاذق ، أو كاتب بليغ كما يقول ابن بسام في مقدمة ذخيرته .

ولم تقتصر الرغبة في الشعر والارتياض بنظمه على الرجال ، بل عدتهم إلى النساء ، فنبغ منهن شواعر يكدن يضاهين الشعراء عدداً ؛ وكان منهن طبقة من المحسنات البارعات ، كولاتة بنت المستكفي ، وتلميذتها مهنجة القرطبية وحَمْدَةُ بنت زياد المؤدب المعروفة بخنساء المغرب وحفصة بنت الحاج الرَكُونِيَّة ، وعائشة بنت أحمد القرطبية ، ونزّهون القلاعية الغرناطية ؛ .. وكن جميعاً موصوفات بالجمال والظرف ، إلا عائشة فقد استغنت بالفهم والأدب والفصاحة (١) .

وقد كان للشعر حظارة لدى الملوك ، فنبغ منهم شعراء . ودرجوا على استئجار الشعراء فكان الوزير نديم الملك وشاعره ومدبر مملكته بأن . فاعتزَّ الشعراء بذلك . وسمت مكانتهم ؛ وحفلت بهم دور الأمراء ودرَّ عليهم الرزق ، فنعموا ، وترفوا . وهوا وعبثوا إلا أنهم كانوا أبداً مهددين بزوال النعمة ، لو شاية حاسد ، أو مكيدة مبغض ، أو خشية ملك أن يستقل الوزير بالأمر دونه ، كما اتفق لابن زيدون عند بني جهور ، ولابن الخطيب عند بني الأحمر ؛ .. وقد تُحدثُ الوزير نفسه

(١) للبحث عن أخبار هؤلاء النساء انظر : نفح الطيب ، فصل : الأدبيات من نساء الأندلس

بالمملك ، فيظهر مَلِكُه على رغبته ، فيوقع به ، كما صنع المعتمد بن عباد بوزيره الشاعر ابن عمار .

إلا أن هذا لم يكن شأن جميع الشعراء ؛ فقد عجز فريق منهم عن التقرب من السلطان ، أو الوصول إلى الوزارة فظلوا ، على نباهتهم ، مغمورين خاملين . ولم تخل حياة الشعراء من مضايقات ، وأعنفها ما كان يلقاه بعضهم من لفيف من الفقهاء ، كانت تدفعهم غيرتهم الدينية إلى أن يوقعوا ببعض من عرفوا بزنيغ أو مجون أو خلاعة ؛ كما جرى لابن هاني ، فقد نفاه أمير إشبيلية خوفاً من الفقهاء والعامّة ، لما بدا في شعره من آثار الخلاعة ، والمجاهرة بما يمس العقيدة . على أن شعراء الأندلس وأدباءها ، على ما أوتوا من طبع صقلته الطبيعة وغمته المرانة ، لم يكن لهم بد من ثقافة تعينهم وترفد طبعهم ، وغرضنا من هذا الفصل أن نتحدث عن طرق انتشار الثقافة في ذلك الصقع ، ومادة هذه الثقافة ، وعن الآثار الهامة التي كان الشعراء يتدارسونها ، لنضع أيدينا على ينابيع ثقافة الشاعر .

* * *

كانت العربية لغة الأندلس الرسمية ، بها تجرى المكاتبات والمراسلات ، رغم جنوح لغة التخاطب إلى العامية ، واستعمال بعض الفئات اللغة البربرية ، أو الرومانية ؛ . . وكان الخلفاء ورجال الدولة يقربون من يحسن العربية ، ويتنافسون هم أنفسهم في دراستها وإجادتها ، ويعملون على استجلاب الكتاب والشعراء إليهم ، ولم يكن التنافس بين الأمراء والحكام مقصوداً على الجانب السياسي ، بل كان يشمل الناحية الأدبية أيضاً ، وكان كل أمير يعمل على أن يكون في كنفه من الكتاب والشعراء ما يفوق ما لدى منافسه عدداً ومكانة ؛ بل كانت المنافسة في هذا الباب تدفع الواحد منهم أن يقتنص من لدى منافسه من أدباء أو شعراء كبار ، كما فعل المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بآبن الأرقم وزير المعتصم بن صمادح صاحب المرية وكتابه الخاص ، وإن كان لم يوفق في مسعاه .

والمقترى في نفع الطيب يروى من الأخبار ما يدل بصراحة على مدى اهتمام الحكام بالكتاب النابهين المالكين زمام العربية ، المقتدرين عليها ، كما يدلنا على

احتقارهم لمن قلّ نصيبه منها ؛ ومن هنا كان تعلم العربية والتمكن منها ضرورة لمن يريد أن يصل إلى ديوان الإنشاء .

ولما كان الشاعر يتولى في كثير من الأوقات وظيفة كتابية بوصفه وزيراً ، كان عليه أيضاً أن يكون واقفاً على أصول الإنشاء مجوداً للكتابة ، وإذا كان اهتمام الشعراء بالكتابة وفن إنشاء الرسائل ضرورة تقتضيها مهنتهم ككتاب في دواوين الإنشاء ، فقد كانت الكتابة أيضاً نتيجة لميل أدبي متأصل فيهم ، وقد رأينا كيف أدى العطف الذي أبداه الخلفاء والأمراء نحو الأدب والمتأديين إلى كثرة الكتاب والشعراء وإلى ازدهار الأدب ولا سيما في زمن ملوك الطوائف ، ولكن هذا العطف لم يكن السبب الوحيد في هذا الازدهار بل إن أسلوب تعلم اللغة العربية والتثقف بالثقافة الأدبية العامة كان لهما أيضاً أثر كبير في نهضة الأدب وازدهاره في بلاد الأندلس .

فما هي طرق هذا التعليم ؟

لدينا كثير من الأخبار التي تشير إلى طرق التعليم والثقافة الأدبية في البلاد الأندلسية . ويكفي أن نجمع ما يكتبه بعض المترجمين والمؤرخين لحياة كاتب أو شاعر أو عالم عاش في الأندلس لنعلم ما كان يدرسه هذا الكاتب أو ذاك الشاعر ولنعلم الطريق التي كان يتبعها في شبابه وفي باقي أيام حياته .

ويحسن أن نضيف إلى هذه الأخبار ما كتبه ابن خلدون في مقدمته في الفصل الواحد والثلاثين عن « تعليم الولدان واختلاف أمصار المذاهب الإسلامية في طرقه » فهو فصل قيم أشار فيه إلى طرق التعليم في بلاد المغرب وفي بلاد الأندلس وقارن بين مختلف هذه الطرق . ويتبين من قراءة المقطع الخاص بالأندلسيين^(١) أنهم

(١) « . . . وأما أهل الأندلس فذهبهم تعلم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراؤونه في التعليم ، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنع الدين والعلوم بجملة أصلاً في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة » . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٣٨ .

كانوا يعنون بتعليم العربية والشعر قبل العلوم الأخرى وإلى جانب القرآن الكريم أيضاً ليتفهموه ، على خلاف أهل المغرب والمشاركة الذين كانوا يبدأون بتعليم القرآن الكريم دون سائر العلوم ؛ وقد فضل القاضي أبو بكر بن العربي (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ) طريقة أهل الأندلس ونصحها للمشاركة « لأن الشعر - كما قال أبو بكر ابن العربي - ديوان العرب ويدعو على تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه ييسر عليك بهذه المقدمة »^(١) .

فلاحظ أن الثقافة الشعرية واللغوية كانت أول ما يتعلمه الطالب في الأندلس . فهنا إذن طريقة أندلسية في التعليم ، هي أن العلوم الإنسانية لها مكان خاص إلى جانب العلوم الدينية . نعم قد يكون أهل المغرب (أى أهل أقصى شمال إفريقيا) قد قصروا أحياناً همهم على تعلم القرآن ولم يرغبوا بأن يمزجوا مع تعلمه علماً آخر ، إلا أن المشاركة قد لجئوا أيضاً إلى مثل ما لجأ إليه أهل الأندلس واهتموا أيضاً بالعلوم الإنسانية ، ولا يهمنا كثيراً أن يبدعوا بالقرآن أو بالشعر واللغة ، فقد كانت هاتان الدراستان متصلتين ، ومن الصعب أن نفصل تعلم القرآن عن تعلم اللغة والشعر القديم لما بينهما من وشائج وثيقة ، وقد يكون من المستحسن لفهم القرآن أن نبداً بدراسة اللغة ، كما شاء الأندلسيون وكما قال أبو بكر بن العربي ، فهى طريقة منطقية .

ويتساءل هنرى به رس^(٢) عما إذا كان هذا المفهوم المنطقي للتعليم في الأندلس ليس ناتجاً عن تأثير العرق الأسباني الرومانى الذى كان أحد العناصر الهامة التى كونت شخصية الأندلسى ، ثم يضيف قائلاً : إن الاهتمام ، فى الدرجة الأولى ، كان منصرفاً فى باقى البلاد الإسلامية إلى الأمور الدينية وقد تركت العلوم العقلية فى درجة ثانوية ، بينما كان الأمر فى إسبانيا على العكس ، إذ أخذت العلوم العقلية تحتل المكان الأول ، دون أن تهمل مع هذا العلوم الأخرى المشتقة من

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٣٩ .

(٢) انظر كتابه السابق ص ٢٥ .

القرآن والحديث ، وعلى هذا فقد أخذ الأندلسي يفكر في الإنسان قبل الدين ، وأخذ التعليم يرى إلى تنمية جميع مواهب هذا الإنسان بشكل متناسق .

هذه الملاحظات صائبة ، أما أن نستنتج منها أن المشاركة لم يهتموا بالإنسان لمجرد أنهم بدعوا بتدريس القرآن قبل الشعر واللغة ، فهذا أمر لا نوافق المستشرق عليه ، لأن القرآن الكريم دستور إنساني يطل على أمور الإنسان وحياته ويشرحها إلى جانب ما له من صفة دينية ، ولا نستطيع أن نقر أيضاً أن الأندلسيين قد تخلوا عن دراسة الأمور الدينية تماماً عندما بدعوا بدراسة الشعر والأدب . نعم لقد اهتم الأندلسيون بالإنسان ولكن هذا الاهتمام لم يمنعهم من الاشتغال بالقضايا الدينية ، وكذلك فعل المشاركة فقد بدعوا بالدين ولكن الدين لم ينسهم الاهتمام بالإنسان^(١) .

ومن دلائل النهضة الإنسانية في شعب ما ، أن يهتم هذا الشعب بدراسة الإنسانيات القديمة وآثارها . فالحضنة الإنسانية الفرنسية في القرن السادس عشر Humanisme تتمثل في اهتمام الشعراء والمفكرين بدراسات الإنسانيات الإغريقية والرومانية . ولولا هذا العود إلى آثار الإغريق وتفهم عبقريتهم وتقليدهم في الموضوعات والأساليب لما كانت النهضة الأدبية الفرنسية التي ظهرت منذ القرن السادس عشر وشعت في القرن السابع عشر .

وكذلك نحن ، فعودتنا إلى آثارنا القديمة ، إلى الشعر الجاهلي والأموي والعباسي ، إلى هذا الأدب الإنساني الواسع ، دليل على رغبتنا في المحافظة على إنسانيتنا الأدبية . والأدب الأندلسي ، كأدب إنساني ، أخذ يتطلع إلى هذا التراث القديم ويغذى فكره الإنساني بالشعر القديم وشعر صدر الإسلام وشعر المحدثين وآدابهم ، وإذا فهمنا الإنسانية بمعناها الفني هذا ، حق لنا أن نقول إن كل أديب عربي ، سواء أكان شقيقاً أم أندلسياً ، كان يرى إلى هذه النزعة الإنسانية في آثاره ودراساته وقراءاته إذا ما أراد لإنتاجه ولفنه النجاح .

(١) بل إن الأندلسيين لم يكونوا أقل حرصاً على علوم الدين من المشاركة إن لم يزيدوا عليهم في هذا الباب ، ومصادق ذلك آثار علمائهم وفقائهم ، بل إن الفقيه كان عندهم معظماً كما يقول المقرئ : « وسعة الفقيه عندهم جليدة حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويحه بالفقيه ، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي : فقيه ، لأنها أرفع السات » . نفح الطيب ج ١ ص ١٠٤ .

فالتعليم الذى يتلقاه الشاعر الأندلسى إذن لا يختلف فى شىء كبير عن التعليم الذى يتلقاه الشاعر المشرقى ، وهو قبل كل شىء عودة إلى الآثار القديمة وحفظها وتفهمها وأحياناً تقليدها .

وقد أراد الأندلسى أن يكون تعلمه للشعر واللغة سابقاً لتعلم القرآن الكريم وسائراً معه ، كما أراد المشرقى أن يسبق تعلم القرآن دراسة الشعر والأدب ، ولا أظن أن الأندلسى والمشرقى استطاعا أن يجدا حدوداً فارقة بين هذا وذاك أثناء تلقيهما العلوم والمعارف الأولى .

* * *

وقد كان التعليم الخاص الذى لا تشرف عليه الدولة منتشراً فى كل مكان فى الأندلس ، فكنت ترى فى القرى الصغيرة ، كما فى المدن الكبيرة ، ما يشبه المدارس الابتدائية اليوم ، أما فى المراكز الهامة كقرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرقسطة فكنت ترى حلقات التعليم على مختلف درجاته منتشرة فى المساجد . وكان هناك مدارس يشرف عليها أساتذة قديرون ، إلا أنه لم يكن فى الأندلس مدرسة جامعية على نمط المدرسة النظامية التى أسست ببغداد سنة ٤٥٧ هـ . ١٠٦٥ م . هذا وقد خسرت قرطبة مركزها الثقافى بعد زوال الخلافة عنها ، وأصبحت المراكز الثقافية موزعة بين طوائف الملوك ، فكان لكل بلاط مركز من مراكز الثقافة .

وجُلُّ هذه الثقافة كانت ترمى لجعل الأندلسى أديباً ، شاعراً أو كاتباً . وإذا ما نظرنا إلى المؤلفات التى كان يتداولها الأندلسيون تحقق لنا هذا القول .

فما هى هذه المؤلفات التى كان يقرأها الأندلسيون ؟ سيجيبنا عن هذا السؤال أبو بكر محمد بن خير ، الأديب الذى توفى سنة ٥٧٥ هـ وترك لنا مؤلفاً هاماً عنوانه « الفهرسة » ^(١) يبين لنا فيه الدراسات والمؤلفات الشائعة فى عصره ، عصر ازدهار

(١) العنوان التام لهذا الكتاب هو : « فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم بأنواع المعارف ، الشيخ الفقيه المقرئ المحدث المتقن أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى الإشبيلي » طبعة المستشرقين Codera, Ribera Tarraço فى مدينة سرقسطة سنة ١٨٩٣ ، ونشر فى مجموعة : Bibliotheca arabica-hispana, T. IX-X

الأدب في الأندلس ، ويمكن أن نعتبر هذه المؤلفات مقروءة في مختلف العصور الأندلسية مع بعض الزيادة والنقص .

فهرسة ابن خير :

لقد خصص مؤلف هذه الفهرسة مكاناً كبيراً لكتب الحديث التي كان يتداولها الناس وكانت شائعة في عصره . وقد كان اهتمام الأندلسيين بالحديث كبيراً منذ بادئ أمرهم ، ولا أدل على ذلك من كثرة من ترحّل منهم إلى المشرق في طلب الحديث والوقوف على أمهات دواوينه وتلقيها عن جامعها أو من رروا عنهم . ولذلك ليس غريباً أن نرى ابن خير يهتم بها في فهرسته .

إلا أن القسم الذي خصصه لذكر المؤلفات الأدبية هو الذي يهملنا وهو الذي يطلعنا على ثقافة الشاعر والأديب ويعبر عن ميولهما . ونلاحظ أن أحدث كتاب يذكره المؤلف في هذا القسم هو كتاب سقط الزند واللزوميات للمعري ، وهذان الكتابان لا يبعد أن يكونا قد وصلا إلى الأندلس في حياة المعري أو بعيد وفاته .

يمكننا أن نصنّف هذه الآثار الأدبية التي يذكرها ابن خير في عدة زمر :
زمرة المختارات والدواوين ، وزمرة طبقات الشعراء ، وزمرة كتب الأدب ، وزمرة كتب اللغة والنوادر ، وزمرة كتب النحو :

١ - فن كتب المختارات المعروفة نشير إلى المعلقات مع شرح ابن النحاس النحوي المتوفى سنة ٣٣٧ هـ ، ثم إلى المفضليات ، والأصمعيات ، وكتاب الحماسة لأبي تمام ، وأشعار الهذليين ، والنقائض بين جرير والفرزدق ، وكتاب اليتيمة للشعالي .

٢ - أما الدواوين الشائعة فهي : ديوان ذى الرّمة ، ويذكر المقرئ أن أبا بكر بن زهر كان يحفظ هذا الديوان ويقول إنه يحوى ثلاث مفردات اللغة العربية ، ودواوين الأعشى وأبي تمام والمتنبي والصنوبري (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ) ، وسقط الزند واللزوميات للمعري ، وديوان أبي العتاهية . وإلى جانب هذه الدواوين يجب أن نشير أيضاً إلى الدواوين التي جلبها أبو على القالى من المشرق عندما رحل

إلى الأندلس وهي تشمل معظم الشعراء الشرقيين المعروفين لعصره (وقد أشار إليها ابن خير) .

٣ - أما كتب « طبقات الشعراء » التي تضم عادة مختاراً من القصائد مع نقد موجز ، فلم تكن عديدة ، ويذكر ابن خير منها كتاب الطبقات لابن قتيبة (المتوفى ٢٧٦ هـ) وكتاب الطبقات لابن النحاس (المتوفى ٣٣٧ هـ) .

٤ - ومن كتب اللغة لا يذكر ابن خير سوى كتاب الميسر والقداح لابن قتيبة والكامل للمبرد .

٥ - أما كتب النوادر فيذكر منها كتاب النوادر لعل بن حزم اللحياني ، والنوادر لأبي زياد الكلابي والنوادر للحصري .

٦ - ويذكر من كتب الأدب كتاب زهر الآداب للحصري وكتاب الآداب لابن المعتز .

* * *

لا شك أن قائمة ابن خير هذه بعيدة عن أن تكون تامة . فهي لا تشير إلا إلى عدد ضئيل من الكتب المعروفة والمقروءة في عصره ، وإذا كانت جميع الكتب التي ضمها مكتبة الحكم^(١) ، الفخمة ، قليلة عدد النسخ ، بعيدة عن أن تكون في متناول عامة الناس ، فإننا نزع أن عدداً منها كان يتداوله الأدباء المقربون من البلاط الأموي ، وأن هذا التراث الأدبي ، عندما سقطت خلافة قرطبة لم يفقد بأجمعه ، وقد أدى التوزيع السياسي الذي عقب هذا السقوط توزيعاً أدبياً ، وتبعثر ما بقي من مكتبة الحكم في مكتبات ملوك الطوائف وفي المكتبات الخاصة لبعض متذوقي الأدب .

ويمكننا أن نعتقد بأن كتاب الأغاني الذي كان الحكم قد اشترى نسخة من نسخته الأولى كان يُقرأ في حلقات بعض مدرسي الأدب . ألم يزعم بعض المؤرخين وهو عبد الوهاب المراكشي في كتابه (المعجب في تلخيص تاريخ المغرب) أن

(١) بدأ حكمه سنة ٣٥٠ هـ .

ابن عبدون كان في شيخوخته يتلو الأغاني عن ظهر قلب ؟ ومهما يكن من أمر فإن الذي يبدو لنا هو أن كتاب الأغاني قد لاءم - وهذا شيء طبيعي - ذوق الأندلسيين وميلهم للشعر والموسيقى ، وعلى رغم قلة النسخ التي كانت قيد التداول فقد أثر تأثيراً كبيراً في الأوساط الأدبية وحلقات السمر المرفهة التي كانت منتشرة في الأندلس وهناك إشارات في نفح الطيب تفيد أن هذا الكتاب قد قلده بعض الأندلسيين ، فقد ألف يحيى الحُدُج أديب مرسية كتاباً على نمطه يدعى كتاب الأغاني الأندلسية ؛ وأن أبا الربيع أحد أمراء دولة الموحدين وحاكم سجلماسة قد وضع له موجزاً .

وهناك مؤلفات أخرى هامة لدراسة اللغة العربية وآدابها لم يشر إليها ابن خير في « فهرسته » ولكن لدينا وثائق تؤيد انتشارها في الأندلس ، من هذه الوثائق رسالة ابن حزم والحكايات الكثيرة التي يرويها المقرئ في نفح الطيب . ولما ذاكرون الآن أهم هذه المؤلفات وهي : النوادر لأبي علي القالي وأماليه وقد أملاهما في الأندلس نفسها ، الكتاب لسيبويه وقد اهتم به أهل الأندلس وتدارسوه وشرحه شرحاً مطولاً ابن المناصف ^(١) ، وكذلك فصيح ثعلب كان له قارئه من الأندلسيين ، أما كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت فلم يكن له قراء عديدون ومع هذا فقد كان ابن سيده يحفظه . وهناك كتاب نال حظوة كبيرة لدى الأندلسيين هو كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام المروى (وفاته سنة ٢٢٣ هـ) المسمى « الغريب المصنف » ، فقد قرأه أبو علي القالي وحفظه ابن سيده وقرظه ابن حزم فقال إنه أكمل كتاب لمعرفة اللغة العربية . وقد حدث مرة أن استعصت على الشاعر الأبيض قضية لغوية فأقسم أن يقيد نفسه ، كما فعل الفرزدق ، حتى يحفظ هذا الكتاب ، ولما رآته والدته على هذه الحال تساءلت عما إذا كان أصاب ابنها مس من الجنون . وهناك كتاب آخر لابن قتيبة ذكره ابن خير في فهرسته وكان شائعاً أيضاً هو « أدب الكاتب » ^(٢) وقد شرحه ابن السيد البطليوسي أحد نحاة بجاية في القرن

(١) كثير من الشروح التي وضعت لهذا الكتاب كانت أندلسية ، انظر : تاريخ آداب العرب

لرافعي ج ٣ ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

(٢) لى هذا الكتاب حظوة كبيرة عند الأندلسيين والمغاربة حتى قال ابن خلدون في مقدمته =

الحادى عشر الميلادى ، أما الكامل للمبرد فقد أقبل الأندلسيون على دراسته بكثير من الشغف والاهتمام ، وقد جاء به ابن أبى علاقة من الشرق فى زمن الحكم المستنصر ، فنال شهرة كبيرة وطفق أدباء الأندلس يتدارسونه ويشرحونه ، وحفظه عدد كبير منهم نساء ورجالا . وقد حملت هذه الشهرة بعض اللغويين فى الأندلس أو من القادمين إليها على تقليده فألف صاعد الغوى ، وهو نحوى شهير قدّم الأندلس زمن طوائف الملوك ، كتاباً أسماه « كتاب الفصوص » حذا فيه حذو المبرد فى الكامل .

ومن البديهي أن ابن خير لم يسجل فى فهرسته جميع المؤلفات الأدبية التى كانت تدرس فى عصره وفى العصر الذى سبقه مباشرة ، ولذا كانت الإشارات التى يذكرها ، فى هذا الصدد ، اللغويون وعلماء البلاغة والأدباء كانت ذات قيمة هامة ولا سيما إشارات ابن رشيق صاحب كتاب العمدة .

أما أبو نواس فهو فى طليعة الشعراء الذين اهتم الأندلسيون بهم واستساغوا شعرهم وأحبوه . أما ابن الرومى فكانوا ينظرون إليه نظرهم لشاعر هجاء ، ويعجبون بوصفه للطبيعة ويحفظون له أشعاره فى تفضيل الرجز على الورد ، وقد نظم فى هذا المعنى كثير من شعراء الأندلس أشعاراً تعارض ابن الرومى .

وكذلك البحترى فقد كان محط إعجاب الأندلسيين ، وقد لجئوا إلى طريقته فى النظم ، حتى إن ابن بسام عندما وصف شعراء الأندلس لم يجد لمدحهم غير تشبيههم بالبحترى فقال ما معناه :

« وكانت طريقته فى النظم مثالية فهى طريقة البحترى فى رقة وجزالته وعذوبته وشدته » .

أما المتنبي ، وقد ملأ الدنيا كما يقول ابن رشيق ، فقد وصل تأثيره إلى المغرب الإسلامى وبخاصة الأندلس . وإذا كان لم يستطع أن يطمس أثر البحترى وابن المعتز فقد استطاع أن يشغل أذهان الناس وأضاف إلى قوة النظم فكرة

٥٥٣ : « وسمعنا من شيوخنا فى مجلس التعليم أن أصول هذا الفن « الأدب » وأركانها أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاسقظ وكتاب النوادر لأبى على القالى البندادى وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها » .

الفيلسوف ، حتى أصبح ديوانه موضع اهتمام ودراسة ، فشرحه الإفليلي المتوفى سنة ٤٤١ هـ وابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ . وذكر ابن بسام عدداً من أشعاره التي نسج على منوالها كثير من شعراء الأندلس . ويظهر أن المعتمد هو أول ملك من ملوك الطوائف اهتم اهتماماً كبيراً بالمتنبي ، حتى إن إعجابه بشاعرنا العربي الكبير قد أزعج الشعراء المحيطين به .

ولم تقف إسبانيا المسلمة عند المتنبي فقط في إعجابها ، بل هناك شعراء شريقون آخرون قد جلبوا انتباهها ، فابن خفاجة الذي يُعدُّ شاعر الطبيعة الأول في الأندلس والذي لم يكن سوى مقلد عبقرى ، يعترف بأنه مدين في أكثر وحيه إلى شعراء مشاركة كالشريف الرضى الموسوى (وفاته ٤٠٤ هـ) وعبد المحسن الصورى (وفاته ٤١٩ هـ)^(١) ومهيار الديلمي (وفاته ٤٢٨ هـ) . ولا يصعب علينا أن نبين ما أخذه عن البحرى والصنوبرى^(٢) من معان وأخيلة تتعلق بوصف الطبيعة ، حتى إنه كان يلقب بصنوبرى الأندلس .

ويدهشنا ألا يذكر ابن خير للمعري غير سقط الزند والازوميات بينما نلاحظ أن رسالة من رسائل أبى العلاء المسماة « الصاهل والشاجح » قد قلدها أحد أولاد الأندلسى ابن عبد الغفور تحت عنوان « الساجعة » وهذا الأمر ذكره ابن خاقان في المطمح والمقرى في نفح الطيب ، ونص هذه الرسالة لا يوجد إلا في الذخيرة . ولهذا نستبعد ألا يكون هناك مؤلفات أخرى لأبى العلاء قد عرفها الأندلس^(٣) .

* * *

(١) يظهر أن ديوان هذا الشاعر قد ضاع ، انظر ابن خلكان .

(٢) مقطوعات الصنوبرى المتفرقة جمعها محمد راغب الطباخ تحت عنوان الروضيات ، حلب

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م .

(٣) يشير المؤرخون إلى أن أبا عامر بن شهيد (٣١٢ - ٤٢٦ هـ) كان مولعاً بآثار المعري حاذياً حذوه . ويقال إنه عارض (رسالة الغفران) للمعري برسالته (التوايح والزواج) التي أورد ابن بسام في الذخيرة أقساماً كثيرة منها . وقد أفردها بالنشر بطرس البستى في عام ١٩٥١ في بيروت ، معتمداً على ما جاء منها في الذخيرة . ويزعم المستشرق بروكلمان أنها صُنفت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة ، إلا أن بطرس البستى يرى أنها لم تتقدم رسالة الغفران بأكثر من تسع سنوات ، وليس لدينا ما يثبت أن أبا العلاء قد أطلع عليها .

هذه هي أهم المؤلفات التي كان يدرسها الشاعر والأديب ورجل الفكر في الأندلس ، وكان من جراء تأثير اختلاط الأندلسيين بالبيئات الأجنبية المحيطة بهم أن انتقل إليهم كثير من النزعات الإنسانية فجعلت لهم تفكيراً خاصاً تميز بنزعة إنسانية جديدة ظهرت فيهم تحت تأثير اطلاعهم على الآثار اليونانية التي انتقلت إليهم من الشرق أحياناً وعن طريق الغرب والإسبانيين أحياناً آخر . فاثتاف حبهم للعلم مع حبهم للآداب ، وأرهفت الفنون ذوقهم الشعري ، وأخذت الصفات الحربية تضعف فيهم وشرعوا ينظرون إليها كشئ يمكن إهماله بجانب المشاغل الفكرية . فلا نعجب بعد هذا إذا رأينا الشاعر الأندلسي يحبي الفكرة القديمة ويطبعها بطابع إنساني كنتيجة للأثر المسيحي الروماني الذي أحاط به . وسرى أن الأدب الأندلسي قد استطاع أن يتلون بهذا اللون الجديد دون أن تمحي تقاليده الشرقية .

الفصل الثانى

طبقات الشعراء ، حياة الشاعر وشروطه الاجتماعية

إن الكتب التى ذكرناها بينت لنا مدى ثقافة الشاعر الأندلسى بشكل عام ، وبينت لنا أيضاً لون هذه الثقافة . وقد رأينا كيف كان الشعر الدعامة الأولى لهذه الثقافة يتدارسونه مع القرآن الكريم إن لم نقل قبله ، وكيف كان الناس فى الأندلس مطبوعين على قول الشعر مشغوفين به ، فهل كان الشعر ملكاً لطبقة خاصة من الناس ؟

إننا إذا ألقينا نظرة على الشعب الأندلسى رأينا أن الشعر قد استطاع التغلغل فى مختلف طبقاته ، فلم يقتصر على الأمراء وعلمية القوم الذين أخذوا يدرسونه وينشدونه منذ شبابهم مستفيدين من ثقافتهم التى جاءتهم عن طريق التعليم ، بل كنا نرى أناساً من عامة الشعب لا يعرفون القراءة والكتابة محرومين من الثقافة ينظمون الشعر ويتذوقونه . ولعل هؤلاء قد اكتسبوا هذه القدرة على النظم بعد أن تقدمت بهم السن ، وبعد أن اختلفوا إلى بعض الحلقات العلمية واستمعوا بدافع ميل شخصى عفوى إلى ما يقوله المتأدبون والعلماء فى دروسهم فَمَا فِيهِمْ ذوقهم الفطرى . فقد كان المدرسون يقبلون فى حلقاتهم أى شخص كان على أن يكون لديه الاستعداد الفطرى لتذوق ما يسمع ، ومن هؤلاء الشعراء الأُميين ابن لبّال الأعمى أستاذ ابن عبدون .

ويمكننا أن نحشر العميان فى زمره الشعراء الذين لا يعرفون القراءة والكتابة . وكثيرون فى الأندلس الشعراء الذين يحملون لقب الأعمى أو الضريب أو المكفوف . ويشير الصفدى فى كتابه (نكت الهميان) إلى عدد كبير منهم ، ممن امتازوا بالعلم والأدب ، كالحوى ابن سيده الذى عاش فى مرسية ، والشاعر الشواح الأعمى التطيلي الذى عاش فى تطيلة .

وهناك شعراء من أصل متواضع ، أو من أرباب المهن ، كانوا على جانب بسيط من الثقافة ، ويحدثنا ابن عمار شاعر المعتمد ، وهو من أسرة متواضعة ، عن الفائدة التي يمكن أن يجنيها المرء من مخالطته هذه الجماعات الكادحة التي تسعى جاهدة في سبيل نيل قوتها اليومي ، وقد كان ابن عمار قبل أن يصبح شاعر المعتمد يخالط هذه الأوساط باحثاً فيها عن موضوعاته الأدبية مدركاً ما يمكن أن يستفيده الشاعر من صور جديدة وتشايبه مستمدة من واقع الحياة . وابن عمار هو الذي اكتشف الشاعر ابن جامع وقد كان صباغاً في مدينة بطليوس . أما أبو تمام غالب بن رباح وهو حجاج في قلعة الرباح فقد اشتهر بشعره الواقعي ونظم شعراً يصف الجروح والقروح واقتراس الطيور الجارحة لأحشاء القتلى وصفاً واقعياً تسمثر منه النفس أحياناً .

ومن بين الشعراء الذين انبثقوا في طبقات متواضعة ، يمكننا أن نشير إلى هؤلاء الذين كانوا يعيشون في الحقول وكانت مهنتهم الزراعة ، ولا شك أن نشاطهم الأدبي كان ذا قيمة . فالحياة في الحقول ليست دائماً عملاً مرهقاً ، إنها تترك فسحات للأحلام ، ولا نكون مغالين إذا قلنا إن الشعر الشخصي هو ما كان منبعثاً عن أولئك الذين عرفوا الطبيعة وتحسسوا بجمالها . والميزة التي امتاز بها بعض شعراء الأندلس الذين تأثروا بالطبيعة كابن خفاجة مثلاً هي أنهم لم ينظروا إليها كشيء خارج عن كيانهم بل وصفوها من خلال عواطفهم وأشركوها لإحساسهم فجسموها وشخصوها ، وهذا ما فطن إليه الرومانتيكيون بعدهم ، ولاشك أن هذا الوصف العاطفي للطبيعة الأندلسية قليل إلى جانب الوصف المادي إلا أنه موجود كما سنرى ويجب أن يشار إليه عندما يبحث عن خصائص شعر الطبيعة في الأندلس . ونلاحظ أن جمال الطبيعة وقساوتها قد انتقلت إلى أشعار هؤلاء النفر من الشعراء الذين مارسوا حياة الحقل ، وهم هؤلاء الذين استطاعوا بعد أن انتقلوا إلى حياة المدن الناعمة أن يعبروا عن أفكار قوية بصور جديدة ملونة ، وهم الذين منحوا الشعر الأندلسي هذا اللون الحقل ، لون الشعر الرعوي^(١) القريب

(١) هذا اللون من الشعر يسمى بالفرنسية La poésie bucolique

من أشعار بعض اليونانيين والرومانيين . وهو شعر يصف الطبيعة والحياة الحقلية في رقة ظاهرة تذكرنا برقة أشعار الشاعر الغنائي اليوناني Anacréon ^(١) وهوينشد نعيم الأرض وسعادة الطبيعة في كثير من الانطلاق والجمال . وعديدون الشعراء الأندلسيون الذين تفتحت عبقريتهم في أحضان الطبيعة ، فابن عمار نشأ في الريف وقال فيه أول شعره ، وابن شرف أحس بشاعريته وهو في قرينته برجة ، ومنهم من غادر قرينته إلى المدينة ولكنه لم يستطع الابتعاد عنها نهائياً فعاوده الحنين إليها وفضل أن يقضى آخر أيامه فيها كما فعل الشاعر ابن مقانة الذي يتحدث عنه عبد الواحد المراكشي في تاريخه عن الموحدين .

وكذلك كنا نلمس ذوقاً شعرياً وشغفاً كبيراً بالنظم في الطبقات العالية والأرستقراطية . فها هو ذا المظفر بن المنصور كان مشغولاً بالأشعار التي تصف الأزهار والمسماة بالنُوريات ، وكان يقترح على الشعراء أن ينظموا في وصف الحقائق والحقول كما يقول المقرئ . ولم تكن السياسة والحروب لتشغل الأندلسيين عن الاهتمام بالأدب ، فها نحن أولاء نرى المستظهر بالله ، وكانت خلافته زمن الفتنة (توفي سنة ٤١٤ هـ) ، يعقد مجالس أدبية يشترك فيها أدباء مشهود لهم بالمقدرة كأبي عامر بن شهيد وأبي محمد بن حزم على رغم اضطراب الأمور من جراء العراك الشديد القائم ضد البرابرة .

وكذلك المعتضد فقد قرض الشعر ، ويحدثنا ابن بسام في دخيرته أن قصائده قد جمعت في ديوان ، أما ابنه المعتمد ، فقد كان صورة صادقة للشاعر الأندلسي ، وفي عهده أصبحت إشبيلية قطب الحركة الأدبية والشعرية ، واستطاع بنو عباد أن يجمعوا في دولتهم الزعامة السياسية والزعامة الأدبية . وكذلك بلاط المرية أصبح ملتقى الشعراء في عهد المعتصم بن صمادح . أما بقية ملوك الطوائف فقد كان حبيهم للشعر والأدب ظاهرة من ظواهر التباهي والتفاخر ، وأكثر من أن يكون حباً خالصاً وذوقاً شعرياً مجرداً ، ولهذا لا نعجب أن نرى المظفر ملك بطليوس يقول إنه لا يقبل في بلاطه شاعراً يقل عن المتنبي أو المعري ، وكان من جراء ذلك أن ابتعد

(١) عاش هذا الشاعر في لقرن الخامس قبل الميلاد .

الشعراء عنه ، أما الذين جاءوه فقد دفعوا الثمن وأراقوا ماء وجههم في مدحه والتلق له .

أما في غرناطة ، فيظهر أن الشعراء ، في بادئ أمرهم ، قد عاشوا في خوف دائم لا سيما في عهد الأمير باديس بن حبوس ، وإذا كان هذا الأمير قد أكرم الأدباء كغنائم الخزومي فذلك أنه كان يعتبرهم كفقهاء ، وقد أبعد كل من كان حراً في رأيه . ولكن الأمراء الذين خلفوا باديس كانوا على عكس ذلك ، فقد أكرموا الشعراء والأدباء الذين كانوا يتوافدون على غرناطة ، وكان من بينهم من ينظم شعراً ، حتى إن الأمراء البرابرة ، كعلي بن حمود الناصر ، كان يلذ لهم أن يسمعوا الشعر ويحضوا الشعراء على نظمه . ونحن نعلم ما تمتعت به غرناطة في أيامها الأخيرة من شهرة عظيمة وكيف كانت آخر نواة لقي فيها الشعر رواجاً ومتعة ورخاء .

ولنقل إن الاهتمام بالشعر والأدب كان على نفس الشدة في بقية المراكز التي قام بها بلاط لطائفة من طوائف الملوك ، وإذا كان أمراء سرقسطة وطليلة قد امتازوا بحبهم للفنك والعلوم الرياضية فما نحسب أنهم ضنوا على الأدباء أو قصرُوا في تشجيع الشعر والعطف على الشعراء .

أفلا يدهشنا إذاً هذا الرواج للشعر في مختلف الطبقات الأندلسية ولا سيما في زمن ملوك الطوائف ؟ إن مثل هذا الرواج قد لا نجده في الشرق الإسلامي . فهو ظاهرة وطنية ساعدتها ظروف المحيط السياسية والاجتماعية والطبيعة ، حتى أصبح على فم كل إنسان . فهو في نظر العامل والفلاح الأندلسي أنشودة تنسيه أتعابه ، وهو في نظر الوزير والأمير هرب من مشاغل السياسة والإدارة ، وهو في نظر الشاعر الرسمي أو شاعر البلاط سبب للرزق ، ولكن على رغم هذا الطمع المادى الذى أبداه شاعر البلاط فإنه ما كان لينسى النواحي الفنية ، بل لعله كان يجبر الفن على الانطلاق لينال إعجاب الممدوح . ويمكننا أن نقول إن الشعر كان في نظر الأندلسي على الإطلاق رمزاً للفخر ، وما كان الأمير ليجد في ممارسته

غضاضة أو نقصاً بل على العكس فخاراً ومجداً . ولهذا فالأندلسى رغب بالشعر للشعر ، لهذا التناسق الموسيقى الذى تختلج به الشفاه والقلوب ، ولأنه كلام مجنح وموسيقى قبل أن يكون ألفاظاً ، فهم يغنونه ولا يلقونه إلقاء .

والآن كيف يمكننا أن نختصر حياة الشاعر الأندلسى الذى نراه على الغالب منبعثاً من أوساط متواضعة ؟ وما هى الطريق التى يجب عليه أن يشقها ؟ لا شك أننا نُبعد أثناء الجواب عن هذا السؤال الشعراء والأمراء الذين لهم نمط خاص فى حياتهم وتربيتهم والذين كان شعرهم وصفاً لهذه الحياة مع اندفاعات خاصة رسمت لإنسانيتهم وشواقفهم التى لم يستطيعوا التخلّى عنها أو تناسيها .

فالشاعر الأندلسى ، وهو على الغالب من منبت متواضع ، يمكن أن تُختصر حياته بالكلمات الآتية : دراسة فى قرية متواضعة ثم فى مدينة كبيرة ، بعدئذ حياة هائمة قريبة من التشرّد إلى أن يقرب من محسن أو أمير فيواتيه الحظ وينعم بالجاه والمكانة والمال وينغمس فى حمأة الدسائس .

ونرى أن أكثر الشعراء قد نشأوا فى الأرياف وقد لقنهم بعض النحويين النظامين علوم العربية والشعر ثم يقصدون المدينة . والحكايات فى هذا الصدد كثيرة مبعثرة فى المقرئ وغيره من كتب الأدب ، فابن عمار عندما غادر قريته كان لا يملك إلا بغلته التى كان يمتطيها ، ومع هذا فقد أصبح وزيراً للمعتمد .

والشاعر ابن فضل بن شرف عندما قدم على بلاط المعتصم بن صمادح فى المرية كان فى ثياب رثّة أثارت ضحك رجال البلاط حتى تساءلوا من أية صحراء هو قادم .

وهكذا فقد كان على الشاعر أن يجاهد للبحث عن المجد والمادة ، لا سيما إذا كان من طبقة متواضعة . ولكن حياة المجد التى كانت تنتظر الشاعر الناجح هى التى كانت تحثه على العمل ومواصلة السعى ، وهو رغم سعيه ما كان ليخفى المصاعب التى تعترض سبيله ، فالشعراء كثيرون والنقاد ستميتون ومن الصعب لمن لا يتحلّى بالعبقرية والثبات أن يفتزع له طريقاً فى هذا المضمار الوعر .

وكانت حياة الشعراء حياة تنقل ، فالشاعر يحمل إنتاجه الشعرى ويطرق أبواب

الأغنياء والأمراء طلباً للجائزة وسعيًا وراء المادة ، حتى ولو استقر به المقام عند أمير من الأمراء فقد لا يكون هذا المقام طويلاً ، ويضطر الشاعر ، وقد شعر أن ممدوحه قد ملّ معانيه وشعره ، أن يغادر بلاط هذا الممدوح إلى بلاط ممدوح آخر ، وهو يظهر تدمره وشكواه مما لاقاه ويتألم من ممدوحه الذى لم يستطع إدراك مزاياه . وهذا التنقل سنراه شائعاً أيضاً عند شعراء التروبادور .

وشكوى الشعراء من سوء الطالع ومن سوء الناس وقلة فهمهم لهم ازدادت في زمن المرابطين . حتى رأينا ابن بقتى يتهم اتهاماً قوياً المجتمع الذى لم يعد يقدر العبقریات ورجال الشعر ، ولا شك أن ابن بقتى قد نظر هذه النظرة الشديدة لمجتمعهم عندما شعر ببغض الإخفاق ، وكان إخفاقه طعنة آلمت شعوره وأثارت سخطه حتى وصف أفراد مجتمعهم بالجهلة والقساء . ومهما يكن من أمر فحياة الشعراء لم تكن دائماً حياة ضاحكة . بل هى كحياة أولئك التروبادور الذين كان عاينهم أن ينشدوا ليعيشوا .

ولكن مهما اتصفت حياة الشاعر بالتنقل والتشرد ، فقد كان يعرف كيف يخضع نفسه لشروط معينة ولطاعة مذعنة عندما يصل إلى مدينة يحكم فيها أمير يرغب فى الدخول تحت زعامته . وهكذا يطرق باب قصر الأمير ويخصص له صاحب الإنزال (وهو موظف مخصص لإسكان الشعراء واستقبال ضيوف الأمير) مكاناً فى ملحقات القصر ، وأحياناً فى القصر ذاته عندما ينال الخطوة اللائقة التى تستدعى هذا الإكرام . وهنا تبدأ حياة الشاعر مرتبطة بحياة الأمير ، لا يترك مناسبة تمر دون أن يوجه له مديحاً يعدد فيه مناقبه وشجاعته وكرمه على طريقة الشعراء المشاركة مردداً معانى المدح التقليدية .

وحياة شاعر البلاط فى الأندلس لا تختلف فى شيء كثير عن حياة شاعر البلاط فى الشرق ، ولا بد للشاعر بعد أن يدخل القصر ، أن يمثل بين يدي الأمير ليسمعه بعض شعره ، ويكون ذلك بمثابة امتحان له فإذا ما لاقى الشاعر استحساناً تمكن من البقاء . ومن الشعراء من استطاعوا أن ينالوا مرتبة عظيمة ويتقبلوا فى المناصب العالية وتغدق عليهم الأموال بعد أن أخضعوا شيطانهم للمدح والاستجداء .

فالشاعر الرسمي عبدٌ لصنعتة وسيده ، وكلما خضع لدواعي مهنته كشاعر بلاط تضاءلت شخصيته ، ولكن هناك شعراء استطاعوا أن يلائموا بين مهنتهم ووحيتهم الشخصي ، ومنهم من استطاعوا أحياناً أن يفروا من دواعي المهنة ويتركوا لطبعهم فرصة التحليق في أجواء الخيال والتعبير عن هواجس النفس دون قيد أو إكراه .

ولا ننتظر من شاعر البلاط أن يقدم لنا صوراً جديدة أو شعراً ينحدر إلى أعماق القلوب ما دام خاضعاً لسلطان المهنة ودواعيها ، بل لنبحث عنها في الشاعر الشخصي الذاق الذي لم يُخضع شيطانه للامال بل جعله طوع قلبه وعاطفته وهواجسه ، ويمكننا أن نختم هذا البحث قائلين إن الشاعر الأندلسي في صفتيه الرسمية والذاتية قد استطاع أن يرضى ممدوحه ونفسه وفنه .

الفصل الثالث

الآثار الأدبية الأولى وذكر لأشهر الأدباء والشعراء

ما إن تم للعرب فتح الأندلس حتى أخذت القبائل العربية تتقاطر عليها من أنحاء المشرق ، ولا سيما ديار الشام ، مستوطنة . وكان بين هؤلاء النازحين من عرف بالشعر وارتاض بنظمه ، إلا أن من الطبعي ألا نعتبر ما أثر عن هؤلاء الطائرتين شعراً أندلسياً يحمل طابع الأندلس الخاص وملامح الشخصية الأندلسية المتميزة ؛ إذ لا يعدو هؤلاء أن يكونوا جيلاً مشرقياً تظهر في آثارهم مسحة المشرق ، ولا بد من تصرف حقبة من الزمن غير قصيرة لينشأ جيل أندلسي طبعه الجوالديد بطابعه وظهرت في تكوينه آثار طبيعة الأندلس ومناخها على نحو مستقل .

على أن هذه الأجذام العربية النازحة ، وما انحدر منها من سلالة أندلسية كانوا ، في واقع الأمر ، أول تاريخ الأدب في الأندلس « ولما تجد في الأندلسيين شاعراً مفلقاً أو كاتباً بليغاً أو عالماً ضليعاً إلا ونسبه في قبيلة من تلك القبائل العربية » (١) .

هذا ، وقد حفظت لنا كتب الأدب طائفة مما أثر من شعر هؤلاء النازحين ، وفي طبيعة هؤلاء عبد الرحمن الداخل الذي وطد الملك لبني مروان في الأندلس ، فالمقرى يذكر له خطباً ورسائل تشبه في أسلوبها خطب الأمويين ورسائلهم في آخر أيام دولتهم بالمشرق ، ويذكر له فوق ذلك شعراً يتمتع برقة الشعر الأموي وجزالته . ومنه ما بعث به إلى أخت له بالشام يصف فيه شوقه إليها وحينه إلى بلده ووطنه الذي فارقه موجه القلب فاراً من سيوف العباسيين ، قال :

أيها الراكب الميمم أرضي إقر بعض السلام غنى لبعض
إن جسمي كما تراه بأرضي وفوادي ومالكيه بأرض

(١) مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ٢/ ٢٦٨ .

قُدِّرَ الْبَيْنُ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَا وَطَوَى الْبَيْنُ عَنْ جَفَوْنِي غَمَضِي
قَدْ قَضَى اللَّهُ بِالْفِرَاقِ عَلَيْنَا فَعَسَى بِاجْتِمَاعِنَا سَوْفَ يَقْضِي^١

ومنه أيضاً هذه الأبيات التي تفيض بالحنين والشوق والتي قالها في نخلة فريدة
في حديقة قصره بالرصافة الذي بناه على نسق رصافة الشام ، فهاجت شجنه وأثارت
كوامن عاطفته :

تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطُ الرُّصَافَةِ نَخْلَةً تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ بَلَدِ النَّخْلِ
فَقُلْتُ : شَبِيهِي فِي التَّغْرِيبِ وَالنَّوَى وَطُولِ التَّنَائِي عَنْ بَنِي وَعَنْ أَهْلِي
نَشَأَتْ بِأَرْضٍ أَنْتَ فِيهَا غَرِيبَةٌ فَمِثْلُكَ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَأَى مِثْلِي
سَقَتَكَ غَوَادِي الْمَزْنِ فِي الْمُنْتَأَى الَّذِي

يَصِحُّ وَيَسْتَمْرَى الْمَسَاكِينُ بِالْوَيْلِ^٢

وقد كان ابن عمه الأمير عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي من الذين
فروا من الشام خوفاً من المسوودة ، وقد مضى إلى الأندلس فولاه عبد الرحمن على
إشبيلية ، وكان يقول الشعر ، وقد روي له أيضاً أبياتاً قالها في نخلة فريدة رآها
بحديقة بإشبيلية فتذكر وطنه وحن إلى أهله ، قال :

يَا نَخْلُ أَنْتِ فَرِيدَةٌ مِثْلِي فِي الْأَرْضِ نَائِيَةٌ عَنِ الْأَهْلِ
تَبْكِي ، وَهَلْ تَبْكِي مُكَمَّمَةٌ عِجْمَاءُ لَمْ تُجْبَلْ عَلَى جَبَلِي
وَلَوْ أَنَا عَقَلْتُ إِذَا لَبَكَّتْ مَاءُ الْفُرَاتِ وَمَنَسَبَتِ النَّخْلُ
لَكِنَّهَا حُرِمَتْ وَأَخْرَجَنِي بُغْضِي بَنِي الْعَبَّاسِ عَنْ أَهْلِي^٣

(٢) المرقى ٧١٦/٢ .

(١) المرقى ٧٠٧/٢ و ٧١٦ .

(٣) المرقى ٧١٨/٢ .

وهذه الأبيات تنسب أيضاً لعبد الرحمن ، وهي كما ترى نتمّ عن قوة ورقة كائنات طابع الشعر الأندلسي في جميع أطواره .

وقد أصبحت قرطبة في زمن عبد الرحمن ومن عقبه من الأمراء مركز الحركة العلمية والأدبية في الأندلس ، فتوافد إليها الكثيرون من المشرق يعرضون لإنتاجهم وشعرهم . وحدث اتصال أدبي ، شرق غربي ، ولكن قرطبة كانت تترسم خطى بغداد في نهضتها ، وكان المشرق قبله الأندلس ، وقد رأينا كيف كان الأندلسيون يعيشون على الثقافة الشرقية فلا يكاد يُعرف كتاب في المشرق حتى يُطلب إلى المغرب^(١) ، ورأينا كيف كان الأندلسيون يرتحلون إلى المشرق في طلب العلم والأدب والرواية ثم يعودون فينشرون هذا العلم والأدب في الأندلس .

وهكذا كان الأدب حتى أواخر الدور الأموي وسقوط الخلافة أدباً وافداً على الأندلس يتذوقه الأندلسيون ويقلّدونه ، وكانت خطبهم ورسائلهم لا تختلف كثيراً عن خطب المشرق ورسائله أواخر العصر الأموي وصدر العصر العباسي . ولم يكن هناك جدّة في أشعارهم إلا ما تقتضيه طبيعة إقليمهم من وصف للرياض والبساتين والمنشآت التي استحدثها ملوكهم ، وبقيت أكثر الأغراض الشعرية التقليدية تحتذى نماذج مشرقية ، وكثرت فيما بعد الألقاب التي تشير إلى أن همّ شعراء الأندلس أن يجاروا الفحول من شعراء المشرق .

زرياب والنهضة الغنائية :

يُستدل من الأخبار التي يرويها المقرئ أن عبد الرحمن الداخل قد استقدم إلى الأندلس الجحاريات المحسنات للغناء ، منهنّ فمضّل المدنيّة^(٢) ، وبذلك يكون أول من شجع رحلة الغناء إلى الأندلس .

(١) انظر ص ٦٩ - ٧٣ من هذا الكتاب .

(٢) نشأت وتعلّمت ببغداد ثم درجت من هناك إلى المدينة المنورة فارتقت غناؤها ثم اشترت لعبد الرحمن مع صاحبها علم المدينة وصاحب غيرها ، وحجى بهن إلى الأندلس فأُنزلن بقصر الأمير في دار تعرف بدار المدنيات نسبة إليهن ، وكان عبد الرحمن يؤثرهن لجلوة غنائهن ورقة أدهن . المقرئ ٧٥٨/٢ .

ويُعدُّ زرياب المغنى رأس النهضة الغنائية الأندلسية ، وهو أثر من آثار الحضارة الشرقية التي وفدت إلى الأندلس عن طريق من جاءها من المشاركة . وزرياب هذا ظهر في بغداد وأخذ الغناء عن إسحق الموصلي حتى برع فيه ، وقد رأى إسحق أن يُسمع الرشيد غناؤه فسمعه وأعجب به وأوصى أن يعتنى بشأنه ، فما كان من إسحق إلا أن لحقته غيرة منه وخاف من منافسته فأوعز إليه أن يترك العراق . وفي ذلك يقول المقرئ :

« فسقط في يد إسحق وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره فخلا بزرياب وقال يا على إن الحسد أقدم الأدوية وأدواها ، والدنيا فتانة ، والشركة في الصناعة عداوة ولا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من إجادتك وعلوّ طبقتك ، وقصدت منفعتك ، فإذا أنا أتيت نفسي من مأمّنها بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلتي وترتقي أنت فوقى ، وهذا ما لا أصحابك عليه ولو أنك ولدى ، ولولا رعي لذمة تربيتك لما قدّمت شيئاً على أن أذهب نفسك يكون في ذلك ما كان ، فتخير في ثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عنى في الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطينى على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفاً إلى . فخذ الآن حذرک منى فلست والله أبقي عليك ولا أدع اغتيالک باذلاً في ذلك بدنى ومالى ، فاقض قضاءك . فخرج زرياب لوقته وعلم قدرته على ما قال واختار الفرار قدّامه ، فأعانه إسحق على ذلك سريعاً ، وراش جناحه ، فرحل عنه ومضى يبغى مغرب الشمس » (١) .

ويترك زرياب بغداد ويقصد الأندلس فيصل إليها في أول إمارة عبد الرحمن الثانى سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م (٢) . فيستقبله الأمير استقبالا فخماً ، وينزله في قصر من أحسن القصور ، ويكرمه ويقدمه على جميع المغنين . إن النهضة الغنائية التي أحدثها قدوم زرياب إلى الأندلس دامت طويلاً وكان

(١) انظر أخبار زرياب في نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤٩ - ٧٥٥ .

(٢) انظر ص ١٧ من هذا الكتاب .

لها أثر كبير في الشعر الأندلسي وفي اختراع الموشحات والزجل . وزرياب هو الذى زاد في الأندلس على أوتار العود وترّاً خامساً وكانت أربعة قبل عهده ، وهو الذى اخترع مضرباب العود من قوادم النسر ، وهو الذى سنّ لأهل الأندلس سنناً في آداب الاجتماع أخذت عنه ونسبت إليه ، فقد روى أنه علم الأندلسيين طريقة جديدة لتصنيف الشعر وترتيبه شاعت عنه ، وعرفهم ألواناً جديدة من الطعام ، وهو أول من اجتنى بَقْلَةَ الهليون المسماة بلسانهم الأسفراج ، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله ، وهو الذى دلم على فنون جديدة في الطعام وفي ترتيب المائدة ، وأرشدهم إلى اتخاذ آنية الزجاج الرفيع بدلا من آنية الذهب والفضة ، ونقل إليهم أزياء من اللباس وغير ذلك من الأمور التي تدل على ذوقه المرفه وتعكس أثر الحضارة المشرقية .

وقد استطاع زرياب أن ينقل غناؤه إلى أكثر بقاع الأندلس ، بفضل أبنائه وجواريه الذين وفدوا معه وتلقوا على يده صناعته وحفظوها ونشروها وقد كان لهذه النهضة الغنائية فيما بعد أثرها في موسيقى الغرب أيضاً وفي شعره الغنائي . وجاء بعد زرياب أبو بكر بن باجة الغرناطى مؤلف الألحان فكان أن ارتقى على يده علم الموسيقى وأتم نهضة زرياب الغنائية .

نحو أدب أندلسي :

هذه النهضة الغنائية التي وفدت من الشرق وتطورت بتأثير الحياة الجديدة ، كانت تجاريها نهضة أدبية استقت أصولها من الشرق ثم أخذت تتطور رويداً رويداً بتأثير الاتصال الذي جرى بين العناصر المختلفة .

وقد رأينا كيف أقبل الإسبان على حضارة العرب يغترفون منها ، وعكفوا على اللغة العربية يتدارسونها ولا سيما بقرطبة عاصمة الملك حتى هال أسقفها ألفارو Alvaro هذا الأمر ، فكتب يشكو أنه لا يجد بين الألوف من أبناء طائفته من يستطيع أن يكتب رسالة باللاتينية المقبولة بينما يتقن الكثيرون العربية وينظمون الأشعار فيها بمهارة لا تقاربها مهارة العرب أنفسهم ^(١) ، ولا شك في أن التساهل

(١) انظر ص ٥٩ من هذا الكتاب .

الذى أبداه العرب والرؤاء الذى كان لحضارتهم قد مهدا السبيل لهذا الاتصال الذى بدت آثاره جلية فى الإنتاج الأدبى الذى جاء يحمل طابع الشرق والأندلس معاً .
ويمكننا أن نقول إن الأدب العربى فى الأندلس ، وقد بلغ أوج ذروته فى حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم والحاجب المنصور ، لم يستطع أن يتخلى عن أثر المشرق . وعندما جاء عهد ملوك الطوائف كانت الموشحات أظهر طابع امتاز به أدب الأندلس الذى صدر عن خصائص الحياة الجديدة .

طائفة من الأدباء

وقد نبغ فى بلاد الأندلس شعراء استطاعوا أحياناً أن يجاروا الفحول من شعراء المشرق فى بعض الأغراض وإن كانوا قد قصرُوا فى أغراض أخرى ولم يستطيعوا أن يتفوقوا عليهم . ولا بد لنا هنا من استعراض بعض الأسماء اللامعة على سبيل الذكر لا على سبيل الحصر .

بعض أدباء فترة مجد الدولة الأموية :

ابن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ)

يأتى ابن عبد ربه فى طليعة هذه الأسماء ، فقد ولد هذا الأديب الشاعر فى قرطبة سنة ٢٤٦ هـ ونشأ فيها ميالاً إلى العلم والأدب . ونال من أمراء بنى أمية بالأندلس دنيا عريضة وحلّ عندهم فى المكان الأسمى . وقد برع فى الفقه والتاريخ ودرس علوم العربية وأتقن الشعر والكتابة ، ويروى أنه كان فى صباه لاهياً مولعاً بالغناء ونظم فى ذلك القصائد والمقطعات الرقيقة الجميلة ، ثم أقبل فى كبره عن صباه وأخلص لله فى تربيته ، ففعل مثل أبى نواس وغيره ، وأنشأ القصائد الزهدية على أوزان شعره الغزلى وقوافيه وسماها « الممحَصَّات » ليمَحِّصَ الله عنه ذنوب شبابه ، أى يطهره منها . وقد أصيب فى نهاية عمره بالفالج ومات بقرطبة سنة ٣٢٨ هـ . وابن عبد ربه من الشعراء المعدودين زمن الخلافة فى الأندلس ، وقد عارض

بعض شعراء المشرق . وشعره غزير ولكن أكثره فُقد ، ولم ينقل إلينا سوى ما دونه الثعالبي في يتيمة الدهر .

وله في النثر كتابه الشهير المعروف بـ « العَقْدُ الفريد » نافس به المشاركة في فن التأليف الأدبي . ولهذا الكتاب مزية هامة هي جمعه لكثير من الرسائل والخطب والقصص والفوائد التاريخية التي بادت الأصول المأخوذة هي عنها وبقيت فيه مغلّدة ، وقد قصره المؤلف على أخبار المشاركة ، ولعل السبب في ذلك أن الشرق في نظر الأندلسيين موطن اللغة والأدب ، تحتل مؤلفاته المكان الأسمى ، وإليه تتجه الأنظار . ويروى أنه ، لما وقع الكتاب في يد صاحب ابن عباد ، أقبل عليه ينشد فيه أخبار أهل المغرب ، ولما لم يجد فيه شيئا جديداً ، تركه أسفاً وقال جملة المشهورة : « هذه بضاعتنا رُدّت إلينا » .

وابن عبد ربه أولع حقاً بمحاكاة أهل المشرق ولم تظهر عليه النزعة التجديدية ، وهي بعد ضئيلة ضعيفة في بلاده ، فكان شعره متيناً محكماً ولكن لم تظهر عليه آثار التجديد .

والمهم في شأن ابن عبد ربه أن ابن بسام صاحب الذخيرة والصلاح الكتبي مؤلف فوات الوفيات وابن خلدون ينسبون إليه في رواية يتناقلونها أنه أول من سبق إلى نظم الموشحات . وهذا زعم خاطيء سنجليه عند الكلام عن الموشحات ، فالظاهر أن فن الموشح قد تأخر عن زمن ابن عبد ربه قليلا ولم يكن لصاحب العَقْد أثر فيه كما سنبين ذلك .

ابن هاني (٣٢٦ - ٣٦٣ هـ)

ومن الأسماء المشرقة في سماء الشعر الأندلسي ابن هاني ، فقد ولد بإشبيلية ونشأ بها واتصل بصاحبها ، وكانت الأندلس إذ ذاك في عصرها الذهبي زمن عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم . واشتهر ابن هاني بالآراء الفلسفية وباللهمو والمجون ، فحمل الفقهاء والشعب عليه واضطر صاحب إشبيلية إلى نصحه بالابتعاد عن هذه المدينة زمناً فسافر إلى المغرب وسنّه ست وعشرون سنة . واتصل بجوهر الصقلي قائد المعز ثم بالمعز نفسه فدحه وعلت منزلته عند الخليفة الفاطمي فجعله

شاعره الخالص . ثم سار المعز لفتح مصر ففتحها وأراد ابن هانيء اللحاق به فمات ببرقة في طريقه إليه . وتأسف المعز عليه وقال عندما بلغه خبر وفاته : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدّر لنا ذلك » . وقد قال فيه ابن خلكان إنه عند المغاربة كالمتنبي عند المشارقة وليس في المغاربة من هو في طبقة لا مین متقدمهم ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق . وهو صاحب القصيدة المشهورة :

تقول بنو العباس هل فتحت مصرُ فقل لبني العباس قد قضى الأمرُ
وقد جاوز الإسكندرية جوهرُ تطالعه البشرية ويقدمه النصرُ

وله قصيدة يمدح بها المعز ويصف أسطوله وصفاً دقيقاً فيقول فيها :

أما والجوارى المنشآت التي سرتُ لقد ظاهرتها عُدَّةٌ وعديدُ
قِبابٌ كما تزجى القِبابُ على المها ولكنَّ مَنْ ضُمَّت عليه أسودُ
ولله مما لا يرون كتائبُ مُسوَّاةٌ تحذو بها وجنودُ
أطاع لها أن الملائك خلفها كما وقفت خلف الصفوف ردودُ
وأن الرياح الذاريات كتائبُ وأنَّ النجوم الطالعات سُعودُ
وما راع ملك الروم إلا أطاعها تنشرُ أعلامُ لها وبُنودُ
عليها غمامٌ مكفهرٌ صبيره له باراتٌ جمَّةٌ ورُعودُ
مواخرٌ في طامي العُباب كأنها لعزْمك بأسٌ أو لكفك جودُ
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارجٍ كما شبَّ من نار الجحيم وقودُ^٢

(١) الصبير : السحاب المتراكم .

(٢) المارج : الشعلة شديدة اللهب .

فَأَفَوَاهُهُنَّ الْحَامِيَاتُ صَوَاعِقُ وَأَنْفَاسُهُنَّ الزَّافِرَاتُ حَدِيدُ
لَهَا شُعْلٌ فَوْقَ الْغِمَارِ كَأَنَّهَا دِمَاقٌ تَلَقَّتْهَا مَلَا حِفْ سُدُ
تُعَانِقُ مَوْجَ الْبَحْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ سَلِيْطٌ لَهَا فِيهِ الذُّبَالُ عَتِيدٌ^١
فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الرِّيحَ أَعْنَةً وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْحَبَابَ كَدِيدٌ^٢

ونلاحظ في هذا الوصف الضخامة في الألفاظ إلى جانب الصور البصرية ،
ولقد قادت هذه الفخامة وهذا الحب للمبالغة في المدح والوصف وهذه الحكمة
المتفرقة في شعره - قادت المغاربة إلى تشبيهه بالمتنبى . إلا أن بعض النقاد كانوا
يرون أن ألفاظه طنّانة لا معانى كبيرة تحتها ، وإلى هذا أشار أبو العلاء عندما
قال : « ما أشبهه إلا بريح تطحن قروناً » . غير أن ابن خلكان يرى أن تعصّب
المعري للمتنبى هو الذى دفعه إلى هذا القول ، ومهما يكن من أمر فالفرق بين
الشاعرين شاسع جداً ، فلم تكن لابن هانئ عبقرية المتنبى ولم يكن لديه المعين
النفسى والفلسفى الذى اغترف منه أبو الطيب .

وديوان ابن هانئ مرتب حسب حروف الهجاء طبع في مصر سنة ١٢٧٤ هـ
وفي بيروت سنة ١٨٨٤ م .

أحمد بن دراج القسطلی (٣٤٧ - ٤٢١ هـ)

وقد عرف من شعراء الدولة العامرية في قرطبة ابن درّاج القسطلی^(٤) وكان
كاتب المنصور بن أبى عامر وشاعره ، وهو معدود من الفحول وقد شارك ابن
هانئ في لقب متنبى المغرب ، ولا بن دراج رسائل وفصول في النثر لا تختلف
كثيراً عن الرسائل والفصول التي وضعت في العصر العباسى ، وله شعر أبلغ من نثره
وقد أجرى الثعالبي ذكره في يتيّمته وهو صاحب الدالية المشهورة في سليمان بن الحكم :

(١) السليط : الزيت . الذبال : فتيل السراج . عتيد : توى متين .

(٢) الكديد : الأرض الصلبة .

(٣) راجع بعض نثره وشعره في الذخيرة لابن بسام ، القسم الأول المجلد الأول ص ٤٣ - ٧٨ .

شَهِدَتْ لَكَ الْآيَامُ أَنَّكَ عَيْدُهَا لَكَ حَنٌّ مُوحِشُهَا وَأَبَ بَعِيدُهَا

وله رائية في المنصور بن أبي عامر نقرأ فيها هذه الأبيات الجميلة التي يصف فيها وداعه لزوجته ويذكر ابنه الصغير الذي خلفه وراءه :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلوَادِعِ وَقَدْ هَفَا بِصَبْرِي مِنْهَا أَنَّهُ وَزَفِيرُ
تُنَاشِدُنِي عَهْدَ المودَّةِ والهَوَى فِي المَهْدِ مَبْغُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ
عَيْيُ بَمَرْجُوعِ الخِطَابِ وَلَفْظُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَبِيرُ
تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ القُلُوبِ وَمَهَّدَتْ لَهُ أَذْرُعَ مَحْفُوفَةِ وَنُحُورِ
عَصَيْتُ شَفِيعَ النَفْسِ فِيهِ وَقَادَنِي رَوَاحُ بِتَذَابِ السُّرَى وَبُكُورِ
وَطَارَ جَنَاحُ البَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَا جَوَانِحُ مِنْ دُغْرِ الفِرَاقِ تَطِيرُ

• • •

وعرف أيضاً في هذه الفترة الشاعر الرمادي ، أبو عمر يوسف بن هارون وهو شاعر قرطبي مجيد عاصر المتنبي وتوفي سنة ٤٠٣ هـ كما ذكرنا^(١) . ويقول المقرئ إنه مشهور عند الخاصة والعامة لسلوكه في فنون من المنظوم والمثور مسالك ، حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون : فتبح الشعر بكندة ، وختم بكندة ، يعنون امرأ القيس والمتنبي ويوسف بن هرون .

وعرف أيضاً أبو عامر بن شهيد من شعراء الدلة العامرية وكان وزير الناصر . ولد سنة ٣٨٢ هـ وتوفي بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ ، وله رسالة سماها « التوايع والزوايع »^(٢) وهي تشبه « رسالة الغفران » للمعري في خيالها وأساوها . ومحور موضوعها أن الشاعر رافق إلى أرض الجن سميراً له أسماء زهير بن نمر وتنقل بين الأدباء والشعراء القدماء

(١) انظر ص ٥١ من هذا الكتاب ، الحاشية رقم (١) .

(٢) التوايع : ج تابع وتابعة : الجنى . والزوايع : ج زوبعة وهي الشيطان أو رئيس الجن .

ورواتهم فكان يطارحهم الشعر ويستمع إلى أخبارهم وتجرى بينه وبينهم مساجلات ومناظرات . وقد تفنن ابن شهيد في عرض هذه الأخبار بصورة تدعو إلى الإعجاب . وهذه الرسالة جديرة بالاهتمام ، وقد نشرها حديثاً في بيروت بطرس البستاني معتمداً على ما جاء منها في الذخيرة^(١) .

بعض شعراء ملوك الطوائف :

في هذا الدور أيضاً أسماء لامعة في الشعر والأدب نشير إلى أهمها . وقد رأينا أن ظهور ملوك الطوائف لم يكن حداً فاصلاً لرواج الأدب وازدهاره ، بل ، على العكس ، كان عهداً لاقى فيه الأدباء والشعراء كل رعاية وعطف . ويبدو لنا أن بني عبّاد هم أولى ملوك الطوائف بانتباهنا ، فقد كانوا هم أنفسهم شعراء كما ذكرنا ، وكان بلاطهم متدى الأدب في عصرهم ، فهذا المعتضد يجعل يوماً من أيام الأسبوع — الاثنين — للشعراء يقدون به عليه فيطارحهم الشعر ويستمع إليهم ويحيز السابق بينهم ويشحذ همهم للنظم . وجاء المعتضد فبرز أباه في هذا المضمار حتى أصبح بلاطهم مركز الحركة الأدبية في الأندلس كما رأينا .

ومما يحكى عن المعتضد أنه أول ما تعرف إلى امرأته « اعتماد » الشهيرة بالرؤميّة كان عن طريق الأدب ، فقد زعموا — كما يقول المقرئ — أن المعتضد ركب في النهر ومعه ابن عمار وزيره ، وقد زردت الريح النهر . فقال ابن عباد لابن عمار : أجز :

صَنَعَ الرِّيحُ مِنَ الْمَاءِ زَرْدَ

فأطال ابن عمار الفكرة ، فقالت امرأة من الغسالات :

أَيُّ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَمَدَ

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به ، مع عجز ابن عمار ، ونظر إليها فإذا هي صورة حسنة ، فأعجبته فسألها : أذات زوج هي ؟ فقالت : لا ، فتزوجها ، وولدت له أولاده الملوك النجباء^(٢) .

(١) انظر ص ٧٣ من هذا الكتاب ، الحاشية رقم (٣) . (٢) المقرئ ، ١١٠٠/٢ - ١١٠١ .

ومن أخبار الرميكية القصة المشهورة في قولها « ولا يوم الطين » وذلك أنها رأت الناس يمشون في الطين ، فاشتبهت المشى فيه ، فأمر المعتمد ، فسحقت أشياء من الطيب ، وذرت في ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرابيل ، وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب ، وعجنت بالأيدى حتى عادت كالطين ، وخاضتها مع جوارها . وغاضبها في بعض الأيام فأقسمت أنها لم ترمه خيراً قط ، فقال : ولا يوم الطين ؟ فاستحيت واعتذرت . ويتابع المقرئ الخبر قائلاً : وهذا مصداق قول نبينا صلى الله عليه وسلم في حق النساء « لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط » .

ولعل المعتمد يشير إلى هذه الحادثة في أبياته الرائية حيث قال في بناته :

يَطْأَنَّ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةٌ كَأَنَّهَا لَمْ تَطْأُ مِسْكَاً وَكَافُوراً

فقد دخلت على المعتمد بناته وهو في سجنه بأغمت ، بعد ما حلت به المصيبة ، دخلن عليه وهن في أطمارهن البالية ، يغالبن البكاء ويصارعن الذل ليرددن على مسامع أبيهن كلمات التهنة بأول عيد يمر عليهن في السجن ، فلماذا بالأب الملك يحتضن بناته وينشد هذه الأبيات (١) :

فِيمَا مَضَى كُنْتَ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُوراً فَسَاءَ عَيْدُكَ فِي أَغْمَاتِ مَأسُورِ
تَرَى بِنَاتِكَ فِي الْأَطْمَارِ جَائِعَةً يَغْزِلُنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكُنَ قِطْمِيرِ
بَرْزَنَ نَحْوِكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُنَّ حَسِيرَاتٍ مَكَاسِيرِ
يَطْأَنَّ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةٌ كَأَنَّهَا لَمْ تَطْأُ مِسْكَاً وَكَافُورِ
لَا خَدَّ إِلَّا تَشَكَّى الْجَدْبَ ظَاهِرُهُ وَلَيْسَ إِلَّا مَعَ الْأَنْفَاسِ مَمْطُورِ

(١) انظر ديوان المعتمد ص ١٠٠ ، وقد جمعه أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد ، القاهرة

أَفْطَرْتُ فِي الْعِيدِ لَا عَادَتُ مَسَاءَتُهُ فَكَانَ فِطْرُكَ لِلْأَكْبَادِ تَفْطِيرًا
 قَدْ كَانَ دَهْرُكَ إِنْ تَأْمَرُهُ مِمَثْلًا فَرَدَّكَ الدَّهْرُ مِنْهُمْ وَمَأْمُورًا
 مَنْ بَاتَ بَعْدَكَ فِي هُلُوكٍ يُسَرُّ بِهِ فَإِنَّمَا بَاتَ بِالْأَحْلَامِ مَغْرُورًا
 وهكذا نرى أن المعتمد بن عباد من الملوكة الشعراء دام ملكه ثلاثاً وعشرين
 سنة (٤٦٢ - ٤٨٤) وكان - كما قلنا - قد نكب في آخر حياته بملكه ونفسه وأبنائه
 ونفى إلى أغمات في أفريقية وسجن وقيد بالقيود بعد مجده وعزه في قصره الزاهي
 بإشبيلية فأخذ يتسلى عن حظه بنظم الأشعار من جور الزمان بعد أن كانت أشعاره
 تدور على اللهو ومجالس الأنس . ومن أمثلة شعره الذي يصور حياة الترف والجلال
 التي عاشها قوله ^(١) :

ولقد شربتُ الراحَ يسطعُ نورها والليلُ قد مدَّ الظلامَ رداءً
 حتى تبدَّى البدرُ في جَوَرائِه مَلِكاً تَنَاهَى بِهِجَةً وَبَهَاءً
 لَمَّا أَرَادَ تَنَزُّهًا فِي غَرْبِه جَعَلَ الْمِظْلَةَ فَوْقَه الْجَوَازِ
 وَتَنَاهَضَتْ زُهُرُ النُّجُومِ يَحْفُهُ لَأَلَاؤُهَا فَاسْتَكَمَلَ الْآلَاءُ
 وَتَرَى الْكَوَاكِبَ كَالْمَوَاكِبِ حَوْلَه رُفِعَتْ ثُرَيَّاها عَلَيْهِ لِوَاءِ
 وَحَكِيَّتُهُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ مَوَاكِبِ وَكَوَاكِبِ ، جَمَعَتْ سَنًا وَسَنَاءً^٢
 إِنْ نَشَرْتَ تِلْكَ^٣ الدَّرُوعَ حَنَادُسًا مَلَأَتْ لَنَا هَذِي^٤ الْكُئُوسَ ضِيَاءً
 وَإِذَا تَغَنَّتْ هَذِهِ فِي هِزْهِرٍ^٥ لَمْ تَأُلْ تِلْكَ عَنِ التَّرِيكِ^٦ غَنَاءً

(١) ديوان المعتمد ص ٢٨ .

(٢) السنا بالقصر : الضوء . وبالمد : المجد والرفعة .

(٣) تلك : فاعل نشرت ، والإشارة إلى المواقب . والدروع مفعول به .

(٤) هذي : إشارة إلى الكوابع وهي فاعل ملأت . والكؤوس مفعول به .

(٥) المزهر : العود الذي يضرب به .

(٦) التريك كما في اللسان (ترك) : بيضة الحديد للرأس والجمع ترائك وتريك .

أما أشعاره الشاكية التي قالها في محنته فنجد فيها لونا خاضعا من الأدب، فيه من الرقة والعاطفة ما يجعلنا نشعر أنها أشعار عزيزة . وكانت هذه الأشعار سلوى المعتمد في أسره ، بها يندب حظه ، ويحدث بآلامه ، ويبكى مصيره ومصير ملكه :

أَقْنَعُ بِحِظِّكَ فِي دُنْيَاكَ مَا كَانَا وَعَزَّ نَفْسَكَ إِنْ فَارَقْتَ أَوْطَانَا
فِي اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَفْقُودٍ مَضَى عَوْضُ فَأَشْعِرِ الْقَلْبَ سُلُوَانًا وَإِيمَانًا
أَكَلَمَا سَنَحْتَ ذِكْرِي طَرِبْتَ لَهَا مَجَّتْ دَمُوعُكَ فِي خَدَّيْكَ طُوفَانَا
أَمَّا سَمِعْتَ بِسُلْطَانٍ شَبِيهَكَ قَدْ بَزَتْهُ سُودُ خُطَرِ الدَّهْرِ سُلْطَانَا
وَطَّنَ عَلَى الْكُرْهِ ، وَارْقُبْ إِثْرَهُ فَرَجًا وَاسْتَغْنِ اللَّهَ تَغْنَمٌ مِنْهُ غُفْرَانَا

وفي مكان آخر من ديوانه يقول :

أَنْبَاءُ أَسْرِكَ قَدْ طَبَّقْنَ آفَاقًا بَلْ قَدْ عَمَمْنَ جِهَاتِ الْأَرْضِ إِقْلَاقًا
سَرَّتْ مِنَ الْغَرْبِ لَا يُطَوِّى لَهَا قَدَمٌ حَتَّى أَتَتْ شَرْقَهَا تَنْعَاكَ إِشْرَاقًا
فَأَحْرَقَ الْفَجْعُ أَكْبَادًا وَأَفْئِدَةً وَأَغْرَقَ الدَّمْعُ آمَاقًا وَأَحْدَاقًا
قَدْ ضَاقَ صَدْرُ الْمَعَالَى إِذْ نُعِيتَ لَهَا وَقِيلَ : إِنْ عَلَيْكَ الْقَيْدُ قَدْ ضَاقَا
أَنْى غُلِبْتَ ، وَكُنْتَ الدَّهْرُ ذَا غَلَبٍ لِلْغَالِبِينَ ، وَلِلْسَبَاقِ سَبَاقَا

قلتُ: الخطوبُ أذَلَّتْني طوارقُها وكان عَزَمِي للأعداءِ طَرَّاقاً
 متى رأيتَ صُروفَ الدهرِ تاركةً إذا انبَرتَ لذوى الأخطارِ أرماقاً
 وهكذا نرى أن أسرار المتعمد أثار كوامن عواطفه كما أثار في نفوس الشعراء عواطفهم
 تألماً وحسرة عليه . فهذا الشاعر الداني يشهد تلك الساعات الفاصلة في تاريخ دولة
 بنى عباد عندما تتقدم جنود ابن تاشفين لتضع القيد في يد ملك إشبيلية ولتحمله
 السفن هو وآله ، وتسير بهم في الوادى الكبير ، في طريقهم إلى أغمات ،
 بينما يحتشد الناس على ضفتى النهر يودعون ملكهم وأهله ويذرفون على أيامه سخين
 الدموع . هذه المشاهد المبكية والخطوب المزلّة هى التى حركت في نفس الشاعر
 الداني لواعج الحزن والأسى فإذا به يرثى ملكه بداليتة المشهورة ،

تبكى السماء بدمع رائج غادى على البهاليل من أبناء عباد
 وفيها يقول :

نسيتُ إلا غداة النهر كونهم في المنشآت كأمواتٍ بالحداد
 والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافياتٍ فوق أزباد
 حُطَّ القناع فلم تُستَر مُخَدَّرَةٌ ومزقت أوجهُ تمزيقَ أبراد
 حان الوداع فضجت كلُّ صارخة وصارخ من مُفدّاةٍ ومن فادى
 سارت سفائنهم والنوحُ يتبعُها كأنها إبلٌ يحدو بها الحادى
 كم سال في الماء من دمعٍ وكم حملت تلك القطائع من قطعات أكباد
 ويتفجر الشعر رثاء عليه من كل حذب وصوب ، فإذا بالوزير ابن عبدون (٢)
 يقول فيه رأيته الشهيرة التى مطلعها :

(١) ديوان المتعمد ص ١١٠ .

(٢) هو وزير بنى الأفطس في بطليوس وشاعرهم توفي سنة ٥٢٠ هـ .

الدهرُ يفجع بعدَ العين بالأثر فما البكاءُ على الأشباح والصُور

وإذا بشاعره أبى بحر بن عبد الصمد يمضى إلى قبره بعد صلاة العيد مع ملا من الناس ويخر باكباً معقراً وجهه في تراب جدته وهو ينشد :

مَلِكُ الملوِكِ أَسامِعُ فَأُنَادِي أَمَّ قَدَعَدَتَكَ عَنِ السَّماعِ عَوَادِي
لَمَّا خَلَّتْ مِنْكَ القُصُورُ فَلَمْ تَكُنْ فِيهَا كَمَا قَد كُنْتَ فِي الأَعْيادِ
قَبَلْتُ فِي هَذَا الثَّرَى لَكَ خاضِعاً وَتَعَذْتُ قَبْرَكَ مَوْضِعَ الإنْشَادِ

وابن عبد الصمد هذا مع الشاعر الداني والشاعر ابن حمديس هم ثلاثة من شعرائه الذين وفوا له ورحلوا إليه بعد ذله وسجنه . وهناك عدد من الشعراء الذين عاصروا المعتمد وقالوا فيه الشعر نجد أخبارهم في النفع والقلائد وغيرهما من كتب الأدب .

النساء الشاعرات (١) :

إذا كانت الشاعرات قد شاركن الشعراء في نظم الشعر كما ذكرنا ، فيمكننا أن نقول إن هذه الظاهرة قد بدت مع ظهور ملوك الطوائف ، ففي زمنهم أخذ الشعر يتسرب إلى دور الحريم في القصور وأخذت النساء من بنات الملوك والأمراء والحواري على اختلاف طبقاتهن ، يفقهن هذا اللون من الأدب ويحسنن نظمته .

وقد أورد المأثرى شعراً لطائفة كبيرة من الحرائر والحواري . وأكثرهن عرفن في عهد ملوك الطوائف ، نذكر منهن : أم السعد بنت عصام الحميري ، وحسانة التميمية ، وأم العلاء بنت يوسف الحجازية ، وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح وجاريته غاية المني ، والشاعرة الغسانية البجانية نسبة إلى بجانة ، والعروضية مولاة

(١) انظر المقرئ ، نفع الطيب ١٠٧٦/٢ - ١١٤٦ (وانظر أيضاً طبعة محمد محي الدين عبد الحميد لكتاب نفع الطيب ج ٥ ص ٢٩٩ وما بعدها و ج ٦ ص ١٩ وما بعدها)

أبى المطرف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب ، وحفصة بنت حمدون الحجازية ،
ونزهون الغرناطية ، وحفصة الركونية ، والعبادية جارية المعتضد ، واعتماد زوج
المعتمد الشهيرة بالرميكية السابقة الذكر ، وبثينة بنت المعتمد . وحمدة بنت
زياد المؤدب ، وولادة بنت المستكفي ، ومهجة القرطبية جاريتهما ، وغيرهن .
وقد مرت أسماء بعضهن أثناء الكلام على شغف الأندلسيين بالشعر^(١) ، ولا يتسع
المجال هنا لذكر نبذ من أشعارهن ، وسنعود إلى الكلام على ولادة عندما نتحدث
عن ابن زيدون الذى سنفرد له باباً خاصاً ، ونكتفى فى هذا المقام بذكر أبيات
من شعر حمدة .

حمدة ، ويقال لها حمدونة ، بنت زياد المؤدب من وادى آش ، هى شاعرة
الأندلس ، ولقبت بخنساء المغرب على الرغم من أن شعرها ليس فى الرثاء بل فى
الغزل . ومن جميل ما قالت هذه الأبيات :

ولما أبى الواشوان إلا فراقنا وما لهم عندى وعندك من ثارٍ
وشننوا على أسماعنا كل غارة وقل حُماتى عند ذاك وأنصمارى
غزوتهم من مقلتيك وأدمعى ومن نفسى بالسيف والسيل والنار

وخرجت حمدة مرة للوادى مع صبية ، فلما نضت عنها ثيابها وعامت قالت :

أباح الدمعُ أسرارى بوادى له للحسن آثارُ بَوادى
فمن نهرٍ يطوفُ بكل روضٍ ومن روض يرفُ بكل وادى
ومن بين الأطباء مهاةُ أنسٍ سبت لى وقد ملكت فَوادى
لها لحظ. ترقده لأمرٍ وذاك الأمرُ يمنعى رُقادى

إِذَا سَدَلْتُ ذَوَائِبَهَا عَلَيْهَا رَأَيْتَ الْبَدْرَ فِي أَفْقِ السَّوَادِ
كَأَنَّ الصَّبِيحَ مَاتَ لَهُ شَقِيقٌ فَمِنْ حُزْنٍ تَسْرِبِلٍ بِالْحَدَادِ

وهناك رواية تقول إن هذه الأبيات لحمة العوفية . وقد نسب الأندلسيون
إلى حمدة بنت زياد المؤدب الأبيات الجميلة الآتية الشهيرة في بلاد المشرق وهي :

وَقَانَا لِفَحَّةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ سَقَاهُ مُضَاعَفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ
حَلَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا حُنُوَ الْمُرْضِعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ
وَأَرْشَفْنَا عَلَى ظَمَأٍ زُلَالاً أَلَدَّ مِنَ الْمُدَامَةِ لِلنَّدِيمِ
يَصُدُّ الشَّمْسَ أَنَّى وَاجْهَتْنَا فَيَحْجِبُهَا وَيَأْذُنُ لِلنَّسِيمِ
يَرُوعُ حِصَاةُ حَالِيَةِ الْعَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

ويرى بعض المؤرخين ، ومنهم ابن النديم ، أن قائل هذه الأبيات هو الشاعر
المنازي ، إلا أن أبا جعفر الأندلسي الغرناطي ، نزيل حلب ، يدفع ذلك فيقول :
« . . . وقد تلبس بعضهم أيضاً بشعارها ، وادعى غير هذا من أشعارها ، وهو
قولها ، وقانا لفحة الرضاء ، وأن هذه الأبيات نسبها أهل البلاد (أى بلاد المشرق)
للمنازى من شعرائهم ، وركبوا التعصب في جادة ادعائهم ، وهي أبيات لم يحلها غير
لسانها ، ولا رَقَمَ برديها غير إحسانها . ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا ، وهي
الأندلس ، أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازى إلى الوجود ، ويتصف بلفظة
الموجود » (١)

ابن حمديس (٤٤٧ - ٥٢٧ هـ)

ومن بين الشعراء النابهن في دور الطوائف ابن حمديس . ولد أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن حمديس الأزدى الصقلي في جزيرة صقلية عام ٤٤٧ هـ في آخر حكم العرب لهذه الجزيرة ^(١) . وقد امتازت صقلية بطبيعتها الغنية ووديانها الخصبة وأنهارها الجارية ، وأثارت في نفوس سكانها منذ القديم التغنى بحياتها الريفية .

وقد عالج ابن حمديس نظم الشعر وهو صغير ولكنه بقي خامل الذكر . ولما كان في ميعة الشباب استولى النورمانديون على وطنه صقلية وشاهد ما حل ببلده من الخراب وبقومه من العذاب فأذكى ذلك ، فيما يبدو ، من شاعريته ولكنه ظل دائماً الانقباض كثير التشاؤم رقيق الشعور .

وبعد أن حلت النكبة بوطنه رحل إلى الأندلس سنة ٤٧١ هـ ولاذ بكنف المعتمد ابن عباد بإشبيلية وأصبح شاعره . ولما استولى ابن تاشفين على إشبيلية ونفى ابن عباد منها إلى قلعة أغمات بمراكش لحق ابن حمديس سيده إلى منفاه وبقي وفيّاً له ينظم الشعر الحزين . ولما توفي ابن عباد سار ابن حمديس إلى قرية المهديّة الإفريقية وبقي فيها حقبة من الدهر ، ثم انتقل إلى ميورقة ، وهي جزيرة صغيرة شرقي الأندلس ، فمات بها أعمى بئساً سنة ٥٢٧ هـ . ولابن حمديس ديوان شعر طبع في پالرم سنة ١٨٨٣ م . وفي روما سنة ١٨٩٧ م . وفي بيروت سنة ١٩٦٠ م

كان لنشأة ابن حمديس في جزيرة صقلية ذات الطبيعة الوارفة الظلال أثر في ظهور فن الوصف في شعره وعنايته به ، إلا أن الفترة المضطربة التي عاشها الشاعر في أواخر حكم العرب للجزيرة ، وسط بيئة أعجمية وفتن متصلة ، لم تسمح له بالاستمتاع التام بهذه البيئة وحسن التعبير عن جمالها . ولما رحل إلى الأندلس وإلى المغرب اتصل بالترعات الأدبية في تلك البلاد وشارك فيها وعبر عنها ، وكان في تعبيره هذا يمثل الطور الثالث للشعر الأندلسي الذي أخذ يصور البيئة وما فيها

(١) حكم العرب جزيرة صقلية بين عامي ٢١٩ و ٤٦٤ هـ .

من حداثة وجدة كما يعبر عن نزعات سابقه من القدماء والمحدثين^(١) .
 ونشأة الشاعر ذى الأصل العربى فى موطن أعجمى يحارب العروبة ، ثم
 انتقله إلى أرض الأندلس ومصاحبتة العرب فيها وفى قفار المغرب ، أدى به إلى
 ازدياد تعلقه بالعرب وبيئتهم وما يتصل بهم من ألوان التفكير والأساليب ، ولذا
 أكثر من مدحهم والفخر بهم ووصف حياتهم .
 وأول ظاهرة لوصف هذه الحياة تبدو فى تغنيه بالطبيعة البدوية ، فقد وصفها
 وبالغ فى الوقوف على الأطلال محتدياً فى ذلك معانى القدماء والمحدثين .

وقد أوضح الدكتور سيد نوفل أن الجمع بين معانى القدماء والمحدثين يبدو
 على أتمه حين يتحدث عن الأطلال حديثاً مؤثراً ، ثم يتبع مذهب أبى نواس فى
 السخرية منها والهتاف بالحرر فى ظل الطبيعة الوارف . وينطبق هذا كذلك على
 أوصافه الأخرى للخيال والإبل والغيث والبرق والبيداء والصيد .

ويتابع الدكتور نوفل كلامه قائلاً : إن وصف الطبيعة عند ابن حمديس
 وثيق الصلة بوصف الحرر ، والطبيعة بمختلف مظاهرها مسرح للشرب واللهو وهى بجماها
 تقود إلى الحرر ، والحرر توضح جمال الطبيعة . . وما علينا إلا أن نقرأ ديوانه لنراه
 يشرب عند طلوع الفجر فى روضة فواحة الزهر مخضلة ، ويشرب قبل أن ترتشف
 الشمس ريق الغوادرى من ثغور الأفاح ، ويشرب عند المغيب والشمس تلبس
 من الغيم نقاباً ، ويشرب على إيماض برق كأنه نور مصباح شب فى سواد
 الليل^(٢) .

(١) نلاحظ أن الشعر الأندلسى ، بوجه عام ، قد مر بأطوار ثلاثة : الطور الأول ، وهو يمثل
 شعر التقليد لأدب المشرق ، ويبدأ منذ فجر عصر الأمويين فى الأندلس حتى القرن الخامس الهجرى ،
 ومن شعرائه ابن عبد ربّه وابن هانئ وابن شهيد وابن دراج القسطلئ وغيرهم . والطور الثانئ ، وهو الحقبة
 التى امتدت خلال القرن الخامس ، وفيها أخذ الشعراء يصعدون عن حاضرهم ويمثلون بيئتهم ومظاهرها
 ولنفس ومشعرها مع الأخذ بحظ من التقليد ، ويمثل هذا الطور ابن زبدون وابن عمار والمعتمد بن عباد
 والأعمرى التطليئ ومن إليهم من شعراء ملوك الطوائف الذين يجمعون طرافة البيئـة إلى معانى الشعراء السابقين ،
 وفى نهاية هذا القرن تم انتصار الجديده واتسعت حركة الموشحات . أما الطور الثالث فيضم شعراء القرن
 السادس وما بعده وفيه أخذ الشعراء يمثلون البيئـة وتجمع لهم الحداثة والجدة ، ويمثل هذا الطور من الشعراء
 ابن حمديس وابن عبدون وابن خفاجة وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

(٢) « شعر الطبيعة فى الأدب العربئ » ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

وهكذا ينتهى الدكتور نوفل إلى أن ابن حمديس قد لاحق الطبيعة بالحر في جميع الأوقات والأحوال الطبيعية وأبان عن فتنة الطبيعة في مظاهرها المختلفة ، فلها من مظاهر الحسن في كل آن ما يغرى بها وما يدفع إلى الطرب لمراها .

وفي الآيات الآتية التى نقتطفها من إحدى خمرياته يمثل الشاعر مختلف مظاهر الطبيعة الجميلة في جو من الحر ، فيقول :

طَرَقْتُ وَاللَّيْلُ مَحْدُودُ الْجَنَاحِ مرحباً بالشمس في غير صباح
غَادَةٌ تَحْمِلُ فِي أَجْفَانِهَا سَقَمًا فِيهِ مَنِيَّاتُ الصَّحَاخِ

* * *

فَاسْقِنِي عَنْ إِذْنِ سُلْطَانِ الْهَوَى ليس يشفى الروح إلا كَأْسُ رَاحٍ
وَانْتَظِرْ لِلْحِلْمِ بَعْدَى كَرَّةٍ كم فسادٍ كان عُقْبَاهُ صَلاخِ
فَالْقَضِيبُ اهْتَزَّ وَالْبَدْرُ بَدَا والكثيبُ ارتجَّ والعنبرُ فَاخِ
وَالثُّرَيَّا رَجَحَ الْجَوْ بِهَا كابن ماءٍ ضَمَّ لِلوَكْرِ جَنَاحِ
وَكَأَنَّ الْغَرْبَ مِنْهَا نَاشِقٌ باقةً من يَاسْمِينٍ أَوْ أَقَاخِ
وَكَأَنَّ الصَّبْحَ ذَا الْأَنْوَارِ مِنْ ظَلَمَ اللَّيْلِ عَلَى الظُّلُمَاءِ لَاحِ
فَاشْرَبِ الرَّاحَ وَلَا تُخْلِ يَدًا من يَدِ اللَّهِو غُدُوًّا وَرَوَاخِ
فِي حَدِيقِ غَرْسِ الْغَيْثِ بِهِ عَبَقَ الْأَرْوَاحِ مَوْشَى الْبِطَاحِ
تَعْقِلِ الطَّرْفَ أَزَاهِيرُ بِهِ ثم تُعْطِيهِ أَزَاهِيرَ صُرَاخِ

أَرْضِعَ الْغَيْمُ لِبَاناً بَانَهُ فَمَرَّبَتْ فِيهِ قَامَاتُ الْمِلَاحِ
كُلَّ غَصْنٍ تَعْتَرِيْ أَعْطَافَهُ رِعدةُ النشوانِ من كَأْسِ اصْطَبَاحِ

وهكذا فقد أوجز الشاعر في هذه الحمزية جمال الطبيعة المتنوع ، ونلاحظ أن الشاعر يقبل على الطبيعة بثقافته الشعرية في تأملها ويستخرج من المعاني أروعها ، فإذا بقامات الملاح بعض نباتها وإذا بالنشوة تسرى في أغصانها وبالفتنة تأسر بصر الشاعر ، فيبدو عالم الطبيعة في حركة وزينة وطرب .

إلى جانب هذا الوصف الذي تتجلى فيه الطبيعة حية مشخصة تبدو عناية الشاعر بتصوير الطبيعة اللامعة على مثال ابن المعتز في العناية بالشكل وتجميله ، كقوله :

اشْرَبْ عَلَى بَرَكَةٍ نَيْلُوفَرٍ مَحْمَرَّةٍ النُّوَارِ خَضِرَاءِ
كَأَنَّمَا أَزْهَارُهَا أَخْرَجَتْ أَلْسِنَةً النَّارِ مِنَ الْمَاءِ

هذه الأوصاف وغيرها ترسم لنا فتنة ابن حمديس بالطبيعة وإقباله على مباحثها ، وهو بذلك يعبر عن بيئته الجميلة التي تنقل في أفيائها وعما اعتاد عليه شعراء عصره من الإقبال على استجلاء محاسنها والتنزه في رياضها . وقد قدّم لنا الشاعر بعض الأوصاف التي تتجلى فيها روح الابتكار والإبداع والتي تبدو من خلالها نفسه الحزينة كقوله في وصف نهر :

وَمُطَرِدِ الْأَجْزَاءِ يَصْقِلُ مَتْنَهُ صَباً أَعْلَنْتِ لِلْعَيْنِ مَا فِي ضَمِيرِهِ
جَرِيحٍ بِأَطْرَافِ الْحَصَى كُلِّمَا جَرَى عَلَيْهَا شَكَا أَوْجَاعَهُ بَخْرِيرِهِ

وكقوله أيضاً يصف نهراً ينبعث من عين ماء :

وَمُرُوءِدِ الرُّوضَاتِ يَحْسِبُ ذَائِباً عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُ جَمَلَةٌ تَتَبَعُهُ

كَأَنَّ لَهُ فِي الْجِسْمِ رَوْحاً إِذَا جَرَى بِهِ نَهْضُهُ وَالْجِسْمُ بِالرُّوحِ يَنْهَضُ
وَمَا هُوَ إِلَّا دَمْعٌ عَيْنٍ كَأَنَّهَا لَطُولُ بَكَاءٍ دَهْرَهَا لَا تَغْمُضُ
إِذَا سَرَحَتْ لِلْسَّقَى مِنْ كُلِّ جَانِبٍ رَأَيْتَ بَقَاعَ الْأَرْضِ مِنْهُ تَرَوُّضُ
يَقِيمُ عَلَيْهَا الْإِنْسُ وَالصَّبِيحُ مُقْبِلٌ وَيَرْحَلُ عَنْهَا الْوَحْشُ وَاللَّيْلُ مُعْرِضُ

فهذا الوصف ينطق بالإمعان والتأمل في صور الطبيعة ويعزف من مادة نفسه الخزينة .

وفتنة الشاعر بالطبيعة جعلته يدخل أوصافها في أغراض الشعر الأخرى .
فأوسع أغراض الشعر عنده المدح وبلبه الوصف ، ولكن الطبيعة تنساب في جملة
أغراضه ، فيصف الطبيعة في الغزل ويصور محاسن الحبيب على مثال محاسن
الطبيعة ، ويصفها في المدح بل أكثر شعره المدحى مصبوغ بصبغة الطبيعة ،
ويصورها قوية في الحماسة والفخر ، وحزينة باكية في الرثاء .

وابن حمديس أحد أولئك الشعراء الذين جمعوا بين وصف الطبيعة الطبيعية
والطبيعة الصناعية كالقصور والبرك والتماثيل والرسوم . فلنسمعه يصف بركة في
قصر ابتناه المنصور بن أعلى الناس ببجاية ، وعلى هذه البركة أشجار من الذهب
والفضة وأسود من المرمر يخرج من أفواهها الماء كما يخرج من أطراف تلك الأشجار
فيسمع لها خريير وصفير ، قال :

وَضَرَاغِمُ سَكَنْتَ عَرِينَ رِئَاسَةً تَرَكْتُ خَرِيرَ الْمَاءِ فِيهِ زَيْبِرَا
فَكَأَنَّمَا غَشَّى النَّضَارُ جَسُومَهَا وَأَذَابُ فِي أَفْوَاهِهَا الْبِلُورَا
أَسَدٌ كَأَنَّ سَكُونَهَا مَتَحَرَّكٌ فِي النَّفْسِ لَوْ وَجَدَتْ هُنَاكَ مُثِيرَا
وَتَذَكَّرْتُ فَتَكَاتِهَا فَكَأَنَّمَا أَقْعَتُ عَلَى أَدْبَارِهَا لَتُثُورَا
وَتَخَالَهَا ، وَالشَّمْسُ تَجْلُو لُونَهَا نَارًا ، وَالسُّنْهَى اللَّوَاخَسَ نُورَا

فكأنما سَلَّتْ سَيُوفَ جداول ذابت بلا نارٍ فَعُدُنْ غديرا
شجريةٌ ذهبيةٌ نَزَعَتْ إلى سِحْرِ يُؤَثِّرُ في النُّهى تأثيرا
قد سُرِّحتْ أَغصانها فكأنما قَبَضَتْ مِنَّ من الفضاء طيورا

ونلاحظ أن هذا الوصف دقيق التفاصيل أنيق اللفظ إلا أنه جامد ضعيف الإيحاء . وهكذا نرى أن أكثر أوصاف الشاعر لوحات جميلة دقيقة التقاسيم واضحة الزخرف ولكنها لا تشع بروح الحياة ، وهو يشبه بها ابن المعتز وابن خفاجة بل يشبه أكثر الشعراء الوصافين في العربية الذين يعتمدون على الصورة البصرية في وصفهم أكثر من اعتمادهم على وحى القلب وإشعاع النفس وهزة العاطفة .

والخلاصة أن ابن حمديس شاعرٌ فُتِنَ بالطبيعة وعكف عليها ، عندما كان ينطلق من قيود همومه وأحزانه ، ومتَّعَ بصره بجمالها ، وصوَّرها صوراً أمينة عبرت عن جمالها في كثير من الخدق والصنعة . وقد نفخ فيها من فنه أكثر مما أعطاه من روحه . ونحن إذا أعجبنا بشعره في وصف الطبيعة فإنما نعجب لما فيه من روائع الفن ، وبيق ابن حمديس ، في نظرنا ، شاعراً شاكياً لأن المحنة التي حلت بوطنه الأول صقلية جعلته دائم الأسى ، فأخذ يشكو الزمان ولؤم الناس ويتبرم بالحياة على طريقة أبي العتاهية ؛ ولهذا كان من الطبيعي أن يكون شعر الشكوى أكثر انسجاماً مع نفسه وحياته التي ذكرنا خلاصة عنها .

ابن خفاجة (٤٥٠ - ٥٣٣ هـ) :

وهذا شاعر آخر من شعراء دور ملوك الطوائف تتمثل فيه الجدة والحداثة ، ويعكس بيئة الأندلس وطبيعتها الضاحكة ، وتتجلى فيه الصفة الأندلسية وحبه للطبيعة أكثر من غيره .

ولد أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة سنة ٤٥٠ هـ في بلدة شَقَر . وهي مدينة منعزلة في شرق الأندلس مشهورة بجمال طبيعتها . وسافر إلى عدوة

المغرب فاشتد شوقه إلى وطنه الحميل ورجع إليه ومات سنة ٥٣٣ هـ في المدينة التي ولد فيها .

والأخبار التي بين أيدينا ضئيلة بتفاصيل حياة الشاعر ، إلا أننا نعلم أنه عاش حياة هادئة ولم يتصل بأحداث السياسة . وفي ديوانه عدد من المدائح ولكنه لم يستدل نفسه لهذا الغرض ، وأكثر مدائحه في أبي إسحق إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين الذي خلف أباه في دولة المرابطين .

عاش ابن خفاجة طويلاً وتجاوز الثمانين ، واستمتع في شبابه وكهولته بالحياة واقتنى لذاتها مع إخوانه وأصدقائه في أحضان الطبيعة ومجالس اللهو فيها . وفي آخر أيامه اعترته الوحشة فبكى صباه وتنسك إلى أن وافته المنية .

لقد كان ابن خفاجة شاعر عصره ، استولت عليه روح المرح والمتاع بالحياة فأقبل على الطبيعة ينتزه في مغانيها ويتملى من مباهجها فتمتلئ نفسه بشراً ويعبر عنها تعبيراً يفيض جبوراً . ولقد كان لنشأته المترفة ولجمال بلده أثر في تغذية خياله وتكوين تأملاته فنظر إلى الطبيعة نظرة طويلة فاحصة ساعدته على دقة التعبير عن معانيه . وقد سمي بشاعر شرق الأندلس ، كما سمي بالشاعر البستاني ، ولقبه المقرئ بصنوبري الأندلس لعنايته بوصف الطبيعة ولا سيما الجانب الضاحك منها .

فما هي المظاهر الطبيعية التي وصفها وما ميزاته فيها ؟

لقد وصف الشاعر الطبيعة بجميع مظاهرها ومباهجها ، فوصف الطبيعة الصامتة برياضها وأشجارها وأزهارها وأنهارها وجبالها ومفاوزها وسمائها ونجومها وما يتصل بذلك كله من نسيم ورياح وأمطار ، وكان الشعور الغالب على هذا الوصف المرح والبشر إلا ما كان من أمر وصفه للجبل إذ سادته التأمل والنظرة الحزينة . ووصف أيضاً الطبيعة الحية كالفرس والذئب وبعض الطيور ، وهكذا فقد كانت الطبيعة مستولية على حواسه ، ولم يستطع أن ينساها حتى في أغراضه الأخرى ، فترثقت الصلة بينه وبينها فأخذ يشعر بالبشر يحيط به عندما يحل في مغانيها وإذا بها ذات جمال ودلال وبهاء ، فلنسمعه يصفها وقد اختالت زينة وبهجة وبدت تشارك الغادة الفاتنة في جمالها :

وَكَمَامَةٍ حَذَرَ الصَّبَاحُ قِنَاعَهَا عَنْ صَفْحَةٍ تَنْدَى مِنَ الْأَزْهَارِ
 فِي أَبْطَحٍ رَضَعْتَ ثَغُورُ أَقَاحِهِ أَخْلَافَ كُلِّ غَمَامَةٍ مِذْرَارِ
 نَشَرْتَ بِحِجْرِ الْأَرْضِ فِيهِ يَدُ الصَّبَا دُورَ النَّدَى وَدِرَاهِمَ النَّوَارِ
 وَقَدْ ارْتَدَى غَصْنُ النِّقَا وَتَقَلَّدَتْ حَلَى الْحَبَابِ سَوَالِفُ الْأَنْهَارِ
 فَحَلَلْتُ حَيْثُ الْمَاءُ صَفْحَةً ضَاكِ جَذَلَ وَحَيْثُ الشَّطُّ بَدَأَ عِذَارِ
 وَالرِّيحُ تَنْفُضُ بُكْرَةً لِمَمِّ الرُّبَى وَالطَّلُّ يَنْضَحُ أَوْجَهَ الْأَشْجَارِ
 مُتَقَسِّمُ الْأَلْحَاطِ بَيْنَ مُحَاسِنِ مِنْ رِذْفٍ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارِ
 وَأَرَاكَةِ سَجَعِ الْهَدِيلِ بِفِرْعَاهَا وَالصَّبْحُ يُسْفِرُ عَنْ جَبِينِ نَهَارِ
 هَزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا وَلَرَبَّمَا خَلَعَتْ عَلَيْهِ مُلَاغَةَ النَّوَارِ

والشاعر ينظر إلى الطبيعة نظرة محب والأبيات الآتية تمثل نفسيته المحبة التي يتوزعها جمال الطبيعة وجمال الإنسان ، قال في مقدمة قصيدة يمدح بها أبا الحسن ابن نعيم :

وَإِنِّي وَإِنْ جِئْتُ الْمَشِيبَ لَمَوْلَعٌ بِطُرَّةٍ ظِلٌّ فَوْقَ وَجْهِ غَدِيرِ
 فَيَا حَبِذَا مَاءً بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى وَمَا اهْتَزَّ مِنْ أَيْكٍ عَلَيْهِ مَطِيرِ
 وَنَفْحَةُ رِيحٍ لِلرَّبِيعِ ذَكِيَّةٌ وَلَمِحَةٌ وَجْهِ الْمَشَبَابِ نَضِيرِ
 وَنَعْسَةُ طَرْفِ الْعَيْنِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى لِرَجْعِ خَرِيرٍ أَوْ لَشَجْوِ هَدِيرِ

ويمكننا أن نلخص ميزاته في وصف الطبيعة في العناصر الآتية :

١ - اتصاله بالطبيعة وإشراك حواسه بها ، فقد خاطب الشاعر الطبيعة

وامتريج بها في بعض قصائده ، واتصل بها اتصال الصديق بالصديق ولجأ إليها واستمع إلى عظامها في رحابها، وقصيدته في وصف الجبل خير شعره الذي يمثل هذه الخاصة . فقد أثار مرأى الجبل في نفسه عاطفة إنسانية جعلته يبعث في هذا الطود المنتصب رعشة الحياة ، فأخذ يستمع إلى عظامه وعبره ، ويترجم له أفكاره وحسه ، وبدا الجبل شيخاً وقوراً متململاً من طول بقائه وهو يشاهد مواكب الإنسانية تمر وتمضي ويطويها الزمن . (انظر هذه القصيدة فيما يأتي من المنتخبات . ص ١٣٩) .

هذه القصيدة في وصف الجبل تمنحنا نفحة جديدة للشعر الأندلسي هي هذه المشاركة في العواطف التي يشعر بها المتأمل لسحر الطبيعة وما يعترية من رهبة أو طرب وإعجاب . ولهذا نستطيع أن نقول إن ابن خفاجة قد استطاع في هذه القصيدة أن يناجي الطبيعة على نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم ، فأشرك النفس الإنسانية بسر الطبيعة وأدرك ما يسمى عند الفرنجة بحس الطبيعة .

٢ - الطبيعة عند ابن خفاجة ضاحكة طروب ، هي مسرح للهو ومقصف للشراب ، ولذا فقد هتف ابن خفاجة بالخمير في جو الطبيعة المشرق الجميل ، فلنسمعه يصف هذه الحديقة الراقصة لئلا نرى أن الطرب والرقص والغناء وسمات الحسن هي قوام هذا الوصف وأن الخمر ظل ضئيل في هذا الوصف للطبيعة الالهية :

وصقيلة الأنوارِ تَلَوِي عِطْفَهَا رِيحٌ ، تَلَفُ فُرُوعَهَا ، مِعْطَارُ
عَاطَى بِهَا الصَّهْبَاءُ أَحْوَى أَحْوَرُ سَحَابُ أَذْيَالِ السُّرَى سَحَارُ
وَالنَّوْرُ عِقْدُ وَالْغُصُونُ سَوَالِفُ وَالْجِدْعُ زَنْدُ وَالْخَلِيجُ سِوَارُ
بِحَدِيقَةِ ظِلِّ اللَّمَى ظِلًّا بِهَا وَتَطَلَّعَتْ شَنْبًا بِهَا الْأَنْوَارُ
رَقَصَ الْقَضِيبُ بِهَا وَقَدْ شَرِبَ الشَّرَى وَشَدَا الْحَمَامُ وَصَفَّقَ التِّيَّارُ
غَنَاءَ أَلْحَفَ عِطْفَهَا الْوَرَقُ النَّدَى وَالتَّفُّ فِي جَنَابَاتِهَا النُّوَارُ

فَتَطَلَّعْتُ فِي كُلِّ مَوْقِعٍ لِحَظَةً مِنْ كُلِّ غُصْنٍ صَفْحَةً وَعِذَارَ

ومثل هذا الجو نجده في وصف هذه الأراكة الحسنة التي ضربت ظلها فوق هذا الجمع الطروب بجوار جدول نثرت عليه الأزهار ودارت حول ضفافه كؤوس خمر عروس فاجتمعت في هذه الروضة فتنة الطبيعة ونشوة الطرب :

وَأَرَاكَةَ ضَرَبَتْ سَمَاءً فَوْقَنَا تَنْدَى ، وَأَفْلَاكُ الْكُؤُوسِ تُدَارُ
حَفَّتْ بِدَوَحَتِهَا مَجْرَّةُ جَدُولٍ نَشَرَتْ عَلَيْهِ نَجُومَهَا الْأَزْهَارُ
وَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ جَدُولَ مَائِهَا حَسَنَاءُ شَدَّ بِخَصَرِهَا زُنَارَ
زَفِّ الزَّجَاجِ بِهَا عُرُوسٌ مُدَامَةٌ تُجَلَّى وَنُورُ الْغُصُونِ نِشَارَ
فِي رَوْضَةٍ جُنْحُ الدَّجَى ظِلٌّ بِهَا وَتَجَسَّمتْ نُورًا بِهَا الْأَنْوَارُ
غَنَاءٌ يَنْشُرُ وَشِيَهَ الْبَزَّازُ لِي فِيهَا وَيَفْتَقُ مِسْكُهُ الْعِطَارَ
قَامَ الْغَنَاءُ بِهَا وَقَدْ نَضَجَ النَّدَى وَجَهَ الثَّرَى وَاسْتَيْقِظَ النَّوَارُ
وَالْمَاءُ مِنْ حَلَى الْحَبَابِ مُقَلَّدٌ زَرَّتْ عَلَيْهِ جَيُوبُهَا الْأَشْجَارُ

وتستوى الشاعر شجرة نارنج مثمرة فيصفها فإذا بها في حلة بهية ، وإذا
الأوصاف الحسية تندمج بما يبعث فيها من حركة وحياة ، وإذا الطبيعة التي تحيط
بها مرحة مغردة ، يخطب فيها الطير ، وليس علينا بعد من عذر إذا لم نمل طرباً
في أفياء هذا الدوح الظليل الرطيب :

أَلَا أَفْصَحَ الطَّيْرُ حَتَّى خَطَبَ وَخَفَّ لَهُ الْغُصْنُ حَتَّى اضْطَرَبَ
فَمِلْ طَرَبًا بَيْنَ ظِلِّ هَفَا رَطِيبٍ وَمَاءٍ هُنَاكَ انْتَعَبَ
وَجُلْ فِي الْحَدِيقَةِ أَخْتِ الْمُنَى وَدِنْ بِالْمُدَامَةِ أُمَّ الطَّرِبِ

وحاملة من بناتِ القَنَا أُمَالِيدَ تحملُ خُضْرَ العَذَبِ
تنوبُ مُورَقَةً عنِ عِذاوٍ وتَضْحَكُ زَاهِرَةً عنِ شَنْبِ
وتَنْدِي بها في مَهَبِّ الصَّبَا زَبْرَجْدَةً أَثْمَرَتْ بِالذَّهَبِ
تُفَاوِحُ أَنْفَاسِهَا تَارَةً وَطَوْرًا تَغَازِلُهَا مِنْ كَثَبِ
فَتَبْسِمُ فِي حَالَةٍ عَنِ رِضَا وَتَنْظُرُ آوَنَةً عَنِ غَضَبِ

٣ - هذه الحياة التي شعت في الأمثلة السابقة تسم أكثر أوصاف الطبيعة عند ابن خفاجة . فهو يشخصها ويرى في جمالها جمال المرأة ويصورها على نحو إنسانى تملؤه الحركة والنشاط . ولهذا التشخيص أمثلة كثيرة في شعره ، فلنسمعه يصف شجرة منورة :

يَا رُبَّ مَائِسَةٍ المَعَاظِفِ تَزْدَهِي مِنْ كُلِّ غُصْنٍ خَافِقٍ بَوْشَاحِ
مَهْتَزَةٍ يَرْتَجُّ مِنْ أَعْطَافِهَا مَا شَتَّ مِنْ كَفَلٍ يَمُوجُ رَدَاحِ
نَفَضْتُ ذَوَائِبَهَا الرِّيحُ عَشِيَّةً فَتَمَلَّكَتْهَا هِزَّةُ الْمَرْتَاحِ
حَطَّ الرِّبْعُ قَنَاعَهَا عَنْ مَفْرِقٍ شَمَطَ . كَمَا تَرْتَدُّ كَأْسُ الرَّاحِ
لَفَاءً حَاكٍ لَهَا الْغَمَامُ مُلَاءَةً لَبَسَتْ بِهَا حَسَنًا قَمِيصَ صَبَاحِ
نَضَحَ النَّدى نُورَآهَا فَكَأَنَّمَا مَسَحَتْ مَعَاظِفَهَا يَمِينُ سَمَاحِ
وَلَوْ الْخَلِيجُ هُنَاكَ صَفْحَةً مُعْرِضٍ لَثَمْتُ سَوَالِفَهَا ثَغُورُ أَقَاحِ

٤ - وفنتة الشاعر هي على الأغلب في الرياض والزهور ولهذا لقب بـ «الجنَّان» ، ويعتمد على التشخيص - كما رأينا - والتشبيه بمحاسن المرأة في إظهار محاسن

روضياته ، وقد يقف عند بعض الجزئيات فيها ، ولكن كثيراً ما تظهر روضياته في إطار من اللهو على شكل نزعات في رحاب الطبيعة التي يبدع في تجسيمها كقوله :

سَقِيًّا لِيَوْمٍ قَدْ أَنْخَتُ بِسَرْحَةٍ رَيًّا تَلَاعِبَهَا الشَّمَالُ فَتَلْعَبُ
سَكْرَى يُغْنِيهَا الْحَمَامُ فَتَنْثَنِي طَرِبًا وَيَسْقِيهَا الْغَمَامُ فَتَشْرَبُ
يَلْهَوُ فَتَرْفَعُ لِلشَّبِيبَةِ رَايَةً فِيهِ وَيَطْلُعُ لِلْبَهَارَةِ كَوَكَبُ
وَالرَّوْضُ وَجْهٌ أَزْهَرُ وَالظَّلُّ فَرْعٌ أَسْوَدُ وَالْمَاءُ ثَغْرٌ أَشْنَبُ
فِي حَيْثُ أَطْرَبْنَا الْحَمَامُ عَشِيَّةً فَشَدَا يُغْنِنَا الْحَمَامُ الْمَطْرَبُ
وَاهْتَزَّ عِطْفُ الْغَصْنِ فِي طَرَبِنَا وَافْتَرَّ عَنْ ثَغْرِ الْهَلَالِ الْمَغْرَبُ
فَكَأَنَّهُ وَالْحَسَنُ مُقْتَرَنُ بِهِ طَوَّقُ عَلَى بُرْدِ الْغَمَامَةِ مُذْهَبُ
فِي فَتِيَةٍ تَسْرِي فَيَنْصَدِعُ الدُّجَى عَنْهَا وَتَنْزِلُ بِالْجَدِيبِ فَيَخْصِبُ
كَرُمُوا فَلَا غَيْثُ السَّمَاءِ مُخْلَفُ يَوْمًا وَلَا بَرْقُ اللَّطَافَةِ خُلْبُ
مِنْ كُلِّ أَزْهَرَ لِلنَّعِيمِ بِوَجْهِهِ مَاءٌ يَرْقِرُقُهُ الشَّبَابُ فَيَسْكُبُ

على أن روضياته تتشابه فهي محصورة في إطار واحد تمثله الحديقة بما فيها من أشجار وجدال وأزهار وظلال وارفة وحمام تتداعى ونسمات علية وندامى يشربون ويغنون ويطربون .

٥ - وقد وصف ابن خفاجة أيضاً الطبيعة الحية كالفرس والذئب وله في وصف الفرس أبيات تتراءى فيها البراعة والحدة في التصوير فيقول :

وَمُطَهَّمٌ شَرْقِ الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا أَلْفَتْ مَعَاظِفُهُ النَّجِيعَ خَضَابَا
طَرِبٌ إِذَا غَنَّى الْحَسَامُ مَمْرُقٌ ثَوْبَ الْعَجَاجَةِ جِيئَةً وَذَهَابَا

قَدَحَتْ يَدُ الْهَيْجَاءِ مِنْهُ بَارِقًا مَتْلَهَبًا يُزْجِي الْقَتَامَ سَحَابًا
وَرَمَى الْحِفَافَ بِهِ شَيَاطِينَ الْعِدَى فَانْقَضَّ فِي لَيْلِ الْغُبَارِ شِهَابًا
بَسَامُ ثَغْرِ الْحَلَى تَحْسِبُ أَنَّهُ كَأْسٌ أَثَارَ بِهِ الْمِزَاجَ حَبَابًا

٦ - يتبين مما تقدم أن ابن خفاجة يمثل نهضة شعر الطبيعة في الأندلس ، وقد استطاع أن يصور طبيعتها الجميلة والحياة اللاهية في أحضانها ، وكان في وصفه مصوراً بصرياً بارعاً يعتمد على دقة ملاحظته إلى جانب قوة خياله . وقد يكون قد أغرق في الصنعة والمحسنات البديعية ومع ذلك استطاع ألا يجعلنا نشعر بثقلها إلا في بعض أوصافه ، على أن الصنعة عنده أداة للتجميل وقد امتزجت بقوة خياله وأناقة ألفاظه وترف صورته فجاءت مقبولة كقوله في وصف نهر :

لِلَّهِ نَهْرٌ سَالَ فِي بَطْحَاءٍ أَشْهَى وَرُودًا مِنْ لَحَى الْحَسَنَاءِ
مَتَعَطِّفٌ مِثْلَ السَّوَارِ كَأَنَّهُ وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجْرٌ سَمَاءِ
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قُرْصًا مُفْرَعًا مِنْ فُضَّةٍ فِي بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ
وَعَدَتْ تَحْفٌ بِهِ الْغُصُونُ كَأَنَّهَا مُدْبٌ تَحْفٌ بِمَقْلَةٍ زُرْقَاءِ
وَالْمَاءُ أَسْرَعَ جَرِيَهُ مُتَحَدِّرًا مُتَلَوِيًّا كَالْحَيَةِ الرَّقْطَاءِ
وَالرِّيحُ تَعْبَثُ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لَجِينِ الْمَاءِ

وابن خفاجة من الشعراء الذين اتصلوا بالطبيعة كما أشرنا ، ولكن هذا الاتصال لم يبلغ مبلغ الامتزاج الكلي بها إلا في بعض قصائده ولا سيما قصيدته في وصف الجبل ، وتبقى الطبيعة عنده صورة لاعتدال القدر واهتزاز الخصر وابتسام الثغر ، وهي في صورها ترضى لذة الحس وقلمها تبعث في النفس لذة الروح . وشأن شاعرنا فيها كشأن باقي أعلام شعراء الطبيعة في أدبنا العربي ، فهم لم يلجئوا في وصفها إلى

إدراك حس الطبيعة كما أدركه الشعراء الغربيون وإنما بقيت الطبيعة عندهم متاعاً للعين وفناً وصفيّاً تجمله الزخارف والألوان ولا تتشابهك فيه العواطف والأحزان إلا نادراً .

* * *

هذه أسماء بارزة في الشعر الأندلسي أتينا على ذكرها لنبين جانباً هاماً من صفات هذا الشعر . على أن ثمة شعراء آخرين لا يقلون عن هؤلاء شأناً لم نأت على ذكرهم لضيق المجال فلترجع أخبارهم في مظانها . ولكي يتم لنا فهم صفات هذا الشعر لا بد من استعراض خصائص مختلف أغراضه ، فما هي هذه الخصائص التي اتصفت بها أغراض الشعر الأندلسي ؟

الفصل الرابع

أغراض الشعر الأندلسي

نظم شعراء الأندلس الشعر في مختلف الأغراض ولم يشدوا ، بوجه عام ، عن القواعد والأساليب التي اتبعها المشارقة في أشعارهم .

المدح :

فقد حافظ المدح على الأسلوب القديم وكان الشعراء يعنون بالاستهلال وحسن التخلص ، وربما جعلوا صدور مدائحهم وصفاً للخمر أو للطبيعة أو للبلد الذي نشأ فيه الشاعر أو للمرأة التي أحبها ، وقلما شذ بعضهم عن هذا السبيل ، كما وصفوا الفلاة والناقة والحواد ووقفوا على الديار والأطلال ولكنهم لم يطيلوا وصفهم هذا ويستفيضوا به ، ولم يغرقوا في استعمال الغريب إلا ما كان من ابن هاني فقد تعدد الغريب وأكثر المغالاة محاولاً تقليد المتنبي . وكانت مدائحهم محشوة بالتملق والاستجداء على طريقة المشارقة .

الرثاء :

وكذلك في الرثاء لم يختلف الأندلسيون عن المشارقة من حيث التفجع على الميت ووصف المصيبة وتعداد المناقب ، فكانت معانيهم وأساليبهم متشابهة . وكانوا يستهلون مرثيتهم بالحكم كالمشارقة ، إلا أن حكمهم كانت ساذجة لا عمق فيها ، تركز على الشكوى من الأيام .

وكان رثاؤهم للممالك الزائلة أكثر روعة أحياناً من رثاء شعراء المشرق . فقد أشجاهم أن يروا ديارهم تسقط بلداً إثر بلد في أيدي الغرباء من المكتسحين . فبكوها بكاءً من يبكي على فراق وطن أحبه وفنّ بجمال طبيعته ورخاء أيامه . فبكي ابن اللبانة دولة بني عباد . وابن عبدون دولة بني الأفطس عندما أزالهما

ابن تاشفين ، وبكى أبو البقاء الرندى الأندلس بأسرها بعد أن استردها النصارى ، وقد بدت لوعة صادقة فى هذه القصائد الثلاث ولا سيما فى قصيدة أبى البقاء التى يقول فيها :

لكلُّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ فَلَا يُغَرِّ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدَتْهَا دُولُ مَنْ سَرَّهَ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ
وهذه الدارُ لَا تُبْقَى عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَمَانُ
أَيْنَ الْمُلُوكُ ذُووِ التَّيْجَانِ مِنْ يَمَنٍ وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلُ وَتَيْجَانُ
أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ حَتَّى قَضَوْا فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا
وصارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ كَمَا حَكَّى عَنْ خِيَالِ الطَّيْفِ وَسَنَانُ

ويتصل بالرتاء الشكوى والاستعطاف ، وقد امتاز بهذا الغرض الملوك والأمراء لكثرة ما نالهم من الحن والنكبات فذلُّوا بعد عز وهبطوا بعد رفعة ، وقد رأينا نوعاً من هذه الشكوى فى شعر المعتمد بن عباد بعد أن نُكِبَ ونى إلى أغمات فى إفريقية .

الهجاء :

أما الهجاء فلم تقم له سوق رائجة فى الأندلس ، ولا سيما الهجاء السياسى ، لقلّة الأحزاب السياسية . وقد ظهر فى عهد الأمراء هجاء بين المضرية والإيمانية ولكن لم يحفظ لنا منه شىء جدير بالاهتمام . وقد قام بعض الشعراء بهجو الفرنجة أثناء الحروب معهم ، وهجو البرابرة عندما استفحل أمرهم ، وكانت الغاية من الهجاء التكبسب والحن ، فلم يكن هناك هجاء سياسى بالمعنى المعروف عند المشاركة كالدفاع عن العرب وذم الشعوبية ، لأن الشعوبية لم يكن لها شأن فى الأندلس . وهذا الهجاء العايب كان مشحوناً بالإقذاع والفحش . وعلى الجملة فإن الشعراء الذين

مارسوا هذا الغرض لم يبلغوا فيه شأن المشاركة . وأشهر من عُرف بهذا الفن منهم أبو بكر المخزومي الأعمى ، وهو من شعراء المائة الخامسة للهجرة ، وبينه وبين نزهون بنت القلاعي الغرناطية معاينات فاحشة . قال فيها المخزومي :

على وجه نزهون من الحُسنِ مَسْحَةٌ وتحت الشيا بِ العار لو كان بَادِيَا
قواصِدُ نزهونِ تواركُ غيرِها ومن قَصَدَ البحرَ استقلَّ السواقِيا
فأجابته :

إِنْ كَلَنْ مَا قَلْتَ حَقًّا مِنْ بَعْدِ عَهْدٍ كَرِيمٍ
فَصَارَ ذِكْرِي ذَمًّا يُعْزَى إِلَى كُلِّ لُومٍ
وَصِرْتُ أَقْبَحَ شَيْءٍ فِي صُورَةِ الْمَخْزُومِ

الحكمة :

وكذلك الأمر في الحكمة ، فقد ذكرنا أن الشعراء الأندلسيين لم ينصرفوا إلى حياة التأمل ، لذلك بدت حكمتهم ساذجة بعيدة عن العمق . وكذلك الفلسفة لم تنتشر في تلك الربوع منذ دخول العرب إليها ، بل تأخر ظهور الفلاسفة إلى أواخر القرن الخامس ، في عصر المرابطين والموحدين ، فقد كان هذا العصر عصر نهضة في الفلسفة والتأليف ، فيه ظهر ابن باجه وابن رشد وابن طفيل صاحب رسالة « حيّ بن يقظان » وابن ميمون من الفلاسفة وابن خاقان وابن بشكوال والإدريسي وابن جبّير وابن بسام من المؤلفين ؛ ولولا ظهور ابن حزم قبل رجال هذه الطبقة لقننا إن هذا العصر احتكر العلم والفلسفة . وسبب تأخر نهضة الفلسفة في الأندلس ، واقتصارها على فئة محدودة من المختصين ما كان للفقهاء من سلطان على ملوك الأندلس فإنهم ضيقوا حرية التفكير ، وكفّروا كل متفلسف وأفتوا بنفيه وإحراق كتبه ، وكانت العامة تجارى أهواء الفقهاء فيضطر السلطان تجاه ثوراتهم إلى استرضائهم بإتلاف كتب الفلاسفة كما فعل الحاجب المنصور ، وبمعاينة المتهمين

كما فعل صاحب إشبيلية بابتن هاني إذ نصح له بالابتعاد عن المدينة كما ذكرنا .
وقد قلنا إن ابن هاني كان أكثر الشعراء الأندلسيين اهتماماً بالحكمة في
شعره محاولاً بذلك تقليد المتنبي ولكنه بقي مقصراً عنه أشواطاً . وحكمته تدور حول
شكوى الدهر والتحذير من الدنيا ، فكانت كحكمة غيره من الشعراء مبتذلة
بعيدة عن النضج .

فمن قوله في قصيدة يرثي بها ولداً لإبراهيم بن جعفر بن علي أحد ممدوحيه :

وَهَبَ الدَّهْرُ نَفِيساً فَاسْتَرَدَّ رُبَّمَا جَادَ بِخَيْلٍ فَحَسَدُ
كَلِمَا أَعْطَى فَوْقَى حَاجَةً بِيَدِ شَيْئاً تَلَقَّاهُ بِيَدِ
خَابَ مَنْ يَرْجُو زَمَاناً دَائِماً تُعْرِفُ الْبِأَسَاءُ مِنْهُ وَالنَّكَدُ
فَإِذَا مَا كَدَّرَ الْعَيْشَ نَمَا وَإِذَا مَا طَيَّبَ الزَّادَ نَفَدَ
فَلَقَدْ أَذْكَرَ مَنْ كَانَ سَهَا وَلَقَدْ نَبَّهَ مَنْ كَانَ رَقَدَ

وقال في قصيدة في الرثاء :

إِنَّا وَفَى آمَالِ أَنْفُسِنَا طُولُ وَفَى أَعْمَارِنَا قِصَرُ
لَنَرَى بِأَعْيُنِنَا مَصَارِعَنَا لَوْ كَانَتْ الْأَلْبَابُ تَعْتَبِرُ
مِمَّا دَهَانَا أَنَّ حَاضِرَنَا أَجْفَانُنَا وَالْغَائِبَ الْفِكْرُ
وَإِذَا تَدَبَّرْنَا جَوَارِحَنَا فَأَكْلُهُنَّ الْعَيْنُ وَالْبَصَرُ
لَوْ كَانَ لِلْأَلْبَابِ مُمْتَحِنُ مَا عُدَّ مِنْهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ
أَيَّ الْحَيَاةِ أَلَدُّ عَيْشَتَهَا مِنْ بَعْدِ عِلْمِي أَنِّي بَشَرُ
خَرَسْتُ لِعَمْرِ اللَّهِ أَلْسُنَا لَمَّا تَكَلَّمْ فَوْقَنَا الْقَدْرُ

الزهد :

وإذا كانت الحكمة ضئيلة جافة في الشعر الأندلسي ، فلم يكن الزهد كذلك . وقد كان لسلطة الفقهاء تأثير في دفع الناس إلى التعصب الديني والتظاهر بالعبادة والعزوف عن الدنيا ومباهجها ، حتى كثر المتزهدون وأصبحت صناعة الزهد شيئاً مرغوباً . فكان الشعراء ينظمونه بدافع ديني أحياناً وبدافع تقليدي أحياناً آخر . على أن من الشعراء من نظمه وقد شعر حقاً بندمه وأدرك غرور الدنيا فأخذ يذكر ذنوبه طالباً مرضاة الله وعفوه . وهذه ظاهرة طبيعية لكل إنسان انغمس في الملذات إذ لا بد له من ساعات ندم يخلد فيها إلى نفسه ، ومثال أبي نواس شاهد على ذلك في توبته الأخيرة .

على أن كثرة الحروب والفتن وتقلب الأحوال أثرت في نفوس الشعراء فمالوا إلى الطعن بغدر الأيام وغرور الزمن ، وقادهم هذا الموقف إلى لون من الشعر الشاكي الذي انتهى بهم إلى الزهد والتقشف وذكر الله . فلنسمع ابن عبد ربه وهو يصف الدنيا بأنها دار للفجائع والمصائب :

ألا إنما الدنيا غصانة أيكة إذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع عليها ، ولا اللذات إلا مصائب
فكم سخنت بالأمس عينا قريرة وقرت عيوناً دمعها اليوم ساكب
فلا تكتحل عيناك منها بعبرة على ذاهب منها . فإنك ذاهب

ولنسمع ابن حمديس يبكي ذنوبه ، فنجد في هذا البكاء برماً بالحياة ونظرة خاشعة إلى الله تتمثل فيها سمات الشعر الزهدي بشكل عام :

يا ذنوبي ثقلت والله ظهري بأن عذري فكيف يقبل عذري
كلما تبئت ساعة عدت أخرى لضروب من سوء فعلي وهجرى

دَبَّ مَوْتُ السَّكُونِ فِي حَرَكَاتِي وَخَبَا فِي رَمَادِهِ حَرٌّ جَمْرِي
 يَا رَفِيقًا بَعْبِدِهِ وَمَحِيطًا عِلْمُهُ بِاخْتِلَافِ سِرِّي وَجَهْرِي
 مِلْ بِقَلْبِي إِلَى صَلاَحِ فَسَادِي مِنْهُ وَاجْبُرْ بِرَأْفَةٍ مِنْكَ كَسْرِي
 وَأَجِرْنِي بِمَا جَنَاهُ لِسَانِي وَتَنَاجَتْ بِهِ وَسَاوُسُ فِكْرِي

التصوف :

ويتصل بالزهد التصوف ، وقد ظهر بين الشعراء الأندلسيين من نظموا شعراً صوفيّاً رائعاً كابن عربي شيخ المتصوفين . فقد ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ وانتقل إلى إشبيلية ثم سافر إلى الشرق ومات في دمشق سنة ٦٣٨ هـ ، وله قصائد وموشحات صوفية سائرة . وكان هناك اتصال بين متصوفة المشاركة ومتصوفة المغاربة من جراء تبادل الرحلات والتنقل بين الغرب والشرق ، فلمسنا لهذه وحدة في طرائقهم وأساليبهم .

الشعر الحماسي :

وإذا كان الشعر الزهدي قد دعت إليه ظروف الشعراء وواقعهم فلم يكن الأمر كذلك فيما يختص بشعر الحماسة . فقد كان شعراء الأندلس بعيدين عن أن يعيشوا عيشة الأبطال والفرسان ، لذلك اقتصر شعرهم الحماسي على مدح الملوك ووصف معاركهم الحربية وكانوا بذلك شعراء مصورين لا شعراء مغاوير يعبرون عما يجيش في نفوسهم ، ولهذا فقد كان المدح غاية الشعر الحماسي ولم يرتفع من أجل هذا شأنه عندهم ، وبقي الدافع إليه التقليد لا العاطفة . وقد كنا نأمل أن تنفخ فيها غارات الأعداء روح الحماسة ولكن أكثرهم ، ولا سيما شعراء ملوك الطوائف ، قد فضلوا أن يخلدوا إلى شعر الضعف والشكوى والبكاء ، ولعل نفسية الشاعر الأندلسي الوداعة المستسلمة لأحلام الطبيعة والرخاء تلائم هذا النوع من الشعر أكثر من ملاءمتها للشعر الصاخب القوي الذي امتاز به شعراء المشرق ،

ولا شك أن الظروف الإقليمية أثراً في هذا الاتجاه النفسى الذى أضعف فيهم روح الحماسة وقلل من حدة البداوة ، فرأينا الفخر قد قل في شعرهم ، وعندما يظهر نراه يصطبغ في أكثر الأحيان بصبغة دينية لتعلق الشاعر الأندلسى بإسلامه ولما بينه وبين جيرانه النصارى من العداء . أما صفات البطولة والشجاعة فكانت تأتى على شفاههم متكلفة مصطنعة لفقدان الشعور الصميم بأنهم يتحلون بها كما في حماسات ابن وهبون من شعراء المعتمد بن عباد ، وقد توفى هذا الشاعر ، كما يظهر ، في النصف الأول من القرن السادس للهجرة .

الوصف :

أما الشعر الوصفى فقد ظهر في أكثر أغراض الشعر ، وأظهر الأندلسيون فيه عبقرية نادرة لا سيما عندما تعرضوا إلى وصف الطبيعة وجمال العمران ومجالس الأنس والطرب . نعم لم يظهر الوصف في الشعر العربى كغرض مستقل وإنما رأيناه خلال المدح والغزل وغيرها من الأغراض ، ولكننا نستطيع أن نقول إن اهتمام الأندلسيين بالوصف كان كبيراً . وعلى الرغم من امتزاجه في أكثر الأغراض الشعرية فقد استطاع الأندلسيون أن يتفننوا به ويمنحوه بعض الاستقلال ، فهناك شعر وصفى لجميع مظاهر الحياة الحضرية الهائلة من وصف لمجالس اللهو والغناء والرقص والشراب وآلته والصيد وأدواته والنساء وأحوالهن ، وهناك شعر وصفى للطبيعة ولظواهر العمران والقصور كما سنرى ، وهناك شعر وصفى للحروب والسلاح والسفن ، وغير ذلك مما يتناول الحياة برخائها وحربها ، بطبيعتها الجميلة التى من بها الله ، وبقصورها وساحاتها المرمرية التى زخرقتها يد الإنسان .

ولا يعجب في أن يكون لوصف المعارك نصيب وافر من الشعر الأندلسى فإن الحروب بين المسلمين وأعدائهم الفرنجة لم تنقطع ، ولم تهدأ حرب إلا لتشن أخرى ، لهذا حفلت مدائح الملوك والأمراء بذكر المعارك والجيوش والحراقات ، وقد رأينا نموذجاً من هذا الوصف في قصيدة ابن هانئ الأندلسى الذى يمدح بها المعز لدين الله الفاطمى ويصف حراقاته .

الغزل - الخمر :

وإذا كانت الطبيعة لها المكان الأول بين أغراض الشعر الأندلسي ، فالغزل كان ينساب على شفاه الشعراء ويدعو إليه كل ما في الأندلس من طبيعة جميلة وحياة حضرية ناعمة ومجالس أنس ورخاء وخمر وغناء ، وقد ذكرنا لكم سابقاً بعض المشاهد عن الحياة اللاهية التي كان يحياها الأندلسيون ، كما أن أسواق النخاسة التي كان يباع فيها الجوارى والغلمان قد شجعت هذه الحياة اللاهية التي وجد الغزل فيها مرتعاً سهلاً . ومن الشعراء من أحب حياً صادقاً ومنهم من تمتع بوهم الحب ولها ، وقد استطاع الشاعر الأندلسي أن يرسم حبه ولوه بأبيات تعد من الشعر الجيد لأنها استطاعت أن ترسم الأجواء وتعبر عن خوالج النفوس . إلا أن أكثر غزلهم كان مقيداً بالتقاليد والتكلف ، ولم يستطيعوا أن يحلقوا في أجواء جديدة إلا عندما استطاعوا أن يهجروا الأسلوب القديم كذكر البادية والأهوال في سبيل الوصول إلى الحبيب ويتحدثوا عن حبه ومجالسهم وخلواتهم في كثير من الانطلاق . إلا أن هذا الحديث قد قادهم إلى حرية مؤذية أحياناً ، فيها الكثير من الفحش والتهمك ، وقد بلغ الغزل في زمن طوائف الملوك حالة مزرية في انحطاط ألفاظه ومعانيه وعبر بذلك عن حياة العصر المتهتك .

وقد كانت أوصافهم مادية تقليدية فتحدثوا عن سهام الألفاظ وخمر الرضاب وليل الشعر ونرجس العيون وغير ذلك من الأوصاف المألوفة فظهر تقليدهم ولم يجددوا المعاني ، فالحب ذليل والمعشوقة لا ترحم ، ومن هنا نشأ عندهم ما يسمى بالحب المعذب الذي تفنن الشعراء في وصفه فرحين بالتذلل للحبيب والخضوع له ، وقبلما حدثنا الشاعر عن أفراح الغرام فهو إذاً في ألم دائم . وقد عقد هنرى به رس (١) فصلاً قيماً عن الغزل في الشعر الأندلسي يبين فيه معانيه الأساسية وخصائصه ندعوكم إلى الرجوع إليه ، كما ندعوكم إلى الرجوع إلى الفصل الذي يتحدث فيه هذا المؤلف عن المعاني التي ألهمتها الطبيعة والعمران فهو فصل قيم أيضاً . ولعل

(١) انظر كتابه الذي أشرنا إليه سابقاً .

أجمل ما فى الغزل الأندلسى هو هذه النغمة المحزنة التى يبكى فيها الشاعر أيام سعادته بالقرب . الحبيب ويحن إلى أيامه الآفلة التى قضى الدهر أن تكون ذكرى لحب مميم ، وهذه النغمة هى التى منحت قصيدة ابن زيدون فى صاحبه ولادة هذه الشهرة حتى تناقلتها كتب الأدب ، فى هذه القصيدة التى مطلعها :

أُضْحَى التَّنَائِي بِدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنْ طَيْبِ لُقْيَانَا تَعْجَافِينَا

لحن موسيقى ونجوى غرامية شاكية استطاع ابن زيدون أن يخلق بها فى جو غزلى جميل كما سئى عند الكلام على هذه القصيدة بشىء من التفصيل .
هذا وقد بدت آثار البيئة على أشعار الأندلسيين الغزلية فشاع عندهم الغزل النصرانى وذكر الكنائس والقساوسة والصلبان كغزل ابن الحداد فى "نوىرة النصرانية"، كما شاع عندهم التشبيب بالشعر الأشقر والعيون الزرق لكثرة ما كانوا يصيبون من سببى فرنجة الشمال وهم شقر فى الغالب . وكانت تشبيباتهم مستمدة غالباً من الطبيعة، كما ذكرنا ، ولكن كثيراً ما كان يظهر عليها التكلف والصنعة ، وخير أشعارهم الغزلية ما كانت مجردة عن هذا التكلف كما فى قصيدة ابن زيدون السابقة الذكر .

* * *

ولنقل أخيراً إن هذا الشعر فى أغراضه المتعددة لا يختلف كثيراً عن الشعر الشرقى بل لعله لم يكن فى مرتبته من حيث المعانى والصور الفكرية ، وقد نلاحظ أنه قد كبّل بالصنعة فأسفّ أحياناً ولم يستطع أن يفلت من هذا الإسفاف إلا عندما أطلق الشاعر لقلبه حرية القول غير عابئ بقيود البيان والبديع . على أن للشعر الأندلسى ميزة هى هذه الرقة الممزوجة بالجزالة، وقد شعر الأندلسيون بهذه الظاهرة فى أدهم حين قال ابن بسام : « وذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة الصماء » .

وإذا كانت هذه الأغراض الشعرية التى أتينا على ذكرها قد استطاعت أن تصور لنا ، على أنماط مختلفة من الجودة ، بعض صفات الشعر فى الأندلس ؛

فإن وصف الطبيعة . وهو أبدع أشعارهم ، قد عرف هناك ازدهاره ووجد في سماء الأندلس شمسها ونهاره . وقد رأينا كيف كانت الطبيعة مثار قرائح الشعراء الأندلسيين أمثال ابن حمديس وابن خفاجة وغيرهما . فجدير بنا أن نقف عند هذا الشعر - شعر الطبيعة - وقفة نجتلي فيها مزاياه ونوضح أسرار جماله وخفاياه .

وسنوجز الكلام ، في الفصل الآتي ، على مفهوم هذا الشعر ونشأته في أدبنا العربي ، ثم نعرض على ذكر بواعثه وخصائصه في أدبنا الأندلسي ، ونورد في نهاية الحديث بعض المختارات الشعرية لأعلام شعر الطبيعة في الأندلس .

الفصل الخامس

شعر الطبيعة

هام الإنسان بالطبيعة منذ أن فتح عينيه على محاسنها وتطلع بحب إلى جمال روضها ورونق سماءها . وقد وجد فيها الشاعر والكاتب ، منذ القديم ، مرتعاً لخياله ومقيلًا لأفكاره . وكانت وحى من استلهمها ، تنشيه باهتزاز أزهارها وانسياب جداولها ، وتلاؤظ طللها ، وهدوء ظلها ، فيجود بالكلم الخالد واللوحة الناطقة .

و « شعر الطبيعة » تعبير جديد في أدبنا ، جاءنا من الآداب الغربية وكان له فيها أصوله وشعراؤه . وقد أطلقه النقاد الغربيون على الشعر الذى كان من أهم مظاهر الحركة الإبداعية الرومانسية Romantisme فى أواخر القرن الثامن عشر . وقد وجد الشعراء الإبداعيون فى الطبيعة ميداناً فسيحاً لحرية العمل ، وتربة خصبة لنمو العواطف الإنسانية ، وموضوعاً أكثر ملاءمة للأسلوب القوى الصريح . والطبيعة كما يفهمها « الرومانسيون » صديقة وفية يحبونها لما تمنحه من جمال لحسهم وهلواء لنفوسهم . فيستسلمون إليها ويشاطرونها المناجاة ويوحدون إليها بعواطفهم وآلامهم ، ويصورونها بقساوتها وجمالها . وكثيراً ما تكون ملجأً لنفوسهم التعبلة القلقة ، ولذا فهم يفرّون إليها ناشدين بالقرب منها طهارة الحياة ونعيم السعادة مع من يحبون ويعشقون . وقد كان جان جاك روسو من أوائل الكتاب الذين غدوا الأدب الفرنسى بهذا الحس الطبيعى العميق .

على أن هذه الحركة كان لها جذور فى الماضى ، فهناك الكثير من الآثار اليونانية التى تغنت بجمال الطبيعة ، وقد ظفرت الإلياذة والأوديسة بقسط جميل من هذا الفن . وفى الواقع أن شعر الطبيعة بمعناه العام لم يكن مقتصرًا على عصر دون آخر ، بل كان قسمةً بين جميع العصور . إلا أنه ساد وعمقت فلسفته وتميز شعراؤه فى الحركة الإبداعية .

شعر الطبيعة في الأدب العربي :

فما هو شعر الطبيعة في أدبنا العربي ؟ وعلى أى شكل قاله الشعراء ؟

عرف الشعرُ العربي القديم شعرَ الطبيعة على الشكل الذى أوحى به البيئة البدوية ، وقد تهيأ للشاعر الجاهلى من هذا الفن حظ وافر ، فأخذ يتأمل الطبيعة ويبثها آلامه ويفتن بها ويصورها تارة ببصره وأخرى بقلبه . ويقف على أطلال الديار فتثير شجونه ، وتملك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده ، وتستهويه الصحراء بحيوانها ورمالها وآلها واحاتها ونجومها وبرقها ومطرها . فالشعر الجاهلى مثل الحياة البدوية من هذه الناحية ، وصورها على النمط الذى مثله الشعر الرعوى فى البيئة الغريبة^(١) ، فقد مثل هذا الشعر الرعوى الطبيعة بحيوانها وطيورها وغاباتها وحقولها ، وبدا فيه الحب للحياة الريفية ، ولكنه لم يصدر فى الحملة عن الملاحظة الذاتية والشعور بل عن التقليد والتخيل^(٢) .

وقد نحا شعر الطبيعة فى فجره عند العرب هذا المنحى ، وبقي على الغالب صورة لما تراه العين أكثر من أن يكون مشاركة للعواطف التى توحى بها الطبيعة وانفعالا ذاتياً للشعور .

وقد تناول شعر الطبيعة فى العربية ، كما تناول عند الغربيين ، الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة ، ويتصد بالطبيعة الحية ما اشتملت عليه من أصناف الحيوان ما عدا الإنسان ، وبالطبيعة الصامتة مظاهرها ووجودها المتجسد فى سهولها وبحارها وسمائها وبواديها وحدائقها وحقولها وما إلى ذلك .

(١) الشعر الرعوى la poésie bucolique فن شعري وثيق الصلة بشعر الطبيعة la poésie de la nature ، وقد نما هذا الفن وازدهر فى عصر النهضة مع الحركة الإنسانية . ولعل الشاعر الإيطالى بترارك من ساعد على نموه بشغفه بالطبيعة وإيوائه إلى الجبال والغابات بينما كان معاصروه يعتبرونها مواطن للشياطين . والقصيدة الرعوية مقطوعة غنائية حوارية قصيرة ذات طابع ريفي تمثل مناظر الطبيعة . وقد كان لرعاة اليونان القدماء حظ فى نشأة هذه الأغاني ، وازدهر هذا الفن فى إيطاليا فى عصر النهضة ، وتقدم فى فرنسا فى القرن السادس عشر متأثراً بريفيات القرون الوسطى .

(٢) انظر « شعر الطبيعة فى الأدب العربي » للدكتور سيد ذوقل ص ٩ .

وقسم بعضهم الطبيعة الصامتة إلى طبيعة طبيعية وهى ما أشرنا إليه ، وطبيعة صناعية وهى التى عمل الإنسان فى تأليفها وتنسيقها كالفقصور والبرك والزخارف المرمرية وما شابه ذلك .

والطبيعة الصامتة الطبيعية أكثر ملاءمة لمفهوم كلمة « الطبيعة » ، وأكثر إيحاء للحس الطبعى . فهى التى تحدث فى النفس ذلك الحس الشعورى الذى ينبض بجمالها ، وما أصناف الحيوان فيها ومنشآت اليد البشرية إلا متممات منفصلة عن روح « الطبيعة » بمعناها الحقيقى . وقد يكون وصف العصفور على غصنه أكثر تجاوباً مع شعر الطبيعة من وصفه مجرداً عن الغصن والشجر والدوح والماء . وليس من صميم الطبيعة ، كفن شعرى ، أن ندمج فيها وصف الحمل والذئب والأسد وما شابهها ؛ إن هذا الوصف أقرب إلى فن الوصف منه إلى شعر الطبيعة الذى نحب أن نجد فيه خصائص مميزة تبدو فى هذا الحس الطبعى والتجاوب الذاتى .

وإذا كان قد درج بعض النقاد على هذا التقسيم فنحن نقبله كأمر واقع ولكننا لا نستطيع إلا أن نعرف شعر الطبيعة بقولنا :

هو الشعر الذى يمثل الطبيعة وبعض ما اشتملت عليه فى جو طبعى يزيده جمالا خيال الشاعر ، وتمثل فيه نفسه المرهفة وحبه لها واستغراقه بمفاتها .

وكلما كان شعر الطبيعة معبراً عن هذه المشاركة وهذا الاستغراق ومصوراً جمال الطبيعة وقتنتها فى شتى مظاهرها ، كان هذا الشعر مزدهراً ومحققاً غرض موضوعه . والطبيعة فى الواقع معنى كلى يتعاون كل جزء من أجزائها على جعل هذا المعنى كائناً حياً خالداً يوحى لقلب الشاعر بالحب والجمال ويبعث فى نفسه شتى العواطف الإنسانية السامية .

فكيف وصف العرب الطبيعة إذاً بعد أن قدمنا هذا التعريف ؟

لقد وصف الشاعر العربى منذ القديم الطبيعة وأحبها ولم تكن غريبة عنه ، ولكنها لم تتميز حينذاك كفن شعرى قائم بذاته ، وقد كان أكثر شعراء الجاهلية يصورون الطبيعة بقسميها الصامت والحى ، وكانوا على الغالب ينظرون إليها نظرة

مصور ومع هذا فقد بدا على وصفهم الشغف بها وبظواهرها ؛ فهذا امرؤ القيس لم يحمد أمام مشاهد الطبيعة فوصف الليل وشبهه بموج البحر ووصف طوله فإذا به لا يترشحزح كأن نجومه شدت بحبال متينة إلى جبل يذبل ، ووصف البرق وجعل لمعانه كلمع اليدين تتحركان بسرعة أو كمصباح راهب ، ووصف الغيث وبدت فتنة الشاعر به ، ثم وقف على الأطلال وبكاها ، وبكاء الأطلال مظهر من مظاهر وصف الطبيعة الذى يتجلى فيه البث والشكوى والتجاوب مع البيئة الطبيعية .

وامرؤ القيس وصف أيضاً الطبيعة الحية فصور فرسه على شكل جدير بالإعجاب ، ووصف الناقة وحمار الوحش والظلم والنعامة وكان وصفه يدل على التفنن والاستقصاء .

ومن هنا يبدو أن وصف الطبيعة عند شعراء الجاهلية كان تعبيراً عن البيئة البدوية ببساطة وصدق .

ولما انتقل العرب من البداوة إلى الحضارة وعرفوا نعيم الحياة وترف القصور وجمال الرياض ، تطور شعر الطبيعة ، ولكنه لم يستطع أيضاً أن يستقل كفن خاص وبقي هو والوصف ممزوجاً بأغراض أخرى كالغزل والمدح والطرده والخمر . وكانت الطبيعة التى وصفها الشعراء آنذاك تختلف عن طبيعة البدوى فى عناصرها ومقوماتها .

وقد كان الحديث عن الطبيعة فى العصور العباسية تعبيراً عن بعض مظاهر هذه الحياة الجديدة اللاهية التى عرفتها هذه العصور ووصفاً لهذه الطبيعة الندية التى فتن بها الشعراء وغير الشعراء .

على أن شعراء العصور العباسية ، على رغم وصفهم لمفاتيح الطبيعة بدقة وإعجاب ، لم يكونوا يستطيعوا الاندماج بها والتعبير عن خفايا شعورهم نحوها . لذلك نزعوا إلى الوصف المادى والعبث اللفظى متأثرين بتيار التألق والصنعة الذى ساد آنذاك ثم اشتدت وطأته فى عصور الانحطاط حتى قضى على الروح العفوية فى الشعر .

نقول هذا ونحن نعلم أن بعض الفحول فى هذه الفترة قد استطاعوا أن يضيفوا

إلى أوصافهم المادية للطبيعة حساً وذوقاً جعلهم يأتلفون معها ويستغرقون في نشوة جمالها ويبادلونها العاطفة بعاطفة والحب بحب .

فهذا أبو تمام والبحترى وابن الرومي يقدمون لنا عن الطبيعة صوراً ذات نشاط وحياة ومباهج فاتنة . فلنسمع ابن الرومي يصف غروب الشمس وصفاً تراءى فيه المشاركة الوجدانية على شكل لم يسبق إليه فيقول :

وقد رنَّقتُ شمسُ الأصيل ونفَّضتْ

على الأفقِ الغربيِّ ورْساً مُزعزعا^١

وودَّعت الدنيا لتقضى نحبها وشولَ باقي عمرها فتشعشعا^٢

ولاحظتْ النُّوارَ وهى مريضة^٣

وقد وضعتْ خدّاً إلى الأرض أضرعا^٤

كما لاحظتْ عوَّادَه عينٌ مُدَنَّفٌ توجَّعَ من أوصابه ما توجعا^٥

وظلَّتْ عيونُ الروضِ تخضلُّ بالنَّدَى

كما اغرورقتْ عينُ الشجى لتمدما

يُراعينها صُوراً إليها رَوَانِيَا وَيَلْحَظْنَ الْحَاظاً مِنَ الشَّجْوَحِ شَعَا^٦

وبينَ إغضاءِ الفراقِ عليهما كأنهما خِلاً صفاءٍ تودعا

(١) بورس : نبات أصفر . مزعزعا : متحركاً .

(٢) شول : نقص حتى كاد ينتهى .

(٣) أضرع صفة مشبهة بمعنى ضارع : ذليل .

(٤) المدنف : المريض .

(٥) الصور : ج صوراء وهى الدائلة العتق .

وقد ضَرَبْتَ في خُضرةِ الرُّوضِ صَفرةً
 من الشمسِ فاخضرَّ اخضراراً مُشعَّشعا
 وأَذَكَّى نَسِيمَ الرُّوضِ رِيحانُ ظِلِّهِ
 وغنَّى مغنَّى الطَّيْرِ فيه وَسَجَّعا

وهذا ابن المعتز نراه تستهويه الصورة فيأتى شعره في الطبيعة آيةً على إرهاف حاسة البصر وحسن استقباله للألوان والأصباغ ودقة إخراجه للصور والأشكال كقوله يصور احتجاب الشمس وراء السحب :

كَأَنَّ الشَّمْسَ يَوْمَ الْغَيْمِ لَحَظَ . مَرِيضٌ مَدْنَفٌ مِنْ خَلْفِ سِتْرِ
 وقوله يصف الهلال وصفاً فيه بهاء الصورة وترفها :

انْظُرْ إِلَى حُسْنِ هلالٍ بَدَأَ يَهْتِكُ مِنْ أَنْوَارِهِ الْحِنْدِسَا
 كَمِنْجَلٍ صَيَغَ مِنْ فِضَّةٍ يَحْصِدُ مِنْ زَهْرِ الدَّجَى نَرْجِسَا

ويستوقفنا في القرن الرابع الهجري شاعر عبقري هو أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبري وقد اجتمعت لديه أكثر مقومات شاعر الطبيعة وكان من هذه الكوكبة من شعراء الوصف الذين عاصروا المتنبي فطغت عليهم شهرته العظيمة . لقد كان الصنوبري شاعر الروض والزهر وقد صدر في شعره عن شعوره الصادق نحو الطبيعة .

تلك هي أسماء في سماء الشعر العربي ترسم لنا الشكل الذي قيل فيه شعر الطبيعة في المشرق أتينا بها كمدخل لبحثنا ، فإلى حال شعر الطبيعة في الأندلس ، وما هي الدواعي التي جعلت هذا الشعر يزدهر في تلك الأرض الأندلسية الحبيبة .

(١) أذكى : عطر ونشر الرائحة الجميلة . ريعان الشباب : نضرتة ، وريعيان الظل : امتداد وكونه وارفاً .

بواعث شعر الطبيعة في الأندلس وخصائصه الهامة

منح الله الأندلس طبيعة فاتنة فكانت أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالا . ترتفع فيها الجبال الخضراء وتمتد في بطاوحها السهول الواسعة وتجرى فيها الجداول والأنهار وتغرد على أفنان أشجارها العنادل والأطيّار وتنساب الماشية والأنعام في مراعيها الجميلة ويعمل الفلاحون في حقولها الخضراء ويعطر النسيم جوّها المعتدل وبساتينها المشرقة . وقد تحدّث عن جمالها كلُّ من حلها . وأفاض المقرئ في وصف طبيعتها الفتانة وجنانها البهيجة وانتهى إلى أن « محاسن الأندلس لا تستوفي بعبارة ، ومجاري فضلها لا يشق غباره » .

وقد كان من أثر جمال الأندلس أن شغفت بها القلوب وهامت بها النفوس ، فتعلق بها الأندلسيون جميعاً وأقبلوا يسرّحون النظر في خمائلها ويستمتعون بمفاتنها ما شاء لهم الاستمتاع ، وأخذ الشعراء والكتاب ينظمون كلمهم درراً في وصف رياضها ومباهج جنانها بعد أن فتحت في نفوسهم قول الشعر وجعلتهم يرون فيها — كما يقول ابن خفاجة — جنة الخلد بمائها وظلها وأنهارها وأشجارها :

يا أهلَ أُنْدَلُسِ اللهُ دَرَكُكُمْ ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنةُ الخلدِ إلا في ديارِكُمْ ولو تخيرتُ هذا كنتُ أختارُ
لا تختشوا بعدّها أن تدخلوا سقراً فليس تُدخلُ بعدد الجنةِ النارُ

وقد ملكت معاني هذا الجمال نفوسهم واستحثت قرائح الشعراء فيهم وغدتها أفضل غذاء ، وكان يكفي أن تهب على ساكن هذه الجنة نفحة من نسيم عليل ليصبح مع شاعرها ابن خفاجة :

إن للجنةِ في الأندلس مُجْتَلَى حُسْنٍ ورِيّاً نَفْسِ

فَسَنَا صُبِّحَتْهَا مِنْ شَنْبٍ وَدَجَى ظُلُمَتِهَا مِنْ لَعَس
فَإِذَا مَا هَبَّتْ الرِّيحُ صَبَا صِحْتُ : وَاشَوْقِي إِلَى الْأَنْدَلُسِ !

ولم يكن جمال الطبيعة في الأندلس هو وحده الذي ساعد على ازدهار شعر الطبيعة فيها ، بل إن الحياة اللاهية نفسها التي أشرنا إليها والتي عاشها الشعراء كانت سبباً لهذا الازدهار ، إذ كانت الطبيعة مسرح حياة الشاعر اللاهية ، وفي أحضانها استسلم للهوه وحبه وخمره ، وعكف يصور هذا اللهو وهذا الحب وهذه الحمرة في إطار الطبيعة مقدماً لنا لوحات فيها العبير والأصباغ والألوان .

فما هي تلك الخصائص التي امتاز بها شعر الطبيعة في الأندلس ؟

١ - هو شعر يمثل تعلق الشعراء الأندلسيين ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات ، بعد أن كان هواهم متعلقاً بصور الجزيرة العربية . وقد رأينا كيف أن ابن خفاجة يتعلق بالأندلس ويراهها جنة الخلد ، ويرى أن كل ما فيها جميل مطرب ، ولابن زيدون وابن حمديس ولغيرهما من الشعراء مثل هذا التعلق . وهذا الحب كما رأينا فيما تقدم .

٢ - هو شعر يصف طبيعة الأندلس الطبيعية والصناعية ، فشعراء الطبيعة يصفونها كما أبدعها الله في الحقول والرياض والأنهار والجبال والسماء والنجوم ، ويصفونها كما صورها الفن مجلوة في القصور والمساجد والبرك والأحواض فيكمل تذوقهم لجمال الطبيعة وتضج ألوانها وأشكالها أمام نواظرهم فيزدادون لها حباً وبها تعلقاً ، وهم كذلك قد أتوا على أوصاف جديدة للطبيعة الحية كما فعل ابن خفاجة في وصف الفرس والذئب .

٣ - وهو شعر يصف الأقاليم الطبيعية المختلفة لبلاد الأندلس ، فكان لبعض الأقاليم شعراؤها الذين اهتموا بوصف ديارهم . فابن زيدون يتغنى بقرطبة وزهراتها . وابن سفر المريني يصف إشبيلية ، وأبو الحسن بن نزار يتعلق بوادي أشات فيصوره تصويراً ينفذ عن براعة بما يتركه في النفس من طراوة الندى والظل والشجر فيقول :

وادی الأشیات يهيجُ وجدي كلما أذكرت ما أفضت بك النعماء
للهِ ظِلُّكَ والهجيرُ مسلطٌ . قد بردت لفحاته الأنداء
والشمسُ ترغبُ أن تفوز بلحظة منه فتطرف طرفها الأفياء
والنهرُ يبسمُ بالحجابِ كأنه سلخُ نضته حية رقطاع
فلذاكَ تحذره العيونُ . فمیلها أبداً على جنباته إيماء

وهكذا كان شعراء الأندلس يعبرون عن مشاهد طبيعية رأوها وعاشوا في رحابها وأحسوا بجمالها .

٤ - الطبيعة عندهم طروب تبعث جو الطرب ، ووصفها يمثل الجوانب الضاحكة الندية منها ، وأكثر شعرهم في الطبيعة وصف لمتنزهاتهم ومجالس أنسهم ولطوهم في أحضانها كما بدا لنا من الأمثلة التي جئنا على ذكرها فيما تقدم .

٥ - وصف الطبيعة عندهم متصل بالغزل والخمر ، وهو طريق إليهما ، ولذا فقد رأينا شعراء الأندلس لا يذكرون الطبيعة إلا في رحاب الحب بل لا يذكرون الحب إلا في رحاب الطبيعة ، وهم بهذا يمنحون غزلم لوناً بهيجاً من الجمال تقدمه الطبيعة التي تضم خلواتهم وتفسح لهم مجال اللهو والشراب ، والأمثلة كثيرة في شعر ابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة وغيرهم على امتزاج الطبيعة بالغزل والخمر وما يقتضيه هذا الامتزاج من لحو وطرب . فغزل الأندلسيين إذن يهتم ، إلى جانب وصف المحبوب ، بالمكان الذي ضم هذا المحبوب وهو غالباً الطبيعة ، بينما كان الغزل بالمشرق يهتم ، على الغالب ، بالوصف المادى وذكر الحوار واللقاء كما كان يفعل عمر بن أبى ربيعة وشعراء مدرسته ومن جاء بعده .

٦ - المرأة صورة من محاسن الطبيعة ، والطبيعة تجدد في المرأة ظلها وجمالها ، ولذا كانت الحبيبة روضاً وجنة وشمساً ، وقد قال المقرئ عن شعراء الأندلس « إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً ومن الزجس عيوناً ومن الآس أصداغاً

ومن السفرجل نهوداً ومن قصب السكر قلدوداً ومن قلوب اللوز وسرر التفاح
مباسم ومن ابنة العنب رُضاباً^(١). وهكذا كانت العلاقة شديدة بين جمال المرأة
وبين الطبيعة فلا تذكر المرأة إلا وتذكر معها الطبيعة .

٧ - وشعرهم يعنى بتشخيص الطبيعة وتصويرها على نحو إنسانى تملؤه الحركة
والنشاط كما فى شعر ابن زيدون وابن خفاجة وغيرهما وكما فعل لسان الدين بن
الخطيب فى موشحته التى عارض بها موشحة ابن سهل والتى مطلعها :

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلِسِ
لَمْ يَكُنْ وَضْلُكَ إِلَّا حُلُمًا فِي الْكَرَى أَوْ خِلْسَةَ الْمُخْتَلِسِ

ففى هذه الموشحة يجلّل الحيا الروض فتبسم تغور الزهور ، ويتناجى الماء
والحصا فيغار الورد ويحمر حنقاً ، ويتنبه الآس فيسرق السمع ليفهم سر المناجاة .
والشعر الأندلسى يقدم لنا لوحات أخرى تم عن امتزاج الشاعر بالطبيعة
وصدق عاطفته نحوها وتشخيصه لها حتى أصبحت لسان نجواه وخفقه قلبه .

٨ - وشعر الطبيعة عندهم لا يظهر كغرض مستقل إلا نادراً فى بعض
المقطوعات والقصائد ، وقد امتزج فى أكثر الأغراض التى طرقها الشعراء
الأندلسيون ، وكان الغزل كما رأينا أكثر هذه الأغراض امتزاجاً بالطبيعة ، إلا أن
هذه الثنائية نراها أيضاً فى المدح والرثاء والعتاب والفخر ، فهذا ابن زيدون يصف
خلائق أبى الوليد بن جهور بالروض الضاحك . فيقول :

لِلجَهْوَرِيِّ أَبَى الْوَلِيدِ خَلَائِقُ كَالرَّوْضِ أَضْحَكُهُ الْغَمَامُ الْبَاكِي

وكذلك يمدح المعتمد على نعمه فيراها جنة يضل فيها القريض :

أَوْرَثْتَنِي نِعْمَاكَ جَنَّةَ عَدْنٍ جَالٍ فِي وَصْفِهَا فَضْلَ الْقَرِيضِ

ثم يعاتب ابن زيدون صاحبه أبا حفص بن بُرد ويطلب منه أن يكون مثله دائماً الوفاء فينظر إلى الطبيعة فيزى في الآس وديمومة اخضراره ما يريد أن يعبر عنه :

لا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرْدًا إِنْ عَهْدِي لَكَ آسٌ

وهكذا فذكر الطبيعة يمنح هذه الأعراض صفة أندلسية تتجلى في اقتناص المعاني من طبيعة الأندلس .

٩ - وقد كان لطبيعة الأندلس وما احتضنت من غزل ولهو وغناء أثر في اختراع قالب شعري جديد طبعته الأندلس بطابعها ألا وهو « الموشح » ذلك الفن الشعري المستحدث الذي غنى طبيعة الأندلس وطوها وعاش في نعيم ظلالها وعَبَّقَ ريحانها .

* * *

هذه جملة المميزات لشعر الطبيعة في الأندلس ، وقد استطاع شعراؤها أن يصفوها ، في كثير من الحالات ، من خلال نفوسهم ولكنهم نظروا إليها ، على الغالب ، نظرة مصور فبدت لعبونهم كثيرة الأصباغ والألوان وزينوها بصناعة لفظية وخيال بصرى أنيق . ولم يستطيعوا أن يتجردوا من ماضى شعر الطبيعة وإن كانوا قد طبعوه أحياناً بطابعهم وأخضعوه لمقومات بيئتهم . ولئن استطاع بعضهم في عدد من القصائد أن يصف خلجات نفسه نحوها ، لقد قصبروا بصورة عامة عن الاتحاد بها اتحاداً تاماً على طريقة المفهوم « الرومانتيكى » عند شعراء الغرب .

وهكذا بقى شاعر الطبيعة الأندلسى ، على رغم حسه العميق وحبه للطبيعة ، يصورها ويزخرفها ببصره ويحسمها ويحملها بخياله ، فأجاد الصناعة ولم ينفخ فيها دائماً الروح .

* * *

والخلاصة أن وصف الطبيعة في الأندلس كان ، على الغالب الأعم ، شغفاً

بمحاسنها وتصويراً حسيّاً لمباهجها ، تموج به ، بين حين وآخر ، خفقة من حياة ودفقة من عاطفة صادقة .

وإننا لواجدون في المنتخبات الشعرية الآتية بعض هذه الخصائص التي أتينا على ذكرها .

* * *

منتخبات

من شعر الطبيعة في الأندلس

من شعر ابن حمديس :

قال ابن حمديس يصف الخمر في ظلال الطبيعة :

نحن في جنةٍ نباكرُ منها ساحليّ جدولٍ كَسَيْفٍ مجردٍ
صقلتُ منه مداوسُ شمسٍ من خلال الغصون صقلاً مُجَدِّداً
ومدامٍ تطير في الصحن سُكُراً فتَحَلُّ العقودُ منها وتُعَقِّدُ
جِسْمُها بالبقاء في الدنَّ يَبْلَى وقواها مع الليالي تَجَدِّدُ
وإذا الماءُ غاضَ في النار منها أخرجَ الدُرُّ من حبابٍ منضدٍ
يا لها من عصيرٍ أوَّلِ كرمٍ سَكِرَ الدُرُّ منه قِدماً وعربد
جنةٌ مَجَّت الحيا إذ سقاها مُصلِحٌ من غمامِهِ غيرُ مُفسِد
قد لبسنا غلائلَ الظلِّ فيها مُعلّـماتٍ من الشّعاعِ بِعَسَجَدٍ

(١) المداوس : مفردها مدوس ومدواس وهي المصقلة

(٢) الدن : جمعها دنان وهي راقود الخمر .

(٣) معلّـمات : مخططات .

ورأينا نارنجها من غصون
 ككرات محمرة من عقيق
 وكان الأنوار فيها ذبال^١
 وكان النسيم بالفرج ينفش
 حيث نُسقي من السرور كووسا^٢
 ذو صفير مرجع أو هديل
 شاديات تمسى الغصون وتضحى
 كان ذا والزمان سمح السجايا
 والصبا في معاطفي وكأني
 هزت الريح خصرها فهي ميد
 تدرىها صوالج من زبرجد
 بسليط^٣ من الندى تترقد
 بين روضاتها سرائر خرد^٤
 ونغنى من الطيور وننشد
 أسمعتهم عن الغريض ومعبد^٥
 رُكعا للصبا بهن وسجد
 ببواد من الأماني وعود
 غصن في يد الصبا يتأود^٦

قال ابن حمديس يصف الليل والثريا والنسها وطلوع الفجر وشروق الشمس ،
 في مقطوعة مطلعها :

وليل رَسَبْنَا في عُبابِ ظلامه إلى أن طَفَأَ للصباح في أفقه نجم
 كأن الثريا فيه سَبْعُ جواهر فواصلها جَزَعُ به فُصِّلَ النِّظْمُ
 وتحسبها من عَسْكَرِ الشُّهْبِ سُرْبَةٌ
 عماثمهم بيض وخيلهم دهم^٧

-
- (١) الذبال : مفردا ذباله وهي الفتيلة . السليط : الزيت .
 (٢) فرج الوادي : بطنه . الحرد مفردا خريدة وهي الحبيبة الطويلة السكوت .
 (٣) يتأود : يتأيل .
 (٤) الجزع : خرز فيه سواد وبياض واحدته جزعة .
 (٥) السربة : القطعة من خيل وقطا وطلباء .

كَأَنَّ السَّهْيَ مُضْمَنِي أَتَاهُ بِنَعِيشِهِ

بَنُوهُ وَظَنُّوا أَنَّ مَوْتَهُ حَتْمٌ^١

كَأَنَّ انْصِدَاعَ الْفَجْرِ نَارٌ يُرَى لَهَا وَرَاءَ حِجَابٍ حَالِكٍ نَفْسٌ يَسْمُو
وَتَحْسَبُهُ طِفْلاً مِنْ الرُّومِ طَرَّقَتْ بِهِ مِنْ بَنَاتِ الزَّيْجِ نَائِبَةً أُمُّ^٢
أَعْلِمَ فِي أَحْشَاهَا أَنَّ عُمُرَهُ - لَدَى وَضْعِهِ - يَوْمٌ ؟ فَشَيْبَةُ الْهَمِّ^٣
وَدَرَّتْ لَنَا شَمْسُ النَّهَارِ مَذِيبَةً عَلَى الْأَرْضِ رُوحًا فِي السَّمَاءِ لَهُ جِسْمٌ

نَزَحَ ابْنُ حَمْدِيسَ عَنْ صَقْلِيَّةٍ إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ سَنَةَ ٤٧١ هـ وَهُوَ فِي سَنِ الْخِدَاثَةِ
وَصَحِبَ الْعَرَبَ هُنَاكَ ، فَقَالَ هَذِهِ الْأَيَّاتُ الَّتِي تَصُورُ تَشَوُّقَهُ لِلطَّبِيعَةِ وَهَوَاهُا وَتَصِفُ
تَرْحَالَهُ وَتَغْرِبَهُ فِي فَيَافِيهَا :

إِنِّي لَا أَبْسُطُ لِلْقَبُولِ إِذَا سَرَتْ خَدَّيْ وَأَلْقَاهَا بِتَقْبِيلِ الْيَدِ^٤
وَأَضُمُّ أَجْنَابِي عَلَى أَنْفَاسِهَا كَيْمَا تَبْرُدَ حَرَّ قَلْبٍ مُكَمَدٍ
مَسَحْتُ كِرَاقِيَّةً عَلَى بَكْفِهَا وَنِقَابُهَا نِدٌّ مِنَ الزَّهْرِ النَّدَى^٥
وَعَرَفْتُ فِي الْأَرْوَاحِ مَسْرَاهَا كَمَا عَرَفَ الْمَرِيضُ طَبِيبَهُ فِي الْعُودِ
مَا لِي أُطِيلُ إِلَى الدِّيَارِ تَغْرِبًا أَفْبَالَ تَغْرِبِ كَانَ طَالِعُ مَوْلَدِي
أَبَدًا أَبَدٌ بِالنَّوَى عَزَمِي إِلَى أَمَلٍ بِأَطْرَافِ الْبِلَادِ مُبَدَّدٌ

(١) السها : نجم خفى من بنات نعث الصنرى .

(٢) القبول : ريح الصبا وتقابلها الدبور .

(٣) الرقاقية : التي تقوم بالرقية . ند : المثل والنظير .

(٤) النوى : البعد .

كم من فلاة جُبَّتْها بنجيبَةٌ عن منسَمٍ دامٍ وخطُمٍ مزبدٍ^١
 أبْقَى الجزيلُ لها جميلَ ثنائِه في العيسِ مَوْصُولاً بِقَطْعِ الفَدْفَدِ^٢
 ضربت مع الإِغْناقِ أَعْناقَ الفَلا بحسَامٍ ماءٍ في حَشَاها مُغْمَدٌ^٣

قال ابن حمديس من قصيدة يصف فيها مظاهر الطبيعة :

نَشَرَ الجَوُّ على الأَرْضِ بَرْدٌ أَيُّ دُرٍّ لِنُحُورٍ لو جَمَدٌ
 لَوَلَّوْا أَصْدافُه السَّحْبُ التي أَنْجَزَ البَارِقُ منها ما وَعَدُ
 آرَقَ الأَجْفَانِ رَعْدٌ صَوْتُهُ كَهْدِيرِ القَرَمِ في الشَّوْلِ حَفْدٌ^٤
 بات يَجْتَاحُ بِإِبْكَارِ الحَيَا بِلَدٍّ يَروِيهِ من بَعْدِ بَلَدٍ
 وَكَأَنَّ البَرَقَ فيها حَازِفٌ بِضِرَامٍ كُلِّما شُبَّ خَمَدٌ^٥
 تَارَةً يَبْدُو وَيَخْفَى تَارَةً كَحَسَامٍ كُلِّما سُلَّ غُمَدٌ
 يَذْعَرُ الأَبْصَارَ مَحْمَرًا كَمَا قَلْبَ الحِمْلَاقِ في اللَّيْلِ الأَسَدُ
 وَعَلِيلُ النِّبْتِ ظَمآنُ الثَّرَى عَرَّجَ الرَّائِدُ عَنْهُ فَزَهْدُ
 خَلَعَ الخِصْبُ عَلَيْهِ حُلًّا لِبَدِيْعِ الرِّقْمِ فِيهِنَّ جَدَدُ^٦
 وَسَقَاهُ الرِّىُّ من وَكَافَةٍ فَتَحَ البَرَقُ بِهَا اللَّيْلَ وَسَدُ^٧

(١) النجيبية : الناقة . المنسم : طرف خف الناقة . الخطم : مقدم فم الهابة .

(٢) العيس : الإبل . الفدقد : الفلاة .

(٣) الإغناق : السير الواسع الفسيح .

(٤) القرم : من الجمال ما لم يمسه جبل . حفد : أسرع .

(٥) حملاق العين : باطن أجفانها .

(٦) الرقْم : الوشي .

(٧) الوكافة : سحابة كثيرة المطر .

ذاتِ قَطْرِ دَاخِلِ جَوْفِ الثَّرَى

كحياةِ الرُّوحِ في موتِ الجسدِ
فَتَشْنَى الغصنُ سَكْرًا بِالنَّدَى وتَغْنَى ساجعُ الطيرِ غَرْدُ
وَكأن الصَّبِيحَ كَفُّ حَلَلَتْ من ظلامِ الليلِ بالنُّورِ عُقْدُ
وَكأن الشَّمْسَ تَجْرِي ذَهَبًا طَائِرًا في صَيْدِهِ من كُلِّ يَدِ

قال ابن حمديس يصف غديراً شقه نهر :

وزرقاء في لونِ السماءِ تَنَبَّهَتْ لِتَحْبُكْهَا رِيحُ تَهَبُ^١ مع الفجرِ
يَشْتَقُ حشاها جدولٌ مَتَكَفَّلُ^٢ بِسَقَى رِياضِ أُلْبَسَتْ حُلُلَ الزهرِ
كما طَعَنَ المَقْدَامُ في الحربِ دارِعاً بَعْضُ فَشَقَّ الخَصِرَ منه إلى الخَصِرِ
يُريكَ رُووساً منه في جِسمِ حَيَّةٍ سَعَتْ من حَيَاةٍ في حَدَائِقِهِ الخَضِرِ^٣
فلا رَوْضَةً إِلَّا استَعَارَتْ لَشُكْرِ^٤ لسانِ صَبَاً تَسْرَى مطيِّبةَ النَّشْرِ

من شعر ابن خفاجة

وصف الجبل :

قال ابن خفاجة يصف الجبل وهي من درر قصائده التي تمثل امتزاج الشاعر

بالطبيعة :

بِعَيْشِكَ هَلْ تَدْرِي أَهْوَجُ^١ الجَنَائِبِ
تَحْبُ^٢ بِرَحْلِي أَمْ ظُهُورُ النِّجَائِبِ^٣ ؟

(١) هوج الجنائب : رياح الجنوب الهوجاء . الجنائب : مفردتها نجيبة وهي النافاة الكريمة .

فما لُحْتُ في أُولَى المشارق كوكباً
 فأشرفتُ حتى جئتُ أخرى المغرب
 وحيداً تهادانى الفيافى فأجتلى وجوه المنايا فى قِناع الغياهب^١
 ولا جارٍ إلا من حُسامٍ مُصمَّمٍ ولا دارٍ إلا من قُتودِ الركائب^٢
 ولا أنسٍ إلا أن أضاحك ساعة
 تغورَ الأمانى فى وجودِ المطالب
 وليلٍ إذا ما قلتُ قد بادَ فانقضى
 تكشَّفَ عن وعدٍ من الظنِّ كاذب
 سحبتُ الدِّياجى فيه سودَ ذوائبٍ
 لأعتنقَ الآمالَ بيضَ ترائبٍ^٣
 فمزقتُ جيبَ الليل عن شَخْصِ أطلس
 تطلَّعَ . وضَّاحِ المَضاحِكِ قاطبٍ^٤
 رأيتُ به قِطْعاً من الفَجْرِ أغْبَشاً تأملُ عن نجم توقَّدَ ثاقبٍ^٥

(١) تهادانى الفيافى : تهدينى واحدة إلى أخرى . أجتلى : أنظر . الغياهب جمع غيب : الظلمات .

(٢) جار : حام وناصر . المصمم : الماضى . القُتود جمع قُتد : أخشاب الرجل . الركائب جمع ركوبة : النوق .

(٣) الدياجى جمع دجى : الظلمات . الترائب جمع تريبة وهى العظمة فى الصدر .

(٤) الجيب : ما يلى العنق من الثوب . عن شَخْصِ أطلس : أى عن شخص أفق أطلس والأطلس الذى فى لونه غبرة إلى سواد ، وهو وضاح المضاحك لأن الصبح بدأ يطلع فيه ، وهو قاطب لأن بقية من الظلام لا تزال فيه .

(٥) قطعاً : جانباً . تأمل : هنا انكشف ويقصد بالنجم فى البيت الزهرة أو عطاردها لأنهما يظهران فى الأفق على التناوب عند مطلع الفجر .

وَأَرَعْنَ طَمَّاحَ الدَّوَابِّ بِادْخٍ يُطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَارِبٍ^١
يَسُدُّ مَهَبَ الرِّيحِ عَنْ كُلِّ وُجْهَةٍ وَيَزَحْمُ لَيْلًا شُهْبَهُ بِالْمَنَاكِبِ
وَقَوْرٌ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاقِ كَأَنَّهُ طَوَالَ اللَّيَالِي مُفَكَّرٌ فِي الْعَوَاقِبِ
يَلُوثٌ عَلَيْهِ الْغَيْمُ سَوْدَ عَمَائِمٍ لَهَا مِنْ وَمِيضِ الْبَرْقِ حَمْرُ ذَوَائِبِ^٢
أَصْخَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ أَخْرُسٌ صَامِتٌ

فَمَحَدَّثَنِي لَيْلَ السُّرَى بِالْعَجَائِبِ^٣
وَقَالَ أَلَا كَمْ كُنْتُ مُلْجَأً قَاتِلٍ وَمَوَاطِنَ أَوَاهٍ تَبَتَّلَ تَائِبٌ^٤
وَكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدْلَجٍ وَمُؤَوَّبٍ وَقَالَ بَظُلِّي مِنْ مَطْيٍّ وَرَاكِبٍ^٥
وَلَا طَمَ ، مِنْ نَكَبِ الرِّيحِ ، مَعَاطِفِي
وَزَا حَمَ ، مِنْ خُضْرِ الْبَحَارِ ، غَوَارِبِي^٦

فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَتْهُمْ يَدُ الرَّدَى وَطَارَتْ بِهِمُ رِيحُ النَّوَى وَالنَّوَائِبِ
فَمَا خَفَقَ أَيْكِي غَيْرُ رَجْفَةٍ أَضْلَعٍ وَلَا نُوحٍ وَرُقَى غَيْرُ صَرْخَةٍ نَادِبٍ^٧

(١) الأرعن : الجبل الشديد التنوء . الغارب : الظهر .

(٢) يلوث : يعصب ويلف .

(٣) أصخت : أصغيت .

(٤) الأواه : هنا التائب الذي يتأوه من ذنوبه . تبتل : تنسك وانقطع إلى العبادة .

(٥) المدلج : السائر في الميل . المؤوب : الراجع . قال : نام القيلولة .

(٦) النكب : جمع نكباء وهي الرياح الشديدة .

(٧) الأيك جمع أيكة : الشجر الكثيف الملتف . الورق : جمع ورقاء وهي الحمامة .

وما غِيَضَ السلوانُ دُمعى وإنما نَزَفَتْ دُمُوعى فى فِرَاقِ الصَّواحِبِ^١
 فحتى متى أَبْقَى وَيْظَعْنَ صَاحِبٌ أُوْدَّعَ مِنْهُ رَاحِلاً غَيْرَ آيِبِ
 وحتى متى أَرْعَى الكَوَاكِبَ سَاهِراً

فَمِنْ طَالَعٍ ، أُخْرَى اللَّيَالَى ، وَغَارِبِ
 فَرَحْمَاكَ يَا مَوْلَاى دَعْوَةَ ضَارِعٍ يَمْدُ إِلَى نُعْمَاكَ رَاحَةً رَاغِبٍ^٢
 فَأَسْمَعْنِى مِنْ وَعْظِهِ كُلِّ عِبْرَةٍ يَتَرَجَّمُهَا عَنْهُ لِسَانُ التَّجَارِبِ
 فَسَلِّى بِمَا أَبْكى وَسَرِّى بِمَا شَجَا

وكان ، على عهدِ السُّرى ، خَيْرَ صَاحِبٍ^٣
 وَقُلْتُ ، وَقَدْ نَكَّبْتُ عَنْهُ لِطِيَّةٍ : سَلَامٌ فَإِنَا مِنْ مُقِيمٍ وَذَاهِبٍ^٤

وصف الليل :

قال ابن خفاجة فى إحدى قصائده :

وليلٍ كما مَدَّ الغَرَابَ جَنَاحَهُ وَسَالَ عَلَى وَجْهِ السَّجَلِ مَدَادُ
 بِهِ مِنْ وَمِيضِ الْبَرْقِ ، وَاللَّيْلِ فُحْمَةٌ شَرَارٌ تَرَامَى وَالْغَمَامُ زِنَادُ
 سَمَرِيْتُ بِهِ أَحْيِيهِ ، لَاحِيَةُ السُّرى تَمُوتُ وَلَا مَيِّتُ الصَّبَاحُ يَعَادُ^٥

(١) غيَض : غور ، جعله ينضب .

(٢) البيت من كلام الجبل ومولاه هو الله .

(٣) سرى : يبدد الحزن وأبعد الهموم . شجا : أحزن .

(٤) الطية : الحاجة والقصد ووجهة المسافر ، وهنا بمعنى السفر .

(٥) يعاد : يزار .

يقلب منى العزمُ إنسانَ مُقلّةٍ لها الأفقُ جفنٌ والظلامُ سوادٌ
 بخرقٍ لقلبِ البرقِ خفقةٌ روعةٌ به ، ولجفنِ النجمِ فيه سهادٌ^١
 سحقٌ ولا غيرَ الرياحِ ركائبٌ هناك ولا غيرَ الغمامِ مزادٌ^٢
 كائنٌ وأحشاءُ البلادِ تُجنّنى سريرةٌ حبٌّ والظلامُ فؤادٌ^٣
 أجوب جيوبَ البید والصبحُ صارمٌ له الليلُ غمدٌ والمجرُ نجادٌ

وفى مُصطلى الآفاقِ جمرٌ كواكبٍ

علاها من الفجرِ المُطلُّ رَمادٌ

ولمّا تعرّى من دُجى الليلِ طحلبٌ

وأعرَضَ من ماءِ الصباحِ ثِمادٌ

حننتُ وقد ناحَ الحمامُ صبايةً وشقٌّ من الليلِ البهيمِ حدادٌ

على حينَ شطّطَ بالحبائبِ نيةً وحالتَ فيافٍ بيننا وبلادٌ

وصف متنزه :

قال ابن خفاجة :

ومَجَرٌّ ذيلُ غمامةٍ قد نَمَقَّتْ وشىَ الربيعِ به يدُ الأنواءِ^١

(١) الحرق : القفر .

(٢) سحق : بعيد . المزاد : واحدتها مزادة ، وهى جلود يضم بعضها إلى بعض ويوضع فيها الماء .

(٣) تجنّى : تسترى .

(٤) تعرّى : انشق . الثاد : الماء القليل .

(٥) شطّط : بعدت . النية : الرحلة البعيدة . الفيافى : القفار واحدتها فيفاء .

(٦) نَمَقَّتْ : زينت . الوشى : النقش بالألوان .

أَلْقَيْتُ أَرْحُلَنَا هُنَاكَ بِقَبَّةٍ مَضْرُوبَةٍ مِنْ سَرَحَةٍ غَنَاءٍ^١
 وَقَسَمْتُ طَرْفَ الْعَيْنِ بَيْنَ رِبَاوَةٍ مَخْضُورَةٍ وَقَرَارَةٍ زَوْقَاءٍ^٢
 وَشَرِبْتُهَا عَذْرَاءً تَحْسَبُ أَنَّهَا مَعْصُورَةٌ مِنْ وَجْنَتِي عَذْرَاءُ^٣
 حَمْرَاءُ صَافِيَةٌ تَطِيبُ بِنَفْسِهَا وَغَنَاءُهَا وَخِلَاطُ النَّدَمَاءِ
 خُذَهَا كَمَا طَلَعْتَ عَلَيْكَ عَرَاءُ مُفْتَرَّةٌ عَنْ لَوْلُؤِ الْأَنْدَاءِ^٤

قال ابن خفاجة يصف سرحة على نهر :

وَسَرَحَةٍ خَاضَ مِنْهَا ظِلُّهَا نَهْرًا أَوْفَتَ عَلَيْهِ فَلَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدْ^٥
 كَمَا تَدَانِيَتْ مِنْ ثَغْرِ لِمَرْتَشِفٍ ثُمَّ انْثَنِيَتْ فَلَمْ تَصْنُدْ وَلَمْ تَرِدْ
 كَأَنَّ أَفْنَانَهَا طَيِّبًا ، حِمَى مَلِكٍ أَغْضَى وَأَعْطَى فَلَمْ يُوعِدْ وَلَمْ يَعِدْ^٦

وقال يصف سحابة تمشى على الظلماء :

وَعِمَامَةٌ لَمْ يَسْتَقِلَّ بِهَا السُّرَى فَمَشَتْ عَلَى الظُّلْمَاءِ مَشْيَ مَقِيَّدٍ
 حَمَلَتْ بِهَا رِيحُ الْقَبُولِ سَحَابَةً سَحَابَةً الْأَذْيَالُ تُلْمَسُ بِالْيَدِ
 فِي لَيْلَةٍ قَدْ بَاتَ يَلْحَسُ تَحْتَهَا حَبْرًا لِسَانُ الْبَارِقِ الْمَتَوَقَّدِ^٧

(١) السرحة : الشجرة الطويلة . الغناء : الكثيرة الأغصان .

(٢) الرباوة : المرتفع . القرارة : المكان المطمئن .

(٣) شربتها عذراء : أى خمرة بكراً غير مزوجة .

(٤) العراء ، واحدة العرار : بهار ، أى نبت طيب الرائحة ناعم أصفر . مفترّة : مبتسمة .

(٥) أوفت : أشرفت .

(٦) أغضى : سكت .

(٧) شبه شدة الظلام بالحبر يلحس لسان البرق .

نَسَجَ الضَّرِيبُ بِهَا الظَّلَامَ حَمَامَةً فَايَضَّ كُلُّ غَرَابٍ لَيْلَ أَسْوَدٍ^١
 شَابَتْ وَرَاءَ قِنَاعِهَا لِمَمِّ الرَّبِّي وَاشْمِطَ. مَفْرَقُ كُلِّ عَضْبٍ أَمْلَدُ^٢
 حَدِيثُ كَالنَّسِيمِ :

قال ابن خفاجة في إحدى قصائده :

وَلَيْلٍ تَعَاظَيْنَا الْمَدَامَ وَبَيْنَنَا حَدِيثُ كَمَا هَبَ النَّسِيمُ عَلَى الْوَرْدِ
 نَعَاوِدُهُ وَالْكَأْسُ يَغْبِقُ نَفْحَةً وَأَطِيبُ مِنْهُ مَا نَعِيدُ وَمَا نُبْدِي
 وَنَقْلِي أَقَا حُ الثَّغْرِ أَوْ سَوْسُنُ الطُّلَى
 وَنَرْجِسَةُ الْأَجْفَانِ أَوْ وَرْدَةُ الْخَدِ^٣
 إِلَى أَنْ سَرَتْ فِي جِسْمِهِ الْكَأْسُ وَالْكَرَى

وَمَالَا بَعِظْفِيهِ فَمَالَ عَلَى عَضْدِي
 فَأَقْبَلْتُ أَسْتَهْدِي. لِمَابَيْنَ أَضْلَعِي مِنْ الْحَرِّ، مَابَيْنَ الضَّلْوَعِ مِنَ الْبَرْدِ

* * *

وأكثر مطالع مدائح ابن خفاجة أبيات في وصف الطبيعة يمازجها الغزل .
 وإليك . بعد مقدمة غزلية . هذه الأبيات التي يصف بها الطبيعة من قصيدة
 يمدح بها الأمير أبا يحيى بن إبراهيم :

وَمَجْرٌ ذَيْلُ غِمَامَةٍ لَبَسَتْ بِهِ . وَشَى الْحَبَابِ مِعَاطِفُ الْأَنْهَارِ

(١) الضريب : الثلج .

(٢) أراد بالعَضْبِ الغصن . الأملد : الناعم .

(٣) النقل : ما تنقل به على الشراب من فستق وتفتح ونحوهما .

خَفَقَتْ ظِلَالُ الْأَيْكِ فِيهِ ذَوَائِبًا وَارْتَجَّ رِدْفًا مَائِجُ التِّيَّارِ
 وَلَوَى الْقَضِيبُ هُنَاكَ جِيدًا أَتْلَعَا قَدْ قَبَّلَتْهُ مِبَاسِمُ النُّوَارِ
 بَاكَرَتْهُ وَالْغَيْمُ قِطْعَةً عَنِيرٍ مَشْبُوبَةٌ وَالْبَرْقُ لَفْحَةً نَارِ
 وَالرَّيْحُ تَلَطَّمُ فِيهِ أَرْدَافَ الرَّبِّي لَعِبَاءً وَتَلَشَّمُ أَوَّجَهُ الْأَزْهَارِ
 وَمَنَابِرُ الْأَشْجَارِ قَدْ قَامَتْ بِهَا خُطْبَاءُ مُفْصِحَةٌ مِنَ الْأَطْيَارِ

وكان ابن خفاجة يمهّد لدائحه بغزل رقيق فيه صنعة العبقرى ، ثم يقف عند
 مظهر من مظاهر الطبيعة فيصف غمامها أو رياضها إلى أن يقوده المطاف إلى
 المدح ، وقصيدته الرائية في مدح أبي الحسن بن الربيع صاحب قرطبة تتبع
 هذه الخطة فلنسمعه وقد اتخذ من الطبيعة طريقاً للمدح المدحوق قال :

وغمامةٍ نَشَرْتُ جَنَاحَ حَمَامَةٍ وَالْبَرْقُ قَدْ نَسَجَ الظَّلَامَ نَهَارًا
 مَتَأَلَّقُ صَدْعُ الدَّجَى وَسَقَى الثَّرَى فَا بَيْضَ ذَا نُورًا وَذَا أَنْوَارًا
 فِي أَجْرَعٍ خَلَفَ الرَّبِيعَ بِهِ ابْنَهُ كَرَمًا فَأَخْصَبَ رِبْوَةً وَقَرَارًا
 هَفَّتِ الصَّبَا مِنْهُ بِمَسْرَى دِيمَةٍ هَطَلَاءُ قَرَّبَهَا الْعَجَاجَ وَقَارًا
 وَكَفَّتْ فَسَالَتْ فَضَّةً وَلِرَبْمَا طَبَعَتْ بِكُلِّ قَرَارَةٍ دِينَارًا
 أَرْضٌ هَبَطَتْ بِهَا سَمَاءٌ طَلْقَةً وَخَبِطَتْ مِنْ سَدَفٍ بِهَا أَنْوَارًا
 عَاطَيْتُ ذَكَرَ أَبِي الْحُسَيْنِ بِهَا السُّرَى

ريحانة يَشْتَمُّهَا مِعْطَارًا

وسلافةً خَفَّتْ بنا طرباً لها واسترقصت من فتية ومهاري
عبيثت بها سنة الكرى فتأيدت في ملتقى أسحارها أشجارا

قال ابن خفاجة يصف الطبيعة في جو من الحمر :

أُحْسِ المُدَّامَةَ والنسيمَ عليلُ والظلَّ خَفَّاقُ الرواقِ ظليلُ^١
والنَّوْرُ طَرْفٌ قد تَنَبَّهَ دَامِعُ والماءُ مُبْتَسِمٌ يروقُ صَقِيلُ
وتَطَلَّعتُ من برقِ كلِّ غمامةٍ في كلِّ أَفقٍ رَايةٌ ورَعِيلُ^٢
حتى تَهَادَى كلُّ خُوْطَةٍ أَيَكَّةً رِيًّا وَغَصَّتْ تَلْعَةً ومَسِيلُ^٣
عَطَفَ الأَرَاكَةَ فانْشَتَ شُكْرًا له

طَرَبًا وَرَجَعَ في الغصونِ هَدِيلُ^٤
فَالرَّوْضُ مَهْتَزٌّ المعاطفِ نِعْمَةً نشوانُ يعطِفُه الصَّبَا فيمِيلُ
رِيَّانٌ فَضْضُهُ الندى ثم انجلى عنه فَذَهَبَ صفحتيه أَصِيلُ
وارْتَدَّ ينظرُ في نقابِ غمامةٍ طَرْفٌ يَمْرُضُهُ النعاسُ كَلِيلُ^٥
سَاجٍ كما يَرْنُو إلى عُوَّادِهِ شَاكٍ ويلتمحُ العزيرُ ذَلِيلُ

(١) الرواق : مقدم البيت ، وقد شبه الظل ببيت مضروب يخفق هواء رواقه .

(٢) الرعيل : الجماعة من الخيل ، شبه السحب بجماعات الخيل وكتائبها في الحرب ، وشبه البروق المنبعثة منها بالرايات الحمر المنشرة فوق رؤوسهم .

(٣) كل خوطة : كل غصن . الأيكة : الشجر الملتف . التلعة : مجرى الماء من الجبل إلى

الوادي .

(٤) عطف الأراكاة : أى عطف النسيم الأراكاة .

(٥) طرف : أى طرف كل شارب منا . فبعد أن كان بنظر إلى الأزهار في النهار ارتد ينظر في غمامة كأنها النقاب ، وهذا الطرف كليل من السكر .

قال ابن خفاجة يحن إلى جبهه في ظلال الطبيعة :

لَكَ اللَّهُ مِنْ بَرْقٍ تَرَاوَى فَسَلَّمَا

وصافح رسماً ، بالعُذَيْب . وَمَعْلَمَا^١
إِذَا مَا تَجَاذَبْنَا الْحَدِيثَ عَلَى السُّرَى بِكَيْتٍ عَلَى حُكْمِ الْهَوَى وَتَبَسُّمًا
وَلَمْ أَعْتَنِقْ بَرْقَ الْغَمَامِ . وَإِنَّمَا وَضَعْتُ عَلَى قَلْبِي يَدَيَّ تَأَلُّمًا
وَمَا شَاقَنِي إِلَّا حَفِيفٌ أَرَاكَةَ وَسَجْعُ حَمَامٍ بِالْغُمِيمِ تَرَنَّمًا^٢
وَسِرْحَةً وَادٍ هَزَّهَا الشَّوْقُ لَا الصَّبَا

وَقَدْ صَدَحَ الْعُصْفُورُ فَجْرًا ، فَهَيْنَمَا^٣
أَطْفَتْ بِهَا أَشْكُو إِلَيْهَا وَتَشْتَكِي

وَقَدْ تَرَجَّمَ الْمُكَّاءُ عَنْهَا . فَأَفْهَمَا^٤
تَحْنُ وَدَمَعَ الشَّوْقُ يَسْجُمُ وَالنَّدَى وَقَرَّ بَعِينِي أَنْ تَحْنُ وَيَسْجُمَا
وَحَسْبَاءُ مِنْ صَبٍّ بِكِيٍّ وَحَمَامَةٌ فَلَمْ يَدْرِ شَوْقًا أَيْمًا الصَّبُّ مِنْهُمَا
وَلَا تَرَاوَتْ لِي أَثَانِيٌّ مَنْزِلٍ أَرْتَنِي مُحِيًّا ذَلِكَ الرَّبِيعَ أَهْمِيَا^٥
تَرَنِّحُ بِي لَذْعُ مِنْ الشَّوْقِ مَوْجِعُ

نَسِيتُ لَهُ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ تَأَلَّمَا

(١) العذيب : موضع . معلم الشيء : معيده . ومته معالم الطريق عكس مجازيها .

(٢) الغميم : وادٍ في بلاد العرب .

(٣) السريحة : الشجرة العنليسة .

(٤) المكاء : طائر سمي هكذا لأنه يمشو أي يصفر .

(٥) الأثاني : حجارة الموقد . الأهم : المظلم .

فَأَسْلَمْتُ قُلُوبَابَاتٍ يَهْفُوبُهُ الْهُوَى وَقُلْتُ لَدَمْعِ الْعَيْنِ أَنْجِدْ فَأَتَهُمَا
وَحَلَّيْتُ دَمْعِي وَالْجَفُونَ هَنِيهَةً فَأَفْصَحَ سِرُّ مَا فَغَرْتُ بِهِ فَمَا
وَعُجْتُ الْمَطَايَا حَيْثُ هَاجَ بَنَى الْهُوَى

فَحَيِّتُ مَا بَيْنَ الْكَثِيبِ إِلَى الْحِمَى^١
وَقَبِلْتُ رَسْمَ الدَّارِ حَبًّا لِأَهْلِهَا وَمَنْ لَمْ يَجِدْ إِلَّا صَعِيدًا تَيْمَمًا^٢
وَحَنَّتْ رِكَابِي وَالْهُوَى يَبْعَثُ الْهُوَى
فَلَمْ أَرَ فِي تَيْمَاءٍ إِلَّا مَتِيمًا^٣
فَهَا أَنَا وَالظُّلُمَاءُ وَالْعِيسُ صَحْبَةٌ

تَرَامِي بِنَا أَيْدَى النَّوَى كُلَّ مُرْتَمَى
أُرَاعِي نَجُومَ اللَّيْلِ حَبًّا لِبَدْرِهِ وَلَسْتُ كَمَا ظَنَّ الْخَلَى مُنْجَمًا
وَمَا رَاعَنِي إِلَّا تَبَسُّمٌ شَبِيهٌ نَكَرْتُ لَهَا وَجْهَ الْفَتَاةِ تَجَهُّمًا
فَعِفْتُ غُرَابًا يَصْدَعُ الشَّمْلَ أَبْيَضًا

وَكَانَ عَلَى عَهْدِ الشَّبَابَةِ أَشْحَمًا^٤
فَاهٍ طَوِيلًا ثُمَّ آهٍ لِكِبَرَةٍ بَكَيْتُ عَلَى عَهْدِ الشَّبَابِ بِهَا دَمًا
قَالَ ابْنُ خَفَاجَةَ يَصِفُ فَرَسًا كَرِيمًا وَيَذْكُرُ الطَّبِيعَةَ :
تَخَيْرْتُهُ مِنْ رَهْطٍ . أَعْوَجَ سَابِغًا أَغْرَّ كَرِيمَ الْوَالِدِينَ نَجِيًّا^٥

(١) عجت المطايا : عطفها .

(٢) تيماء : موضع في بلاد العرب .

(٣) عفت : زجرت . شبه شبيه بغراب أبيض يفرق الشمل ، وكان في شبابه أسود .

(٤) رهط : جماعة . أعوج : فرس كريم تنسب إليه الخيول العتاق . السابح : السريع

النجيب : النفيس في ذوقه .

خفيفاً ولم يحلم بسوط. كأنما يفوت عدوًّا أو يوم حبيبا^١
 سرى وانت مى برق بذي الأثل ليلة فبات بها هذا لذاك نسيبا^٢
 وحنّ إلى سفر فطار إلى السرى يخوض خليجاً أو يجوب كثيا
 يوم بها أرضاً على كريمة ومرتبعا فيها إلى حبيبا
 ونهراً كما ابيضّ المقبل سلسلاً وجزعا كما اخضرّ العذار خصيباً^٣
 ورب نسيم مرّ بي وهو عاطر رقيق الحواشي لا يحسّ دبيبا
 وجدت به من ذلك الماء بركة ومن نورها تيك الأباطح طيبا
 فصافحت ريعان النسيم تشوقاً إليها ولازمت القضيّب رطيبا
 وقد قلّد النوار جيداً لربوة هناك ونحراً للفضاء رحيبا
 وأفصحت الورقاء في كل تلة نشيداً وقد رقّ النسيم نسيبا
 وكان على عهد الشباب تغنياً يشوق أخا وجدٍ فعاد نحيبا
 دعا لغروب الدمع والدار غربة فلم أرَ إلا داعياً ومجيباً

قال ابن خفاجة من شعره الوجداني الغزل :

قل للقبيحِ الفعالِ : يا حسنًا ! ملأت جفني ظلمةً وسنا
 قاسمني طرفك الضنى أفلا قاسم جفني ذلك الوسنا ؟

(١) يفوت : يسبق ، ويغلب عدوه .

(٢) ذى الأثل : موضع فيه شجر الأثل ، وهو شجر عظيم صلب تصنع منه الجفان والقصاع .

(٣) المقبل : الثغر . السلسل : العذب . الخزع : من الوادي حيث يقطع .

(٤) غروب الدمع : مسيل الدمع ، واحدها غرب .

(٥) السنا : الضياء .

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ هَضْبَةً جَلَدًا أَهْتَزُّ لِلْحَسَنِ ، لَوْعَةً ، غُصْنًا^١
 قَسَوْتُ بِأَسَا وَلَنْتُ مَكْرَمَةً لَمْ أَلْتَزِمِ حَالَةً وَلَا سَنًا^٢
 لَسْتُ أَحِبُّ الْجَمُودَ فِي رَجُلٍ تَحْسِبُهُ مِنْ جَمُودِهِ وَثْنَا
 لَمْ يَكْخُلِ السَّهْدُ جَفْنَهُ كَلَفًا وَلَا طَوَى جِسْمَهُ الْغَرَامُ ضَنَى
 فَمِنْ عَصَا دَاعَى الْهَوَى فَقَسَا وَكَانَ جِلْدًا مِنَ الصِّفَا خَشْنَا
 فَإِنِّي وَالْعَفَافُ مِنْ شَيْمَى آتَى الدُّنَايَا وَأَعَشَقُ الْحَسَنَا
 طَوْرًا مَنِيبٌ وَتَارَةً غَزَلٌ أَبْكِي الْخَطَايَا وَأَنْدُبُ الدُّمْنَا^٣
 إِذَا اعْتَرَتْ خَشْيَةً شَكَا فَبْكِي أَوْ انْتَحَتْ رَاحَةً دَنَا فَجَنَى
 كَأَنِّي غَصَنٌ بَانَةٌ خَضَلٌ ثَنِيهِ رِيحُ الصَّبَا هُنَا وَهُنَا^٤

أشعار متفرقة :

قال ابن هاني الأندلسي يصف أيام الربيع :

أَلْوَلَوْ دَمْعُ هَذَا الْغَيْثِ أَمْ نَقَطُ . مَا كَانَ أَحْسَنَهُ لَوْ كَانَ يُلْتَقَطُ .^٥
 أَهْدَى الرَّبِيعُ إِلَيْنَا رَوْضَةً أَنْفًا كَمَا تَنْفَسُ عَنْ كَافُورِهِ السَّفَطُ .
 غَمَائِمٌ فِي نَوَاحِي الْجَوِّ عَالِقَةٌ حُفْلٌ تَحْدَرُ مِنْهَا وَابِلٌ سَبِطُ .^٦

(١) الجلد : بسكون اللام : القوى الشديد . فتح اللام فيه للضرورة .

(٢) السنن : الطريقة .

(٣) المنيب : من أناب إلى الله : رجع إليه وتاب .

(٤) الخضل : الرطب النني .

(٥) الروضة الأنف : الجديدة التي لم يربحها أحد . السفط : السلة أو وعاء يحفظ فيه النساء

الطيب .

(٦) وابل سبط : شديد متدارك .

بين السحاب وبين الريح ملحمة^١ معامع^٢ وظي في الجو تختلط.^١
 كأنه ساخط. يرضى على عجل^٢ فما يدوم رضى منه ولا سخط.
 كأن تهتاتها في كل ناحية مد من البحر يعلو ثم ينهبط.
 وللجديدين من طول ومن قصر^٢ حبلان منقبض عنا ومنبسط.^٢
 والأرض تبسط. في الثرى ورقاً^٢ كما تنشر في حافات البسط.
 والريح تبعث أنفاساً معطرة^٢ مثل العبير بماء الورد مختلط.

في هذا الوصف يعمد ابن هاني ، على عادته ، إلى طرافة التشبيهات ويقدم لنا صورة حية للطبيعة بما فيها من عوارض الغيث ومعركة السحاب والريح ، وشعره في وصف الطبيعة لا يجعل منه شاعراً فذاً في هذا الغرض لأن عبقريته تبدو في الأغراض التقليدية كالمدهح والوصف والحكمة . وهو في جميع هذه الأغراض يبحث عن المعاني التي تساعد على تصوير ما يريد من الأخيالة في أسلوب يعتمد المبالغة والصنعة والكلمات الطنانة .

قال بعض الأندلسيين يصف بركة عليها عدة فوارات :

غَضِبَتْ مجاريها فأظهر غيظها ما في حشاها من خفي^٢ مضمَر
 وكان نبع الماء من جنباتها والعين تنظر منه أحسنَ منظر
 قُضِبُ من البلور أثمر فرعها لما انتهت باللؤلؤ المتحدر

(١) تختلط : تسل وتجرد من أغمارها ، والظي جمع ظبة وهي طرف السيف .

(٢) يريد أن الليل والنهار يطول أحدهما فيقصر الآخر كأنهما حبلان أحدهما منقبض والآخر منبسط .

قال ابن صارة الأندلسي يصف ماء بالركة والصفاء :

والنهر قد رَقَّتْ غِلَالُهُ خَصْرَهُ وعليه من صَبَغَ الْأَصِيلَ طِرَازَ
تترقق الأمواج فيه كأنها عَكَنُ الْخَصُورِ تَهْزُهَا الْأَعْجَازُ

قال بعض أدباء الأندلس :

والنهرُ مكسوٌّ غِلَالَةً فضيةٌ فإذا جرى سيلًا فتوب نُضَارِ
وإذا استقام رأيتَ صفحةً مُنْصَلِ وإذا استدار رأيتَ عطفَ سوارِ

قال أبو القاسم بن العطار أحد أدباء إشبيلية يصف نهراً :

عبرنا سماءَ النهرِ والجو مُشْرِقُ وليس لنا إِلَّا الْحَبَابَ نَجُومُ
وقد أَلْبَسَتْهُ الْأَيُّكُ بَرْدَ ظِلَالِهَا وللشمس في تلك البرود رُقُومُ

وله :

لله بهجةٌ مَنَزَهُ ضَرَبَتْ به فوقَ الغديرِ رُواقِهَا الْأَنْسَامُ
فمع الْأَصِيلِ النهرُ درعٌ سابغٌ ومع الضحى يلتاحُ منه حُسامُ

وله :

ما كَالْعَشِيَّةِ فِي رُؤَا جَمَالِهَا وبلوغِ نَفْسِي مِنْتَهَى آمَالِهَا
ما شَتَّتْ شَمْسُ الْأَرْضِ مَشْرِقَةَ السَّنَى

والشمسُ قد شَدَّتْ مَطْيَ رَحَالِهَا في حيثَ تَنْسَابُ الْمِيَاهُ أَرَاقِمًا
وتعيركُ الْأَفْيَاءُ بُرْدَ ظِلَالِهَا

وله :

للهُ حُسْنُ حَديقَةٍ بَسَطَتْ لَنَا مِنْهَا النِّفُوسَ سِوَالْفِ وَمَعَاطِفُ
تَخْتَالُ فِي حُلُلِ الرَّبِيعِ وَحَلِيهِ وَمِنَ الرَّبِيعِ قَلَائِدُ وَمَطَارِفُ

قال الأديب أبو عمر أحمد بن فرح الحياتي :

لِلرَّوْضِ حُسْنٌ فَقِفْ عَلَيْهِ وَاصْرِفْ عِنانَ الهوى إِلَيْهِ
أَما ترى نرجساً نَضِيراً يَرْنُو إِلَيْهِ بِمَقْلَتِيهِ

قال الأديب الأسعد بن بليطة :

لو كنتَ شَاهِدَنَا عَشِيَةَ أَمْسِنَا وَالْمُزْنَ يَبْكِينَا بَعِيْنِيْ مَذْنِبِ
وَالشَّمْسُ قَدْ مَدَّتْ أَدِيمَ شِعَاعِهَا فِي الْأَرْضِ تَجْنَحُ غَيْرَ أَنْ لَمْ تَغْرِبْ

قال الحاجب ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن رزين :

وَرَوْضٍ كَسَاهُ الطَّلُّ وَشَيْئاً مَجْدِداً فَأَضْحَى مَقِيماً لِلنِّفُوسِ وَمُقْعِداً
إِذَا صَافَحَتْهُ الرِّيحُ خَلَّتْ غَصْمُونَهُ رَوَاقِصٌ فِي خُضْرٍ مِنَ الْعَصْفِ يَدَا
إِذَا مَا انْسَكَبَ الْمَاءُ عَايَنْتَ خِلَّتَهُ وَقَدْ كَسَرَتْهُ رَاحَةُ الرِّيحِ مِبْرَدَا
وَإِنْ سَكَنْتَ عَنْهُ حَسِبْتَ صَفَاءَهُ حُسَاماً صَقِيلاً صَافِي الْمَتْنِ جُرْدَا
وَوَغْنَتْ بِهِ وَرُقُ الْحَمَائِمِ بَيْنَنَا غَنَاءٌ يَنْسِيكَ الْغَرِيضُ وَمَعْبَدَا
فَلَا تَجْفُونَ الدَّهْرَ مَا دَامَ مُسْعِداً وَمُدُّ إِلَى مَا قَدْ حَبَاكَ بِهِ يَدَا
وَأَخُذَهَا مُدَاماً مِنْ غَزَالٍ كَأَنَّهُ إِذَا مَا سَقَى ، بَدْرٌ تَحْمَلُ فَرْقَدَا

قال علي بن أحمد أحد شعراء بلنسية :

قُمْ فاسقني والرياضُ لابسةٌ وشيأً من النور حاكه القطرُ
والشمسُ قد عصفت غلائلها والأرضُ تندى ثيابها الخضِرُ
في مجلسٍ كالسماءِ لاح به من وجهٍ من قد هويته بدرُ
والنهرُ مثلُ المجرِّ حفَّ به من الندامى كواكبُ زهرُ

قال سعيد بن محمد بن العاص المرواني :

والبدر في جو السماء قد انطوى طرفاه حتى عاد مثل الزورقِ
فتراه من تحت المحاق كأنه غرق الكثير وبعضه لم يغرقِ

قال عمر بن يوسف الحنطى :

أوميضُ برقٍ أم سيوفٌ تُبرقُ في عارضٍ أكنافه تتألقُ
دعاه إذا ارتدت إليك وجوها أضحت وجوه الأرض منها تشرقُ
ترمي بأجفان الوميض كما انثنت أجفانُ عاشقةٍ إلى من يعشقُ

قال عثمان بن إبراهيم بن النضر :

ألا يا حمام الأيك مالك باكياً وغصنك نضرٌ والجَنابُ مريعُ
تغنَّ ولا تنشجْ فالفك حاضرُ قريبٌ وإلى غائبٍ وشسوعُ
بكيْتُ بلا دمعٍ وترفضُ مقلتي شآبيبَ منها في المصيف ربيعُ
وقلبك خلوٌ من تباريحِ لوعتي وقلبي بلوعاتِ الفراق صريعُ

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

ويحتاج قلبي كلما كان ساكناً دعاء حمام لم يَبِتْ بُوْكُونِ
وإن ارتياحي من بُكاء حمامة كذى شَجَنِ داوَيْته بِشُجُونِ
كَأَنَّ حَمَامَ الْأَيْكِ لما تجاوبت حزينٌ بَكَى من رحمةٍ لحزينِ

قال ابن وهبون من شعراء شرقى الأندلس يصف النيلوفر وهو ضرب من
الرياحين ينبت فى المياه الراكدة :

وبركةٍ تَزْهُوُ بِنَيْلُوفِرِ نسيمةٌ يشبهه رُوحُ الحبيبِ
حتى إذا الليلُ دنا وقتُهُ ومالت الشمسُ لعينِ المغيبِ
أطبقَ جفْنَيْهِ على إلفِهِ وغاصَ فى الماءِ حِذَارَ الرقيبِ

قال ابن سهل الأشبلى فى جمال الطبيعة :

الأَرْضُ قد لبست رداءً أَخْضَرَا وَالطَّلُّ يَنْثُرُ فى رُبَاهَا جَوْهَرَا
هاجتْ ، فَخِلْتُ الزَّهْرَ كَافُورًا بِهَا وَحَسِبْتُ فِيهَا التُّرْبَ مَسْكًا أَذْفَرَا
وَكأنَّ سَوْسَنَهَا يَصَافِحُ وَرْدَهَا ثَغْرٌ يَقْبَلُ مِنْهُ خَدًّا أَحْمَرَا
وَالنَّهْرُ ما بينَ الرِّياضِ تَخَالُهُ سَيْفًا تَعْلُقُ فى نِجَادٍ أَخْضَرَا
وَجَرَتْ بِصَفْحَتِهَا الرُّبَا فَحَسِبْتُهَا كَفًّا يَنْمُقُ فى الصَّحِيفَةِ أَصْفَرَا
وَكأنَّه إِذْ لَاحَ ناصعُ فِضَّةٍ جَعَلَتْهُ كَفُّ الشَّمْسِ تَبْرًا أَصْفَرَا
وَالطَّيْرُ قد قامتْ به خُطْبَاؤُهُ لَمْ تَتَّخِذْ إِلَّا الْأَرَاكَةَ مِنْبَرَا

وقال ابن سهل يصف مشهد الأصيل :

انظر إلى لون الأصيل كأنه
والشمس تنظر نحوه مصفرة
لاقت بحمرتها الخليج فألفا
سقطت أوان غروبها محمرة
لا شك لون مودع لفراق
قد خمشت خدًا من الإشفاق
خجلت الدنيا ومدامع العشاق
كالخمر خرت من أنامل ساق

الباب الثالث

ابن زيدون
(٣٩٤ - ٤٦٣ هـ)

الفصل الأول

ابن زيدون : عصره ونشأته ، حبه لولادة

البيئة التاريخية والسياسية :

بلغت الدولة الأموية في الأندلس أوج مجدها زمن خلافة عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وابنه الحكم الثاني من بعده . ثم كان حكمُ الحاجب المنصور الذي استبد بالخلافة امتداداً لهذا العهد الذهبي الذي عرفته بلاد الأندلس . وكانت وفاة الحاجب المنصور سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م ثم جاء من بعده ابنه عبد الملك المظفر فتابع سياسة العامريين الاستبدادية ولكن الأندلس استطاعت أن تحافظ على عهد ازدهارها خلال الأعوام الستة التي حكم فيها والتي مات في نهايتها مسموماً عام ٣٩٩ هـ .

ومنذ هذا التاريخ يبدأ عهد الاضطراب أو كما يسميه المؤرخون العرب « عهد الفتنة » . وقد ظلت نار هذه الفتنة مشتعلة حتى سنة ٤٢٢ هـ . وهي السنة التي مات فيها آخر خليفة أموي هشام الثالث الملقب بالمعتمد بالله . وقد كانت قرطبة خلال هذه السنين مسرحاً لاضطرابات دامية لعب فيها البرابرة دوراً هاماً لميلهم إلى العامريين . وتوالى في هذه الفترة عدد من الخلفاء ، كان كل واحد منهم يشن العداء على الآخر فيجد أنصاراً يؤازرونه من البربر أو من الإسبانيين على السواء . وقد لاقت قرطبة من جراء هذه الفتنة ضرراً كبيراً فنهبت وخرب أجمل قصورها^(١) . وهكذا لا يكاد يطل القرن الخامس للهجرة حتى رأينا شمس الخلافة الأموية

(١) إليكم من تعاقب من الخلفاء في أثناء الفتنة :

محمد المهدي (٣٩٩ - ٤٠٠ هـ)	عبد الرحمن المستنير بالله (٤١٤ هـ)
سليمان المستعين بالله (٣٩٩ - ٤٠٧ هـ)	محمد المستنق بالله (٤١٤ - ٤١٦ هـ)
عبد الرحمن المرتضى (٤٠٨ - ٤٠٩ هـ)	هشام الثالث المعتمد بالله (٤١٨ - ٤٢٢ هـ)

فى الأندلس تخبو شيئاً فشيئاً ، ورأينا إزاء هذه الاضطرابات وهذا الضعف يتقوض ذلك البناء الضخم الذى شاده العرب فى قرطبة ورأينا تلك الدولة الأموية فى الأندلس تتجزأ فى دويلات صغيرة عرفت بدول طوائف الملوك ، فأخذ كل أمير فى إقليم بل كل حاكم فى مدينة يستردّ حريته ويستقلّ فى إقليمه أو مدينته ويكون دولة لها استقلالها ونظامها ، فكان فى قرطبة بنو جهور ، وفى إشبيلية بنو عباد ، وفى طليطلة بنو ذى النون ، وفى بطليوس بنو الأفطس ، وفى سرقسطة بنو هود ، إلى آخر ما هنالك من الطوائف التى كان يناهض بعضها بعضاً .

على أن هذه المناهضة لم تحل دون الازدهار الأدبى ، فقد عرفت دول ملوك الطوائف عهداً زاهراً للآداب وبلغ النشاط الأدبى أقصاه . وكنت ترى قصر كل ملك امتدى لأهل الشعر والأدب ، وقد تنافس هؤلاء الملوك فى اجتلاب الشعراء والكتاب والمغنين إلى قصورهم ليباهوا بهم من حولهم من الملوك والسلاطين . وكان منهم أدباء وشعراء كالمظفر وابنه المتوكل ملكى بطليوس ، والمعتضد وابنه المعتمد ملكى إشبيلية .

* * *

فى غمرة هذا النشاط الأدبى ، وفى فورة هذه الفتن المضطربة نشأ شاعرنا ابن زيدون وأتمّ حياته فى فجر عهد ملوك الطوائف ، واتصل فى جملة ما اتصل بملوك دولتين كبيرتين من دول الطوائف هما الدولة الجهورية والدولة العبادية .

أما الدولة الجهورية فقد نشأت فى أعقاب الفتنة سنة ٤٢٢ هـ عند ما صار الأمر فى قرطبة إلى طبقة الخواص فقام عميدها أبو الحزم بن جهور واستولى على الأحكام فى قرطبة وتأسست فيها حكومة شورية عرفت بالدولة الجهورية حكمت من سنة ٤٢٢ إلى ٤٦١ هـ .

أما الدولة العبادية فهى دولة عربية من بنى لحم قامت فى إشبيلية ونزح إليها شاعرنا ابن زيدون — كما سنرى — وحكمت من سنة ٤١٤ إلى ٤٨٤ هـ . وهى من أبهج الدول فى الفضل والكرم وحب الأدب ، وقد تفيأ شاعرنا ابن زيدون فى عهد ملكيها المعتضد والمعتمد ظلال النعيم والهناء .

فمن هو ابن زيدون الذى نشأ فى هذا الجو المضطرب ؟

مولد ابن زيدون ؛ نشأته وثقافته :

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ م ، وهو أبو الوليد أحمد ابن عبد الله بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي ، وهو ، كما نرى من نسبه ، عربى صريح ينتمى إلى قبيلة مخزوم القرشية التى ذكرها المقرئ بين القبائل التى رحلت إلى الأندلس وذكر منها ابن زيدون .

كان أبوه قاضياً فى قرطبة وجيهاً ثرياً غزير العلم والأدب ، ويذكر المؤرخون أنه توفى بالبيرة ، بالقرب من غرناطة ، وهو متوجه إليها لتفقد بعض ضياعه . وحمل إلى قرطبة فدفن بها ، فرثاه صديقه الشاعر القرطبي أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء فقال :

أَيُّ رُكْنٍ مِنَ الرِّيَاسَةِ هِيضًا . وَجَمُومٍ مِنَ الْمَكَارِمِ غِيضًا^١
حَمَلُوهُ مِنْ بَلَدَةٍ نَحْوِ أُخْرَى كَيْ يَوْافُوا بِهِ ثَرَاهُ الْأَرِيضًا^٢
مِثْلَ حَمَلِ السَّحَابِ مَاءً طَبِيبًا لِيَدَاوِيَ بِهِ مَكَانًا مَرِيضًا^٣

ولم يذكر ابن زيدون أباه فى ديوانه إلا مرة واحدة حيث يقول فى تصديده الطائفة التى يخاطب بها بعد فراقه من السجن أستاذه الأديب أبا بكر بن مسلم* مستهضاً همته للشفاعة :

عَلَيْكَ أَبَا بَكْرٍ بَكَرْتُ بِهِمَةَ لَهَا الْخَطَرُ الْعَالِي وَإِنْ نَالَهَا حَطُّ^٤
أَبَى بَعْدَ مَا هِيلَ التَّرَابُ عَلَى أَبِي وَرَهْطِي فَذَاحِينَ لَمْ يَبْقَ لِي رَهْطُ^٥

(١) جموم كصبور : البئر الكثيرة الماء .

(٢) الأريض : الزكى المعجب للعين .

(٣) انظر نفح الطيب (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ج ٥ ص ١٦٨ .

(٤) الديوان ص ١٣ - ١٥ .

وكانت وفاة والده سنة ٤٠٥ هـ ، وولادته سنة ٣٠٤ هـ (١) .

أما أمه فقد ذكرها ابن زيدون مرتين في آثاره ، الأولى عند ما زارته في السجن فبكت فقال قصيدته :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِيَ الْغَمَامُ عَلَى مِثْلِي وَيَطْلُبَ ثَأْرِي الْبَرْقُ مُنْصَلِتَ الذَّنَبِ^٢

والثانية في رسالته إلى أستاذه أبي بكر بن مسلم التي يقول فيها :

« وقد هجرت الأرض التي هي ظئري ، والدار التي كانت
مهدي ، وغبت عن أم أنا واحدها ، تمتد أنفاسها شوقاً إليّ ،
وتغض أجفانها حزناً عليّ . . . ٣ »

ويظهر أنه كان يحبها حباً جمّاً ، ولا تفيدنا المصادر عن تاريخ وفاتها ولكننا
نعلم أنها ما زالت حية عند خروجه من السجن سنة ٤٣٣ هـ .

هذا ولا نعلم شيئاً عن زوجته ولا عن تاريخ زواجه ، ولكننا نعلم أن له ابناً
يدعى أبا بكر وَرَّرَ للمعتمد بعد وفاة ابن زيدون سنة ٤٦٣ هـ ، وقتل يوم
سقطت إشبيلية بيد المرابطين سنة ٤٨٤ هـ .

ونشأة الشاعر في قرطبة ساعدته على الانكباب على العلم والتحصيل فقد كانت
هذه المدينة موئل العلوم والآداب في الأندلس ، ولا شك أنه قد بدأ يتلقى العلم
على يد أبيه الذي وصله بالعلماء والفقهاء والأدباء من أصحابه ، ولكن الذي تلقاه
عن أبيه لا يكاد يكون شيئاً مذكوراً ، فقد كان ابن زيدون في الحادية عشرة من عمره
عند وفاة والده ، وهذا الموت المبكر لم يمنع شاعرنا من متابعة علومه . ويصفه من
ترجم له بأنه كان كثير الميل لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ كثيراً من آثار الأدباء

(١) انظر نفح الطيب (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ج ٥ ص ١٦٨ .

(٢) الديوان ص ١١٢ .

(٣) الذخيرة ، المجلد الأول ، ص ٣٥٣ .

وأخبارهم وأمثال العرب وحوادثهم ومسائل اللغة، وكانت له أيضاً ثقافة فلسفية تدلنا عليها ما ورد له في رسالته الهزلية من بعض مصطلحات الفلاسفة وأسمائهم كأفلاطون وأرسطاطاليس وبقرات وجابر بن حيان وغيرهم. وإننا لنرى في رسالته الهزلية والجدية فيضاً من المعارف التاريخية والثقافية الإسلامية وعدداً كبيراً من الأمثال والأشعار، ولا شك أن هذه الثقافة قد تلقاها في حلقات العلم والأدب في قرطبة على يد مشاهير علمائها. ويذكر المستشرق (كور) في رسالته عن ابن زيدون أستاذين له. هما أبو بكر بن مسلم بن أحمد وكان نحوياً أديباً متقدماً في علم العربية واللغة ورواية الشعر وكتب الأدب، والقاضي أبو بكر بن ذكوان^(١).

وقد ذكر ابن زيدون هذين الأستاذين أكثر من مرة في آثاره، فهو يذكر أبا بكر بن مسلم في قصيدته الطائفة التي أشرنا إليها^(٢)، ويوجه إليه رسالة أشرنا إليها أيضاً عند الحديث عن أمه نجدها في الذخيرة^(٣)، وقد رثى أيضاً القاضي أبا بكر بن ذكوان في قصيدة مطلعها:

اعْجَبْ لِحَالِ السَّرِّ وَكَيْفَ تُحَالِ والدولة العلياء كيف تُدَالِ
لَا تَفْسَحَنَّ لِلنَّفْسِ فِي شَأْنِ الْمُنَى إِنْ اغْتَرَاكَ بِالْمُنَى لَضَلَالِ

فثقافة الشاعر إذن ثقافة واسعة، ولعله قد استقى معارفه من أكثر الكتب العلمية والأدبية الشائعة في عصره.

ولم تكن قرطبة مسرحاً للعلم فقط بل كانت مسرحاً للهو والطرب، وكان أهلها

(١) يرى الدكتور شوقي ضيف أن أبا بكر بن ذكوان هذا كان قاضي أبي الحزم بن جمهور ولم يكن أستاذاً لابن زيدون بل كان صديقه ورفيقه في التلمذة والدراسة وتوفي سنة ٤٣٥ هـ وقد خلطوا بينه وبين أبي العباس أحمد بن محمد بن ذكوان قاضي القضاة بقرطبة الذي امتدت حياته إلى سنة ٤١٣ هـ، ويظن الدكتور شوقي ضيف أن ابن زيدون لزم أبا العباس بن ذكوان هذا. وكان صديقاً لأبيه، وأفاد من علمه وأدبه، انظر كتابه عن ابن زيدون ص ١٦.

(٢) الديوان ص ١٣.

(٣) المجلد الأول ص ٣٥٠.

(٤) الديوان ص ١٥٣.

فى رخاء من العيش مبالين إلى هذا اللهو وهذا الطرب ، ولم تبعدهم الحوادث السياسية والفتن الداخلية عن الانهماك فى لهوهم ، بل لعل هذه الدسائس كانت تحاك فى مجالس اللهو هذه ، ونستطيع أن نقول إن ابن زيدون قد مثل أهل قرطبة فى شخصه أحسن تمثيل ، فقد وصفته المصادر التاريخية بأنه خفيفُ الروح كثير الدُّعابة ، مبالٌ إلى المجون إلى جانب طموحه السياسى ، لهذا فقد نال شهرة واسعة فى مجالس قرطبة الأدبية والاجتماعية والسياسية .

وقد كان للنساء دورٌ فى هذه المجالس ، وكان لبعض هؤلاء النساء منتديات أدبية يخالطها الشعراء والأدباء ، فأثر هذا الوسط فى نفس شاعرنا ، وكان ابن زيدون من بين هؤلاء الشعراء الذين ظهر على نظمهم آثار هذه الحياة الاجتماعية ومن نالوا حظوة فى مجالس النساء هذه ولا سيما فى مجلس ولادة التى ستتحدث عنها . فلهذا يمكننا أن ننظر إلى شاعرنا من وجهين : إنه شاعر متأثر بالجمال مشغوف بمجالس اللهو وهذا ما سيقودنا إلى الحديث عن علاقاته مع ولادة ، ثم هو شاعر سياسى طموح وهذا ما ستجלוه لنا علاقاته مع الجمهوريين وما ناله من سجن ، ثم انتقاله إلى بنى عباد وحظوته عند ملوكهم وما رافق هذه الحياة المضطربة من شعر مدح وشعر شكوى وشعر غزل .

ابن زيدون ولادة :

شغف ابن زيدون بولادة مليحاً بذلك دواعى قلبه ، فن هى هذه المرأة وما هى أطوار هذا الحب الذى فتن قلب الشاعر العربى وجعله ينطق بالشعر الخالد .

ولادة هذه هى بنت المستكفى بالله الخليفة الذى جاء قبل المعتمد بالله آخر خلفاء بنى أمية فى الأندلس ، وقد كانت بيعته سنة ٤١٤ هـ ، ولم يدم حكمه إلا سنتين فى فترة مضطربة . وكان ماجناً كما يحدثنا عنه ابن بسام فىقول : « لم يجلس فى الإمارة مدة الفتنة أسقط منه ولا أنقص »^(١) وقد ترك بنتاً لم يذكر المؤرخون سنة

ولادتها، ولكنهم ذكروا وفاتها فقال المقرئ إن وفاتها كانت سنة ٤٨٠ هـ أو سنة ٤٨٤ هـ^(١) وقالوا إنها عمرت طويلاً ، فإذا حددنا سنة ولادتها حوالى سنة ٤٠٠ يكون عمرها عند وفاة والدها يقارب الستة عشر عاماً أو العشرين أو أكثر من هذين الرقمين بقليل ولا شك أن هذا مجرد افتراض وهو افتراض لا يبعد كثيراً عن الحقيقة كما نراه من الأرقام ، ويبدو أن أبا ولادة قد اهتم بتتقيقها فأحضر لها المعلمين والمؤدبين . ولم تلبث أن تفتحت مواهبها . وكأنها كانت تنتظر موت أبيها (سنة ٥٤١٦ هـ) حتى تطلق لنفسها العنان وتجاهر بحياتها الحرة . وقد خصها المقرئ بفصل خاص تحدث عنها وعن جمالها . وأورد لها شيئاً من الشعر . وقال ابن بسام في ذخيرته^(٢) إنها كانت واحدة أقرانها يتهاك الشعراء والكتاب على حلاوة عشتها ، وكان مجلسها فى قرطبة متتدى لأحرار المصر ، ولعله لم يتنزل حجابها إلا بعد وفاة أبيها ، كما يبدو من كلام ابن نباتة شارح رسالة ابن زيدون الهزلية إذ يقول « ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله وتغلب ملوك الطوائف^(٣) » . وإذا صح ما روى عنها وعن غيرها من بنات الملوك والأمراء من أخبار اللهو والعبث ومجالس الأنس فإن الحرية التى كانت تتمتع بها المرأة العربية فى الأندلس تفوق ما ألفه المشرق ، وقد ذكر ابن بسام فى ذخيرته أن ولادة على علو نصابها وكرم أنسابها وطهارة أثوابها اطرحت التحصيل وأوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها . كتبت فيما زعموا على أحد عاتق ثوبها مطرزاً بالذهب :

أنا والله أصليح للمعالى وأمشى مشيتى وأتبه نيهـ

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلتتى من يشتهيها ،

(١) المقرئ ج ٢ ص ١٠٩٨ .
 (٢) القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣٧٦ - ٣٨٧ .
 (٣) شرح الميرون ص ٧ .
 (٤) الذخيرة ص ٣٧٦ .

وهكذا كان لها أن تعبث ، وكان لها جمالها وشعرها تغنيه ويغنى لها في مجلسها الأدبي الذي كان يضطرم فيه الهوى والفن والشعر .

ولم تكن ولادة فريدة في الحرية والحرارة في التعبير عن عواطف الحب أو اللاهو بل كان يشاركها في هذه الظاهرة كثيرات من حرائر ذلك العصر . وقد ذكر الرواة لحفصة بنت الحجاج ، من أشرف غرناطة ، شعراً لا يقل مجاهرة عن شعر ولادة قالت :

ثَنَانِي عَلَى تِلْكَ الثَنَايَا لِأَنِّي أَقُولُ عَلَى عِلْمٍ وَأَنْطِقُ عَنْ خَبْرٍ
وَأُنْصِفُهَا لَا أَكْذِبُ اللَّهَ إِنِّي رَشَفْتُ بِهَارِيْقًا أَرْقَ مِنْ الْخُمْرِ

وهكذا نرى أن ولادة مع ميلها للأدب ونظمها للشعر كانت مولعة بالحب مستسلمة للعبث ولكنها لم تتزوج طوال حياتها ، وقد أُلْعَ بها ابن زيدون وأولعت به وربط المؤرخون ذكرها بذكره .

لا شك في أن ابن زيدون كان من جملة الشعراء الذين يقصدون متداهي الأدبي ، وهو في ميعة الشباب ، وفي هذا المنتدى تمكنت بينهما أواصر الصداقة ووقع في أشراك حبها . على أننا لا نعلم متى كان اللقاء الأول الذي تطارحا فيه الغرام . وها هو ذا ابن بسام يصفه لنا على لسان ابن زيدون :

قَالَ أَبُو الْوَلِيدِ كُنْتُ فِي أَيَّامِ الشَّبَابِ وَغَرَّةِ التَّصَابِي هَائِمًا بِغَادَةِ تَسْمَى وَلَادَةً
فَلَمَّا قَدِمَ اللَّقَاءَ وَسَاعَدَ الْقَضَاءُ كَتَبْتُ إِلَيْهَا :

تَرْقُبُ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ زِيَارَتِي فَإِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمَ لِلْسَمْرِ
وَبِي مِنْكَ مَا لَوْ كَانَ بِالْبَدْرِ مَا بَدَا وَبِالشَّمْسِ لَمْ تَطْلُعْ وَبِالْبَدْرِ لَمْ يَسْمُرْ

وذهب إلى الموعد المضروب . ويقص علينا ابن بسام وصف هذه الخلوة على لسان شاعره بل وصف هذه الغادة التي أحبها ، فتساب على شفثيه الأوصاف

التقليدية ويقول : « فلما طوى النهار كافورة ونشر عنبره ^(١) ، أقبلت بقدر كالفصيب ، وردف كالكتيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الحجل ، فلما إلى روض مديح ^(٢) وظل سجع ^(٣) ، وقد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودُرُّ الطل منثور ، وجيب الراح مزرور ، فلما شبيها نارها ، وأدركت فينا ثارها ، باح كل منا بحبه ، وشكا إليه ما بقلبه ، وبتنا بلبلة نجى أقحوان الثغور . . . » ^(٤)

هل كان هذا هو اللقاء الأول ، ألم يسبق هذا اللقاء خلوات وأحاديث صريحة غير تلك التي كانا يتبادلانها في مجلسها الأدبي ؟ على أننا لا نزعم أن هذا المنتدى كانت تجري فيه أحاديث الأدب الرفيع فقط ، ولعل حرية القول والعبث كانا فيه على جانب كبير . ونرى أن هذه الكلمات التي نقلها لنا ابن بسام ليس فيها وصف حار أو صدق عاطفة ، بل هي كلمات يطفئ عليها فن الكاتب النثرى وتأنقه اللفظي الذي يسود أساليب العصر ، ومهما يكن من أمر فهو لقاء ماجن وحب مهتلك . ويضيف ابن زيدون بعد ما وصف من اللقاء قوله :

« فلما انفصلنا صباحاً أنشدتها ارتياحاً :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبُّ وُدِّكَ ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكَ
يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ زَادَ فِي تِلْكَ الْخُطَا إِذْ شَيَّعَكَ
يَا أَخَا الْبَدْرِ سَمَاءً وَسَنَى حَفِظَ اللَّهُ زَمَاناً أَطْلَعَكَ
إِنْ يَظُنْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكُمْ بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكَ »

وقد نسب صاحب القلائد وصاحب الذخيرة هذه الأبيات لابن زيدون ، إلا إلا أن المقرئ نسبها لولادة ، فقال : « وَوَفَتْ بَمَا وَعَدَتْ ، وَلَا أَرَادَ الْإِنْصِرَافَ

(١) كافورة : بيانسه ، عنبره : سواده ، وهن استعارتان .

(٢) مديح : مزين بالأزهار .

(٣) سجع : الهواء المعتدل اللطيف .

(٤) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٣٧٧ .

ودَّعته بهذه الأبيات .

ونفضل نحن نسبها لابن زيدون ، إذ أن صاحب القلائد وصاحب الذخيرة هما أقرب عهداً بالشاعر من المقرئ ، والديوان الذى بين أيدينا ينسبها لابن زيدون أيضاً .

وقد كانت حدائق قرطبة وبساتينها مرتعاً لهما ، وفى خمائلها أخذتا يتساقيان كؤوس الهوى ويعبان من شذى النعيم تغمرهما ظلال الحب ودفؤه .
على أن أيام هذا الحب المتبادل لم تدم طويلاً على ما يظهر ، ويذكر بعض من أרך لابن زيدون أن جفوة حصلت بين الشاعر وصاحبه ، فكتبت إليه :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرُّقِ سبيلٌ فيشكو كلُّ صَبٍّ بما لَقِيَ
وقد كنتُ أوقاتَ التزاوُلِ فى الشِّتَا أبيتُ على جَمَرٍ من الشَّوقِ مُحْرِقِ
فكيف وقد أُمسيتُ فى حالِ قِطْعَةٍ لقد عَجَّلَ المقدورُ ما كنتُ أَتَّقِي
تمرُّ الليالى لا أرى البَيْنَ ينقضى ولا الصبرَ من رِقِّ التشوُّقِ مُعْتَقِي
سَقَى اللهَ أرضاً قدْ غدتْ لك منزلاً بكلِّ سَكوبٍ هاطلٍ الوَبْلِ مُغْدِقِ

فأجابها بقوله :

لَحَا اللهُ يوماً لستُ فيه بمُلْتَقٍ مُحَيَّاكٍ من أَجْلِ النوى والتفرُّقِ
وكيف يطيبُ العيشُ دونَ مَسْرَةٍ؟ وأى سرورٍ لِلْكَيْبِ المُوَرِّقِ؟

ويبدو أن هذه الجفوة لم تطل ويعود العاشقان إلى سابق عهدهما يتساكيان الصباية والهوى ، ولكن ولادة لم تلبث أن تبدل ، فتظهر من الجفا ما تظهر وتذيق صاحبها عذاب الهجر بينما يبدى لها من التلطف والتذلل ما ينم لنا عن وجده وحبه . ونحاول أن نجد سبباً لهذا الازورار فلا نعثر إلا على ما ينقله لنا ابن بسام

من أن ابن زيدون أشار إلى جارتها أن تعيد له صوتاً غنته فظنت أنه يغازلها من دونها فغضبت غضباً شديداً وكتبت إليه :

لو كنتُ تنصِفُ في الهوى ما بيننا لم تهو جارتِي ولم تتخَيَّرِ
وتركتُ غُصْنًا مُثْمِرًا بجماله وجنحتُ للغُصْنِ الذي لم يُثمر
ولقد علمتُ بأنِّي بدرُ السما لكنْ وَلِغَتَ لِشَقْرَتِي بِالْمُشْتَرَى
وهكذا تلعب الغيرة في قلب المرأة وتكون سبباً من أسباب جفاء ولادة لعاشقها الشاعر الذي أخذ يبكي ويئن . ونحن لا نظن أن هذا السبب هو ، وحده ، الذي أدى إلى الجفاء ثم إلى القطيعة ، وقد يكون انضمام ابن زيدون لحركة الجهاورة قد ترك في نفسها أثراً سيئاً وهي بنت خليفة أموى فجاءت الغيرة تذكي في نفسها شتى الوسوس .

ومهما يكن من أمر فقد حصلت القطيعة ، وكانت ولادة هي البادئة ، وسمحت لعاشق جديد ، ليس بالشاعر المراهف هذه المرة وإنما هو الوزير الخطير ، أن يتقرب منها ، هو الوزير أبو عامر بن عبدوس ، ولسنا ندرى ما إذا كان ابن عبدوس ينتظر هذه الجفوة ليتقرب من الغادة التي أخذت أصداء حلاوتها ورنات أشعارها تتجاوبها أندية قرطبة اللاهية ، ولكن المقرئ يجعل لقاءها لابن عبدوس وتحولاً إليه على غير ميعاد فيقول : « ولما مرت بالوزير أبي عامر بن عبدوس وأمام داره بركة تتولد عن كثرة الأمطار ، وزبما استمدت بشيء مما هنالك من الأقدار ، وقد نشر أبو عامر كميته ، ونظر في عطفه ، وحشر أعوانه إليه . فقالت له :

أنت الخصيبُ وهذه مِصرُ فتدققاً ، فكلال كما بهجرُ
فركته لا يحير حرفاً ، ولا يرد طرفاً^(١) » .

وهكذا كانت الضربة الصاعقة التي أصابت قلب الوزير فجعلته يتبعها بعد

أن صادته بحبالها وبادلته بالعشق عشقاً وبالغرام غراماً .

ويشتد الأمر على ابن زيدون ، ويتألم أشد الألم ، ويتضرع لها ويتوسل ولكنها لا تلتين ، فلا يجد بداً من أن يتوعد ابن عبدوس نفسه ويتهدهه فيكتب له قصيدة نقرأ في مطلعها هذه الأبيات (١) :

أَثَرْتَ هَزَبَ الشَّرَى إِذْ رُبْضٌ وَنَبَّهَتْهُ إِذْ هَذَا فَاغْتَمَضُ
وَمَازَلْتَ تَبْسُطُ مَسْتَرْسِلًا إِلَيْهِ يَدَ الْبَغَى لَمَّا انْقَبَضُ
حَذَارٍ حَذَارٍ فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا سِيمَ خَسَفًا أَلْبَى فَاغْتَمَضُ
فَإِنَّ سَكُونَ الشَّجَاعِ النَّهْوُ مِنْ لَيْسَ بِمَانِعِهِ أَنْ يَعْضُ
وَإِنَّ الْكَوَاكِبَ لَا تُسْتَزَلُّ وَإِنَّ الْمَقَادِيرَ لَا تُعْتَرَضُ^٢
أُعِيدُكَ مَنْ أَنْ تَرَى مِنْزَعِي إِذَا وَتَرَى بِالْمَنَايَا انْقَبَضُ

ولكن ابن عبدوس لم يصنع إلى تعريضه ووعيده ، وكذلك ولادة لم ترق لآلام حبه . ويعلم ابن زيدون أن منافسه يستخدم في مراسلاته سيدة تزينه في عيني صاحبه وتصف لها غناه وجماله ، فيستغل هذا الأمر ليكتب إلى ولادة رسالته الهزلية يسخر فيها على لسانها من ابن عبدوس ويهكم عليه ويعبث به ويهجو عليها تفصم جبل وصالحا مع خصمه . ولكن ولادة لم تفعل بل تغضب غضباً شديداً وتهجو بيتين هجاء مقذعاً فاحشاً . ويعظم الخلاف بينهما وتحتدم العداوة بينه وبين منافسه ابن عبدوس . وستكون هذه العداوة من جملة الأسباب التي أدت إلى سجن الشاعر .

ويستمر شاعرنا في الأنين والشكوى ، وسنا يبدو لنا إخلاصه لحبيته ، ويتمثل لنا حبه وألمه ، كما تتكشف لنا نفسية معشوقته المهتكة ، وكيف أنها لم تكن في

(١) الديوان ٢٣٧ .

(٢) النهوس : العضوض ، الشجاع : الذكر من الحيات .

حبها الأول إلا لاهية عابثة كما هي تلهو الآن وتنساق كؤوس الهوى مترعة مع ابن عبدوس .

ويكتب لها ابن زيدون كثيراً من القصائد ذاكرة حبها ، متشوقاً لأيامه السعيدة ولكن ولادة تصم الأذن وتغلق القلب .

ولا بد لي هنا من ملاحظة ، هي أن أكثر غزل الشاعر بولادة قد قاله بعد أن ساءت العلاقة بينهما ، فهو شعر شكوى وألم وذكرى ، فأين هو ذلك الشعر الضاحك الذي وصف أيام غرامهما السعيد ، وما السر في هذا الصمت عن وصف ذلك الحب ؟ هل بخلت قريحة الشاعر في أيامه الهانئة ، أو أن حبها كان في البدء حباً متهتكاً تافهاً ، ثم انقلب إلى حب حقيقي عند ما ألح البعاد قلبه فانبجس بالشكوى ووصف غرامه المعذب ؟ هذا ممكن . على أن فترة حبهما الهانئ كانت قصيرة ، ولم يحدثنا الشعراء كثيراً في أدبنا العربي عن أفراح الغرام ، وأكثر غزلنا وصف لتباريح الهوى وعذاب الشوق وقسوة المحبوبة .

هذا وقد كانت معاني شاعرنا في قصائده الغزلية هذه تحوم حول إثبات حبه وإخلاصه لولادة ، فليس لها إلا أن ترق وتعطف وتعود لأيام الحب الأول . إنها أصغت لكلام الحساد والوشاة ولم يرتكب ما يسمح لها بهذه القطيعة ، وهو ما يزال يذكرها دائماً لأنه في حنين دائم . حول هذه المعاني وأضرابها كانت تدور أكثر قصائده الغزلية وكانت على شكل مقطوعات إلا أننا نجد بعض القصائد الكبيرة كقصيدته الشهيرة التي أرسلها إليها بعد خروجه من السجن ، ويقال إنه بعث بها إليها من إشبيلية ، ومطلعها :

أضحي التناثي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وكهذه القصيدة التي يقول في مطلعها^(١) :

لئن قصّر اليأس منك الأمل وحال تجنّيك دون الحيل

وَرَأَقَكَ سِحْرُ الْعِدَا الْمُفْتَرَى وَغَرَّكَ زُورُهُمُ الْمُفْتَعَلُ
فَإِنْ ذِمَامَ الْهَوَى لَنْ أَزَالَ أَبْقِيَهُ حِفْظًا كَمَا لَمْ أَزَلْ

ففيها تتمثل حرقه الشاعر وانكساره ورجاؤه لحب جديد ينجي فيه سعادة النعيم
الآفل .

الفصل الثانى

ابن زيدون فى بلاط بنى جَهْوَور وبنى عباد

الشاعر فى بلاط أبى الحزم وسجنه :

لامرية فى أن ابن زيدون كان من أكابر الرجال الذين لم يكونوا فى معزل عن حوادث الفتنة . وقد كان ، كما يبدو من مدائحه لبنى جهور ، من مناصريهم . وليس بعيداً أن يكون ما أظهره من العطف على حركتهم هو الذى حدا بأبى الحزم ابن جهور إلى تقريبه واستخدامه ، إلى جانب ما توسم فيه من الصفات الممتازة والأدب الرفيع . وقد نقل ابن بسام فى الذخيرة عن ابن حيان فى وصف من كان اصطنع ابن جهور من رجال دولته فقال : « ونوهَ بفتى الآداب وعمدة الظرف ، والشاعر البديع الوصف ، أبى الوليد أحمد بن زيدون ذى الأبوة السنية بقرطبة ، والرياسة والدراية ، وحلاوة المنظوم ، والسلطة ، وقوة العارضة ، والافتنان فى المعرفة وقدمه للنظر على أهل الذمة ، لبعض الأمور المعترضة ، وقصره بعدد على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء فأحسن التصرف فى ذلك ، وغلب على قلوب الملوك »^(١).

ويقول المؤرخون بعد ذلك إن أبا الحزم بن جهور قد تغير على ابن زيدون فسجنه ، وقد قال ابن بسام فى صدد سجنه ما يلى : « وكان علقه من عبد الله بن أحمد المكوى ، أحد حكام قرطبة ، ظفر أحجن ، أداه إلى السجن ، فالتقى نفسه يومئذ على أبى الوليد بن جهور فى حياة والده أبى الحزم فشفع له وانتشله من نكبته وصيره من صنائعه »^(٢).

ونحن لا ندرى الدوافع الحقيقية إلى هذا السجن ، وهناك من يرى أن ابن

(١) الذخيرة ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٢) ديوان ابن زيدون ٤٠٩ .

عبدوس نسب إليه أنه يحاول القيام بثورة على أبى الحزم بن جهور ، فسبق من أجل هذا إلى المحاكمة ، وكان القاضى الذى تولى محاكمته هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوى ، الذى ولى قضاء قرطبة فى المحرم سنة ٤٣٢ ، والذى أشار إليه ابن بسام فيما قدمناه ، فعند ما عرضت قضيته عليه أمر بسجنه على الفور لموجدة قديمة بينه وبين الشاعر . فإذا افترضنا أن هذه المحاكمة قد جرت فى السنة التى ولى ابن المكوى قضاء قرطبة يكون الشاعر قد دخل السجن وعمره ثمانية وثلاثون عاماً .

على أن قصة محاكمته تأخذ شكلاً آخر عندما يرويها ابن بسام فى ذخيرته ، ويرى أن السبب المباشر لسجنه التهمة التى ألصقت به ، وتتلخص فى أن ابن زيدون قد حاول استغلال إرث أحد الأسياد بعد وفاته ، فكان أن قيد إلى المحاكمة ، فحكم عليه القاضى ابن المكوى بالسجن ، إلا أن خبر هذه التهمة يدفعها ابن زيدون عن نفسه فى رسالة أرسلها إلى أستاذه أبى بكر بن مسلم ، وهو مختلف بقرطبة بعد هربه من السجن^(١) ، ويثبت فيها أن هذا السيد كان لا يملك شيئاً حتى يستطيع أن يكسب إرثه . وقد أشار المستشرق (كور) إلى هذه التهمة عند الحديث عن سجنه ، وقال إنه سجن بعد المحاكمة ، ولكنه لم يفهم النص فهماً دقيقاً^(٢) .

ومهما يكن من أمر فسجن الشاعر كان نتيجة لما حاكه حساده حوله من مؤامرات ، وكان فى طبيعة هؤلاء الحساد منافسه ابن عبدوس فاستطاع أن يوغر صدر الأمير ابن جهور عليه . وقد يكون هؤلاء الحساد قد أثاروا أيضاً ضده قضية حبه لولادة .

وهكذا يقضى الشاعر ما ينوف عن خمسمائة يوم سجيناً حائراً يستعطف ابن جهور ويناشده العفو دون فائدة ، محاولاً أن يجد تعزية فى ذكرى حبيبته التى كان ينظم الأشعار فى استعطافها وعتابها ويذكر أيام حبهما .

وقد نظم الشاعر أثناء سجنه عدة قصائد جميلة تغلب عليها رنة الاستعطاف

(١) الذخيرة ج ١ ص ٣٤٤ .

(٢) كور ، كتابه عن ابن زيدون بالفرنسية ، ص ٥١ .

والحنين والعتاب منها هذه القصيدة التي نقرأ فيها هذه الأبيات فنعلم أن بياض الشيب قد وخط عارضيه قبل أن يخالف برد الشباب وقبل أن يبلغ ثلاثين ربيعاً ، فيقول (١) :

مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدْهَا مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُغْنِي عَنْ الْخَبَرِ
لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَمَائِلِي كَبْرَةً وَأَرَى بَرْقَ الْمَشِيبِ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعَرِ
قَبْلَ الثَّلَاثِينَ إِذْ عَهْدُ الصَّبَا كَثَبٌ وَلِلْمَشِيبَةِ غُضُنٌ غَيْرُ مُهْتَصِرٍ
هَا إِنَّهَا لَوَعَةٌ فِي الصَّدْرِ قَادِحَةٌ نَارَ الْأَمْسَى وَمَشِيبِي طَائِرُ الشَّرَرِ

وفها هذه القصيدة الشهيرة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، التي بعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبي حفص بن برد والتي جاء ذكرها في قلائد العقيان ومطلعها :

مَا عَلَى ظَنِّي بَأْسٌ يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَأْسُو^٢

ولعله أيضاً قد نظم في هذه الفترة هذه القصيدة الرقيقة القصيرة التي نقرأ فيها هذه الأبيات فيخيل لنا أنها قيلت في السجن وابن زيدون لا يستطيع أن يطير إلى محبوبته ولادة :

وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوٌّ رِضَاكَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَاحِ
وَلَمَّا أَنْ جَلَّتْكَ لِي اخْتِلَاسًا أَكْفُ الدَّهْرِ لِلْمَحِينِ الْمُتَاحِ
رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابٍ وَغُضُنِ الْبَانِ يَرْفُلُ فِي وَشَاحِ
فَلَوْ أَسْطِيعُ طَرْتُ إِلَيْكَ شَوْقًا وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ؟^٣

(١) الديوان ص ٩٢ .

(٢) الديوان ص ١ .

(٣) الديوان ص ٢٦١ .

ومن سجنه أرسل ابن زيدون رسالته الجدية إلى ابن جهور يستعطفه فيها وأرسل معها قصيدة يمدحه بها ويستعطفه أيضاً ومطلعها ^(١) :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم

وقد ذكر في هذه القصيدة أنه مكث في السجن خمسمائة يوم فقال :

أفصبرُ مئين خمساً من الأيا م ، ناهيك من عذاب أليم

وعلى هذا تكون هذه الرسالة قد أرسلت إلى أبي الحزم في أواخر أيام سجن الشاعر :

لم يلق ابن زيدون من ابن جهور على رغم استعطافه له إلا الجفاء ، فلم يعف عنه وذهبت توسلاته عبثاً ، عندئذ عزم على الفرار ، ونزع مع المستشرق كور ^(٢) أن أبا الوليد بن جهور قد ساعد الشاعر على الهرب ، فقد كان صديقه وكان يزوره في سجنه . وقد أشار ابن بسام إلى ذلك عند ما قال : إن أبا الوليد قد انتشل الشاعر من نكبته .

وهكذا يفر الشاعر من سجنه في غضون سنة ٤٣٣ هـ ، بعد أن أخفقت وسائله وتوسلاته في استعطاف أميره أبي الحزم ، ويقصد إشبيلية للمرة الأولى فيجد الشاعر فيها صديقاً رجباً حيث أدناه المعتضد منه وقربه إليه وغمره بعطفه . ولكن نفس الشاعر كانت تجذبه إلى قرطبة ، موطن صباه ومسرح هواه ، فكتب إلى حبيبته قصيدته النونية الخالدة التي استلها بقوله :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وطاب عن طيب لُقيانا تجافينا
وختمها بقوله :

أولى وفاءً ، وإن لم تبذل صلّة فالطيف يُقنعنا والذكر يكفيننا

(١) الديوان ص ٤٩

(٢) كور : ابن زيدون ص ٦٨ .

وفى الجواب متاع إن شفت به بيض الأيادي التي مازلت تولينا
عليك منا سلامُ الله ما بقيت صبايةً بك نخفيها فتخفيها

ولم يطق البقاء بعيداً عن هواه فعاد إلى قرطبة واستخفى بضاحتها الزهراء وأخذ
يراسل أصدقاءه مستشفعاً بهم لدى أبي الحزم ، فكتب رسالته الرائعة إلى أستاذه
أبي بكر بن مسلم ^(١) وفيها أبان سبب دربه بعد أن أعيته وسائل الاستعطاف وعاتب
أستاذه لتقاعسه في إخراجه من السجن ، ثم اتبعها بقصيدته الطائفة البارعة الوحيدة
في الديوان . وكنا قد أشرنا إليها ^(٢) . ولم يكنف الشاعر بهذا بل واصل مساعيه عند
ولى العهد أبي الوليد .

بقى ابن زيدون مخفياً في الزهراء . وفى هذه الفترة كتب إلى حبيبته قصيدته
العاطفية اتى استهلها بقوله :

إني ذكرتُك بالزاهراء مُشتاقاً والأفق طَلَقُ رَمَرَأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ فى أصائله كأنه رَقَّ لى فاعتلَّ إشفاقاً ٣

وفى صدد هذه القصيدة يقول ابن خاقان ^(٤) : « . . . فلما حلَّ بذلك القرب .
وانحلَّ عقد صبره بعد الكرب ، كَرَّ إلى الزهراء ليتوارى فى نواحيها ، ويتسلى برؤية
ما فيها . فوَّادها وأربيع قد خامع عايبها بُرده ، ونثر سوسنه وورده ، وأترع جداولها ،
وأَنطق بلابلها . . . فتشوق إلى ولادة وحن ، وخاف تلك النوائب والحن ، فكتب
إليها يصف فرط قلقه ، وضيق أمده وطلَّقه ، ويعاتبها على إغفال تعهده ، ويصف
حسن محضره بها ومشهده » ، ثم يذكر ابن خاقان جميع القصيدة وهى فى خمسة
عشر بيتاً .

(١) الأخيرة ج ١ ص ٣٤٤ .

(٢) انظر ص ١٦٣ من هذا الكتاب .

(٣) الديوان ص ٢٥٧ .

(٤) قلاند العقيان ص ٨٢ .

وقد يكون الشاعر قد أهدى أبا الحزم بن جمهور في هذه الفترة بعض قصائد المدح والاستعطاف ، ولكن يصعب علينا تحديد تاريخها .

ويحظى ابن زيدون في النهاية بعفو أبي الحزم وكان لابنه أبي الوليد الفضل الأول في ذلك ، فتتوثق المودة بين الشاعر وأبي الوليد فيمدحه ويمدح أبا الحزم أيضاً . ثم لم يلبث أبو الحزم أن توفي في السادس من محرم سنة ٤٣٥ هـ فيرثيه بقصيدة مطلعها :

ألم تر أن الشمس قد ضَمَّها القبر وأن قد كفنا فقمَدَها القمرُ البدرُ

وليس في هذه القصيدة ما يدل على أنها تنبض بالعاطفة الصادقة . فالمطلع كما نلاحظ تقليدي يمهّد السبيل فيه لمدح ابن المتوفى أبي الوليد الذي أحبه ولم ينس فضله في سبيل خلاصه من السجن . والقارئ لهذه القصيدة يرى أن معانيها تتردد في قصائد أخرى كتلك التي قالها في رثاء المعتضد بن عباد (٢) وكأن الشاعر قد أراد من رثاء أبي الحزم تمكين مكانته عند ابنه أبي الوليد على طريقة (مات الملك عاش الملك !) ، فالشاعر يبكي الفقيد ولكنه يتطلع دائماً إلى البدر الذي حل محل الشمس التي ضمها القبر ، ثم يأتي بالأوصاف التقليدية التي لا تلمح فيها خلجات قلب شاعر متأثر .

الشاعر في بلاط أبي الوليد :

بعد وفاة أبي الحزم سنة ٤٣٥ هـ تقلد زمام الأمور ابنه أبو الوليد ، وهنا نرى نجم ابن زيدون يتألق ويعلو ، فيقر به أبو الوليد منه ويعينه للنظر على أهل الذمة ، فينظم الشاعر قصيدة جميلة تعبر عن بهجته ورجائه فيه يفتتحها بهذا المطلع :

ما للهدام تديرها عيناك فيمِيلُ في سُكر الصِّبَا عِطْفَاكُ ٣

(١) الديوان ص ١٥٠ .

(٢) الديوان ص ١٤٠ و ١٥٠ و ١٧٤ .

(٣) الديوان ص ٩ .

إلى أن يقول :

قلدنى الرأى الجميل فإنه حسبي ليؤمى زينة وعراك
وفى هذه القصيدة تتجلى فرحة الشاعر بأميره وقد ارتقى أريكة السيادة والحكم
فيصبح بأعلى صوته :

بُشْرَاكِ يَا دُنْيَا وَبُشْرَانَا مَعاً هَذَا الْوَزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ فَتَاكِ
يَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الَّذِي لِسَنَائِهِ وَسَنَاهُ تَعَشَوُ السَّبْعُ فِي الْأَفْلَاكِ^١
فَرَحُ الرِّيَاسَةِ إِذْ مَلَكَتْ عِنَانُهَا فَرَحُ الْعُرُوسِ بِصَحَّةِ الْإِهْلَاكِ^٢

وينظم ابن زيدون في هذه الفترة أيضاً قصيدة أخرى في مدح مليكه أبى الوليد
مطلعها (٣) :

أَجَلٌ إِنْ لَيْلَى حَيْثُ أَحْيَاوْهَا الْأَسَدُ مَهَاةٌ حَمَتُهَا فِي مَرَاتِعِهَا أَسَدُ

ونرى الشاعر فيها يتدفق مدحاً لآل جهور ويعرض بمطلب لعله الوزارة التي
رفعه إليها مليكه أبو الوليد فيما بعد ، فيقول :

فَدَيْتُكَ إِنِّي قَائِلٌ فَمَعْرُضٌ بِأَوْطَارِ نَفْسٍ مِنْكَ لَمْ تَقْضِهَا بَعْدُ
مُنَى كَالشَّجَادُونَ الْمَهَاةُ تَعَرَّضْتُ فَلَمْ يَكُ لِلْمَصْدُورِ مِنْ نَفْسِهَا بُدُ^٣
أَمْثَلِي غُفْلٌ خَامِلٌ الذِّكْرُ ضَائِعٌ ضَيَاعَ الْحَسَامِ الْعَضْبُ أَصْدَادُ الْغَمْدِ^٤

(١) اسنائه بالممد : الرفعة والشرف . وبالقصر : اللصوة . تعشو : تقصده ، عشا النار وإلى النار :
رآه ، ليلا فقصدتها راجياً هدى أو قورى .

(٢) الإهلاك : الزواج .

(٣) الديوان ص ١٧٧ . وقد جاء فيه أنها قينت في مدح أبى الحزم بن جهور . وهو خطأ .

(٤) الشجا : ما يمترض في اللهاة أو الخلق .

(٥) العضب : القاطع .

بَدَأَتْ بِنُعْمَى غَضَّةٍ إِنْ تَوَالِيَهَا فَحُسْنُ الْأَلَى فِي أَنْ يُوَالِيَهَا سَرْدُ^١
لَعْمُرْكَ مَا لِلْمَالِ أَسْعَى فَإِنَّمَا يَرَى الْمَالُ أَسْنَى حِظَّهُ الطَّبَعُ الْوَشْدُ
وَلَكِنْ لِحَالٍ إِنْ لَبِسَتْ جَمَالَهَا كَسَوْتُكَ ثَوْبَ النَّصْحِ أَعْلَامُهُ الْحَمْدُ

وهكذا يضمنى الشاعر عليه مدائحه ، ويخلع عليه قصائده التي نسمع خلال أبياتها رنة الإخلاص ، وتشيع في تضاعيفها نبضات الحب للملك خلصه من السجن ثم رفعه إلى مراتب الوزارة والأمر والنهي ، فلا عجب أن نراه يصوغ ألفاظه درراً في مدائحه فيقول :

مَلِكٌ لَدَدْ جَنَى الْعَيْشِ بِهِ حَيْثُ وِرْدُ الْأَمْنِ الْمَصَانِي عَمَلٌ
يَا بَنِي جَهْوَرِ الدُّنْيَا بِكُمْ حَلَيْتَ أَيَاهُهَا بَعْدَ الْعَطَلِ
نَحْنُ مِنْ نِعْمَائِكُمْ فِي زَهْرَةٍ جَدَدْتَ عَهْدَ الرَّبِيعِ الْمُقْتَبَلِ
زَهَرَتْ أَخْلَاقُكُمْ فَابْتَسَمْتُ كَا بَتَسَامِ الْوَرْدِ عَنْ لَوْلُو طَلِ^٢

وعندما نكب بنو ذكوان سنة ٤٤٠ هـ ، وهي الأسرة التي ينتسب إليها أستاذه القاضي أبو بكر بن ذكران أرسل الشاعر إلى أبي الوليد مدحة^(٣) نستشتم من خلالها قلق الشاعر وعدم اطمئنانه لمستقبله . فهل بدأ يخشى أن يصيبه من الابن ما أصابه من الأب ؟ وما معنى هذا التضرع الذي نقرؤه خلال هذا البيت من القصيدة المذكورة ؟ :

لَا تَسْتَعْجِزْ وَضَعُ قَدْرِي بَعْدَ رَفْعِكَ فَاللَّهُ لَا يَرْفَعُ الْقَدْرَ الَّذِي تَضَعُ
ويبدو ، كما يشير بعض المؤرخين ، أن ابن زيدون قد أخذ منذ هذا التاريخ

(١) الألى : النعمة وجمعها آلاء . سرد : تتابع .

(٢) الديوان ص ٦٢ - ٦٥ .

(٣) الديوان ص ١٣٠ .

يخلفه سيده وتعتوره الوسواس . إذ رآه يصغى إلى أقوال الوشاة . الراغبين بتنهيته عن مركزه .
وأكبر الظن أن سبب جفاء أبي الوليد لابن زيدون ما كان من أمر نكبة بنى
ذكوان . أصدقاء الشاعر ، عند ما حاول بعض منهم الوثوب على السلطان بقرطبة .
فكان أن أحاطت بالشاعر الشبه ، فحاول أن ينفيها عن نفسه بالقصيدة المشار إليها .
وفى هذه الفترة يحدث أن يرسله أبو الوليد سفيراً إلى حضرة إدريس الحسنى
بمالقة فيطيل الشواء هنالك ويتقرب من إدريس . فيعتب عليه أبو الوليد ويصرفه
عن السفارة بينه وبين أمراء الأندلس . وهكذا تنقطع أيام الشاعر عن قرطبة ،
ولا يعود إليها خشية من أبي الوليد بن جمهور الذى أرسل إليه يتهده بعد أن تابع
نخصومه في إغفار صدر أبي الوليد عليه . فيقصد بالنسبة ويستقباه أميرها أبو عبد الله
ابن عبد العزيز استقبالا حسناً ، ولكنه لا يقيم فيها طويلاً ، وقد أسف على فراق
أبي عبد الله في قصيدة نقرأ فيها هذه الأبيات :

راحت فصَحَّ بها السقيم ريح معطّرة النسيم
مقبولة هبت قبو لا فهى تعبّق في الشميم
أفضيض مسلك أو بلد سية لريّاها نعيم
بلد حبيب أفقه لغتى يحلّ به كريم

مهما ذممتُ فما زما في ذمامك بالذميم
زمن كما ألوف الرضا ع يشوق ذكراذ الفطيم
الله يعلم أن حبك من فوادي في الصميم
ولئن تحمّل عنك لى جسم فعن قلبٍ مقيم

وقد أم أيضاً طرطوشة ، أثناء وجوده بأقصى شرق الأندلس ، وهى مدينة قائمة على البحر الأبيض . من أعمال بلنسية ، وفيها قال هذين البيتين متشوقاً إلى وطنه :

غريبٌ بأقصى الشرق يشكر للصَّبا تحمُّلَهَا منه السلامَ إلى الغربِ
وما ضُرَّ أنفاسُ الصَّبا في أحمالِها سلامَ هوى يهديه جسمٌ إلى قلب

ثم يقصد بطليوس في الغرب فيلاقى من أميرها من الاحتفاء ما لاقاه من أمير بلنسية . وكان قدومه إليها في عيد الأضحى سنة ٤٤١ هـ . فهاجته أن يرى نفسه وحيداً فتذكَّر معاهده في قرطبة . وأخذ يعدّها معهداً معهداً ، ويتحسر على أيامه الخوالى في قصيدة نظمها في هذه المدينة ، مطلعها :

خليلى لا فطرئسرو ولا أضحى فمأحال من أمسى مشوقاً كما أضحى

والقصيدة تم عن شوق الشاعر وأساها ، وتصور ما أثارتها الذكرى في نفسه من الحب والحنين لمدينة ترعرع فيها حبه ، وقضى فيها أيام شبابه وسعاده وشقائه . وقد نظم أيضاً في هذه المدينة قصيدة أخرى تصور صباه وشوقه وهى أرجوزة مطلعها :

يادمع صُب ما شئت أن تصُوباً ويا فوادی آن أن تذوباً ٢

وقد لاقى ابن زيدون من المظفر صاحب بطليوس كل إكرام مما جعل لسانه ينطق بشكوه ، وقد كتب إليه أيضاً قصيدة ورسالة نجدهما في ديوانه (٣) :

وهكذا لم يستطع هذا التنقل والرحيل أن ينسيه حبه أو يشغله عن هواه ، فظل في حنين دائم وتلهف مقيم .

ولكن ابن زيدون كان يتطلع إلى بلاط أوسع مما رأى ليرضى طموحه ،

(١) الديوان ص ٥٤ .

(٢) الديوان ص ١٩ .

(٣) ص ١٢٢ و ص ٣٤٦ .

فصحت عزيمته على الرحيل مرة ثانية إلى المعتضد بن عباد بإشبيلية ، الملك الذي كان الأدباء يجدون في كنفه عطفاً ورعاية . وفي سنة ٤٤١ هـ ، رحل إليه بعد أن تأكد برسائل أرسلها إلى المقربين من المعتضد وإلى المعتضد نفسه أنه سيتزل على الرحب والسعة .

ابن زيدون في بلاط بني عباد :

ها هو ذا ابن زيدون في إشبيلية مرة أخرى يرعاه المعتضد ويحتفى به احتفالاً زائغاً . وقد ولاه الوزارة ولقبه بذي الوزارتين وأسبغ عليه الخلع ، وقلده أمور دولته واستكتبه « فكانت الكتب تنفذ من إنشاء أبي الوليد إلى شرق الأندلس فيقال تأتي كتب من إشبيلية هي بالمنظوم أشبه منها بالمشور^(١) » . وقال ابن زيدون في أميره أحسن المدائح نجدها منشورة في ديوانه ومنها قصيدته التي قالها في عيد الأضحى سنة ٤٤٥ هـ ، ولعلها من خير مدائحه ومطلعها :

أَمَّا فِي نَسِيمِ الرِّيحِ عَرَفُ مُعْرِفُ

لَنَا هَلْ لِدَاتِ الْوَقْفِ بِالْجَزْعِ مَوْقِفُ^٢

ولا يقتصر الشاعر في هذه القصيدة على مدح المعتضد بل يتدبها بمطلع غزلي رأى فيه ابن خاقان في قلائده أنه حنين لولادة ، ونحن إذا ما تدبرنا هذا المطلع الغزلي لم نجد فيه ما يجعلنا نعتقد بأنه قيل في ولادة . وهو في جملة غزل تقليدي تفتتح به عادة قصائد المدح على الرغم مما يشيع فيه من أصداء خافتة لشاعر عرف العشق واكتوى بناره .

وقد بقي ابن زيدون وزير المعتضد وشاعره المفضل إلى أن توفي سنة ٤٦١ هـ ، فلما تولى الملك ابنه المعتمد (وكان له من العمر ثلاثون عاماً) حظى بالمكانة نفسها التي كان يتمتع بها عند أبيه ، ولا عجب في ذلك فقد رأينا المعتمد شاعراً محبباً للأدباء ،

(١) الذخيرة ١ ص ٢٩٠ .

(٢) الديوان ص ٢٣ ، الجرع : منعطف الوادي . الوقف : السوار من العاج وغيره .

وكان بلاطه قبلة كل أديب ومؤثر كل فنان عبقرى . وقد حاول أعداء ابن زيدون بعد وفاة المعتضد الإيقاع به ولكن المعتمد لم يصنع لأقوال هؤلاء الأعداء ، فبقى أثراً عنده ، وقد حفظ الشاعر لمليكه هذا الموقف النبيل فمدحه بقصيدة عرّض فيها بحساده ونعمهم بالبغاة ومطامعها :

الدهرُ - إن أُملى - فصيحٌ أعجمُ يُعْطى اعتبارى ما جهلتُ فاعلمُ
إن الذى قدّر الحوادثَ قدّرَها سهوى اليه الشهدَ منها العلقمُ

ولابن زيدون مدائح كثيرة جليلة غير هذه . وله معه مداعبات ومساجلات نجدها فى ديوانه .

وهكذا فقد كانت حياة ابن زيدون فى عهد المعتمد مفعمة بالمسرة والهناء . ولم يكن ليشجىها إلا أطياف حب قديم مقيم . وكانت إشبيلية تضمه بشعرها وغنائها ولحوها وخمرها وتبسط أدامه لحو الحياة وعز السلطان . ويكفى أنه كان فى بلاط المعتمد وقد اجتمعت فيه مباهج الدنيا ولذاتها .

ولكن هذه الحظوة العظيمة التى تمتع بها ابن زيدون عند المعتمد لم تستطع أن تنسيه قرطبة أو أن تحذ من شوقه إليها ، ولعل الشاعر كان يغرى لمليكه بالاستيلاء عليها . وحدث سنة ٤٦٢ هـ أن المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ، قد هاجم قرطبة يريد احتلالها فاستنجد ملكها أبو الوليد ابن جهور بالمعتمد فأرسل جيشاً يقوده أحد أبنائه ، فما كان من جيش المأمون إلا أن ينسحب بينما نزل جيش بنى عباد فى ضاحية المدينة وأخذ يتصل بأهل قرطبة حتى ثار هؤلاء على ابن جهور واستولى الجيش الإشبيلي على قرطبة ونادى أهلها بالمعتمد ملكاً عليها .

وهكذا يعود ابن زيدون مع مليكه إلى قرطبة قرير العين برؤية أهله ووطنه فيرتفع حظه ويزداد إقبال الدنيا عليه ويبلغ من الحظوة عند المعتمد ما يجعل وزيره ابن مرتين وابن عمار يكيدان له ويسعيان فى إبعاده . وتساعدهما الظروف ، فتحادث فتنة فى إشبيلية ويضطر ابن عباد لإرسال جيش كثيف بقيادة ابنه سراج

الدولة بن عباد . إلا أن ابن مرتين وابن عمار يسولان للمعتمد أن يرسل معه ابن زيدون . ففي إرساله نجاح لمهمة سراج الدولة وحقق نالدهاء لما له من المحبة في قلوب أهل إشبيلية . وفي الواقع لم يكن يقصد الوزيران من وراء ذلك إلا إبعاد ابن زيدون ليصفوا لهما الجو وينفردا بالمعتمد بعد أن ساءت لهما الشعبية الكبيرة التي يتمتع بها الشاعر في قرطبة .

وهكذا يغادر ابن زيدون قرطبة على الرغم من مرضه برفقة سراج الدولة والحيش قاصدين إشبيلية وذلك في الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٤٦٢ ، ويترك ابنه أبا بكر بن زيدون خلفاً له في الوزارة . ولكن ابن مرتين وابن عمار ما زالوا يسعيان لدى المعتمد حتى أصدر أمره إلى أبي بكر بن زيدون بأن يلحق بأبيه إلى إشبيلية ، فكأن ابنه قد لحقه ليشهد موته ، ويعتنى بتشييعه ودفنه فيها . وفي الواقع فقد كانت هذه الرحلة سبباً في تعجيل موته ، إذ ساءت حالته الصحية يوماً بعد يوم ، فهلك بعيداً عن المدينة التي أحبها ، في الخامس عشر من رجب سنة ٤٦٣ للهجرة ، وكان لنبا موته رفة أسي في قرطبة ، وحزن عليه أهلها حزناً كبيراً . وصمت ذلك الصوت الذي غنى حياته ، بآلامها وحبها وعزها ، شعراً خالداً .

الفصل الثالث

آثار ابن زيدون وأدبه

الديوان :

لابن زيدون ديوان نشره في القاهرة سنة ١٩٣٢ الأستاذان كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة^(١). وإننا لنجد في نهاية هذه الطبعة قسماً من رسائل الشاعر مع طائفة من الأبحاث عن حياة ابن زيدون وشعره بقلم طائفة من الأدباء القدماء والمعاصرين .

ومع أن الأستاذين كيلاني وخليفة قد بذلا جهداً مشكوراً في طبع هذا الديوان وكان لهما فضل السبق في أولية نشره. إلا أنهما لم يتبعا في عملهما أسلوب النشر العلمي الحديث ، فلم يصفيا المخطوطات التي اعتمدا عليها . ولم يذكرنا مختلف الروايات في الهوامش ، ولم يثبتا الفهارس المختلفة التي تيسر سبيل البحث والمراجعة . وقد اعتمدا في نشر هذا الديوان ، كما علمنا . على النسختين الخطيتين رقم ٤٩٦ أدب ورقم ٥٥٥ أدب ، المحفوظتين بدار الكتب المصرية بالقاهرة^(٢) .

والديوان ، كباقي دواوين الشعر العربي . ليس فيه ما يدل على الدافع والظروف التي قيلت فيها القصائد إلا بعض الإشارات العابرة في تقديم بعضها . وقد

(١) طبع هذا الديوان أيضاً في بيروت سنة ١٩٥١ . والطبعة ناقصة ، وهي بإشراف مكتبة صدر . وفي سنة ١٩٥٧ قام الأستاذ علي عبد العظيم مدير إدارة المخطوطات بدار الكتب المصرية بالقاهرة بطبع ديوان ابن زيدون طبعة علمية مع رسائله النثرية . وقد شرح قصائده ونصوصه وحققتها وعلق عليها ووضع له مقدمة طويلة عن حياة الشاعر وشعره ونثره ، ويؤسفنا أنه لم نطلع على هذه الطبعة إلا بعد إعداد بحثنا وكان اعتمادنا فيما دوناه على طبعة الأستاذين كيلاني وخليفة .

(٢) أشار المستشرق بروكلمان إلى هاتين المخطوطتين في كتابه « تاريخ الآداب العربية » الملحق الأول ص ٤٨٠ ، وأشار أيضاً إلى مخطوطة للتصديده الشهيرة مخمومة في أكسفورد . والديوان ابن زيدون ، عدا المخطوطتين لسابقتين ، نسختان خطيتان محفوظتان أيضاً بالقاهرة : إحداها النسخة رقم ٧٦ شعر تيمور بالمكتبة التيمورية . والأخرى نسخة رقم ٤٤٣ أدب بمكتبة الأزهر .

توالت القصائد أيضاً دون نظام ، ولم يراع فيها الترتيب التاريخي ، وهذا عيب من عيوب دواويننا الشعرية يجعل دراسة شعر الشاعر والغوص على أسرار عبقريته محاطاً بكثير من الصعوبات .

ويلاحظ أن الأغراض الأساسية التي عالجها الشاعر هي الغزل والمديح والاستعطاف ، ولعمري إنها لموضوعات تتجارب مع قصة حياته . ونرى أن المديح يشغل معظم صفحات الديوان ويليه الغزل ثم الأغراض الثانوية الأخرى .

الرسالة الهزلية :

طبعت هذه الرسالة لأول مرة مع ترجمة لاتينية سنة ١٧٥٥ م في مدينة ليسك من قبل المستشرق رايسك ، وطبعها المستشرق هيرت مرة ثانية في إيننا سنة ١٧٧٠ م . وقد شرحها ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م وطبع في القاهرة سنة ١٢٧٨ هـ تحت عنوان « شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » ، ولهذا الشرح عدة مخطوطات موزعة في المكتبات الأوربية .

وقد ذكرنا أن ابن زيدون كتب هذه الرسالة على لسان ولادة لمنافسه ابن عبدوس يهزأ به ، وقد جاءت رسالة طريفة جمعت بين أفانين التهمك وضروب المعرفة ، وساق فيها طائفة من الأمثال والأبيات المثورة من الشعر ، وذكر فيها الكثير من الأحداث والأعلام وأسماء الرجال .

الرسالة الجلدية :

لهذه الرسالة عدة مخطوطات أيضاً موزعة في المكتبات الأوربية وفي مكتبات القاهرة والموصل . وقد شرحها الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، في كتاب سماه « تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون » ، ولها شرح ثان طبعه مصطفى عناني بالقاهرة سنة ١٩٠٦ م في كتاب سماه « إظهار المكنون من الرسالة الجلدية لابن زيدون » وطبع أيضاً بالقاهرة سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٩ م بعنوان « الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون » كما طبعت في بغداد سنة ١٣٢٧ هـ .

وقد مرّ بنا أن ابن زيدون قد كتب هذه الرسالة وهو في السجن ، يستعطف بها أبا الحزم بن جهور ليغيد إليه حريته ، وهي لا تقل جمالا عن سابقتها ، نلمح خلال سطورها الانفعال والقلق .

والرسالة مفعمة كسابقتها بذكر الأحداث والأعلام التاريخية ، وهي تزخر بالأمثال ونثر الشعر القديم واقتباسات من القرآن الكريم وتضمينات من الحديث .

خصائص الرسالتين الأساوية :

هاتان الرسالتان قويتا الصلة بحياة الشاعر ، فالرسالة الهزلية تتصل بحياته العاطفية وما اشتملت عليه من حب ومنافسة ، والرسالة الجدية تتصل بحياته السياسية وما رافقها من سجن واستعطف .

ونلاحظ أن الرسالة الأولى قد استطاعت أن تبلغ ما تريد من السخرية بمنافسه ابن عبدوس على رغم تكلفها والتزام السجع والصناعة فيها . وقد تصل السخرية فيها أحيانا إلى حد سلاطة اللسان فتبعد عما يقتضيه التأمّل من رقة ودقيق تورية ، ولهذا فهي تتصف بالانفعال القوي الصريح المعبر عن سخط الشاعر وألمه من منافسه الذي لعب بقلب من أحبّ ولعبت هي به .

أما الرسالة الجدية فترغم أنها لم تستطع أن تبلغ هدفها في استعطف أبي الحزم ابن جهور ، لما في أسلوبها من تكلف وغريب ، ولما احتوته من الأسماء التاريخية والإشارات الأدبية التي تلهي القارئ وتجعله ينصرف إلى استقصاء معانيها وفهم مقاصدها وحل رموزها . أضف إلى ذلك أن موضوع الاستعطف يقتضى دقة في العاطفة وتلفها حاراً يرسم المستعطف في عذاب وضيق ، ولعمري إن هذه الصفة لا تظهر جلية في هذه الرسالة ، وإنما الذي يسيطر عليها الصنعة والمعرفة التي تتجلى خلال عباراتها ، فتأتي الرسالة متناً مشحوناً بالأمثال والوقائع والأشعار ، لا صرخة تنبض بالحسرة والتلهف والألم الدفين .

والرسالتان تعكسان خصائص أسلوب ابن زيدون في النثر . فهو لا يلتزم السجع

دائماً . وهو لا يلتزمه في الرسالة الجدية بينما نراه يلتزمه تقريباً في الرسالة الهزلية ، ويبدو إنشائه فيهما قليلاً ضئيلاً إذا ما قيس إلى ما يذكره من أمثال العرب وأسماء رجال التاريخ والوقائع الشهيرة .

ثم هو يكثر من الحمل المترادفة على معنى واحد ، ويظهر جلياً على أسلوبه خصائص أسلوب أهل عصره الذين جروا على طريقة ابن العميد والصاحب بن عباد والهمداني والحوارزمي ، فراه يعمد إلى نثر الأبيات الشهيرة من الشعر وتضمينها في كتابته ، والاستشهاد بعدد كبير منها دون الإشارة إلى قائلها ، ثم إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث بلفظهما أو ببعض التغيير ، وتضمين الحكم والأمثال بنصها أو بتحوير فيها .

وعلى الجملة فأسلوب ابن زيدون في نثره قوى جزل كشعره ، وقد قلنا إنه لا يتقيد بالسجع ، ولكنه لا يترك الموازنة ، فجمله متشابهة في النغمة ، متناسقة في الطول . وقد حظيت هاتان الرسالتان بشهرة كبيرة في الأدب العربي لبراعة أسلوبيهما ولما احتوتا من أفانين القول وحوادث التاريخ وأسماء رجاله ، ولما ضمتاه من الشعر الجيد والأمثال المناسبة . وإذا كنا لا نشعر عند قراءتهما بما نشعر عند تلاوة شعره من هزة وطرب . فنحن لا نستطيع إلا أن نعجب بهذا النثر لما يبدو فيه من علم وسعة اطلاع وجزالة ، ويبقى ابن زيدون شاعراً أكثر منه ناثراً .

أغراض ابن زيدون الشعرية :

طرق ابن زيدون أكثر أغراض الشعر العربي المعروفة لعهد ، وأجاد أكثر ما أجاد في فنون الغزل والمدح والاستعطاف ، وقد كان شعره صدى لحياته ، فجاء غزله معبراً عن تجربته الغرامية ، وجاء مدحه متجاوباً مع حياته السياسية ، معبراً عن عزها واضطرابها ، وكان استعطافه يعتور الغزل حيناً فإذا به استعطاف عاشق ذليل ، ويعتور المدح حيناً آخر فإذا به استعطاف أمير ذل يتطلع إلى المحجد الذي استلب منه .

ويعدّ ابن زيدون من شعراء عهد التحرر ، وهو الطور الذي أخذ فيه الشعراء

يصدرون عن نفوسهم ويمثلون البيئة ومظاهرها دون أن يتخلوا مع هذا عن التقليد .
وقد اتسم شعره بحب طبيعة الأندلس وبخاصة قرطبة ، فجاء وصفه لها ممزوجاً بقصة
حبه التي أثرت في نفسه تأثيراً كبيراً .

فما هي أهم خصائص هذه الأغراض الشعرية ؟

الغزل :

شعر ابن زيدون الغزلي يكاد يكون النغمة التي تظهر فيها أصالة الشاعر ، فهو
شعر انبجس من صميم قلبه ، وعبر عن حبه وآلامه ، ولئن كان شعر الحب عند
ابن زيدون أقل من شعر المدح ، لقد كان يفوقه إخلاصاً وجودة ، لأنه كان
صدى لانفعالاته وتعبيراً عن خفقات قلبه . ونكاد ، بعد أن علمنا قصة
حياة الشاعر ، نستطيع أن نميز أطوار هذا الشعر ، فقد علمنا حبه لولادة ثم
هجرها له ثم يأسه منها وحنينه الدائم لها . وقد جاء شعره ممثلاً لهذه الأطوار ، ولكنه
بقى على الغالب ممثلاً لطور يأسه وحنينه الدائم وذكره الحية لهذا الحب . فقد لعب
دور الهجر في قلبه لعباً قاسياً شديداً وفجراً فيه شعر الحرق والوعة وشعر الذكرى
والحنين ، أما أيام هناءه وسعاده فقد كانت قصيرة ، ولذا لا نجد له إلا قليلاً
من المقطوعات التي عبرت عن هذه الهناء ، في ألفاظ بسيطة وتراكيب لينة ومعان
لم تلهبها تجربة الحب الصادق ووعة الفراق والهجر كقوله :

هلْ لِدَاعِيكَ مُجِيبٌ ؟ أَمْ لَشَاكِيكَ طَبِيبٌ ؟
يَا قَرِيباً حِينَ يَنْشَأُ حَاضِراً حِينَ يَغِيبُ !
كَيْفَ يَسْلُوكُ مُحِبٌّ زَانَهُ مِنْكَ حَبِيبٌ ؟
إِنَّمَا أَنْتَ نَسِيمٌ تَتَلَقَّاهُ الْقُلُوبُ ١

وكفوله :

مَتَى أَبْثُكَ مَا بِي يَا رَاحَتِي وَعَذَابِي
مَتَى يَنْوُبُ لِسَانِي فِي شَرْحِهِ ، عَنْ كِتَابِي
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي أَصْبَحْتُ فِيكَ لَمَّا بِي
فَلَا يَطِيبُ مَنَامِي وَلَا يَسْوِغُ شَرَابِي

وكفوله :

يَا لَيْلُ طُلْ ، لَا أَشْتَكِي - إِلَّا بِوَصْل - قِصْرِكَ
لَوْ بَاتَ عِنْدِي قَمَرِي مَا بَتُّ أَرْعَى قَمْرِكَ
يَا لَيْلُ خَبِّرْ ، إِنِّي أَلْتَدُّ عَنْهُ خَبْرَكَ
بِاللَّهِ قُلْ لِي : هَلْ وَفَى ؟ فَقَالَ : « لَا ، بَلْ غَدَرَكَ »^٢

فمثل هذه الأبيات ، يحجبها إلى النفس رقتها وما تعكسه من قلق يغمره الرضى ، ولكنها لا تلهب النفس لأنها لا تصور حباً عميقاً مقيماً .

هذا التصوير علينا أن ننشده في الأشعار التي قالها أيام الهجر واليأس والذكرى ونجد شاعرنا قد اقتصر في أول أيام الفراق على شكوى جياشة باللوعة والحسرة ، ونلمح هذه الشكوى خلال ألحان يردد فيها أمثال هذه الأبيات فيقول :

كَمْ ذَا أُرِيدُ وَلَا أُرَادُ يَا سُوءَ مَا لَقِيَ الْفَوَادُ!
أُصْفِي الْوَدَادَ مُدَلِّلاً ، لَمْ يَصْفُ لِي مِنْهُ الْوَدَادُ
يَقْضِي عَلَيَّ دَلَالُهُ - فِي كُلِّ حِينٍ - أَوْ يَكَادُ

(١) المديوان ص ٢٦٤ .

(٢) المديوان ص ٢٧٢ .

كيف السلو عن الذى مثواه ، من قلبى ، السواد ؟
 ملك القلوب ، بحسنه فلها إذا أمر انقياد
 يا هاجرى كم أستف د الصبر عنك فلا أفاد
 هلا رثيت لمن يبي ت وحشو مقلته السهاد ؟
 إن أجنى ذنباً فى الهوى خطأ فقد يكبو الجواد
 كان الرضى ، وأعيد أن يعقب الكون الفساد ١

ثم يشتد على شاعرنا ظلام الهجر والبعد فإذا به يئن فى شعره ويستصرخ محبوبته فى لحن كله ارتجاف وذكرى . ويدخل السجن ، وهو على هذه الحال ، وتعلج فى جوانحه تباريح الهوى ، ويأخذ منذ هذا التاريخ يرسل الشعر مناجاة وذوب نفس معذبة .

هذه النفس المعذبة الحبة لم تنس غرامها ، بل لعلها كانت تجد فى النسيان لتلك النشوة الحبيبة التى يشعر بها الحب المخلص ، ولهذا ما كانت لترغب فى النسيان بل ما كانت لترغب فى الاستسلام إلى اليأس :

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه وقد يئسنا فما اليأس يُغرينا
 بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم وما جفت مآقينا
 نكاد حين تناجيكم ضائرنّا يقضى علينا الأمل لولاتنا سينا

وعلى هذا اللحن من الغزل الرقيق صاغ ابن زيدون أكثر شعره الخالد ولا سيما فى قصيدته النونية الشهيرة التى أشرنا إليها ، وفى قصيدته القافية التى جعل الطبيعة فيها مسرحاً لنجواه الغرامية فقال فى مطلعها :

إني ذكرتكَ بالزَّهراءِ مشتاقاً والأفقُ طلقٌ ومرأى الأرضِ قدراقاً
وللنسيمِ اعتلالٌ في أصائله كأنه رقٌّ لى فاعتلَّ إشفاقاً
والروضِ عن مائه الفضى مبتسمٌ كما شققتَ عن اللباتِ أطواقاً

هذا الشعر الغزلى لم يكن كله جديداً . فقد عزف ابن زيدون في معانيه وصياغته على قيثارة القدماء ، إلا أنه استطاع أن يمنحه لوناً خاصاً عند ما جعله شعراً للحنين وللذكرى ، ولهذا فالميزة الأولى لغزل ابن زيدون هي في هذه القفزة التي كان يقفزها إلى الماضي فيصور لنا بالمقارنة سعادة الحب الآفل وعذاب الهجر المقيم ، ثم يمنحنا لحناً للمناجاة يشيع منه الإخلاص ويصور حباً لا يفنى في قلب عاشق يحيا بالذكرى ويبقى للحب .

المدح :

مدح ابن زيدون متصل بحياته السياسية أشد الصلابة ، ولذا إذا تقصينا مدائحه استطعنا أن نرسم جانباً هاماً من هذه الحياة ، فقد اتصل ابن زيدون أول ما اتصل بأبى الحزم بن جمهور ، ثم لم يلبث هذا الأمير أن قذف به إلى السجن ، كما رأينا ، فأخذ الشاعر يرسل إليه مدائحه مستعظفاً مسترحماً كما يرسل إلى ابنه أبى الوليد ، وهذه المدائح تتصف بصفة الاستعطاف ويبدو فيها الشاعر شاكياً يريد أن يدفع عنه التهمة التي أودت به إلى السجن كما في قصيدته التي أرسلها إليه في نهاية الرسالة الجدية ، وفيها نقرأ هذه الأبيات :

أيُّ هذا الوزيرُ ها أنا أشكو والعصا بدءُ قرعها للحليم
ما عنانا أن يأنفَ السابقُ المرُّ بطَـ في العتق منه والتَّطهِيمُ^٢

(١) في هذا البيت تضمين للمثل العربى : « إن العصا قورعت لذى الحلم » ، وهو يضرب للذكرى إذا نهته انتبه .

(٢) السابق : انفرج . العتق في الخيل : الكرم ، والتطهير : الجمل فيها .

وبقاء الحسام في الجفن يثنى منه بعد المضاء والتصميم
 أفصبر مئين خمسا من الأيا م ؟ ناهيك من عذاب أليم !
 ومعنى من الضنى بهنات نكأت بالكلم قرح الكلوم^١
 سقم لا أعاد فيه وفي العا ثد أنس يفي ببرء السقيم^٢
 نار بغى سرى إلى جنة الأم ن لظاها ، فأصبحت كالصريم^٢
 بأى أنت ! إن تشأتك بردا وسلاما كنار إبراهيم

ويضرب الشاعر على هذا الوتر في أكثر مدائحه لأبي الحزم ، ولكنه يمزجها
 بتعداد مآثره وصفاته في شيء من الفتور ، وطبعي ألا نرى الشاعر مندفعاً في
 مدح أميره وهو الذي ألقى به إلى السجن .

أما مدائحه في أبي الوليد بن جهور فهي تنم عن إخلاص الشاعر وجهه له ،
 وليس هذا عجيباً فنحن نعلم فضل أبي الوليد على الشاعر في خلاصه من السجن ،
 ونعلم الحظوة الكبرى التي نالها بالقرب منه ، بعد وفاة أبي الحزم .

ثم تأتى بعد ذلك مدائحه التي قالها في إشبيلية وأهداها خاصة للمعتضد
 والمعتمد ، ففي هذا الدور من حياة ابن زيدون ترتفع مدائحه إلى ذروة كما لها الفنى
 وتعبير عن صادق عواطفه نحو هذين الملكين اللذين أحسنا رعايته وبوّآه أرفع
 المناصب .

وللشاعر مدائح أخرى قالها في بعض ملوك الطوائف ووزرائهم عند ما زارهم
 أثناء تجواله في طرطوشه أو بطليوس أو بلنسية وقبل أن يستقر في بلاط بني عباد ،
 وهي مدائح يبدو عليها النضج والإخلاص ، وله أيضاً مدائح أخرى في بعض
 أصدقائه وأساتذته .

(١) هنات : الشدائد ، الكلوم : الجروح .
 (٢) كالصريم : كالليل في السواد بعد الاحتراق .

هؤلاء هم أشهر ممدوحيه فما هي الصفات العامة التي سيطرت على مدح الشاعر؟
لم يكن مدح ابن زيدون طلباً للمال وإنما كان طلباً للجاه ، كما كان في بعض المواقف تعبيراً عن عاطفته ، وقد جرى فيه على ما ألفه الأقدمون من ركوب البحور الطويلة واللجوء إلى النظم الرصين الجزل . واستهل على الغالب مدائحه بالغزل ثم أخذ يعدد محامد الممدوح ومآثره متبعاً الطريقة التقليدية ، ولذا نجده مترسماً في مدحه أساليب القدماء لا يجيد عنهم كثيراً ، ولا تبدو عبقرية الشاعر إلا في القصائد التي أملت بها العاطفة ، ومن هنا كانت مدائحه في المعتضد والمعتمد وبعض مدائحه في أبي الوليد أفضل شعره في هذا الغرض .

الاستعطاف والشكوى :

وشعر الاستعطاف والشكوى على قلته يُعدّ من الأغراض التي أجاد بها شاعرنا وصدّر بها عن عاطفته ، وهذا الشعر مبثوث خلال غزله ومدحه ، كما قلنا ، وقلما انفرد في قصائد خاصة ، إلا ما نجده في تلك القصيدة الخالدة التي أرسلها إلى صديقه أبي حفص بن برد والتي كانت درةً في نسجها ونغمتها الصافية الهادئة المتألّمة .

بقية الأغراض :

يبقى ابن زيدون في أغراضه الأخرى ، كالرثاء مثلاً ، ضيق النفس فاتر العاطفة ، ورثاؤه قاله على الغالب في بعض ممدوحيه أو من يلوذ بهم فجاء بكاءً على الراحل ولكنه وسيلة للمدح المقيم كما فعل في رثاء أبي الحزم بن جهور^(١) ، أو في رثاء أم المعتضد وابنته ، أو في رثاء المعتضد نفسه^(٢) .

على أنه ينبغي أن نشير في النهاية إلى عدد من المقطوعات قالها في مناسبات مختلفة كالتناني والإخوانيات . وقد نظم أيضاً عدداً من المقطوعات الخفيفة في

(١) الديوان ص ١٥٠ .

(٢) انظر الديوان ص ٧٥ و ١٤٠ و ١٧٤ .

الألغار والأحاجى أجابه عليها المعتمد محاوراً وفاكاً لمعياتها ، ولكنه فى جميع هذه الأغراض الثانوية لم يصدر عن حسه ولم يستلهم شاعريته .

خصائصه الفنية :

إن الخاصة الأولى التى ميزت شعر ابن زيدون هى أن هذا الشعر شديد الصلة بحياة الشاعر . فقد رأينا ابن زيدون محباً لولادة مشغولاً بها ، ورأيناه أيضاً خلال هذا الحب يتقلب فى مناصب الحكم والوزارات ويندس فى حمأة السياسات ، ثم يلقى به فى السجن . ثم تعود إليه الحرية ويواصل لعب دوره فى قصور الأمراء مقرباً منهم معزراً فى ظلال عطفهم ورعايتهم ، أو بعيداً عنهم طريداً . فجاء شعره صورة لهذه الحياة التى يتوزعها الحب والسلطان . فيمكننا إذاً أن ننظر إلى شاعرنا من وجهين : فهو يبدو لنا شاعراً ذاتياً من ناحية ، ويبدو لنا شاعر بلاط من ناحية أخرى . ففى أى الوجهين تتجلى عبقرية ابن زيدون ، وهل تتجلى فى الوجهين معاً ؟ وهل خضع للشروط التى يجب أن يتصف بها هذا الشاعران اللذان اجتماعاً فى نفسه ؟

أما الشاعر الذاتى فيتجلى فى غزله وهو واستعطافه وشكواه . ولئن كانت الحياة التى عاشها قد فرضت عليه هذا اللون من الشعر فإن تجاربه النفسية قد عدلتها ومنحتها صورتها الجديدة . فى هذه الأغراض لم ينظم شاعرنا الشعر لإرضاء شخص آخر غير نفسه ، ولئن كان يرغب من وراء غزله إرضاء تلك التى يحبها ويود استعطافها ، فذلك لأنه يرى فيها صدقاً لانفعالاته وسبباً لبقائه فى هذه الدنيا . إنه محب ، ونحن نعلم حبه لولادة . هذا الحب الذى تراءى لنا لاهياً عابثاً فى مطلعته ، ثم لم يلبث أن انقلب إلى جذوة نار تأكل قلب الشاعر عندما شعر بالازورار واللعب والاستهزاء بصيبيه منها . وهنا بدأت تجربة الإخلاص ، لأنه بدأ يشعر خلافاً بلذة قد تعوض عليه ما فاته من حب ضائع . إنهبقى يذكرها طوال حياته . حين لم تحفظ وده . وتغيرت عليه ، وأنزلت فى قلبها منافسه . هذه الذكرى الدائمة الطويلة تمنح هذا الشعر الذاتى لوناً يجيبه إلى نفوسنا ، ففيه الصدق ، وفيه شيء آخر ليس بالأنين المحض الذى اعتدنا سماعه من شعراء الغزل العذرى .

إنه بكاء ولكننا لا نسمع النحيب ، ولا تعترينا الكآبة . إنه شوق ولهفة ، إنه شعر يرسم أجواء الماضي . . . فخاصة غزل ابن زيدون في أنه يرسم لك ذلك الجو الضاحك الآفل ، فتتحسر عليه وتلهف .

ومن يسمع الأبيات الآتية يدرك معنا أنها تعبر عن هذه الحسرة وهذه الלהفة خير تعبير على رغم سداجة المعاني التي تضمنتها ، يقول :

أَضْحَى التَّنَائِي بِدِيْلًا مِنْ تَدَانِيْنَا وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِيْنَا
مَنْ مُبْلِغِ الْمُلْبِسِيْنَا بِانْتِزَاحِهِمْ حَزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُبْلِيْنَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَازَالَ يُضْحِكُنَا أَنْسَاءً بِقُرْبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِيْنَا
غِيْظَ الْعِدَامِ تَسَاقِيْنَا الْهُوَى فَدَعَوْا بَأَنَّ نَخْصَ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِيْنَا

* * *

يَا سَارَى الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرِ وَاسْقِ بِهِ مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهُوَى وَالْوُدِّ سَقِيْنَا
وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتِنَا مَنْ لَوْ عَلَى الْقُرْبِ حَيًّا كَانَ يُحْيِيْنَا

* * *

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدِلْنَا بِسِدْرَتِهَا وَالْكَوْثَرَ الْعَذْبَ زَقَوْقًا وَغَسَلِيْنَا
كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِيْنَا
سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصَّبْحِ يُفْشِيْنَا

* * *

هذه أبيات تقع في نفوسنا موقعاً حسناً ، فما هي هذه الأمور التي جعلتها مع باقي القصيدة تستهونا ؟ أهى المعاني ونحن نراها بسيطة ساذجة أكثرها مطروق ، أم هذه الديباجة السهلة ، البعيدة عن التكلف والصنعة ، أم هذه الموسيقى التي

تنساب خلال هذه الأبيات ، أم ما تحييه في نفوسنا من عواطف تتجاوب مع عواطف الشاعر ؟ وإلحق أن هذه القصيدة تكون عالماً شعرياً ، وإذا كان الشاعر لا يبلغ ذروة الشعر إلا عند ما يحقق ما يسمى بـ «التجاوب الموسيقي» ، فهذه القصيدة حققت هذا التجاوب ، لأنها رمتنا بلين ورفق في الجو الذي يتلفه له الشاعر ودوت موسيقاها في أجزاء نفوسنا ، وأملت علينا عاطفته ، وأسكرتنا بنشوته . وترانا ، بعد أن استطاعت هذه القصيدة تحقيق رسالة الشعر ، عاجزين عن تجزئة عناصرها الفنية التي اشتركت في إحداث هذه اللذة البديعية في نفوسنا ، فالعالم الشعري لا يمكن تجزئته . ولهذا كان بعض نقادنا حيناً يحاولون في تقديم هذه التجزئة يتعدون عن فهم أسرار الجمال الشعري ويحصرُون أنفسهم في دراسات بلاغية ضيقة .

لا شك في أن هذه القصيدة خير ما قاله ابن زيدون ، ولكن هل يقترب باقي شعره الذاتي من جمال هذه القصيدة ؟ يمكننا الإجابة عن ذلك بالنفي إذا استثنينا قصيدته التي مطلعها «إني ذكرتك بالزهرأ مشتاقاً» وقصيدة أخرى أرسلها إلى صديقه أبي حفص بن برد شاكياً سوء حظه وبعض المقطوعات والمطالع الغزلية . أما باقي شعره الذاتي فلا يبلغ هذه الإجادة المحلقة كما لا ينحدر إلى الإسفاف ، ولكنه يبقى صدى لتجاربه القلبية العنيفة ولما انتابه من ألم في سجنه وتقلب في أيامه فشكا الدهر ساخطاً حيناً ، مستعظفاً حيناً آخر . على أنه من الخير لنا ألا نبحث عن عبقرية ابن زيدون إلا في شعره الذاتي الذي عبر فيه عن هواجس قلبه وعما جاش فيه من لواعج الحب والألم ، ففي هذا الشعر خضع لشرطه الأوحده ألا وهو الإصغاء لحديث النفس وهمسات الفزاد . ثم جاءت الألفاظ والأوزان والصور دون كد . عفو البديهة والخاطر .

أما الوجه الثاني الذي تقنع به ابن زيدون فهو وجه شاعر البلاط . فقد دفعه إلى هذا الموقف طموحه وظروفه فاتخذ له العدة اللازمة ورأيناه يخضع لصفات شاعر القصر . بل لعله تدرَّب عليها منذ نشأته ، فهو إلى جانب ميله الطبيعي إلى هذه الحياة المترفة . يتمتع بثقافة شعرية ونثرية تجعل منه شاعراً ناثراً يستطيع

أن يشغل هذا المقام ، ولعل خطة الشعراء المداحين الشرقيين كالمتنبي مثلاً والمكانة التي تمتعوا بها كانت تغريه دائماً بالسير على منهاجها وشروطها ، لذلك ذابت شخصيته في مدح الملوك الذين تقرب منهم طمعاً بالجاه لا طمعاً بالمال فأخذ يعدد فضائلهم على طريقة المداحين التقليديين في المشرق والمغرب ، وأيناه يطلب عون بلاغته ولغته وفنه فيأتيه طائعاً منقاداً ولكن العاطفة كانت تعوزه على الغالب . ومع هذا لا يمكننا أن نقول إنه قد هوى فقد استطاع أن يقوم بمهمة شاعر القصر خير قيام ، إذ لا شأن للعاطفة في هذا المضمار وإنما الشأن للبلاغة والمقدرة الفنية . وقد كان شاعرنا مالكاً زمامهما . ومن الخطأ أن نبحت عن أصالة ابن زيدون في إنتاجه الذي قاله بين أيدي الملوك فعبقرية شاعرنا لا تبدو واضحة إلا في شعره الذاتي ، فمهما تنوعت المدائح وصور هذا الشعر الرسمي فإننا نراها بعيدة عن الجدة والطفرة راسفة في قيود التقليد لا تختلف عن نمط الأبيات الآتية في مدح ابن جهور ، وهي أبيات لا نزع منها تخلد الشاعر على الرغم من متانة أسلوبه فيها وقوة أسرته للكلام :

أَشَارِحَ مَعْنَى الْمَجْدِ وَهُوَ مُعَمَّسٌ وَعَامِرَ مَعْنَى الْحَمْدِ وَهُوَ خَرَابٌ^١
 مُحْيَاكَ بَدْرٌ وَالْبَدُورُ أَهْلُهُ وَيُمْنَاكَ بَحْرٌ وَالْبَحُورُ ثَغَابٌ^٢
 رَأَيْتُكَ جَارَاكَ الْوَرَى فَعَلَيْتَهُمْ كَذَلِكَ جَرَى الْمَذَكِيَاتِ غِلَابٌ^٣
 فَقَرَّتْ بِهَا مِنْ أَوْلِيَائِكَ أَعْيُنٌ وَذَلَّتْ لَهَا مِنْ حَاسِدِيكَ رِقَابٌ^٤

* * *

وبعد ، فشعر ابن زيدون يعكس بيئته ويمثل ميلها إلى اللهو والحجون وشرب

(١) الديوان ص ٤٥ ، معس : خو مبهم .

(٢) ثغاب : جمع ثغب وهو الغدير .

(٣) المذكيات : الخيل التي بلغت تمام السن ونهاية الشباب ، وفي المثل : « جرى المذكيات

غلاب » أي تغالب الجرى غلاباً .

الخمر ومجالسة النساء ، ولولا هذه البيئة لما استطاع — وهو الوزير — أن يجاهر بحبه هذه المجاهرة ، بل لعله استمد هذه الشجاعة من صراحة معشوقته التي صورت بيئتها ، هي أيضاً ، خير تصوير كما رأينا .

ولم يشذ شاعرنا عن عادات شعراء الأندلس في تأثرهم بالطبيعة فقد كانت الطبيعة مسرح حبه ، فإذا خلا إليها ذكرته رياضها بنعيم ذلك الحب في ظلها ، وكثيراً ما استمد معانيه وأخيلته الغزلية منها كما في هذه الأبيات :

يومٌ ، كأَيَّامِ لَدَاتِ لَنَا انْصَرَمَتْ بَتْنَا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سُراقَا
نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهَرٍ جَالَ النَّدى فِيهِ حَتَّى مَالَ أَعْدَاقَا
كَأَنَّ أَعْيْنَهُ إِذْ عَايَنْتُ أَرْقَى بَكَتْ لِمَا بِي فَجَالَ الدَّمْعُ رُقْرُقَا

فالطبيعة تثير في نفس شاعرنا معاني الهوى وتحرك لواعجه وتصل بينه وبين الحبيبة :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمُنَى في هبوبِ ذاك النسيم
وإذا اضطرم الشوق في نفسه طلب إلى سارى البرق أن يباكر قصرها فيسقى فيه من كان يسقيه الهوى الخالص ، وفي هذه المخاطبة تشخيص للطبيعة وامتزاج بها . إنه ليمتزج بها عندما يخال اعتلال النسيم شكواه فيقول :

ولطالما اعتلَّ النسيم فخلته شكواى رقت فاقتضت شكواك
وهكذا فالطبيعة والشاعر إلفان لا يفترقان ، والحب عنده أساس لتعلقه بالطبيعة . فيجعل الشاعر لحن المناجاة سبيلاً إلى تشخيصها والارتقاء في رحابها ، وهو بهذا يقترب من بعض شعراء الرومانسية الذين صوروا حبهم في أحضان الطبيعة ورشفوا في خمائلها الحب والحنان .

* * *

أما أسلوبه فهو : على الجملة . متين رصين في مدائحه . رشيق في غزله .

وقد تحرر أحياناً من قيود اسصيدة الجاهلية ، إلا أنه لم يستطع التخلّى عن مطالعه الغزلية في المدائح ، وقد يدخل أحياناً في الموضوع مباشرة . هذا في القصائد التي يستمدّ وحيا من قلبه والتي تدخل في نطاق الشعر الذاتي الغنائى .

وعلى الرغم من قلة اختراعه للمعاني ، فقد وفق في بعض معانيه الغزلية فألبسها ثوباً قشياً استمدّه من معين قلبه وخلجات عواطفه ، فبدت كأنها جديدة . ولكنه لم ينجح ، مع هذا ، من تكرار بعض المعاني فتاده هذا الأمر إلى الاستطراد .

ولعل أجمل ظاهرة فنية في شعره هي الموسيقى . فتناغم الألفاظ وانسجام جرسها جعلاً لشعره وقفاً جميلاً وعدوبة في السمع . ولعلّ صدق العاطفة وطبيعة الأندلس الجميلة وحفيف أشجارها وتغريد بلابلها قد اشتركت في إرهاف حسه الذوقى . وهذه الموسيقى الشعرية ، إلى جانب غيرها من المميزات . حملت بعض الأندلسيين على تلقية ببحتى المغرب ورأينا بعض الأدباء المعاصرين يرون هذا الرأى — على الرغم مما بين الشاعرين من فوارق — ونحن لا نشك بموسيقا ابن زيدون ، إلا أننا نرى أن بين الشاعرين فرقاً كبيراً من حيث قوة الشاعرية . ولئن اجتمعا بموسيقا الشعر في بعض القصائد إنهما ليفترقان في نواح أخرى . ومما لا شك فيه أن ابن زيدون قد فُتن بطريقة البحتى ولكنه . على الرغم من ذلك ، قد أكسبها شخصيته وصدرَ في عامة صُورَه عن نفسه وعبرَ عن شعوره . وهو في نظرنا صورةٌ صحيحة للشاعر الأندلسى بتحليته وكبوته . بحريته وعبوديته .

منزلته :

أجمع النقاد على أن ابن زيدون شاعر من الطبقة الأولى من شعراء الأندلس . فقد كان قوىّ أسر الكلام ، جيد التعبير الأدبى . يشتد ويلين في ديباجته الشعرية حسبما يقتضيه القول ويدعو إليه الغرض .

وقد أعجب الأدباء والكتاب . منذ القديم . بروعة نضمه ورونق أساليبه ، ووجدوا لشعره موسيقا فيها الحفة والرشاقة فشبهوه بالبحتى . قال ابن بسام : « يقول

بعض أدبائنا : إن ابن زيدون بحتريُّ زماننا ، وَصَدَقُوا لَأنه حَدَا حَدَّ الوَليد في بعض قصائده .

وقد رأينا أن لشعر ابن زيدون جرساً وانسياباً يذكرنا بجرس شعر البحتري وانسيابه ، وعدوبة موسيقاه .

وشعر ابن زيدون يدلّ ، فوق ذلك ، على أنه طُبع بالطوابع العربية الأصيلة . وكان نتيجة لثقافة عربية متينة وتمرسٍ بشعر الأقدمين وتآليفهم ، ولذا جرى على الشائع المعروف من أساليبهم ، إلا أن شاعرنا استطاع أن يُلبس أقواله شخصيته ويصدر فيها عن عصره ووجهه .

قال الدكتور شوقي ضيف : « وكان ابن زيدون يحسن ضرب الخواطر والمعاني القديمة أو الموروثة في عملة أندلسية جديدة ، فيها الفن وبهجة الشعر ، وما يُفصح عن أصالته وشخصيته . . . وابن زيدون من خير النماذج التي تكشف لنا المنزَعيّين ، فهو لا يخرج في شعره عن القواعد الموروثة ، وفي الوقت نفسه ينبض شعره بحياة عصره وما كان فيه من حضارة وترف باذخ وإغراق في الحس والخمر واللذة . فاتصاله بالماضي لم يحل بينه وبين تصوير الحاضر الذي عاش فيه » (١) .

وإذا أردنا أن نصور هذه الحياة المنفعلة التي عاشها ، كان علينا أن نبحث عنها في شعر حبه وشكواه ، ففي هذا الشعر استطاع ابن زيدون أن يرسم لنا الهوى في عمق وعذاب وحرقة ، واستطاع أيضاً أن يدغدغنا في لحن من المناجاة والذكرى ، تاركاً في نفوسنا أصداء مرتجفة مبهمة . وقصيدته النونية التي أشرنا إليها خير مثال لهذا الشعر الذي اعتصر فيه فؤاده ، وأودعه أسرار ألحانه الشجية .

وليكن ختام بحثنا هذه الأقوال التي تصوّر نواحي شعره وفنه وتفصح عن منزلته :

قال ابن بسام في كتابه « الذخيرة » :

« كان أبو الوليد — ابن زيدون — غايةً منثورٍ ومنظومٍ وخاتمة شعراء مخزوم .

(١) شوقي ضيف ، ابن زيدون ، ص ٤٠ .

أحد من جر الأيام جرّاً ، وفاق الأنام طرّاً ، وصرف السلطان نفعا وضراً ، ووسّع
البيان نظماً ونثراً . إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس
للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وحظّ من النثر غريب المباني ، شعريّ
الألفاظ والمعاني .

وقال الأستاذ كامل الكيلاني في بحث عن حياة ابن زيدون وأدبه نشره في
مقدمة الديوان :

« ميزة ابن زيدون التي تكاد تفرده من شعراء العربية هي الفن . فهو شاعر
فني قبل أن يكون فيلسوفاً أو حكيماً أو غواصاً على المعاني أو وصافاً . الفن وحده
هو الذي أكسب ابن زيدون زعامة الشعر في عصره ، وأغرى فحول الشعراء في
زمنه وبعد زمنه بمحاكاته والانصواء تحت رايته . »

وقال :

« إنك لتقرأ أكثر غزله فيخيل إليك لسهولة أنك تحلق في أجواء العباس بن
الأحنف والشريف الرضي والمجنون ، ثم تقرأ إخوانياته فيخيل إليك لاسترساله وافتنانه
في ضروب القول ، أنك تقرأ ابن الرومي وهو يخاطب أبا القاسم التوزي بهزئته
المشهورة ، ثم تقرأ رسائله فيخيل إليك أنك تقرأ رسائل الجاحظ في براعة الاستخفاف
والتهكم ، أو رسائل المعري في سعة الإحاطة وكثرة الاستشهاد ، والولوع بالأمثال .
وقال الدكتور أحمد ضيف في كتابه « بلاغة العرب في الأندلس » :

« وكل قصائد ابن زيدون التي أرسلها يستعطف بها ابن جهور هي أثر ذلك
الشفاء الذي لقيه في سجنه ، وصورة من صور البؤس الذي حرك شعوره وفتق من
لسانه ، وأثار في نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المملوءة همّاً وغمّاً . ولكن أسلوبه في
الشكوى والاستعطاف واحد في نظمه ونثره ، وما أشبه قصائده في ذلك وما فيها من
المعاني برسائله الجدية ، وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شدة تألمه في السجن ، فإنه
لم يخرج عن عادته في ضرب الأمثال والفخر بنفسه ، وأنه أفضل إنسان وأكرم
من دب على وجه الأرض .

غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب خلاّب .

تظهر عليه سيما الابتكار والصدق في التعبير ، فإنه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة ، بل به كثير من الحقائق التي كان يملئها عليه شعوره .

وقال :

« وأقرب عبارته وصولاً إلى القلوب بكاؤه على الماضي ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعم . . . ولقد كان ينظر إلى أيامه الماضية فيحن إليها حنيناً مؤلماً ، فإذا قرأت شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكى وبكيت معه » .

وقال :

« إذا كان لابن زيدون ميزة في شعره الغزلي فليس ذلك في ابتكار المعاني التي لم يسبق إليها ، وإنما هي في طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على القلوب وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان في التعبير والأسلوب . ولقد يسمع الإنسان أنينه في شعره ، ويرى أنثته الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسي اللذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها » .

وقال في نثر ابن زيدون :

« لقد عرف ابن زيدون كيف يأتي في كتاباته بالتناسق في المعاني والألفاظ ، بل عرف أن يأتي بهذا التناسق في التأليف والجمع ، وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفاً جميلاً . كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه . فكانت رسائله أنيقة جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذي يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذي يؤلف بين اللون واللون » .

الفصل الرابع

مختارات من آثار ابن زيدون

١ - الغزل

ذكرى وحنين :

أَصْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا^١
 أَلَا^٢ وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَّحَنَا حَيْنٌ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا^٣
 مَنْ مُبْلَغُ الْمَلْبَسِينَا بَانْتِزَاحِهِمْ حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُبْلِينَا
 أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَازَالَ يُضْحِكُنَا أَنْمَاءَ بِقَرِيْبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
 غِيْظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعَا بَأَنَّ نَغَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا^٤
 فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا
 وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا
 يَا لَيْتَ شِعْرِي وَلَمْ نَعْتَبْ أَعَادِيكُمْ هَلْ نَالَ حَظًّا مِنَ الْعُتْبَى أَعَادِينَا^٥
 لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ رَأْيًا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
 مَا حَقُّنَا أَنْ تُقَرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ بِنَا وَلَا أَنْ تَسُرُّوا كَاشِحًا فِينَا^٥

(١) التَّنَائِي : البعد وعكسه التَدَانِي . التَجَافَى : المقاطعة .

(٢) أَلَا : لغة في هَلَا وهي كلمة تحضيض مركبة من هَلْ وَلَا . الْحَيْن : الموت .

(٣) غَصَّ بِالْمَاءِ : شَرَقَ بِهِ .

(٤) نَعْتَبَ : نَرَضَى ، مِنَ الْعُتْبَى : الرضا .

(٥) لَكَاشِحٌ : الْعَلُو .

* * *

كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسَلِّينَا عَوَارِضَهُ وَقَدْ يَثْسِنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يَغْرِينَا
 بِنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَا قِينَا
 نَكَادُ ، حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا ، يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا^١
 حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَتْ سُوداً وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضاً لِيَالِينَا^٢
 إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ مِنْ تَأَلُّفِنَا وَمَرْبَعُ اللَّهِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
 وَإِذْ هَصَرْنَا غَصُونَ الْوَصْلِ دَانِيَةً قَطُوفُهَا فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا^٣
 لِيُسْقِ عَهْدَكُمْ عَهْدَ السُّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَا حِينَا
 لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَا يُغَيِّرُنَا إِنْ طَالَمَا مَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَا
 وَاللَّهُ مَا طَلَبْتَ أَهْوَاؤُنَا بَدَلاً مِنْكُمْ وَلَا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

* * *

يَا سَارَى الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرِ وَاسْقِ بِهِ مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوَدَّ يَسْقِينَا^٤
 وَاسْأَلْ هُنَاكَ هَلْ عَنَى تَذَكُّرُنَا إِلْفَاً تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعْنِينَا^٥

(١) بِنْتُمْ : بعدتم . الجوانح : جمع جانحة وهي الضلع ، والمراد بالجوانح ما بداخلها من القلب والحشا . المآق : العيون .

(٢) الْأَسَى : الحزن . التَأْسَى : التصبر والتعزى .

(٣) حَالَتْ : استحالت أى تحولت من حال إلى حال .

(٤) هَصَرْنَا : أملنا ، وهنا شبه الوصل بشجرة فلاستعمارة مكنية . القطوف : الثمار التى تجنى وتقطف . شِينَا : مخففة من شِينَا .

(٥) غَاد : باكر .

(٦) عَنَى : شغل .

ويا نسيم الصِّبا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا مَنْ لَوْ عَلَى الْقَرَبِ حَيًّا كَانَ يُحِينَا
فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَبًّا تَقْاضِينَا^١

* * *

رَبِيبُ مُلْكٍ كَانَ اللَّهُ أَنْشَأَهُ مِسْكَاً وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
أَوْ صَاغَهُ وَرَقاً مَحْضاً وَتَوَجَّهَ مِنْ نَاصِعِ التُّبْرِ إِبْدَاعاً وَتَحْسِينَا^٢
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رِفَاهِيَةً تَوْمُ الْعُقُودِ وَأَدَمَّتْهُ الْبُرَى لِينَا^٣
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظُئْرًا فَيَأْكُلْتُهُ بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا^٤
كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَخْنٍ وَجَنَّتِهِ زُهْرُ الْكَوَاكِبِ تَعْوِيْذًا وَتَزِينَا^٥
مَاضِرًا أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا^٦

* * *

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظُنَا وَرَدًّا جَلَاهُ الصِّبَا غَضًّا وَنِسْرِينَا^٧
وَيَا حَيَاةً تَمْلِكُنَا بِزَهْرَتِهَا مُنَى ضُرُوبًا وَلِذَاتِ أَفَانِينَا^٨

(١) غبًّا : لعب في الزيارة الإقلال .

(٢) "ورق" : الفضة .

(٣) تأود : تنفى . آدته : أنقلته . توم : لآلىء . مفردها تومة وهي حبة من فضة . وجمعهم توم بفتح الواو وإسكانها . البرى : الحلاليل ، ومفردها البرة وهي حلقة الخللخال .

(٤) الظئر : المرضعة . أكلة : جسع كلة وهي ستر رقيق يوضع فوق الفراش .

(٥) التعمويد : الرقية .

(٦) النسرين : نوع من الورود أبيض عطرى الرائحة .

(٧) تملكيت : تمتعت ونعمنا .

ويا نعيماً خَطَرْنَا من غَضَارَتِهِ فِي وَشْيٍ نَعْمَى سَحَبْنَا ذِيلَهُ حِينَا^١
 لِسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلَالاً وَتَكْرِمَةً وَقَدَّرَكَ الْمُعْتَلَى عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا
 إِذَا انْفَرَدْتَ وَمَا شُورِ كَتِّ فِي صِفَةٍ فَحَسَبْنَا الْوَصْفُ إِيضَاحاً وَتَبَيَّنَا

* * *

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدِلْنَا بِسِدْرَتِهَا وَالْكَوْثَرَ الْعَذْبَ زُقُوماً وَغَسَلِينَا^٢
 كَأَنَّا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا
 سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصَّبْحِ يَفْشِينَا
 لَا غُرُوفِي أَنْ ذَكَرْنَا الْحَزْنَ حِينَ نَبِتْ عَنْهُ النَّهْيُ وَتَرَكَنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا^٣
 إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ الذَّوَى سُورًا مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا
 أَمَّا هَوَاكَ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ شَرِبًا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا^٤
 لَمْ نَجْفُ أَفْقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكْبِهِ سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا
 وَلَا اخْتِيَارًا تَجَنَّبْنَاهُ عَنْ كَثَبِ لَكِنْ عَدَّتْنَا عَلَى كُرْهِ عَوَادِينَا^٥
 نَأْسَى عَلَيْكَ إِذَا حُثَّتْ مَشْعَشَعَةٌ فِينَا الشُّمُولُ وَغَنَانَا مُغْنِينَا^٦
 لَا أَكْوُسَ الرَّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا يِمَا ارْتِيَا حِ وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِمِنَا

(١) الغضارة النعمة وخفض العيش . الوشئ : ثوب من الحرير منقوش .

(٢) السدرة : شجرة النبق وهي كبيرة عظيمة الظل ، الإشارة هنا إلى « سدرة المنتهى » . الكوثر :

نهر في الجنة . الزقوم والغسلين : من أطعمة أهل جهنم .

(٣) النهي : جمع نهية وهي العقل .

(٤) قالين : كارهين .

(٥) كَثَب : قرب . عدتْنَا : صرفتْنَا . العوادي : صروف الدهر .

(٦) الشُّمُول : الخمر . ومَشْعَشَعَةٌ : مزوجة بالماء .

دُومِي عَلَى الْعَهْدِ مَا دُمْنَا مُحَافِظَةً ۚ فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافًا كَمَا دِينَا^١
 فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلًا مِنْكَ يَحْبِسُنَا ۚ وَلَا اسْتَفْدْنَا حَبِيبًا عَنْكَ يَثْنِينَا^٢
 وَلَوْ صَبَا نَحُونَا مِنْ عُلُوِّ مَطْلَعِهِ ۚ بِدُرِّ الدَّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكَ يُصْبِينَا^٣
 أَوْلَى وَفَاءً وَإِنْ لَمْ تَبْذُلْ صَلَةً ۚ فَالطِّيفُ يُقْنِعُنَا وَالذِّكْرُ يُكْفِينَا^٤
 وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ ۚ بَيْضُ الْأَيَادِي الَّتِي مَازَلَتْ تَوَلِينَا
 عَلَيْكَ مِنِّي سَلَامٌ اللَّهُ مَا بَقِيَتْ ۚ صَبَابَةٌ مِنْكَ نُخْفِيهَا فَتُخْفِينَا^٥

دراسة القصيدة

المناسبة :

جاء في الديوان أن ابن زيدون « كتب هذه القصيدة الفذة يتحسر فيها على انقضاء أيام الوصال ويشكو فيها ما يحسه من الوجد المبرح والألم القاسى ، وقد بعث بها إلى حبيبته ولادة بنت المستكفى أديبة الأندلس الفذة ، يستعطفها ويتلهف على أيام الوصال السابقة » . وقد نظم الشاعر هذه القصيدة فى الفترة التى تلت فراره من السجن ، أى بعد سنة ٤٣٣ هـ ، عندما رحل إلى إشبيلية للمرة الأولى . وتراءى لنا خلال أبياتها عبقرية الشاعر الفذة ونضجه الشعرى بعد أن مرّ بتجربة السجن وآلامه وعذاب البعاد وأتراحه ، فجاءت عصارة نفس متألمة ، مقيمة على الحب ، لا تسلو ولا تنسى .

ولا جدلَ فى أن هذه القصيدة قد جمعت بين أفانين شتى من الإجابة

(١) دان : جزى

(٢) صبا : مال . يصبينَا : يستهوينَا .

(٣) أولى : أنعمى .

(٤) نخفينا فتخفينا : نسترها فتظهرن ، أخفيت الشيء وخفيته بمعنى سترته وبمعنى أظهرته وهى من الأضداد .

وعبرت عن عاطفة الشاعر الصادقة ونالت من الشهرة ما جعل كثيرين من الشعراء يعارضونها . فعارضها صفي الدين الحلي والصفدي وأخيراً شوقي في قصيدته التي يحن فيها إلى وطنه ومطلعها :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
وقد قال عنها الفتح بن خاقان في قلائد العقيان : « إنها قصيدة ضربت في الإبداع بسهم ، وطلعت في كل خاطرٍ ووهم ، ونزعت منزعاً قصر عنه حبيب وابن الجهم » .

أقسام القصيدة ومعانيها :

تكاد تكون هذه القصيدة وحدة شعرية لا يخرج فيها الشاعر عن دائرة قلبه المحطم . ولكن يمكننا أن نعين بعض الفواصل في هذا الكيان الشعري المتماثل .

١ - من البيت (١ - ١٩) وصف لحال الحاضر ووصف للماضي ، ويتخلل هذا القسم أبيات تؤكد الوفاء والحب المقيم والتجلد على الواقع الأليم (الأبيات ٩ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩) .

٢ - المناجاة وإشراك الطبيعة في إحساسه (٢٠ - ٢٣) .

٣ - وصف المحبوبة (٢٤ - ٣٤) .

٤ - عودة إلى المناجاة مع مقارنة الحاضر المقيم بالماضي الآفل وتأكيده للوفاء ينهى إلى الاستعطاف والاستسلام لهدوء ذليل (٣٥ - ٥٠) .

١ - يفتتح الشاعر قصيدته دون تمهيد . ويقذف بنا في جو آلامه بوثة عاطفية تصور لنا حاله وما آل إليه . لقد أصبح قربه بعداً ، وأصبح الهجر والموت سواء في نظره . ويود أن يعلم ذاك الذي ألبسه حزنًا دائماً ببعده عن حبيبته ، يود أن يعلمه أن ضحكته قد حال إلى بكاء . وأن الدهر قد استجاب لدعوة أعدائه وحقق لهم ما أرادوا من إيقاع بين حبيين . فلم يعودا يرجوان التلاقي بعد أن كانا لا يخشيان الفراق .

ثم ينتقل الشاعر إلى عرض ما يمكنه من وفاء لولادة ويبثها آلامه ولوعته ، ويبين في بيت جميل أن الحزن — لولا تأسيه — يكاد يقضى عليه . ويعود إلى وصف أيام هنائه وأنسه ويقارنها بحالته الراهنة مستعيناً بالصناعات العفوية التي يملها الفن قدر ما يملها القلب ، فأيامه الحاضرة سود بينما كانت لياليه معها بيضاء ينال من روضته^٢ ما يشتهى ويجنى من ثمرها ما يريد ، ولكن هذه الحسرة ما كانت لتملى عليه السخط والثورة ، بل يؤكد ، في ذل ، أن النأى لا يغيره ولن ينسى ذلك العهد الرطيب ، مهما خبت جذوة الحب في قلوب المحبين النائين فقد كنتم الرياحين لأرواحنا وما زلتم تلك الرياحين .

٢ — هذه الحسرة النائحة تقوده إلى المناجاة فيطلب من الطبيعة أن تشاركه في إحساسه ، ويخاطب سارى البرق أن يياكر قصرها فيجود أهله بغيثه اعترافاً منه له على ما أعطاه من حب ومودة ، ويحمل النسيم تحيته إلى تلك التي يُحييه سلامها ، ويذكر خلال ذلك صوراً جميلة لماضٍ راحل وعهد حائل .

٣ — وذكر القصر يقوده إلى مَنْ يسكنه ، إلى هذا المحبوب الذى ليس كسائر البشر ، فهو صنيع الملوك وطينة من المسك ، وجسم من اللجين يكلله تاج من التبر هو ذاك الشعر الذهبى الذى كان يتوج رأس محبوبته . وأنت تلمح خلال هذا الوصف عبير القصور الملكية ، ورفاهية الحسان ، ونعيم السلطان ، فجمال المحبوب هنا ليس من الجمال الذى تضمه الشوارع ، وإنما جمال أرستقراطى تلمح خلاله ليونة النعيم وغضارته وتأود القد المرهف ورخصته ، حتى ليديمه مس العقود والمجوهرات .

٤ — وفي غمرة هذا الوصف يتلطف على ماضيه ويعود إلى المناجاة بلحن حزين فيندب تلك البحنة التي أبعد عنها ويحن إلى ذلك الكوثر العذب الذى أبدل به ماءً آجناً وغسلينا . وكم هى جميلة تلك القفزة فى الماضى يقفزها الشاعر ليحدثنا عن تلك العزلة التي كان يتمتع بها العاشقان وقد حالفهما السعد فكانا سرّين مطويين في خاطر الظلماء لا يفصحهما إلا لسان الصبح . نعم قد تكون الصورة قديمة في بعض تفاصيلها كاستعارته اللسان للصبح ، إلا أنني أراها جديدة كل

الجلدة في تركيبها وصدقها فقد استطاع الشاعر أن يعبر عن شخصين ماديين بكلمة معنوية جسدت الكتمان خير تجسيد ، ورسمت خلوة من خلوات الحب ، وآلف بين الصنعة والعاطفة خير تآلف .

وتأتى بعد ذلك أبيات في المناجاة (البيت ٣٩ - حَمَّ ، النهاية) ليس فيها ما يستدعى الوقوف ، ويبدو فيها أن الشاعر يلهث . على أن الخاتمة منطقية فيها نوع من الهدوء وكثير من الاستسلام ، وفيها تأكيد دائم على الوفاء يطلبه ممن أحب كما يطلبه من نفسه ، بل لعله لا يستطيع التخلي عن هذا الوفاء في الحب لأنه سبب من أسباب بقاءه . فليقنع بالقليل إذن ، وليودّعها وفي نفسه ذلةً وانكسار وفي الجلو الذي خَلَقَهُ ارتجاع وحسرة ورزني .

العاطفة والأسلوب :

إن الميزة التي تبدو في أسلوب ابن زيدون هي « الفن » فهو شاعر فني قبل أن يكون حكيماً أو فيلسوفاً أو غواصاً على المعاني أو وصافاً ، وهذه الخصائص الفنية تتجلى على أصدق صورة في هذه القصيدة ، فألفاظها حلوة عذبة تتلففها الأذن في لين ويسر وتحدث في النفس في تأليفها وتنسيقها تناغماً وجرساً يعكس عاطفة الشاعر ويعبر عنها خير تعبير ، ونرى أن أكثر الكلمات تتساند ويستدعي بعضها بعضاً ، ولئن كان الشاعر يلجأ إلى الطباق في العاطفة فإنه يلجأ إليه في اللفظ أيضاً ، لذلك رأينا هذه المزاوجة في المعاني والألفاظ ، وعلى هذه المزاوجة والمقابلة يقوم الكثير من جمال هذه القصيدة . ويكثر الشاعر من الألفاظ والأوزان التي تدل على المشاركة ليبين أن العاطفة هي في تجاوب مستمر ، فلا انفصام وإنما رجفة متصلة ، بين ماض حبيب وحاضر مؤلم . ومما يزيد في هذه الرجفة طولاً هو هذه القافية الممدودة . وهذه (النونات الطويلة) التي تضيف إلى جرس القطعة أنيناً موسيقياً حزيناً .

وأكثر معاني القصيدة ينظر إلى معاني المشرقين ، ويدل على تعلق الأندلسيين بالشرق . على أن معاني الغزل لم تتحرر من التقليد في الشرق والغرب ، وما فتئ

الشاعر يصف لنا ذل الغرام وقساوة المحبوبة ، غير أن واقعية التجربة الغرامية التي عاشها ابن زيدون سترت عنه الكثير من العيوب ، وجعلت القصيدة تستقى وحيها من نبضات قلب الشاعر ، وقد استطاع أن يؤلف بين هذه النبضات وبين الفن الذي تمليه عليه ثقافته وبيئته وعبوديته أحياناً . ومن هذه المعاني التقليدية مخاطبته للنسيم والدعاء بالسقيا ، إلا أن الشاعر استطاع أن يمنح عبارته فيها رنة الإخلاص ، فأحيا الطبيعة وجعلها إنساناً يشارك الشاعر آلامه ويشفق على المحبين المتباعدين .

ونجد أن أكثر أبيات القصيدة مشتمل على فنون البيان والبديع ، ولكنها ما كانت لتأتى متكلفة ، بل أحياناً ثبتت المعنى وأعطته نوعاً من التجسيم كقوله :

أَنَّ الزمان الذي مازال يُضحكننا أنساً بقربكم قد عاد يُبكيـنا
ففيه استعارة وطباق . وكقوله أيضاً :

وإذ هصرنا غصون الوصل دانيةً قطوفها فجنينا منه ماشينا
ففيه استعارة جميلة :

وفى استعماله « الوصل ثالثاً » كناية جميلة عن عزلتهما وخلوتهما عند ما يقول :

كأننا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثنا والسعد قد غَضَّ من أجفانِ واشميننا
سمرَّانٍ في خاطر الظلماءِ يكتُمنا حتى يكادَ لسانُ الصبحِ يُفْشينا
وإننا نجد نفحة قرآنية في هذا البيت :

ياجنة الخلدِ أبدلنا بسدرتها والكوثر العذب زقوماً وغسلينا
وهذا النداء في « يا سارى البرق » وفى « يا روضة » و « يا حياة » و « يا نعيماً »
يزيد فى لحن المناجاة .

على أن هناك أبياتاً ثقيلة على السمع ضعيفة الجرس كقوله :

مَنْ مُبْلَغُ الْمَلْبَسِينَ بَانَتْ زَاحِيَهُمْ حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُبْلِينَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا أَنْسَاءً بِقُرْبِهِمْ قَدْ عَادَ يَبْكِينَا

فاستعماله « الملبسين حزناً » ثقیل على الأذن ، واستعماله لكلمة « حاشاك »
في البيت الآتي حشوٌ بغیض :

ولو صَبَّحْنَا نَحُونَا مِنْ عُلُوِّ مَطْلَعِهِ بِدُرِّ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكَ يَصْبِينَا
أضف إلى ذلك ابتذال المعنى في هذا البيت السابق . على أن القصيدة
لا تضيرها هذه الهنات وهى ، بعد هذا كله ، فياضة بالألم ، حلوة الوقع فى السمع ،
موسيقية الجرس ، مفعمة بالحياة ، تترك فى النفس صدى حزيناً .

ذكرى ولادة :

قال ابن زيدون هذه القصيدة بعد خروجه من السجن وقبل العفو عنه يتشوق
إلى حبيبته ويناجيها ويتلهف على لقاءها :

إِنِّى ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقَا وَالْأَفْقُ طَلَقُ وَمَرَأَى الْأَرْضِ قَدْرًا قَا^١
وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ فِى أَصَائِلِهِ كَأَنَّهُ رَقٌّ لِّى فَاعْتَلَّ إِشْفَاقَا^٢
وَالرَّوْضُ عَنْ مَائِهِ الْفِضْىِ مُبْتَسِمٌ كَمَا شَقِيتَ عَنِ اللَّبَاتِ أَطْوَاقَا^٣
يَوْمٌ كَأَيَّامِ لِدَاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ بِتَنَا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سُرَّاقَا^٤
نَلْهُوَمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرِ جَالِ النَّدَى فِيهِ حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا^٥
كَأَنَّ أَعْيْنَهُ إِذْ عَايَنْتُ أَرَقَى بَكَتْ لِمَا بَى فِجَالِ الدَّمْعِ رَقْرَقَا^٦

(١) راق : بمعنى أعجب .

(٢) اللبات : جمع لبة وهى موضع القلادة من الصدر . والأطواق : جمع طوق وهو ما يحيط
بالعنق من الثوب . والطوق أيضاً من الحل .

وَرَدُّ تَأَلَّقَ فِي ضَا حِي مَنَابِتِهِ فَازَدَادَ مِنْهُ الضُّحَى فِي الْعَيْنِ إِشْرَاقًا^١
 سَرَى يُنَافِحُهُ نِيلُوفَرُ عَبَقُ وَسَنَانُ نَبَّهَ مِنْهُ الصَّبْحُ أَحْدَاقًا^٢
 كُلُّ يَهْيِجُ لَنَا ذِكْرَى تُشَوِّقُنَا إِلَيْكَ ، لَمْ يَعْدُ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا
 لَا سَكَنَ اللَّهُ قَلْبًا عَنْ ذِكْرِكُمْ فَلَمْ يَطِرْ بِجَنَاحِ الشُّوقِ خَفَاقَا
 لَوْ شَاءَ حَمَلَى نَسِيمُ الصَّبْحِ حِينَ سَرَى وَافَاكُمْ بِفَتَى أَضْنَاهُ مَا لَاقَى
 لَوْ كَانَ وَفَى الْمُنَى فِي جَمْعِنَا بِكُمْ لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقَا
 يَا عِلْقِي الْأَخْطَرَ الْأَسْنَى الْحَبِيبَ إِلَى نَفْسِي إِذَا مَا قَتَنِي الْأَحْبَابُ أَعْلَاقَا^٣
 كَانَ التَّجَارَى بِمَحْضِ الْوَدِّ مُدْزَمِنٌ مِيدَانُ أَنْسٍ جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقَا^٤
 فَلَا نَ أَحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمْ سَلَوْتُمْ وَبَقَيْنَا نَحْنُ عُشَّاقَا

التعليق :

تصوّر هذه القصيدة فتنة الطبيعة وما يثيره جمالها من صور الحبيب وجماله في
 جوّ من الذكرى . ويقول الدكتور سيد نوفل عنها : إنها قصيدة « تموج فيها
 عاطفتان : عاطفة الماضي الجميل تكسبه الطبيعة الحلوة مزيداً من الحسن ، وعاطفة
 الحاضر المحروم يكسو الطبيعة ثوباً من القتامة والكآبة . والشاعر إذا تحدث عن
 الماضي ابتسمت الطبيعة في طلاقة الأفق وصفاء وجه الأرض وابتسام الروض وطرب
 الزهر وتألق الورد وإشراق الضحى ، وإذا تحدّث عن الحاضر تمثل له في اعتلال

(١) ضاحي المنابت : المنابت البارزة للشمس ، المرتفعة .

(٢) نيلوفر : نبات ينبت في المياه الراكدة ويورق على سطحها وله زهر يفتح في النهار وينام

في الليل .

(٣) العلق : الشيء النفيس الذي يعلق . الأخطر : ذو الشأن والقيمة .

(٤) التجارى : التسابق . أطلاق : جمع طلق وهو الشوط في السباق .

النسيم وإشفاقه ، وبكاء الزهر ، وجولان دمه الرقراق ، ونعاس النيلوفر ؛ وبذلك يبدو اشتباك الطبيعة مع عواطف الشاعر التي يذكىها جو الذكرى باعثاً في النفوس لحناً من الأسى والإشفاق والصدى العميق . (شعر الطبيعة في الأدب العربي ص ٢٦٧) .

وقال مخاطباً ولادة :

يانازحاً وضميرُ القلب مثواه أنستك دنياك عبداً أنت دنياه
ألتهك عنه فكاهاتٌ تلذُّ بها فليس يجرى ببال منك ذكراه
علَّ الليالي تُبقيني إلى أمل الدهر يعلمُ والأيامُ معناه
مدام العيون :

قال ابن زيدون الأبيات الآتية يحن بها إلى ولادة ، وهي في مطلع قصيدة مدح بها أبا الوليد بن جهور عند ما اعتلى عرش قرطبة بعد وفاة أبيه أبي الحزم بن جهور سنة ٤٣٥ للهجرة :

ما لِلْمُدَامِ تَدِيرُهَا عَيْنَاكِ فِيمِيلُ فِي سُكْرِ الصَّبَا عِطْفَاكِ
هَلَّا مَزَجْتَ لِعَاشِقِيكِ مُلَافَهَا بَبْرُودَ ظَلَمِكِ أَوْ بَعْدَ لَمَاكِ^١
بَلْ مَا عَلَيْكِ وَقَدْ مَحَضْتُ لَكَ الْهَوَى فِي أَنْ أَفُوزَ بِحُظْوَةِ الْمِسْوَالِ^٢
نَاهِيكِ ظُلْمًا أَنْ أَضُرَّ بِي الصَّدَى بَرَحًا وَنَالَ الْبَرَّ عَوْدُ أَرَاكِ^٣
وَاهَا لِعِطْفِكِ وَالزَّمَانُ كَأَنَّمَا صُبِغَتْ غَضَارَتُهُ بِبُرْدِ صَبَاكِ^٤

(١) الظلم : الرقيق وماء الأسنان . وبرود : بارد . للي : سمة في الشفة .

(٢) محضت : أخلصت . المسواك : جمعه مساويك وهو عود تطهر وتنظف به الأسنان .

(٣) الصدى : العطش . البرح : الشدة والمشقة .

(٤) الغضارة : البهجة .

والليلُ مهما طالَ قَصُرَ طولهُ هاتى ، وقد غَفَلَ الرقيبُ ، وهاك
ولطالما اعتلَّ النسيمُ فخلتهُ شكواى رَقَّتْ فاقتضتْ شكواك
إن تَأَلَّفَى سِنَةَ النُّوْمِ خَلِيَّةً فلطالما نافرَتْ فى كَرَاك^١
أو تَحْتَبَى بالهجر فى نادى القلى فَلَكُمْ حَلَلْتِ إِلَى الوصالِ حُبَاك^٢
أَمَّا مُنَى نَفْسِي فَأَنْتِ جَمِيعُهَا يا ليتنى أَصْبَحْتُ بَعْضَ مُنَاك
يدنو بِوَصْلِكَ حِينَ شَطَطَ مَزَارُهُ وَهُمْ أَكَادُ بِهِ أَقْبَلُ فَاك^٣
ولئن تَجَنَّبْتُ الرِّشَادَ بِغُدْرَةٍ لم يَهْوِ بى فى الغى غيرُ هَوَاك
لهفة محب :

نظم الشاعر هذه المقطوعة بعد أن هجرته حببته ، وفيها يتلهف لو تعود إلى
الوصل ، قال :

إِلَيْكَ مِنَ الْأَنَامِ غَدَا ارْتِيَا حَى وَأَنْتِ عَلَى الزَّمَانِ مَدَى اقْتِرَا حَى
وما اعْتَرَضَتْ هُمُومُ النَّفْسِ إِلَّا وَمِنْ ذِكْرَاكِ رِيحَانِي وَرَا حَى
فَدَيْتُكَ إِنْ صَبَرْتُ عَنْكَ صَبَرْتُ ، لَدَى عَطَشِي ، عَلَى الْمَاءِ الْقَرَا حَى
وَلِي أَمَلٌ لَوْ الْوَاشُونَ كَفُّوا لَا أَطْلَعُ غَرْسُهُ ثَمَرَ النَّجَا حَى
وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوٌّ رِضَاكَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَا حَى

(١) نافر هنا بمعنى عادى . الكرى : النوم

(٢) احتبى : اشتعل بالثوب ، من الحبوة وتجمع على حتى . القلى البنفس الشديد .

(٣) شطط : بعد .

(٤) القراح : الصافي .

(٥) يريد بالعدو منافسه ابن عبدوس .

وَلَمَّا أَنْ جَلَّتْكَ لِي اخْتِلَاسًا أَكْفُ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ الْمُتَاحِ^١
 رَأَيْتَ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابِ وَغُصْنِ الْبَانِ يَرْفُلُ فِي وَشَاحِ^٢
 فَلَوْ أَسْطِيعُ طَرْتُ إِلَيْكَ شَوْقًا وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ
 عَلَى حَالِي وَصَالِ وَاجْتِنَابِ وَفِي يَوْمِي دُنُوٌّ وَانْتِزَاحِ
 وَحَسْبِي أَنْ تُطَالِعَكَ الْأَمَانِي بِأُفْقِكَ فِي مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحِ
 وَأَنْ تُهْدِيَ السَّلَامَ إِلَيَّ غِيًّا وَلَوْ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيحِ^٣
 فَوَادِي مِنْ أَسَى بِكَ ، غَيْرُ خَالٍ وَقَلْبِي عَنْ هَوَى لَكَ غَيْرُ صَاحِ

وداع :

في هذه المقطوعة لحن حزين يعبر الشاعر فيه عن يأسه بعد أن هجرته صاحبه وأصبح في شقاوة اليأس وفراغ الدنيا ، يقول :

لَنْ قَصَرَ الْيَأْسَ مِنْكَ الْأَمْلُ وَحَالَ تَجَنُّيكِ دُونَ الْحَيْلِ
 وَنَاجَاكِ ، بِالْإِفْكِ فِي الْحَسُودِ فَأَعْطَيْتِهِ - جَهْرَةً - مَا سَأَلُ
 وَرَاقَلِكِ سِحْرُ الْعِدَى الْمُفْتَرَى وَغَرَّكَ زُورُهُمْ الْمُفْتَعَلِ
 فَإِنْ ذِمَامَ الْهَوَى لَنْ أَزَالَ أَبْقِيهِ حِفْظًا كَمَا لَمْ أَزَلْ
 فَدَيْتُكَ إِنْ تَعَجَّلِي بِالْجَفَا فَقَدِي هَبُ الرِّيثَ بَعْضُ الْعَجَلِ

(١) الحين : الهلاك .

(٢) الوشاح : حزام يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها .

(٣) غيًّا : حيناً بعد حين .

(٤) الإفك : الكذب .

(٥) في هذا البيت تصمين للمثل المشهور : « رب عجلة تهب ريثاً » والريث : البطء .

علامَ اطَّيَّبَتْكَ دواعي القلي ؟ وفيهمَ ثَنَّتْكَ نواهي العذل ؟^١
 ألمَ ألزِمَ الصبرَ كيما أخِفَّ ألمَ أَكْثَرَ الهجرَ كي لا أُمَلَّ
 ألمَ أَرَضَ منك بغير الرضا وأبدي السرورَ بما لم أنل
 ألمَ أغتفرَ موبقاتِ الذنو بَ عَمْدًا أَتَيْتَ بِهَا أَمَ زَلَل ؟^٢
 وما ساءَ ظَنِّي في أَن يسيءَ بيَ الفعلَ حُسْنُكَ حتى فَعَلَ
 على حينَ أَصْبَحْتَ حَسْبَ الضميرِ ولم تَبْغِ مِنْكَ الأمانِي بَدَلْ
 سَعَيْتَ لتكديرِ عهدٍ صَفَا وحاولتِ نَقْضَ وِدادِ كَمَلْ
 فما عُوْفِيَتْ مِقْتِي مِنْ أَذَى ولا أُعْفِيَتْ ثِقْتِي مِنْ خَجَلْ^٣
 ومهما هَزَزْتُ إِلَيْكَ العِنا بَ أَهَرْتُ بَيْنَ ضُرُوبِ العِلَلْ
 كأنَّكَ ناظرتِ أَهْلَ الكلامِ وأوتيتِ فهِمًا بِعِلْمِ الجَدَلْ
 ولو شئتِ راجعتِ حُرَّ الفَعَالِ وعُدْتِ لَتِلْكَ السجايَا الأَوَّلِ
 فلم يَكْ حَظِّي مِنْكَ الأَخْسَ ولا عُدَّ سَهْمِي فِيكَ الأَقْلِ
 عليكِ السلامُ سلامُ الوداعِ وَدَاعٍ هَوَى مات قَبْلَ الأَجَلِ
 وما باختيارٍ تَسَلَّيْتُ عَنْكَ ولكنني مُكْرَهُ لا بَطْلْ^٤

(١) اطَّيَّبَتْكَ : اسَّالَتْكَ .

(٢) موبقات : مهلكات .

(٣) المقه : الحب .

(٤) ظاهر : طابق .

(٥) أهل الكلام : علماء الكلام والتوحيد .

(٦) تضمين للمثل المشهور : « مكروه أخذك لا بطل » . يصير لمن يحمل على ما ليس من شأنه ولا في

حدود استطاعته .

ولم يَذِرْ قَلْبِي كَيْفَ النَزْوُعُ إِلَى أَنْ رَأَى سِيرَةً فَاثْمَثَلْ
 وَلَيْتَ الَّذِي قَادَ عَفْوًا إِلَيْكَ أَبِيَّ الْهَوَى فِي عِنَانِ الْعَزَلْ
 يُحِيلُ عُذُوبَةَ ذَاكَ اللَّمَى وَيَشْفِي مِنَ السُّقَمِ تِلْكَ الْمُقَلْ

وقال :

أَنْنَى أَضِيعُ عَهْدَكَ ؟ أَمْ كَيْفَ أَخْلِفُ وَعْدَكَ
 وَقَدْ رَأَتْكِ الْأَمَانِي رِضَى ، فَلَمْ تَتَعَدَّكَ
 يَا لَيْتَ مَا لَكَ عِنْدِي مِنَ الْهَوَى لِي عِنْدَكَ !
 فَطَالَ لَيْلُكَ بَعْدِي كَطَوَّلَ لَيْلَى بَعْدَكَ
 سَلْنِي حَيَاتِي أَهْبَهَا فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكَ
 الدَّهْرُ عَبْدِي ، لَمَّا أَصْبَحْتُ فِي الْحُبِّ عَبْدَكَ

وقال :

أَرْخَصْتَنِي مِنْ بَعْدِ مَا أَغْلَيْتَنِي وَحَطَطْتَنِي وَلَطَالَمَا أَغْلَيْتَنِي
 بَادَرْتَنِي بِالْعَزْلِ عَنْ خِطَطِ الرِّضَا وَلَقَدْ مَحَضْتُ النُّصْحَ إِذْ وَلَّيْتَنِي
 هَلَّا ، وَقَدْ أَعْلَقْتَنِي شَرَكَ الْهَوَى ، عَلَّلْتَنِي بِالْوَصْلِ أَوْ سَلَّيْتَنِي
 الصَّبْرُ شَهِدٌ عِنْدَمَا جَرَّعْتَنِي وَالنَّارُ بَرْدٌ عِنْدَمَا أَصْلَيْتَنِي
 كُنْتُ الْمَنَى فَادَّقْتَنِي غُصَصَ الْأَذَى يَا لَيْتَنِي مَا فَهْتُ فِيكَ : بَلَيْتَنِي

لا أهل ولا وطن^(١) :

وقال ابن زيدون هذه الأبيات وهي من أشجى مقطوعاته في مناجاة حبيبته
والشوق إلى موطنه وقد قالها نائياً عن أهله ، بعيداً عن قرطبة :

هَلْ تَذْكُرُونَ غَرِيباً عَادَهُ شَجَنٌ مِنْ ذِكْرِكُمْ وَجَفَا أَجْفَانَهُ الْوَسَنُ^٢
يُخْفِي لَوَاعِجَهُ وَالشُّوقُ يَفْضَحُهُ فَقَدْ تَسَاوَى لَدَيْهِ السَّرُّ وَالْعَلَنُ^٣
يَا وَيْلَتَاهُ ! أَيَبْقَى فِي جَوَانِحِهِ فُؤَادُهُ ، وَهُوَ بِالْأَطْلَالِ مُرْتَهَنُ^٤
وَأَرَقَّ الْعَيْنَ وَالظَّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ ، وَرُقَاءٌ ، قَدْ شَفَّهَا ، إِذْ شَفَّنِي حَزْنُ^٥
فَبِتُّ أَشْكُو وَتَشْكُو فَوْقَ أَيِّكُنْهَا وَبَاتَ يَهْفُو رَتِيَا حَابِيْنَا الْغُصْنَ^٦

* * *

يَا هَلْ أَجَالِسُ أَقْوَاماً أَحِبَّهُمْ؟ كُنَّا وَكَانُوا عَلَى عَهْدٍ فَقَدْ ظَعَنُوا^٧
أَوْ تَحْفَظُونَ عُهْوداً لَا أَضِيْعُهَا إِنَّ الْكِرَامَ بِحِفْظِ الْعَهْدِ تُمْتَحِنُ^٨

ومنها :

إِنْ كَانَ عَادَكُمْ عِيدٌ أَفْرَبَ فَتَيَّ بِالشُّوقِ قَدْ عَادَهُ مِنْ ذِكْرِكُمْ حَزَنُ^٩
وَأَفْرَدَتْهُ اللَّيَالِي مِنْ أَحَبَّتِهِ فَبَاتَ يُنْشِدُهَا ، مِمَّا جَنَى الزَّمَنُ^{١٠}
« بِمَ التَّعَلَّلُ؟ لَا أَهْلٌ ، وَلَا وَطَنٌ وَلَا نَدِيمٌ ، وَلَا كَأْسٌ ، وَلَا سَكَنُ ! »^{١١}

(١) لم ترد هذه القصيدة بالديوان ، وقد أثبتناها عن المعجب .

(٢) الشجن : الحزن ، الوسن : النوم .

(٣) ورقاء : حمامة ، شفها الحزن : أضعفها وأنحلها .

(٤) الأيكة : الشجرة الضخمة أو الأجمة بجوار الماء ، يهفو : يتحرك ويثايل .

(٥) ظعنوا : رحلوا .

(٦) تمتحن : تختبر .

(٧) اقتبس الشاعر البيت من مطلع قصيدة للمتنبي . السكن : ما يسكن إليه الإنسان من أهل

بمال وغير ذلك ، ويطلق في الغالب على الزوجة أو الحبيبة .

٢ - الشكوى والاستعطاف

لوعة في السجن :

نظم ابن زيدون هذه القصيدة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، وهو في السجن ،
وبعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبي حفص بن بُرد :

ما عَلَى ظَنِّي بِأَسْ يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَأْسُو¹
ربما أَشْرَفَ بِالْمَرِّ عَلَى الْأَمَالِ يَأْسُ
ولقد يُنْجِيكَ إِغْفَا لٌ وَيُرْدِيكَ احْتِرَاسُ
والمحاذيرُ سِهَامٌ² وَالْمَقَادِيرُ قِيَاسُ³
ولَكُمْ أَجْدَى قُعُودٌ وَلَكُمْ أَكْدَى التَّمَاسُ⁴
وكذا الدَّهْرُ ، إِذَا مَا عَزَّ نَاسٌ ذَلَّ نَاسٌ
وبنو الأيامِ أَخِيَا فُ : سَرَاةٌ وَخِيسَاسُ⁵
نَلْبَسُ الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ مَتَعَةٌ ذَاكَ اللَّبَاسُ
يَا أَبَا حَفْصٍ وَمَا سَا وَكَ فِي فَهْمٍ إِيَّاسُ⁶

(١) يأسو : يأسو يداوى .

(٢) قياس : هنا جمع قوس .

(٣) أجدى : أغنى وأفاد ، أكدى : أخفق .

(٤) أخياف : مختلفون ، قال بعضهم : « اناس أخياف وشقي في الشيم » .

(٥) هو إياس بن معاوية من قضاة العراق في عصر بني أمية وكان يضرب به المثل في الذكاء والفهم ، وعنه أبو تمام في قصيدته التي يمدح بها أحمد بن المعتصم :

إقدام عمرو في سماحه حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

مِنْ سَنَا وَأَيْكَ لِي فِي غَسَقِ الْخَطْبِ اقْتِبَاسُ^١
 وَوِدَادِي لَكَ نَصٌّ لَمْ يَخَالَفْهُ الْقِيَّاسُ
 أَنَا حِيرَانٌ وَلِلَّامِ رَوْضُوحٌ وَالتَّبَاسُ
 مَا تَرَى فِي مَعْشَرٍ حَا لُوا عَنْ الْعَهْدِ وَخَاسُوا^٢
 وَرَأَوْنِي سَامِرِيًّا يُتَّقَى مِنْهُ الْمِسَاسُ^٣
 أَذْوَبٌ هَامَتْ بِلَحْمِي فَاَنْتَهَاسُ^٤ وَانْتِهَاسُ^٥
 كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَنْ حَا لِي وَلِلذَّئِبِ اغْتِسَاسُ^٦
 إِنْ قَسَا الدَّهْرُ فَلَيْلَمَا ۚ مِنَ الصَّخْرِ انْبِجَاسُ^٧
 وَلَثْنٌ أَمْسَيْتُ مَحْبُو سَا فَلَغَيْتُ احْتِبَاسُ
 يَلْبِدُ الْوَرْدُ السَّبَبَتَى وَلَهُ بَعْدُ افْتِرَاسُ^٨
 فَتَأَمَّلْ كَيْفَ يَغْشَى مَقْلَةً الْمَجْدِ الذُّعَاسُ^٩
 وَيُفَتِّ الْمِسْكُ فِي التُّرْبِ بِ فَيُوطَا وَيُدَاسُ^{١٠}
 لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرَدًا إِنْ عَهْدِي لَكَ آسُ

(١) سَنَا : ضوء . غَسَقٍ : ظلمة .

(٢) خَاسُوا : خَانُوا .

(٣) السَامِرِيُّ : كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ، فَعَبِدَ الْعَجَلِ وَتَحَامَاهُ النَّاسُ ، وَقَصَتْهُ مَشْهُورَةٌ فِي الْقُرْآنِ

الكَرِيمِ .

(٤) الْاِنْتِهَاسُ : الْعِضْ .

(٥) الْاِعْتِسَاسُ : طَلَبُ الصَّيْدِ بِاللَّيْلِ .

(٦) اِنْجَسَ : نَجَسَ .

(٧) يَلْبِدُ : يَلْصِقُ بِالْأَرْضِ ، الْوَرْدُ : الْأَمْدُ . السَّبَبَتَى : الْحَرَى .

(٨) لَا يَكُنْ عَهْدُكَ سَرِيعَ الدَّبُولِ كَالْوَرْدِ فَإِنْ عَهْدِي كَالْآسِ لَا يَذْبُلُ .

وَأَدِرْ ذِكْرِي^١ كَأْسًا ما اَمْتَطَتْ كَفِّكَ كَأْسُ
وَاعْتَنِمْ صَفْوَ اللَّيَالِي إِنَّمَا الْعَيْشُ اخْتِلَاسُ
وَعَسَى أَنْ يَسْمُحَ الدَّهْرُ رُ فَقَدْ طَالَ الشَّمْسُ^٢

ألم وشكوى :

نظم ابن زيدون في فاتحة سجنه هذه القصيدة يعاتب فيها أبا الحزم بن جهور ويدفع عن نفسه التهمة متضرعاً في إباء، مستعطفاً في حرقة . وإنك لتشعر خلال هذه الأبيات بألم الشاعر الذي أعيته المحنة ، ولكنه بقي متجلداً ، مدركاً لمزايده ، غير مسترسل في مدح ابن جهور إلا من خلال نفسه التي أمضتها السجن وآذاها ، قال :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِيَ الْغَمَامُ عَلَى مِثْلِي وَيَطْلُبُ ثَأْرِي الْبَرْقُ مَنْصَلَتِ^٣ النَّصْلِ^٤
وَهَلَا أَقَامَتْ أَنْجَمُ اللَّيْلِ مَأْتَمًا لَتَنْدَبَ فِي الْآفَاقِ مَاضَاعَ^٥ مِنْ نُبْلِي
وَلَوْ أَنْصَفْتَنِي وَهِيَ أَشْكَالُ هِمَّتِي لَأَلْقَيْتُ بِأَيْدِي الدُّلِّ لِمَارَّاتِ ذُلِّي
وَلَا فُتِرَتْ سَمْبَعُ الثُّرَيَّا وَغَاظَهَا بِمَجْمَعِهَا مَا فَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْ شَحْلِي
لَعَمْرُ اللَّيَالِي إِنْ يَكُنْ طَالَ نَزْعُهَا لَقَدْ قَرُطَسْتُ^٦ بِالنَّبْلِ فِي مَوْضِعِ لَنْبُلٍ^٧
تَحَلَّلْتُ بِآدَابِي ، وَإِنْ مَارَبِي لَسَانِحَةً^٨ فِي عَرْضِ أُمْنِيَّةٍ عُطْلٍ
أَخْصُ لِفَهْمِي بِالْقِلَى وَكَأَنَّمَا يَبِيتُ لِيذِي الْفَهْمِ الزَّمَانُ عَلَى ذَحْلٍ^٩

(١) الشاس : التمرّد والنفور . سمح الرجل وأسمح : اتصف بالجوّد والسهولة واليسر .

(٢) منصلت : ماض قاطع .

(٣) النزع : الرمي بالسهام والنبال . قرطست : أصابت .

(٤) الذحل : الثأر .

وَأَجْفَى عَلَى نَظْمِي لِكُلِّ قِلَادَةٍ
 وَلَوْ أَنِّي أَسْطِيعُ كَيْ أَرْضَى الْعِدَا
 أَمَقْتُولَةَ الْأَجْفَانِ مَالِكٍ وَالْهَاءِ
 أَقْلِي بُكَاءَ لَسْتُ أَوَّلَ حُرَّةٍ
 وَفِي أُمِّ مُوسَى عِبْرَةٌ إِذْ رَمَتْ بِهِ
 وَلِلَّهِ فِينَا عِلْمٌ غَيْبٍ وَحَسْبُنَا
 وَإِنْ رَجَائِي فِي الْهُمَامِ ابْنُ جَهْوَرٍ
 كَرِيمٌ عَرِيقٌ فِي الْكِرَامِ وَقَلَّمَا
 نَهَوْضُ بِأَعْبَاءِ الْمُرُوءَةِ وَالتُّقَى
 إِذَا أَشْكَلَ الْخَطْبُ الْمُلِمُّ فَإِنَّهُ
 يَرَفُّ عَلَى التَّامِيلِ لِأَلَاءِ بَشَرِهِ
 مُحَاسِنُ مَا لِلْحُسْنِ اللَّبَدْرِ عِلَّةٌ
 مَفْصَلَةُ السَّمُطَيْنِ بِالْمَنْطِقِ الْفَضْلِ
 شَرِيتُ بِبَعْضِ الْحِلْمِ حِظًّا مِنَ الْجَهْلِ
 أَلَمْ تتركِ الْأَيَّامُ نَجْمًا هَوَى قَبْلِي^١
 طَوَتْ بِالْأَسَى كَشْحًا عَلَى مَضَضِ الثُّكُلِ^٢
 إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ فَاعْتَبِرِي وَاسْلِي^٣
 بِهِ عِنْدَ جَوْرِ الدَّهْرِ مِنْ حَكَمٍ عَدْلٍ
 لَمْ تُسْتَحْكَمْ الْأَسْبَابُ مُسْتَحْصِدُ الْحَبْلِ^٤
 يُرَى الْفَرْعُ الْإِلْمُتْمِدَّ مِنَ الْأَصْلِ
 سَحُوبٌ لِأَذْيَالِ السِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ
 وَآرَاءُهُ كَالْخَطِّ يُوضَعُ بِالشَّكْلِ
 كَمَا رَفَّ لِأَلَاءِ الْحُسَامِ عَلَى الصَّقْلِ^٥
 سَوَى أَنَّهُ بَاتَتْ تَحِلُّ فَيَسْتَمَلِي^٦

(١) الخطاب هنا لأمه ، وقد زارته في السجن فبكت .

(٢) الكشح : الحاصرة ، وطوى كشحاً عن فلان أعرض عنه وقطعه .

(٣) يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إن رادوه إليك » ، فألقته فالتقطته امرأة فرعون ، والشاعر يطلب أن تعتبر بهذه القصة وتنبهر .

(٤) عدل : عادل .

(٥) مستحصد : قوى متين .

(٦) يرف : يتلألأ ويريق .

(٧) تمل مضارع أمل ، يقال أملاه القول وأمله ألقاه عليه ليكتبه ، والمعنى : هذه محاسن للمدوح الشبيهة بالبدر لا عيب فيها سوى أنها باتت تمل على الشاعر وهو يكتب ويستكتبها فتمليه .

وَتَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ اِكْتِفَاءً بِسِرِّهَا غَسَى الْمُقْلَةَ الْكِحْلَاءَ عَنْ زِينَةِ الْكُحْلِ^١
أَبَا الْحَزْمِ إِنِّي فِي عِتَابِكَ مَائِلٌ عَلَى جَانِبٍ تَأْوِي إِلَيْهِ الْعُلَا سَهْلٌ
حَمَائِمُ شَمَكُوى صَبَّحَتْكَ هَوَادِلًا تَنَادِيكَ مِنْ أَفْئَانِ آدَابِي الْهُدْلِ^٢
جَوَادُ إِذَا اسْتَنَّ الْجِيَادُ إِلَى مَدَى تَمَطَّرُ فَاسْتَوَى عَلَى أَمَدِ الْخَصْلِ^٣
ثَوَى صَافِنَا فِي مَرْبِطَةِ الْهَوْنِ يَشْتَكِي بِتَضْمَاهَا مَا نَالَهُ مِنْ أَذَى الشَّمْلِ^٤
أَفَى الْعَدْلُ أَنْ وَافَتْكَ تَتَرَى رَسَائِلِي فَلَمْ تَتْرُكَنْ وَضْعًا لَهَا فِي يَدَيَّ عَدْلٌ
أَعِدُّكَ لِلْجُلَى وَأَمَلْ أَنْ أُرَى بِنُعْمَاكَ مُوسُومًا وَمَا أَنَا بِالْغُفْلِ
وَمَا ذَاكَ وَعْدُ النَّفْسِ لِي مِنْكَ بِالْمُنَى كَأَنِّي بِهِ قَدْ شَمْتُ بَارِقَةَ الْمُحْلِ
أَتُنْ زَعَمَ الْوَاشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَمًا تُعَذِّرُ فِي نَصْرِي وَتُعَذِّرُ فِي خَذْلِي^٥
وَأَصْدَى إِلَى إِسْعَافِكَ السَّائِغِ الْجَنَى وَأَضْحَى إِلَى إِنْصَافِكَ السَّابِغِ الظِّلَّ
وَلَوْ أَنَّنِي وَاقِعْتُ عَمْدًا خَطِيئَةً لَمَّا كَانَ يَدْعَا مِنْ سَجَايَاكَ أَنْ تُمْلِي^٦
فَلَمْ اسْتَشِرْ حَرْبَ الْفِجَارِ وَلَمْ أُطِغْ مُسَيِّئَةً إِذْ قَالَ : إِنِّي مِنَ الرُّسْلِ^٧
مِثْلِي قَدْ تَهَفَوُا بِهِ نَشْوَةَ الصُّبَا وَمِثْلِكَ مَنْ يَعْفُو وَمَا لَكَ مِنْ مِثْلٍ

(١) السرو : الشرف .

(٢) الهوادل : جمع هادلة ، والهديز : صوت الحمام . والهدل : جمع أهدل وهو صفة الأنان

من تهدلت أى تدلت .

(٣) استن الجياد : مضت مسرعة في السبق ، تمطر : أنصت . استولى على أمد الحصل : كناية

من إحراز قصب السبق .

(٤) الصافن من الجياد : الذي قام على ثلاث قوائم ولوى الرابعة . الشكل : شدقوائم الدابة بالشكال .

(٥) تعذرا الأولى : تفقد العذر ، وتعذر الثانية : تجد العذر .

(٦) واقعت : دانيت . تمل : تمهل ولا تتعجل العقوبة .

(٧) كانت هذه الحرب في الجاهلية بين قريش وقيس وانتهكت فيها الثانية حرمة الأشهر الحرم .

وإني لنتهائي نُهَـايَ عن التى أشاد بها الواشى وَيَعْقِلْنِي عَقْلِي^١
 أَأَنْقُضُ فَيْكَ المَدْحَ من بَعْدِ قُوَّةٍ فَلَـأ أَقْتَدِي إِلَّا بِنَاقِضَةِ الغَزْلِ^٢
 ذَمَمْتُ إِذْ أَعْهَدَ الحَيَاةَ وَلَا يَزَلُ مُمِرًّا عَلَى الْآيَامِ طَعْمُهُمَا المَحْلَى^٣
 وَمَا كُنْتُ بِالمُهْدَى إِلَى السُّوْدَدِ الخَنَا وَلَا بِالمَسَى إِلى القَوْلِ فى الحَسَنِ الفِعْلِ
 وَمَالِي لَا أَتْنِي بِآلَاءِ مُنْعَمٍ إِذَا الرَوْضُ أَتْنَى بِالنَّسِيمِ عَلَى الطَّلِّ
 هِيَ النَعْلُ زَلَّتْ بِي فَهَلْ أَنْتُ مُكْذِبٌ لَقِيلَ الْأَعَادَى إِنَّهَا زَلَّةُ الحَسْلِ^٤
 أَلَا إِنَّ ظَنِّي بَيْنَ فَعْلَيْكَ وَاقِفٌ وَقُوفَ الهَوَى بَيْنَ القَطِيعَةِ وَالْوَصْلِ
 فَإِنْ تُمَنَّ لِي مِنْكَ الْأَمَانِي فَشِيمَةٌ لِدَاكِ الْفَعَالِ الْقَصْدِ وَالْخُلُقِ الرُّسْلِ^٥
 وَإِلَّا جَنَيْتُ الْأَنْسَ مِنْ وَخْشَةِ النَّوَى وَهَوْلِ السَّرَى بَيْنَ المَطِيَةِ وَالرَّحْلِ^٦
 سَيُعْنَى بِمَا ضَيَّعْتَ مِنِّي حَافِظٌ وَيُلْقَى لَمَّا أَرْخَصْتَ مِنْ خَطَرِي مُغْلَى
 وَأَيْنَ جَوَابُ مَنْكَ تَرْضَى بِهِ الْعُلَا إِذَا سَأَلْتَنِي عَنْكَ أَلْسَنَةُ الحَمَلِ

لا يهنا الشامت :

وقال أيضاً هذه الأبيات ، من قصيدة كتبها إلى أبي الحزم بن جهور في السجن ، يعبر فيها عن ألمه وقلقه وعذابه ويشيد بشعره ويحاول أن يتأسى بصروف الأيام . قال بعد مقدمة غزلية تحدث فيها عن أرقه وسهاده لهجر حبيبته :

- (١) يعقلنى : يحبسنى ويمنعنى .
- (٢) يشير إلى الآية الكريمة « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً » .
- (٣) ممرًا من أمر الطعام صيره مرًا .
- (٤) الحسل : الحسة والدناءة ، وبكسر الحاء : ولد الضب .
- (٥) الرسل : السهل والطلق .
- (٦) يشير إلى أنه سيرحل إن أطلقه ولم ينله أمنيته .

مَنْ يُسْأَلُ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدُهَا مَخْضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُغْنِي عَنِ الْخَبَرِ
 لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَبَابِي كَبَرَةً وَأَرَى بَرَقَ الْمَشِيبِ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعْرِ
 قَبْلَ الثَّلَاثِينَ إِذْ عَهْدَ الصَّبَا كَتَبْتُ وَلِلشَّبِيبَةِ غُضُنٌ غَيْرُ مُهْتَصِرٍ
 هَا إِنَّهَا لَوَعَةٌ فِي الصَّدْرِ قَادِحَةٌ نَارَ الْأَسَى وَمَشِينِي طَائِرُ الشَّرَرِ
 لَا يَهْنَأُ الشَّامَتِ الْمَرِيحُ خَاطِرُهُ أَنِّي مُعْنَى الْأَمَانِي ضَائِعُ الْخَطَرِ
 هَلِ الرِّيحُ بِنَجْمِ الْأَرْضِ عَاصِفَةٌ أَمْ الْكَسُوفُ لَغَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
 إِنْ طَالَ فِي السَّجْنِ إِيدَاعِي فَلَا عَجَبٌ قَدْ يُوَدِّعُ الْجَفْنَ حَدَّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
 وَإِنْ يُثَبِّطُ أَبَا الْحَزْمِ الرِّضَا قَدَرُ عَنْ كَشْفِ ضُرِّي فَلَا عَتَبَ عَلَى الْقَدَرِ
 مَا لِلذَّنُوبِ ، الَّتِي جَانِي كِبَائِرُهَا غَيْرِي ، يُحَمِّلُنِي أَوْزَارَهَا وَزَرِي؟
 مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ تَأَنِّيهِ عَلَى ثِقَةٍ وَلَمْ أَزَلْ مِنْ تَجَنِّيهِ عَلَى حَذَرِ
 ذُو الشِّيمَةِ الرَّصُلِ إِنْ هَبِجَتْ حَفِيزَتُهُ وَالْجَانِبِ السَّهْلِ وَالْمُسْتَعْتَبِ الْيَسْرِ
 وَزِيرُ سِلْمٍ كَفَاهُ يُمْنُ طَائِرِهِ شَوْمُ الْحُرُوبِ وَرَأْيُ مُحَصِّدِ الْمَرَرِ
 أَغْنَتْ قَرِيحَتَهُ مَغْنَى تَجَارِبِهِ وَنَابَتِ اللَّمْحَةُ الْعَجَلَى عَنِ الْفِكَرِ

(١) العارض : صفة الحد .

(٢) كتب : قريب . مهتصر : مثل

(٣) نجم الأرض ما نجم على وجهها من النبات ولم يقيم على ساق ، وهذا البيت تعليل للبيت السابق أي لا تفرح أيها الشامت فالرياح لا تعصف إلا بماله ساق من النبات والكسوف لا يكون لغير الشمس والقمر .

(٤) الوزر : الملجأ ويقصد أبا الحزم .

(٥) الشيمة الرسل : السمحة . المستعقب : مصدر ميمي بمعنى الاستعتاب وهو الاسترضاء

اليسر : السهل .

(٦) المرر : جمع مرة وهي قوة الخلق وشدته ، ومحصد : قوى متين .

قد كنتُ أَحْسَبُنِي والنجمُ في قرْنٍ
 أحيانَ رفَّ على الآفاقِ من أدبي
 وسيلةٌ سببٌ إلا تكن نسباً
 وبائن من ثناء حُسْنِه مثلُ
 يُستودعُ الصُّحفَ لا تخفى نوافجهُ
 لي في اعتمادك بالتأميلِ سابقةُ
 ففيم غَضَّتْ همومي من علا هممي
 هل من سبيل ، فماء العتبِ لي أسنُّ ،
 نذرتُ شكرك لا أنسى الوفاء به
 لا تله عُني فلم أسألك مُعتَسِفاً
 هَبْنِي جَهَلْتُ فكان الصنعُ سيئةً
 إن السيادةَ بالإغضاءِ لابسَةٌ
 ففيم أَصْبَحْتُ منحطاً إلى العفر^١
 غرس له مِنْ جَنَاهُ يانعُ الثمر^٢
 فهو الوداد صفها من غير ما كدر
 وشئُ المحاسنِ مِنْهُ مُعَلِّمُ الطَّرَرِ^٣
 إلا خفاء نسيم المسلكِ في الصرر^٤
 وهجرةٌ في الهوى أُولَى من الهجر
 وَحَاصٌ بي مَطْلَبِي عن وجهةِ الظفر^٥
 إلى العذوبةِ من عُتْبَاكَ والخصر^٦
 إن أسفرت لي عنها أوجهُ البشر^٧
 رَدَّ الصبا بعد إيفاءٍ على الكبر^٨
 لا عذرَ منها سوى أنِّي من البشر
 بهاءها ، وبهاء الحُسنِ في الخفر

(١) العفر . التراب .

(٢) رف النبات : اهتز .

(٣) الطور : جوانب الثوب ، ومعلم الطور : المميز بعلامات دالة .

(٤) النوافج : جمع نافجة وهي وعاء المسك . الصرر : جمع صرة وهي الكيس .

(٥) حاص . مال .

(٦) العتي : الرضا . الخصر : البرودة . يقول : هل من سبيل إلى رضاك الذي يشبه الماء العذب

الخصر فإن ماء العتب أصبح أسنا كدرا .

(٧) الضمير في « عنها » عائد إلى العتي ، والبشر : جمع بشري .

(٨) أي لم يعتسف في السؤال ولم يطلب مستحيلا ، فلم يسأله أن يرد إليه الصبا وقد أوفى على

المشيب .

فاشفعْ أكنْ مثلَ ممطورٍ ببلدتهِ جذلانَ بالوطنِ المألوفِ والوطرِ
والبسْ من النعمةِ الخضراءِ أيكتتها ظلاً حراماً على الآفاتِ والغيرِ
نعيمِ جنَّةِ دُنيا إن هي انصرمتْ نَعِمْتُ بالخُلدِ في الجناتِ والنَّهرِ

أَيْنَ أَيْامُنَا ؟

قال ابن زيدون هذه الأبيات من قصيدة كتبها إلى صديقه أبي القاسم بن
رفق يعاتبه ويذكر فيها أيامه الماضية معه ويصف خلالها بعض مشاهد الطبيعة :

عُدْرِي ، إِنْ عَدَلْتُ فِي خُلْعِ عُدْرِي ،
غُصْنٌ أَثْمَرْتُ ذُرَاهُ بَبَدْرٍ
هَزَّ مِنْهُ الصَّبَا فَقَوَّمَ شَطْرًا وَتَجَافَى عَنِ الْوِشَاحِ بِشَطْرِ
رَشَاءٍ أَقْصَدَ الْجَوَانِحَ قَصْدًا عَنْ جَفَوْنَ كَحِلْنٍ عَمْدًا بِسَحْرٍ
كُسِيَ الْحَسَنَ فَهُوَ يَفْتَنُ فِيهِ سَاحِبًا ذَيْلَ بَرْدِهِ الْمُسْبِكِ^١
تَحْتَ ظِلٍّ مِنَ الْغَرَارَةِ فِينَا نَ وَرَوْقٍ مِنَ الشَّبِيَةِ نَضْرُ^٢
أَبْرَزَ الْجَيْدَ فِي غَلَاثِلَ بَيْضٍ وَجَلَا الْخَدَّ فِي مَجَاسِدَ حُمْرٍ
وَتَشَنَّتْ بِعِطْفِهِ إِذْ تَهَادَى خَطَرَةٌ تَمْرُجُ الدَّلَالِ بِكِبَرٍ

(١) عذر : أى معاذير . عذر : جمع عذار وهو الحياء ، وخلع العذار أى ترك الحياء .

(٢) أقصد : طعن

(٣) المسبكر : المسترسل .

(٤) روق الشباب : أوله .

زارني بعدَ هجعةٍ والثريا راحةٌ تقدرُ الظلامَ بِشِبْرٍ^١
والدُّجا من نجومِهِ في عقودٍ يتلألُ^٢ لأنَّ من سِماكٍ ونَسَرٍ^٣
تحسبُ الأفقَ بينها لازورداً نُثرت فوقه دنائيرُ تَبِيرُ
فرشفتُ الرضابَ أعذبَ رَشْفٍ وَهَصرتُ القضيْبَ ألطفَ هَصَرٍ
ونعِمنا بلفٍّ جسمٍ بجسمٍ للتصافي ، وقرعٍ ثَغْرِ بَشْرِ
يا لها ليلةٌ تجلَّى دُجاها من سَنَا وَجَنَّتِيهِ عن ضوءِ فجرٍ
قصَّر الوصلُ عُمَرها ، وبوَدَّى أن يطولَ القصيرُ منها بعُمري

* * *

مَنْ عَذِبري من ريبٍ دهرٍ خوونٍ كلَّ يومٍ أراعُ منه بغدرٍ
كلما قلتُ : حاكٍ فيه ملامِي نَهَسْتَنِي منه عقاربُ تَسْرِي^١
وترتني خطوبُهُ في صَفِيٍّ فاضلٍ نابِهٍ ، من الدهرِ ، وترٍ^٢
بانَ عني ، وكانَ روضةً عيني ، فغدا اليومَ وهو روضةٌ فكري
فَكِهْ يُبْهَجُ الخليلَ بوجهٍ تَرِدُ العينُ منه يَنْبوعَ بشرٍ
لودعي إنَّ يَبْلُهُ الخُبْرُ يوماً أَخجلَ الوردَ عن خلائِقَ زُهرٍ
وإذا غازلتهُ مقلَّةٌ طَرْفٍ كادَ من رِقَةٍ يذوبُ فيَجْري

* * *

(١) تقدر : تقيس .
(٢) حاكٍ : رشح أو أثر فيه . نهستني : عشتني .
(٣) وترتني : أصابتني بظلم أو مكروه . وتر : فرد فذ .

يا أبا القاسم الذى كان رِدْئى وظهيرى على الزمان وذخرى^١
يا أحمق الورى بمحوصٍ إخلا صى وأولاهم بغاية شكرى
طرق الدهر ساحتى من تنائى لك بجهنم من الحوادث نُكْر

* * *

ليت شعرى! والنفوس تعلم أن لى سَ بمُجدٍ على الفتى «ليت شعرى»
هل لِحالى زماننا من رجوع ؟ أم لماضى زماننا من مَكْرٍ ؟

* * *

أين أيامنا وأين ليالٍ كرياض لبسن أفواف زهر
وزمان كأنما دبَّ فيه . وسنُّ أو هفأ به فرط . سُكر
حين نغدو إلى جداول زرقٍ يتغلغلن فى حدائق خضر
فى هضابٍ مجلوة الحسن حمر وبوادٍ مصقولة النبت عُفر
نتعاطى الشمول مذهبة السر بال والجو فى مطارف غبر^٢
فى فتو توشَّحو بالمعالى وتردوا بكلِّ مجدٍ وفخر^٣
وضَّح تنجلى الغياهب منهم عن وجوه مثل المصابيح غر^٤
كل خرق يكاد ينهل ظرفاً زانَ مرآته بأكرم خير

(١) الردء : الناصر ، العون .

(٢) مطارف : جمع مطرف - بضم الميم وكسرها - رداء مربع من خز ذو أعلام .

(٣) فتو : جمع فتى .

(٤) الخرق : من الفتيان الطريف فى سماحة ونجدة . مرآته : منظره الجميل .

وسجایا کأنهن كؤوسٌ أو رياضٌ قد جادها صوبُ قَطْرِ
يتلقَى القَبُولَ منى قَبُولٌ كلما راح نفحُها ارتاح صدرى
فهو يسرى مُحَمَّلاً من سجایا لك نسيمٌ يزهى بأفوحِ عِطْرِ

* * *

٣ - المدح

ملك أطاع الله :

قال ابن زيدون هذه الأبيات يمدح أبا الحزم بن جهور ويعرض بالوشاة بعد
مطلع غزلى :

مَالِي وَلِلْأَيَّامِ ؟ لَجَّ مَعَ الصَّبَا عدوانها فكسا العذار مَشِيَا
مَحَقَّتْ هَلَالَ السَّنِّ قَبْلَ تَمَامِهِ وَذَوَى بِهَا غُصْنُ الشَّبَابِ رَطِيبَا
لَأَلَمَ بِي مَا لَوْ أَلَمَ بِشَاهِقٍ لَانْهَالَ جَانِبُهُ فَصَارَ كَثِيْبَا
فَلَمَّا تَسَمَّنِي الْحَادِثَاتُ فَقَدْ أَرَى لِلْجَفْنِ فِي الْعَضْبِ الطَّرِيرِ نُدُوبَا^١
وَأَمَّنْ عَجِبْتُ لِأَنَّ أَضَامَ وَجْهَهُ نِعَمَ النَّصِيرِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَجِيْبَا
مَنْ لَا تُعَدِّي النَّائِبَاتُ لَجَارِهِ زَحْفًا وَلَا تَمْشِي الضَّرَاءُ دَبِيْبَا
مَلِكٌ أَطَاعَ اللَّهَ مِنْهُ مُوَفَّقٌ مَا زَالَ أَوَابًا إِلَيْهِ مَنِيبَا

(١) تسمنى : تجشنى مكروهاً . الجفن : الغمد . العضب الطرير : السيف القاطع . الندوب :
جميع ندب وهو الجرح وهنا أثر الصدا الذى يعلو السيف لطول مكثه فى الغمد .
(٢) تعدى : تسرع فى العدو . يمشى الضراء : يمشى مستخفياً .

يَأْتِي رِضَاهُ مُعَادِيًا وَمُؤَالِيَا وَيَكُونُ فِيهِ مُعَاقِبًا وَمُشِيبًا
مَتَمَرِسٌ بِالْدَّهْرِ يَقْعُدُ صَرْفُهُ إِنَّ قَامَ فِي نَادَى الْخُطُوبِ خُطِيْبًا
بَسَامُ ثَغْرِ الْبِشْرِ إِنَّ عَقْدَ الْحُبَا فَرَأَيْتَ وَضَّاحًا هُنَاكَ مَهِيْبًا^١
مَلَأَ النَّوَاطِرَ صَامِتًا وَلَرْبَمَا مَلَأَ الْمَسَامِعَ سَامِعًا وَمَجِيْبًا
عِقْدٌ تَأَلَّفَ فِي نِظَامِ رِيَاةٍ نَسَقَ اللَّالِيَّ مُنْجِبًا وَنَجِيْبًا
يَغْشَى التَّجَارِبَ كَهْلَهُمْ مُسْتَغْنِيًا بِقَرِيحَةٍ هِيَ حَسْبُهُ تَجْرِيْبًا
وَإِذَا دَعَوْتَ وَلَيْدَهُمْ لِعَظِيْمَةٍ لِبَاكَ رُقْرَاقَ السَّمَاحِ أَدِيْبًا
هَمَمٌ تَنَافَسُهَا النُّجُومُ وَقَدْ تَلَا فِي سُودَدٍ مِنْهَا الْعَقِيْبُ عَقِيْبًا
وَمَحَاسِنُ تَنْدَى رِقَائِقُ ذِكْرُهَا فَتَكَادُ تُوهَمُكَ الْمَدِيْحَ نَسِيْبًا
كَالْآسِ أَخْضَرَ نَضْرَةً وَالْوَرْدِ أَحْ مَرَّ بِهَجَةٍ ، وَالْمِسْكِ أَذْفَرَ طِيْبًا^٢
وَإِذَا تَفَنَّنَ فِي اللِّسَانِ ثَنَاؤُهُ فَافْتَنَّ لَمْ يَكُنِ الْمَرَادُ غَرِيْبًا
غَالِيٌ بِمَا فِيهِ فَغَيْرُ مَوَاقِعِ سَرَفًا وَلَا مُتَوَقَّعٍ تَكْذِيْبًا^٣
كَانَ الْوَشَاةُ وَقَدْ مُنِيْتُ بِإِفْكَهِمْ ، أَسْبَاطُ يَعْقُوبٍ وَكُنْتَ الذِّيْبَاءُ
وَإِذَا الْمُنَى بِقَبُولِكَ الْغَضُّ الْجَنَى هَزَّتْ ذَوَائِبُهَا فَلَا تَشْرِيْبًا

(١) الحبا : جمع حبة ، وعقد الحبا : جلس ضاماً رجله إلى بطنه .

(٢) أذفر : ذكى طيب الريح .

(٣) مواقع : مدان . المتوقع : المنتظر ، يقول : مهما بالغ مادحه بما فيه من الصفات فلم يكن مدانياً إفراطاً ولا متخوفاً تكذيباً .

(٤) يريد أنه يرى بما ابتلى به من كذبهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

أَنَاسِيفُكَ الصَّدَى الَّذِي مَهْمَاتُشَا^١ نَعِدِ الصِّقَالِ إِلَيْهِ وَالتَّذْرِيْبَا^٢
 كَمْ ضَاقَ بِي مِنْ مَذْهَبٍ فِي مَطْلَبٍ فَشَنَيْتَهُ فُسُحَ الْمَجَالِ رَحِيْبَا^٣
 وَزَهَّاجُنَابُ الشُّكْرِ حِينَ مَطَرَتْهُ بِسَحَائِبِ النُّعْمَى فَرُدَّ خَصِيْبَا^٤

* * *

فرحة الشاعر :

كتب الشاعر هذه القصيدة يمدح بها صديقه أبا الوليد بن جهور بعد أن اعتلى عرش قرطبة بعد وفاة أبيه ، وفيها تتجلى فرحة الشاعر بملكه واستبشاره بولايته ، قال بعد مطلع غزلي يحن به إلى ولادة * :

لِلْجَهْوَرِيِّ أَبِي الْوَلِيدِ خَلَائِقُ كَالرَّوْضِ أَضْحَكُهُ الْغَمَامُ الْبَاكِى^١
 مَلِكُ يَسُوْسِ الدَّهْرِ مِنْهُ مُهَذَّبُ تَدْبِيرُهُ لِلْمَلِكِ خَيْرُ مَلَاكِ^٢
 جَارِي أَبَاهُ بَعْدَ مَا فَاتَ الْمَدَى فَتْلَاهُ بَيْنَ الْفَوْتِ وَالْإِدْرَاكِ^٣
 شَمْسُ النَّهَارِ وَبَدْرُهُ وَنَجْوْمُهُ أَبْنَاؤُهُ مِنْ فَرْقَدٍ وَسِمَاكِ^٤
 يَسْتَوْضِحُ السَّارُونَ زُهْرَ كَوَاكِبِ مِنْهُمْ تُنِيرُ غِيَاهِبَ الْأَحْلَاكِ^٥
 بُشْرَاكِ يَا دُنْيَا وَبُشْرَانَا مَعًا هَذَا الْوَزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ فَتَاكِ^٦
 تُلْفِي السِّيَادَةَ ثُمَّ إِنْ أَضْلَلْتَهَا وَمَتَى فَقَدْتَ السَّرَّوَ فَهُوَ هُنَاكِ^٧
 وَإِذَا سَمِعْتَ بِوَاحِدٍ جُمِعَتْ لَهُ فَرَقُ الْمَحَاسَنِ فِي الْأَنَامِ فَذَاكِ^٨

(١) التذريب : التحديد .

(٢) ملاك الأمر : فوائمه .

(٣) الفرقد والسيك : نجان نيران .

(٤) تلقى : تجددى ، والخطاب للدنيا . ثم : هناك . السرو : الشرف .

* انظر منتخبات الغزل ص ٢١٨ من هذا الكتاب .

صمصام بادرةً وطودٌ سَكِينَةٌ وجوادٌ غاياتٌ وجِذْلٌ حِكَاكٌ^١
 طَلَقٌ يُفَنِّدُ فِي السَّمَاحِ وَجَاهِلٌ مَنْ يَسْتَشِفُّ النَّارَ بِالْمِحْرَاكِ^٢
 صَنَعَ الضَّمِيرَ إِذَا أَحَالَ بِمُهْرَقٍ يَمْنَاهُ فِي مَهْلٍ وَفِي إِيشَاكِ^٣
 نَظَمَ الْبَلَاغَةَ فِي خِلَالِ سَطُورِهِ نَظَّمَ اللَّالِي التُّومَ فِي الْأَسْلَاكِ^٤
 نَادَى مَسَاعِيَهُ الزَّمَانَ مُنَافِسًا أَحْرَزَتْ كُلَّ فَضِيلَةٍ فَكَفَّاكِ^٥
 مَا الْوَرْدُ فِي مَجْنَاهُ سَامِرُهُ النَّدى مُتَحَلِّيًا إِلَّا بِبَعْضِ حُلَاكِ^٦
 كَلَّا وَلَا الْمِسْكَ النَّمُومُ أَرِيحُهُ مُتَعَطِّرًا إِلَّا بِوَسْمِ ثَنَاكِ^٧
 اللَّهُوْ ذِكْرُكَ لَا غِنَاءُ مُرْجِعٍ يَفْتَنُ فِي الْإِطْلَاقِ وَالْإِمْسَاكِ^٨
 طَارَتْ إِلَيْكَ بِأَوْلِيَائِكَ هِزَّةٌ تَهْفُو لَهَا أَسْفًا قُلُوبُ عِدَاكِ^٩
 يَأْيُهَا الْقَمَرُ الَّذِي لِسَنَائِهِ وَسَنَاهُ تَعَشَوُ السَّبْعُ فِي الْأَفْلاكِ^{١٠}
 فَرَحُ الرِّيَاسَةِ إِذْ مَلَكَتْ عِنَانَهَا فَرَحُ الْعُرُوسِ بِصَحَّةِ الْإِمْلَاكِ^{١١}
 مَنْ قَالَ إِنَّكَ لَسْتَ أَوْحَدَ فِي النُّهَى وَالصَّالِحَاتِ فِدَانٌ بِالْإِشْرَاكِ^{١٢}

(١) صمصام بادرة : سيف حدة . الجذل : عود الشجرة ، وجذل الحكاك : جذل ينصب لتحريك به الإبل الجربى .

(٢) يقول إنه باش الوجه سمح والكرم طبيعة فيه وليس يزيده تفنيد الجاهلين إلا تمادياً في الكرم كالنار يزيدها المحرك اشتعالاً .

(٣) صنع الضمير : صناع حاذق . المهرق : الصحيفة . إيشاك : إسراع .

(٤) توم اللالى : الكيرة منها .

(٥) النُموم : الساطع . الثنا : الثناء .

(٦) مرجع : مردود . الإطلاق والإمسك : الإنطلاق بالصوت ثم النزول به .

(٧) اسناء بالمد : الرفعة والشرف ، والسنا بالقصر : الضوء . تعشو : تقصد .

(٨) الإملاك : الزواج .

قَلَّدَنِي الرَّأْيَ الْجَمِيلَ فَإِنَّهُ حَسْبِي لِيَوْمِي زِينَةٌ وَعِرَاكِ
وَإِذَا تَحَدَّثْتَ الْحَوَادِثُ بِالرَّنَا شَزْرًا إِلَى فَقْلٍ لَهَا : إِيَّاكَ
وَالدَّجْنَ لِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ حَاجِبٌ وَالْجَفْنَ مَثْوَى الصَّارِمِ الْفَتَّاكِ
دَامَتْ حَيَاتُكَ مَا اسْتُدِّمَتْ فَلَمْ تَزَلْ تَحْيَا بِكَ الْأَخْطَارُ بَعْدَ هَلَاكِ

* * *

ملتمس الوزارة :

قال ابن زيدون هذه القصيدة في مدح أبي الوليد بن جهور (لا في مدح أبي
الحزم بن جهور كما جاء في الديوان) . وفيها نجد الشاعر يعرض بمطلب لعله
منصب الوزارة بعد أن أبدى ابتهاجه في القصيدة السابقة باعتلاء أبي الوليد عرش
قرطبة ، وهو يفتحها بمطلع غزلي تقليدي ثم يسترسل في مدح مليكه وتعداد مناقبه
في جو من النشوة يدل على إقبال الدنيا عليه . قال بعد المقدمة الغزلية ومطلعها :

أَجَلٌ إِنْ لَيْلَى حَيْثُ أَحْيَاوْهَا الْأَسَدُ مَهَاةٌ حَمَّتْهَا فِي مَرَاتِعِهَا أَسَدُ

* * *

هو الدهرُ مهما أَحْسَنَ الْفَعْلَ مَرَّةً فَمِنْ خَطَايَا ، لَكِنْ إِسَاءَتُهُ عَمْدُ
حَذَارِكِ أَنْ تَغْتَرَّ مِنْهُ بِجَانِبٍ فَفِي كُلِّ وَادٍ مِنْ نَوَائِبِهِ سَعْدٌ
وَلَوْلَا السَّرَاةُ الصَّيْدُ مِنْ آلِ جَهْوَرٍ لِأَعْوَزَ مَنْ يُعْدِي عَلَيْهِ مَتَى يَعْدُو^٣

(١) الرنا : النظر .

(٢) يقال : « بكل واد سعد » أو « بكل واد بنو سعد » هو مثل يضرب في الشر ويريدون به
أن في كل جهة كفاءها من الشر والأذى .

(٣) أعدى فلاناً على فلان : نصره وأعانته وقواه .

ملوك لبسنا الدهرَ في جنباتهم
بحيث مَقِيلُ الأَمْنِ ضَافٍ ظِلَالُهُ
هم النفر البيضُ الذين وُجُوهُهُمْ
كرامٌ يمدُّ الراغبونَ أَكْفَهُمْ
فلا يُنْعَمُ منهم هالكٌ، فهو خالدٌ
أليس أبو الحزم الذي غِبَّ سَعْيُهُ
أغرُّ تَمَهَّدْنَا به الخفضُ بعدما
فشمرَ حتى انجَابَ عارضُ فتنةٍ
هو الأثرُ المحمودُ إن عاد ذكره
تولى فلولا أن تلاه محمدٌ
ملكٌ يسوسُ المُلْكَ منه مُقَلَّدٌ
سجيتُهُ الحُسْنَى وشيمتُهُ الرِّضَا
هُمامٌ إذا زان النَّدَى بحبوةٍ
زعيمٌ لأبناء السيادةِ بارِعٌ

رقيق الحواشي مثل ما فُوفَ البُرْدُ
وفي منهل العيشِ العذوبةُ والبُرْدُ
تروق فتستشفى بها الأعينُ الرُّدُّ
إلى أبحرِ منهم لها باللهامدُ
بآثاره إن الثناء هو الخلدُ
تبصر غاوينَا فبانَ له الرُّشدُ
أقضى علينا مَضَجُّ ونبا مَهْدُ
تألقَ منها البرقُ واصطخبَ الرعدُ
تطلعتِ العلياءُ واستشرفَ المجدُ
لأوطأ خدَّ الحرِّ أخمَصَه العبدُ
روى عن أبيه فيه ماسنهُ الجدُ
وسيرتُهُ المثلى ومذهبهُ القصدُ
ترجَّحَ في أثنائها الحسبُ العدُ
عليهم به تُشْنَى الخناصرُ إن عدوا

(١) فوف : رقق . البُرْد : الثوب .

(٢) مقيل : مكان القيلولة ، وهو هنا بمعنى منزل . ضاف : سابع .

(٣) اللهأ جمع لهوة : العطايا .

(٤) يشير إلى قيام أبي الحزم بشؤون قرطبة بعد الفتنة الطويلة آخر عصر بني أمية .

(٥) يقول لولا أن أبا الوليد محمد بن جهور قد خلف أبا الحزم لسادت العاقبة وسادت دولة العبيد

على دولة الأحرار فأذلهم وداسوا خدودهم بأرجلهم .

(٦) العد : الكثير .

بعيد منال الحال داني جنى الندى
 ممر لمن عاداه إذ أولياؤه
 إذا اعترف الجاني عفا عفوقادر
 له عزيمة مطوية في سكينة
 ذراع، لما يأتي به الدهر، واسع
 هو الملك المشفوع بالنسك ملكه
 إلى الله أوأب^١ والله خائف
 فديتك إني قائل فمعرض
 منى كالشجادون اللهاة تعرضت
 أمثلي غفل خامل الذكر ضائع
 أنا السيف لا ينبو مع الهزغربة
 بدأت بنعمي غصة إن توالها
 لعمرك ما للمال أسعى فإنما
 ولكن لحال إن لبست جمالها
 أتت القوافي ساهدات بما صفا

إذا ذكرت أخلاقه خجل الورد
 يلد لهم كالماء شيب به الشهد^٢
 علا قدره عن أن يلج به حقد
 كما لأن متن السيف واخشوشن الحد
 وباع، إلى ما يخرز الفخر ممتد
 فله ما يخفى والله ما يبدو
 وبالله معتد وفي الله مشتد
 بأوطار نفس منك لم تقضها بعد^٣
 فلم يك للمصدور من نفثها بد
 ضياع الحسام الغضب أصداه الغمد
 إذا مانبا السيف الذي تطبع الهند
 فحسن الألى في أن يوالها سرد
 يرى المال أسنى حظه الطبع الوغد
 كسوتك ثوب النصح أعلامه الحمدا
 من الغيب فاقبلها فما غرك الشهد

(١) مر : من المראה .

(٢) الشجا : ما يعترض في اللهاة أو الحلق .

(٣) الغضب : القاطع .

(٤) انغرب : الحد . تطبع : تصنع .

(٥) الألى : النعمة . سرد : تتابع .

(٦) يشير في هذا البيت إلى الوزارة التي يرغب بها .

مدح وتهنئة :

ها هو ذا ابن زيدون في إشبيلية يتفياً ظلال النعيم بقرب مليكها المعتضد بعد أن جعله وزيره وأغدق عليه نعمه وإحسانه . فليلهج لسان الشاعر بالشكر له ولينثر فوق تاجه درر شعره . وهذه القصيدة إحدى مدائحه الرائعة قالها يهنئه بحلول عيد الأضحى سنة ٤٤٥ ، وقد ذكر ابن بسام طرفاً منها في ذخيرته ونقد بعض أبياتها ، وذكر أيضاً ابن خاقان طائفة منها في قلائده . وإننا لنشعر ونحن نتلو أبياتها بذلك النسيج المماسك وتلك الديباجة الفخمة التي تنم عن قوة أسره لالكلام وحسن اطلاعه على شعر الفحول . وقد رأى ابن خاقان في مطلعها الغزلى حيناً لولادة وعهدا ونحن نرى كما أشرنا أنه مطلع تقليدى ليس فيه ما يربطه بولادة ، فلنستمع إلى الشاعر ولنتدبر معاً هذه الجزالة وهذه القوة :

أَمَّا فِي نَسِيمِ الرِّيحِ عَرَفٌ مُعَرَّفٌ لَنَا هَلْ لِدَاتِ الْوَقْفِ بِالْجَزْعِ مَوْقِفٌ^١
فَنَقْضِي أَوْطَارَ الْمُنَى مِنْ زِيَارَةٍ لَنَا كَلَفٌ مِنْهَا بَمَا نَتَكَلَّفُ^٢
ضِمَانٌ عَلَيْنَا أَنْ تُزَارَ وَدُونَهَا رِقَاقُ الظُّبَا وَالسَّمْهَرِيِّ الْمُثَقَّفِ^٣
وَقَوْمٌ عِدَى يُبْدُونَ مِنْ صَفْحَاتِهِمْ وَأَزْهَرُهَا مِنْ ظُلْمَةِ الْحَقْدِ كَلَفٌ^٤
غِيَارَى يَعْدُونَ الْغَرَامَ جَرِيرَةً بَهَا ، وَالْهَوَى ظُلْمًا يَغِيظُ وَيُؤْسِفُ
يُودُّونَ لَوْ يَثْنَى الْوَعِيدُ زَمَاعَنَا وَهِيَهَاتَ رِيحُ الشَّوْقِ مِنْ ذَاكَ أَعْصِفُ^٥
يَسِيرُ لَدَى الْمُشْتَاكِ فِي جَانِبِ الْهَوَى نَوَى غُرْبَةٍ أَوْ مَجْهَلٍ مُتَعَسِّفُ

(١) العرف : الشذى والرائحة الطيبة . الوقف : السواد . الجزع : منعطف الوادى .

(٢) كلف : وابع .

(٣) الظبا : جمع ظبية وهى حد السيف . السمهري : الريح . المثقف : المقوم .

(٤) يبدون من صفحاتهم : كناية عن المداوة . أزهى : مشرق .

(٥) الزماع : العزم على الزيارة .

هل الرُّوعُ إِلَّا غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي أَمْ الْهَوْلُ إِلَّا غَمَّةٌ ثُمَّ تُكْشَفُ
 وَفِي السَّيْرِ أَرْقَمُ وَسَطُ قَبَابِهِمْ بَعِيدُ مَنَاطِ الْقُرْطِ أَحْوَرُ أَوْطَفُ^١
 تَبَايَنَ خَلْقَاهُ ، فَعَبَلُ مَنْعَمٍ تَأَوَّدَ فِي أَعْلَاهُ لَدُنْ مَهْفَهْفٍ^٢
 فَلِلْعَاذِلِ الْمَرْتَجِ مَا حَازَ مَثْرُ وَلِلْغُصْنِ الْمَهْتَزِّ مَا ضَمَّ مَطْرَفُ^٣
 حَبِيبٌ إِلَيْهِ أَنْ نُسَرَّ بِوَصْلِهِ إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ وَنَهْنَاهُ وَنُسَعَفُ
 وَابِلَةٌ وَافِينَا الْكَثِيبَ لِمَوْعِدِ سَرَى الْأَيْمِ لَمْ يُعْلَمْ لِمَسْرَاهُ مَرْحَفُ^٤
 تَهَادَى أُنَاةُ الْخَطُومِ مُرْتَاعَةَ الْحَشَا كَمَا رِيعَ يَعْفُورٍ الْفَلَا الْمُتَشَرَّفِ^٥
 فَمَا الشَّمْسُ رَقَّ الْغَيْمُ دُونَ إِيَّاتِهَا سَوَى مَا أَرَى ذَاكَ الْجَبِينُ الْمَنْصَفِ^٦
 فَدَيْتُكَ أَنْى زَرْتِ نَوْرِكَ فَاضِحٌ وَعِطْرُكَ نَمَامٌ وَحَلْيُكَ مُرْجِفُ^٧
 هَبِيكَ اعْتَرَزَتْ الْحَى وَاشْيِكَ هَاجِعٌ وَفَرْعُكَ غَرِيبٌ وَلَيْلُكَ أَغْطَفُ^٨
 فَأَنَّى اعْتَسَفْتَ الْهَوْلَ خَطُوكِ مُدْمَجٌ وَرَدُّكَ رَجْرَاجٌ وَخَصْرُكَ مُخْطَفُ^٩
 لَجَاجٌ تَمَادَى الْحَبُّ فِي الْمَعْشَرِ الْعِدَا وَأَمْ الْهُوَى الْأَفْقُ الَّذِي فِيهِ نُشْنَفُ^{١٠}

(١) السراء : ثوب مخطط . الرقم : المرقوم أى المعلم . أوطف : طويل شعر أهداب العين .

(٢) عبل : أى ردف ضخم .

(٣) العانك : من الرمال ما تعقد وارتفع .

(٤) الأيم : الحية وذكر الأفعى .

(٥) يعفور : ظبي . المتشرف : المستطلع من مكان عال .

(٦) إياة الشمس : حسنها وضوءها . المنصف : الذى عليه النصف وهو الخمار .

(٧) مرجف : من أرجف إذا تحرك واضطرب .

(٨) اعترزت الحى : جثته وجزت به على غير علم . فرعك غريب : شعرك شديد السواد .

أغطف : حالك السواد .

(٩) مدمج : داخل بعضه فى بعض . مخطف : ضامر .

(١٠) أم الهوى : قصد الهوى . نشنف : نبغض .

وَأَنْ نَتَلَقَّى السَّخَطَ . عَانِينَ بِالرَّضَى
 كَفَانَا مِنَ الْوَصْلِ التَّحِيَّةُ خِلْسَةً
 خَلِيلِيَّ مَهْلًا لَا تَلُومَا فَإِنِّي
 وَأَعْنَفُ مَا يَلْقَى الْمَحَبُّ لِحَاجَةٍ
 وَإِنِّي لَيْسَتْهُوَ بَيْنِي الْبَرْقُ صَبُوءَةً
 وَمَا وَلَعَى بِالرَّاحِ إِلَّا تَوَهُمٌ
 وَتَذَكُّرُنِي الْعِقْدَ الْمُرِنَّ جُمَانَهُ
 فَمَا قَبْلَ مَنْ أَهْوَى طَوَى الْبَدْرَ هَوْدَجٌ
 وَلَا قَبْلَ عَبَادٍ حَوَى الْبَحْرَ مَجْلَسٌ
 هُوَ الْمَلِكُ الْجَعْدُ الَّذِي فِي ظِلَالِهِ
 هُمَامٌ يَزِينُ الدَّهْرَ مِنْهُ وَأَهْلَهُ
 يَتِيهِ بِمِرْقَاهُ سَرِيرٌ وَمَنْبِرٌ
 رَوَيْتُهُ فِي الْحَادِثَاتِ الْإِدَّ لِحِظَةٍ

لِغَيْرَانٍ أَجْفَى مَا يُرَى حِينَ يَلْطَفُ
 فَيَوْمِي طَرْفٌ أَوْ بِنَانٌ مُطَرْفٌ^١
 فَوَادِي أَلَيْفُ الْبَثِّ وَالْجَسْمُ مَدْنَفٌ^٢
 عَلَى نَفْسِهِ فِي الْحَبِّ حِينَ يُعَنَّفُ
 إِلَى بَرْقِ ثَغْرِ إِنْ بَدَا كَادِي خُطْفُ
 لِظَلَمٍ بِهِ كَالرَّاحِ لَوْ يُتَرَشَّفُ^٣
 مُرْنَاتُ وَرَقٍ فِي ذُرَى الْآيَةِ تَهْتِفُ^٤
 وَلَا صَانِ رَيْمٍ الْفَصْرُ خَدْرٌ مَسْجَفٌ^٥
 وَلَا حَمْلُ الطَّوْدِ الْمُعْظَمِ رَفُوفٌ^٦
 تَكْفُ صُرُوفُ الْحَادِثَاتِ وَتُصَرَّفُ^٧
 مَلِكٌ فَفِيهِ كَاتِبٌ مُتَفَلْسِفٌ^٨
 وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حُسَامٌ وَمَصْحَفٌ
 وَتَوَقُّعُهُ الْجَالِي دُجَى الْخُطْبِ أَحْرَفُ

(١) مطرف : مصبوغ بالخناء .

(٢) مدنف : مريض من الوجع .

(٣) الظلم : الريق وماء الأسنان .

(٤) الجنان : حب اللؤلؤ . الورق : جمع ورقاء وهي الحمامة .

(٥) ريم : ظبي . مسجف : عليه ستور .

(٦) الرفوف : كل ما أعد للجلوس وهنا العرش .

(٧) الحمد : شديد الأسر .

(٨) الإد : العظيم . يريد أن توقيعاته موجزة أى بليغة .

يَذِلُّ لَهُ الْجَبَّارُ خِيفَةً بِأَسْه
حِذَارَكَ إِذْ تَبَغَى عَلَيْهِ مِنَ الرَّدَى
سِتْعَتَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِالتَّوَى
أَغْرُ مَتَى نَدْرُسُ دَوَاوِينَ مَجْدِهِ
إِذَا نَحْنُ قَرَضْنَاهُ قَصْرَ مُطْنِبٍ
وَأَرْوَعُ لَا الْبَاغَى أَخَاهُ مُبْلَغُ
مَمَرُ الْقَوَى لَا يَمْلَأُ الْخَطْبُ صَدْرَهُ
لَهُ ظِلُّ نَعْمَى يَذْكُرُ الْهَمُّ عِنْدَهُ
جَحِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشَبُّ وَقُودُهُ
مَحَاسِنُ غَرْبُ الدَّمِ عَنْهَا مُفْلَلُ
تَنَاهَتْ فَعَقْدُ الْمَجْدِ مِنْهَا مُفَصَّلُ
طَلَّاقُهُ وَجْهٍ فِي مَضَاءٍ كَمِثْلِ مَا

وَيَعْنُو إِلَيْهِ الْأَبْلَجُ الْمُتَغَطَّرُ^١
وَدُونَكَ فَاسْتَوْفِ الْمُنَى حِينَ تُنْصِفُ^٢
كُتَائِبُ تَرْجَى أَوْ سَفَائِنُ تُجَدِّفُ^٣
يَرْقُنَا غَرِيبٌ مَجْمَلٌ أَوْ مُصَنَّفُ^٤
وَلَمْ يَتَجَاوَزْ غَايَةَ الْقَصْدِ مُسْرِفُ
مُنَاهُ وَلَا الرَّاجِي نَدَاهُ مُسَوِّفُ^٥
وَلَيْسَ لِأَمْرِ فَائِتٍ يَتْلَهْفُ^٦
ظِلَالُ الصَّبَابِلِ ذَاكَ أُنْدَى وَأَوْرَفُ^٧
وَجَنَّةُ عَدْنٍ لِلْمُطِيعِينَ تَزْلَفُ^٨
كَهَامٌ وَشَمْلُ الْمَجْدِ فِيهَا مُؤَلَّفُ^٩
سَنَاءٌ وَبَرْدُ الْفَخْرِ فِيهَا مُفَوِّفُ^{١٠}
يَرُوقُ فِرْنَدُ السِّيفِ وَالْحَدُّ مُرْهَفُ^{١١}

(١) الأبلج المتغطرف : السيد الشريف .

(٢) ستعتاهم : ستخارهم . التوى : الهلاك .

(٣) المجمل : المحتاج إلى التفسير والبيان . المصنف : المميز بفضله من بعض . وفي هذا البيت

تصنع ويعله يريد ذكر « الغريب المصنف » وهو كتاب لأبي عبيد القاسم بن سلام .

(٤) ممر القوى : أصله شديد القتل ، فهو وصف من أوصاف الحبل ، ويريد به أنه مستحكم

القوى .

(٥) الهم : الشيخ الكبير .

(٦) تزلف : تقرب .

(٧) غرب الدم : حده . كهام : كليل .

(٨) المفصل : من الفاصلة وهي الخرزة تفصل بين الخرزتين في العقد . مفوف : رقيق .

(٩) فرند السيف : جوهره ولعانه .

على السيف من تلك الشهامة ميسم^١ وفي الروض من تلك الطلاقة زخرف^٢
 سجايا لمن والاه كالأرى يجتنى^٣ تعود لمن عاداه كالشرى ينقف^٤
 يراقب منه الله (معتضد^٥) به يد الدهر، يقسو في رضاه ويرأف^٦
 فقل للملوك الحاسديه متى ادعى سباق العتيق الفائت الشأو مقرف^٧
 أليس بنو عباد القبلة التي عليها لآمال البرية معكف^٨
 ملوك يرى أحياءهم فخر دهرهم^٩ ويخلف موتاهم ثناء مخلف^{١٠}
 بهم باهت الأرض السماء فأوجه^{١١} شمس وأيد من حيا المزن أو كف^{١٢}
 أشارح معنى المجد وهو معمس^{١٣} ومجزل حظ الحمد وهو مسفسف^{١٤}
 لعمر العدا المستدرجيك بزعمهم إلى غرة كادت لها الشمس تكسف^{١٥}
 لكالكوك صاع الغدر لوئم سجية^{١٦} وكيل لهم صاع الجزاء المطفف^{١٧}
 لقد حاولوا العظمى التي لا شوى لها فأعجلهم عقد من الهم مخصف^{١٨}
 ولما رأيت الغدر هب نسيمه تلقاه إعصار لبطشك حرجف^{١٩}

(١) الأرى : العمل . الشرى : الحنظل . ينقف : يشق لأخذ ما في داخله

(٢) يد الدهر : مدى الدهر . يريد أنه يرأف ويعنف دائماً في سبيل مرضاة الله وحده .

(٣) العتيق : النجيب . الشأو : الغاية ، والفائت الشأو : السابق . مقرف : هجين .

(٤) أو كف : أغزر .

(٥) معمس : مبهم . مسفسف : هابط ونازل .

(٦) غرة : غفلة . لعمر العدا : يقسم بحياتهم متكاملاً للإشارة إلى إخفاقهم فيما حاولوا ، وهنا

يبدأ في التكلم عن حروب المعتضد وانتصاراته .

(٧) في الأصل المطفف : المنقوص المبخوس وقد يستعمل بمعنى الوافي التام وهو المراد هنا .

(٨) لا شوى لها : لا تصيب الأطراف بل تصيب المقاتل . فأعجلهم عقد : أى رأى وتدبير من

عزمك . مخصف : محكم سديد .

(٩) الحرجف : البارد وصف بها الإعصار .

أَظَنَّ الْأَعَادَى أَنَّ حَزْمَكَ نَائِمٌ
 دَوَاعِي نِفَاقٍ أَنْذَرْتُكَ بِأَنَّهُ
 تَحَمَّلْتَ عِبَاءَ الدَّهْرِ عَنْهُمْ وَكُلُّهُمْ
 فَإِنْ يَكْفُرُوا النَّعْمَى فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ
 وَبُشْرَاكَ عِيدٌ بِالسَّرُورِ مُظَلَّلٌ
 بِشَمِيرٍ بِأَعْيَادٍ تُوَفِّيكَ بَعْدَهُ
 تُجَرِّدُ فِيهِ سَيْفَ دَوْلَتِكَ الَّذِي
 هُوَ الصَّارِمُ الْعَضْبُ الَّذِي الْعِزْمُ حَدُّهُ
 هِمَامٌ سَمَا لِلْمُلْكِ إِذْ هُوَ يَافِعٌ
 كَرِيمٌ يَعُدُّ الْحَمْدَ أَنْفَسَ قَنِيةٍ
 غَدَاً بِخَمِيسٍ يُقْسِمُ الْغَيْمُ إِنَّهُ
 هُوَ الْغَيْمُ مِنْ زُرْقِ الْأَسِنَّةِ بَرْقُهُ
 وَلَمَّا قَضَيْنَا مَا عَنَانَا أَدَاؤُهُ

لَقَدْ تَعَدُّ الْفَسْلَ الظَّنُّونَ فَتُخْلِفُ^١
 سَيِّشْرَى وَيَذْوَى الْعِضْوِ مِنْ حَيْثُ يَشَافُ^٢
 بِنِعْمَاكَ مَوْصُولُ التَّنَعُّمِ مُتَرَفٌ
 بِسَيْفِكَ قَاعٌ صَفْصَفُ الرَّسْمِ تُنْسَفُ
 وَبِالْحِظِ فِي نَيْلِ الْمَنَى مُتَكَنِّفٌ^٣
 كَمَا يَنْسَقُ النِّظَمُ الْمَوَالِي وَيَرْصِفُ
 دِمَاءُ الْعِدَا دَأْبًا بِغَرْبِيهِ تُظْلَفُ^٤
 وَحِلْيَتُهُ بَذْلُ النَّدَى وَالتَّعَفُّفُ
 وَتَمَّتْ لَهُ آيَاتُهُ وَهُوَ مُخْلِفٌ
 فَيُولَعُ بِالْفِعْلِ الْجَمِيلِ وَيُشْغَفُ
 لِأَحْفَلٍ مِنْهُ مَكْفَهْرًا وَأَكْثَفُ^٥
 وَلِلطَّبْلِ رَعْدٌ فِي نَوَاحِيهِ يَقْصِفُ
 وَكُلُّ مَا يَرْضِيكَ دَاعٍ فَمُلْحَفُ^٦

(١) الفصل : الدناء الرذل .

(٢) يشرى العضو : يظهر عليه ورم وقروح تحتاج إلى الكي . يشاف : تكوى شافته أى قرسته

لتذهب بالكي .

(٣) متكفف : مشمول .

(٤) بغربيه : بحديه . تظلف : تهر .

(٥) الغلام اليافع : الذى شارف الاحتلام . المخلف : الذى اختلف نظر الناس فيه فبعضهم

يقول قد احتلم وأدرك وبعضهم يقول غير مدرك .

(٦) قنية : مكسب .

(٧) خميس : جيش . مكفهراً : مسوداً .

(٨) أداؤه : أى أداء الصلاة فى العيد . ملحف : ملح .

قرناً بحمد الله حمدك إنه
 وعُدنا إلى القصر الذي هو كعبة
 فإذا نحن طالعناه والأفق لا بس
 رأيناك في أعلى المصلى كأنما
 ولما حضرنا الإذن والدهر خادم
 وصلنا فقبلنا الندى منك في يد
 لقد جدت حتى ما بنفس خصاصة
 ولولاك لم يسهل من الدهر جانب
 لك الخير أنى لي بشرك نهضة
 أفدت بهم الحال منى غرة
 وبوأته دنياك دار مقامة
 وكم نعمة ألبستها سندسية
 مواهب فياض اليمين كأنما
 فإن أك عبداً قد تملكك رقه

لاؤكد ما يحظى لديه ويؤلف
 يغاديه منا ناظر أو مطوف
 عجاجته والأرض بالخيل ترجف
 تطلع من محراب داود يوسف
 تشير فيمضي والقضاء مصرف
 بها يتلف المال الجسم ويخلف
 وأمنت حتى ما بنفس تخوف^١
 ولا ذل منقاد ولا لأن معطف^٢
 وكيف أودى فرض ما أنت مسلف
 يقابلها طرف الجموح فيطرف
 بحيث دنا ظل وذلل مقطف
 أسربلها في كل حين وأحف^٣
 من المزن تمرى أو من البحر تغرف^٤
 فأرفع أحوالى وأسنى وأشرف

(١) العجاجة : الغبار في الحرب .

(٢) خصاصة : فقر .

(٣) المعطف : السيف .

(٤) نهضة : قدرة . مسلف : مقدم .

(٥) بهيم : أسود . يقول : أكسبت سواد الحال منى غرة بيضاء يواجهها طرف الطموح الذي يمد بصره إلى الشيء فيطرف أى من قولهم فلان مطروف العين أى مملق ذاهل .

(٦) أسربلها : ألبسها .

(٧) تمرى : تدر وتسكب .

٤ - الرثاء

توفي أبو الحزم سنة ٤٣٥ للهجرة وتولى من بعده ابنه أبو الوليد ، فنظم الشاعر هذه القصيدة التي يرثي بها الفقيد ويعزى الابن ويمدحه . ويبدو أن ابن زيدون قد أعجب بصياغة هذه القصيدة فردد كثيراً من معانيها في مرثياته الهامة ؛ وإذا كانت قصيدته التي رثى بها أم أبي الوليد تنظر إلى هذه المرثية وهي على وزنها ورويها ، وقصيدته التي رثى بها المعتضد وعزى المعتمد هي أيضاً على وزنها ورويها وفيها يكرر الشاعر كثيراً من أبيات القصيدة السابقة . ونلاحظ أن الشاعر يتخذ رثاء الملوك ومن يلوذ بهم وسيلة لمدح من سيخلفهم . وهو في هذا الغرض فاطر العاطفة على رغم جودة سبكه ومتانة صوغه قال :

ألم تر أن الشمس قد ضُمَّها القبرُ	وأن قد كفانا فقدَها القمرُ البدرُ
وأنَّ الحَيَّا إنَّ كان أَقْلَعَ صَوْبُهُ	فقد فاضَ للآمالِ في إثره البحرُ
إِسَاءَةٌ دَهْرٍ أَحْسَنَ الْفَعْلَ بَعْدَهَا	وذنبُ زمانٍ جاءَ يَتْبَعُهُ الْعُدْرُ
فلا يَتَهَنَّ الكاشِحونَ فما دَجَا	لنا الليلُ إلا ريثما طَلَعَ الفجرُ
وإنَّ يَكُ وَلَّى جَهْوَرٌ فمحمّد	خليفةُ العَدْلِ الرِّضَا وابْنُه البَرُ
فَتِي يَجْمَعُ المَجْدَ المَفْرَقَ هَمُّهُ	وَيُنْظِمُ في أَخلاقه السُّودَّ النَّثْرُ
أَهَابَتْ إِلَيْهِ بِالْقُلُوبِ مَحَبَّةٌ	هي السَّحَرُ لِلْأَهْوَاءِ بل دونها السَّحَرُ
سَمَرَتْ حَيْثُ لَا تَسْرَى مِنَ الْأَنْفَسِ الْمَنَى	وَدَبَّتْ دُوبِيًّا لَيْسَ تُحْسِنُهُ الخمرُ
لَبِسْنَا لَدَيْهِ الْأَمْنَ تَنْدَى ظِلَالُهُ	وزهرة عيشٍ مثلَ ما أَيْنَعَ الزهرُ

(١) الحيا : المطر . صوبه : انصبابه .

(٢) الكاشحون : الأعداء .

وعادت لنا عاداتُ دنيا كأنها
ملكٌ له منا النصيحةُ والهوى
فقل للحَيَاوَى قد بداعلمُ الهدى
أبا الحزم قد ذابت عليك من الأسى
دع الدهرَ يفجعُ بالذخائرَ أهله
تهونُ الرزايَا بعدُ وهى جليلةٌ
فقدناكَ فَقْدَانُ السحابةِ ، لم يزل
مساعيكَ حَلَى لليلَى مُرْصَعٌ
فلا تَبْعُدَنَّ إِنِ المنيةُ غايةُ
عزَاءٍ فَدَتِكَ النفسُ عنه فَإِنْ ثَوَى
وما الرزءُ فى أَن يُودَعَ التُّرْبَ هَالِكٌ
أَمَامَكَ مِنْ حَفْظِ الإلهِ طليعةُ
وما بك من فقرٍ إلى نصرٍ ناصرٍ
لكَ الخيرُ إِنى واثقٌ بك شاكِرٌ

بها وَسَنٌ أَوْ هَزٌّ أَعْطَافَهَا سَكِرَ
ومنه الأيَادى البِيضُ والنَّعْمُ الخُضِرُ
وللطامعِ المغرورِ قد قُضِيَ الأمرُ
قلوبٌ منها الصبرُ لو ساءَ عَدَا الصبرُ
فما لنفيسٍ مُذْ طَوَاكَ الرَّدَى قَدْرُ
ويعْرِفُ مَذْفَارَقَتَنَا الحَادِثُ النُّكْرُ
لها أَثَرٌ يَثْنِي بِهِ السَّهْلُ والوعرُ
وَذِكْرُكَ فى أَرْدَانِ أَيَامِهَا عِطْرُ^١
إليها التناهى طَالٌ أَوْ قَصُرَ العُمُرُ^٢
فإِنَّكَ لا الوانى ولا الضَّرْعُ الغَمْرُ^٣
بل الرزءُ كُلُّ الرزءِ أَنَّ يَهْلِكَ الأَجْرُ
وحولَكَ من آلائه عسكرٌ مَجْرُ^٤
كَفَتَكَ من الله الكلاءَةُ والنصرُ^٥
لِمَثْنَى أَيْادِيكَ التى كَفَرُهَا الكُفْرُ

(١) أَرْدَانُ : أَكْثَامُ .

(٢) الضَّرْعُ : الضَّعِيفُ . الغَمْرُ : من لم يجرب الأمور .

(٣) المَجْرُ : الكَثِيرُ .

(٤) الكَلَاءَةُ : الرِّعَايَةُ والحَفْظُ .

(٥) مَثْنَى : مِضَاعَفٌ .

تَحَامَى الْعِدَا لَمَّا اعْتَلَقْتُكَ جَانِبِي وَقَالَ الْمَنَاوِي : شَبَّ عَنْ طَوْقِهِ عَمُرُو^١
يَلِينُ كَلَامٌ كَانَ يَخْشَنُ مِنْهُمْ وَيَفْتَرُّ نَحْوِي ذَلِكَ النَّظْرُ الشَّرُّ^٢
فَصَدَّقَ ظَنُونًا لِي وَفِيَّ فَإِنِّي لَا أَهْلُ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ مِنْكَ وَلَا فخر
مَنْ يَكُ لِلدُّنْيَا وَلِلْوَفْرِ سَعِيَّهُ فَتَقَرَّبُكَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَكَ الْوَفْرِ^٣

(١) اعتاق فلاناً ربه : هويه وأحبه .

(٢) النظر الشرر : النظر الغاصب وما فيه إغراض .

(٣) الوفر : المال .

٥ - الرسالة الهزلية

أما بعد أيها المُصابُ بعقله ، المُوَرَّطُ . بجهله . البَيِّن
سَقَطُهُ ^١ ، الفاحشُ غلطُهُ ، العاثرُ في ذَيْلِ اغتراره ، الأعمى
عن شمس نهاره ، الساقطُ . سقوطَ . الذباب على الشراب ،
المتهافتُ تهافتَ الفراش في الشَّهابِ ^٢ ، فإنَّ العُجبَ أكذبُ ^٣ ،
ومعرفة المرء نفسه أَصوبُ . وإنك راسلتني مُستَهْدِيًا ، مِنْ
صِلَتِي ، ما صَفِرَتْ ^٤ منه أيدي أمثالك ، مُتَصَدِّيًا من خُلَّتِي
لِما قُرِعَتْ دونه صنوفُ أشكالك ، مُرْسِلًا خليلتك مُرتادة ^٥ ،
مستعملًا عشيقتك قَوَادَةَ ^٦ ، كاذبًا نفسك أَنَّكَ ستَنزِلُ
عنها إِلَيَّ ، وَتَخْلُفُ ، بَعْدَهَا ، عَلَيَّ :

ولستَ بأَوَّلِ ذِي هِمَةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ ^٦

ولا شكَّ أَنَّهَا قَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تَضَنْ بِكَ ، وَمَلَّتْكَ إِذْ لَمْ

(١) سقط القول : خطؤه .

(٢) الشهاب : الشعلة من النار .

(٣) أى المعجب بكذب نفسه لأنه يتخيل في نفسه ما لا صحة له .

(٤) صفرت : خلت .

(٥) الخلية هنا التى كان يرسلها ابن عبدوس إلى ولادة .

(٦) البيت للمتنبى . والنائل : ما ينال .

تَغَرَّ عَلَيْكَ ، فَإِنِهَا أَعْذَرْتُ^١ فِي السَّفَارَةِ لَكَ ، وَمَا قَصَّرتُ
 فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ ، زَاعِمَةٌ أَنَّ المَرْوَةَ لَفْظٌ. أَنْتَ مَعْنَاهُ ،
 وَالْإِنْسَانِيَّةَ اسْمٌ أَنْتَ جِسْمُهُ وَهَيُولَاهُ^٢ ، قَاطِعَةٌ^٣ أَنْكَ
 انْفَرَدْتَ بِالْجَمَالِ ، وَاسْتَأْثَرْتَ بِالْكَمَالِ ، وَاسْتَعْلَيْتَ فِي
 مَرَاتِبِ الْجَلَالِ ، وَاسْتَوْلَيْتَ عَلَى مُحَاسِنِ الْخِلَالِ ، حَتَّى
 خَيَّلْتَ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَاسِنُكَ^٤ فغَضَضْتَ مِنْهُ ،
 وَأَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ رَأَتْكَ فَسَلَتْ عَنْهُ ، وَأَنَّ قَارُونَ^٥ أَصَابَ
 بَعْضَ مَا كُنَزْتَ ، وَالنَّطْفَ^٦ عَثَرَ عَلَى فَضْلِ مَا رَكَّزْتَ^٧ ،
 وَكِسْرَى^٨ حَمَلَ غَاشِيَتَكَ^٩ ، وَقَيْصَرَ^{١٠} رَعَى مَاشِيَتَكَ ،
 وَالْإِسْكَندَرَ قَتَلَ دَارًا^{١١} فِي طَاعَتِكَ ، وَأَرْدَشِيرَ^{١٢} جَاهَدَ مَلُوكَ

(١) أَعْذَرْتُ : أَنْتَ بِمَا صَارَتْ بِهِ مَعْذُورَةٌ ، أَيْ أَنَّ صَاحِبَتَهُ بَلَغَتْ الْجُهْدَ فِي السَّفَارَةِ وَهِيَ وَسَاطِعَتُهَا فِي الصَّلَاحِ .

(٢) هَيُولَاهُ : مَادَتُهُ وَحَقِيقَتُهُ .

(٣) قَاطِعَةٌ : مَوْقِعٌ .

(٤) حَاسِنُكَ : بَارَكَ فِي الْحَسَنِ .

(٥) امْرَأَةُ الْعَزِيزِ مَشْهُورَةٌ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَأَنَّهَا أَحْبَبَتْهُ .

(٦) قَارُونَ : مِنْ قَوْمِ مُوسَى ، اشتهر بِالْكَنُوزِ وَالْغِنَى .

(٧) النَّطْفُ : رَجُلٌ مِنْ تَمِيمٍ نَهَبَ أَمْوَالَ لِكْسَرَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَثَرِي ، فَضَرَبَ بِهِ الْمَثَلَ بِمَا أَصَابَ مِنْ ثَرْوَةٍ .

(٨) مِنَ الرِّكَزِ : وَهُوَ الْمَالُ الدَّفِينُ .

(٩) مِنَ مَلُوكِ الْفَرَسِ .

(١٠) الْغَاشِيَةُ : حَدِيدَةٌ فَوْقَ مُؤَخَّرَةِ الرَّحْلِ .

(١١) مَلِكُ الرُّومِ .

(١٢) مَلِكُ الْفَرَسِ الَّذِي انْتَصَرَ عَلَيْهِ الْإِسْكَندَرُ .

(١٣) أَرْدَشِيرُ مِنْ مَلُوكِ الْفَرَسِ وَمِثْلُهُ الضُّحَّاكُ .

الطوائف بخروجهم عن جماعتك ، والضحّاك استدعى
 مُسالمَتَكَ ، وَجَذِيمةُ^١ الأبرش تمنى منادمتك ، وشيرين^٢ قد
 نافست بُورانَ فيك ، وَبَلْقِيسُ^٣ غايرتُ الزَّباءَ عليك ،
 وَأَنَّ مالِكَ بنَ نُؤيرةٍ^٤ إنما أَرَدَفَ لك ، وَعُرْوَةُ^٥ بنَ جعفرٍ
 إنما رَحَلَ إليك ، وَكَلِيبُ^٦ بنَ رَبِيعَةَ إنما حَمَى المَرعى
 بِعِزَّتِكَ ، وَجَسَّاسُ^٧ إنما قَتَلَهُ بِأَنْفَتِكَ ، وَمُهْلَهُ^٨ إنما
 طَلَبَ ثَأْرَهُ بِهَمَّتِكَ ، وَالسَّمُوئلُ^٩ إنما وَفَى عن عَهْدِكَ ،
 وَالْأَحْنَفُ^{١٠} إنما اخْتَبَى في بُرْدَتِكَ ، وَحَاتِمًا إنما جَادَ بِوَفْرِكَ ،
 وَلَقِيَ الْأَضْيَافَ بِبِشْرِكَ ، وَزَيْدُ^{١١} بنَ مُهْلَهْلٍ إنما رَكِبَ
 بِفَخْذَيْكَ ، وَالسُّلَيْكُ^{١٢} بنَ السُّلَكَةِ إنما عَدَا على رِجْلَيْكَ ،

(١) من ملوك العرب في الجاهلية .

(٢) شيرين زوجة كسرى ، وبوران : ابنته .

(٣) بلقيس : ملكة سبأ والزباء ملكة تدمر .

(٤) من شجعان العرب في الجاهلية والإسلام قتل في حروب الردة ، الرادفة أن يكون للشريف تابع يجلس عن يمينه .

(٥) كان يعرف بعروة الرجال لرحلته إلى الملوك .

(٦) هو رئيس الحيين من بكر وتغلب .

(٧) جساس : صهر كليب وقتله .

(٨) مهلهل أخو كليب وصاحب ثأره ، وقد أثار بطلب هذا الثأر حرب البسوس المشهورة .

(٩) اشتهر السموئل بالوفاء فضرب به المثل .

(١٠) هو الأحنف بن قيس وقد اشتهر بحلمه .

(١١) هو زيد الخيل : من فرسان الجاهلية وقد أدرك الإسلام وأسلم .

(١٢) عداء مشهور في الجاهلية .

وعامر^١ بن مالك إنما لأعب الأسنّة بيدك ، وقيس^٢ بن زهير إنما استعان بدهائك ، وإياس^٣ بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك وسحبان^٤ إنما تكلم بلسانك ، وعمرو ابن الأهتم إنما سحر ببيانك ، وأن الصلح^٥ بين بكر وتغلب تم برسالتك ، والحمالات^٦ بين عبس وذبيان أسندت إلى كفالتك ، وأن احتيال هرم^٨ ، لعلقة وعامر حتى رخصيا ، كان ذاك عن إشارتك ، وجوابه لعمر^٩ ، وقد سأله عن أيهما كان ينفر^{١٠} ، وقع عن إرادتك ، وأن الحجاج تقلد ولاية العراق بجذك ، وقتيبة^{١١} فتح ما وراء النهر بسعدك ، والمهلب^{١٢} أو هن شوكة الأزارقة بأيديك ،

(١) عامر الملقب بملاعب الأسنّة من شجعان العرب في الجاهلية .

(٢) قيس : سيد عبس وداهيتها في حروبها .

(٣) قاضي البصرة في أواخر العصر الأموي واشتهر بذكائه .

(٤) سحبان من بلغاء العرب مات في عصر معاوية .

(٥) من سادات تميم وخطبائها في الجاهلية والإسلام .

(٦) هو صلح حرب البسوس .

(٧) الحملات : الديات .

(٨) هو هرم بن قطبة كان أحد من يحتكم إليهم العرب لرجحان عقله . واحتكم إليه علقمة وابن عمه عامر ، وهما جميعاً من بني عامر بن صعصعة ، فاحتال لهما حتى لا يحكم لأحدهما على الآخر فتقع حرب بين عشيرتهما .

(٩) هو عمرو بن الخطاب ، وقد سأله بعد إسلامه أيهما تنفر الآن لو احتكما إليك ؟ فقال لو قلت الآن كلمة لنشب الحرب بين الحيين ، وتنفر : تغلب في المنافرة .

(١٠) بطل حروب الشرق في عهد الوليد بن عبد الملك .

(١١) المهلب : أشهر قواد الأمويين في حروب الخوارج .

وَفَرَّقَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ بِكِيدِكَ ، وَأَنَّ هِرْمَسَ^١ أَعْطَى بِلِينُوسَ^٢ ما أَخَذَ مِنْكَ ، وَأَفْلَاطُونَ أوردَ على أَرِسْطَطَالِيْسَ ما نَقَلَ عَنْكَ^٣ ، وَبَطْلَيْْمُوسَ^٤ سَوَّى الْأَصْطُرْلَابَ بِتَدْبِيرِكَ ، وَصَوَّرَ الْكُرَّةَ على تَقْدِيرِكَ ، وَبِقِرَاطٍ^٥ عَلِمَ الْعِلَلَ وَالْأَمْرَاضَ بِلُطْفِ حِسِّكَ ، وَجَالِينُوسَ^٦ عَرَفَ طِبَائِعَ الْحَشَائِشِ بِدَقَّةِ حَدْسِكَ ، وَكِلَاهُمَا قَلَّدَكَ فِي الْعِلَاجِ ، وَسَأَلَكَ عَنِ الْمِزَاجِ ، وَاسْتَوْصَفَكَ تَرْكِيبَ الْأَعْضَاءِ ، وَاسْتَشَارَكَ فِي الدَّاءِ وَالِدَّوَاءِ ، وَأَنَّكَ نَهَجْتَ لِأَبِي مَعْشَرٍ^٧ طَرِيقَ الْقَضَاءِ ، وَأَظْهَرْتَ جَابِرَ بْنَ حَيَّانٍ^٨ على سِرِّ الْكِيمِيَاءِ . وَأَعْطَيْتَ النَّظَّامَ^٩ أَصْلًا أَدْرَكَ بِهِ الْحَقَائِقَ ، وَجَعَلْتَ لِلْكِنْدِيِّ^{١٠} رَسْمًا اسْتَخْرَجَ بِهِ الدَّقَائِقَ ، وَأَنَّ صِنَاعَةَ الْأَلْحَانِ اخْتَرَعُوكَ ، وَتَأَلَّفَ الْأَوْتَارِ وَالْأَنْقَارِ

(١) هرمس : من أنبياء الصابئة .

(٢) بليينوس : خليفة هرمس .

(٣) أفلاطون أستاذ أرسططاليس ، وهما فيلسوفان يونانيان مشهوران .

(٤) بطليموس : فيلسوف يوناني اشتهر بالفلك والهندسة والجغرافيا ، والاصطربلاب : ميزان الشمس ، وبه يعرف مقدار الساعات .

(٥) من أطباء اليونان .

(٦) عالم وطبيب يوناني .

(٧) أبو معشر : منجم عباسي مشهور ، والقضاء هنا : القدر ، وطريقاه : الخير والشر .

(٨) من أعلام العرب في الكيمياء .

(٩) النظام : من أئمة المعتزلة وهو أستاذ الجاحظ .

(١٠) الكندي : أول فلاسفة العرب .

توليدك وابتداعك ، وأن عبد الحميد بن يحيى ^١ بارى
أقلامك . وسهل بن هارون ^٢ مدون كلامك ، وعمرو بن
بحر ^٣ مستمليك ، ومالك بن أنس ^٤ مستفتيك ، وأنت الذى
أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحد الماهية ^٥ وبين
الكيفية والكمية ، وناظر فى الجوهر والعرض ، وميز الصحة ^٦
من المرض ، وفك المعنى ، وفصل بين الاسم والمسمى ،
وضرب وقسم ، وعدل وقوم ، وصنف الأسماء والأفعال ،
وبوب الظرف والحال ، وبنى وأعرب ، ونفى ونعجب ،
ووصل وقطع ، وثنى وجمع ، وأظهر وأضمر ، واستفهم
وأخبر ، وأهمل وقيد ، وأرسل وأسند ^٧ ، وبحث ونظر ،
وتصفح الأديان ، ورجح بين مذهبي ماني وغيلان ^٨ ، وأشار

(١) عبد الحميد : كاتب مروان بن محمد وهو أباغ الكتاب المتقدمين .

(٢) سهل بن هرون : بليغ مشهور وهو أستاذ الجاحظ .

(٣) هو الجاحظ .

(٤) هو مالك صاحب المذهب المشهور الذى دانت به الأندلس وبلاد المغرب .

(٥) يريد أنه حد الحدود والتعريفات ، وهو تهكم واضح .

(٦) المعنى : الملتزم من اللغز .

(٧) إشارة إلى المسند فى الحديث ، والمرسل وهو ما لم يذكر فيه أول السند .

(٨) ماني : صاحب نحلة دينية عند الفرس تسمى المانوية ، وكان ذلك قبل الإسلام ، وهو يقول بأن هناك إلهين : إله النور وإله الظلام . وغيلان أول من تكلم فى القدر بين المسلمين فى العصر الأموى وهو دمشق .

بَذْبَحِ الْجَعْدِ^١ ، وَقَتْلِ بَشَارِ بْنِ بُرْدٍ ، وَأَنَّكَ لَوْ شِئْتَ
خَرَقْتَ الْعَادَاتِ ، وَخَالَفْتَ الْمَعْهُودَاتِ ، فَأَحَلَّتْ الْبِحَارُ
عَذْبَةً ، وَأَعَدَّتْ السَّلَامَ^٢ رَطْبَةً ، وَنَقَلَتْ غَدًا فِصَارَ أُمْسًا ،
وَزِدَّتْ فِي الْعُنَاصِرِ فَكَانَتْ خَمْسًا ، وَأَنَّكَ الْمَقُولُ فِيهِ : كُلُّ
الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا^٣ ، وَ :

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ^٤
وَالْمَعْنَى بِقَوْلِ أَبِي تَمَامٍ :

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَاعِ
وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

ذَكَرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا
فَكَدَمْتَ فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ^٥ ، وَاسْتَسْمَحَنْتَ ذَا وَرَمٍ ، وَنَفَخْتَ
فِي غَيْرِ ضَرَمٍ^٦ ، وَلَمْ تَجِدْ لِرُمَحٍ مَهْزًا^٧ ، وَلَا لِشَفْرَةٍ مَحْزًا^٨ ،
بَلْ رَضِيتَ مِنَ الْغَنِيمةِ بِالْإِيَابِ^٩ ، وَتَحَنَّنْتَ الرَّجُوعَ بِخُفْيٍ

(١) الجعد : مولد لبني الحكم ، تكلم في القدر وغيره ، وتجاوز الحدود فقتله خالد القسري في العراق في أثناء ولايته هناك .

(٢) السلام : الحجارة الصلبة .

(٣) مثل يضرب في الشيء الذي يزيد غيره ويفضله .

(٤) هذا البيت لأبي نواس من قصيدة يمدح بها الفضل بن يحيى وزير هرون الرشيد .

(٥) عضضت في غير موضع للعض . وهذا المثل يضرب لمن يطلب شيئاً يعجز عنه .

(٦) نفخت في غير ضرم : أي نفخت في رماد لا في نار .

(٧) المحز . مكان الحز أي القطع .

(٨) مثل يضرب لمن قنع بسلامة نفسه في مطلبه .

حَنِينٌ^١ ، لَأَنى قَلْتُ^٢ : « لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ^٣ »
وَأَنشَدْتُ :

على أَنَّهَا الأَيَّامُ قَدِصِرْنَ كُلُّهَا عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ^٤
وَنَخَرْتُ^٥ وَبَسَرْتُ^٦ ، وَعَبَسْتُ^٧ وَكَفَرْتُ^٨ . وَأَبْدَأْتُ^٩
وَأَعَدْتُ^{١٠} ، وَأَبْرَقْتُ وَأَرَعَدْتُ^{١١} ، « وَهَمَمْتُ^{١٢} وَلَمْ أَفْعَلْ^{١٣}
وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي » ، وَلَوْلا أَنَّ لِلْجَوَارِ ذِمَّةً ، وَلِلضِّيَافَةِ حُرْمَةً ،
لَكَانَ الْجَوَابُ فِي قَذَالِ الدُّمُسْتَقِ^{١٤} ، وَالنَّعْلُ حَاضِرَةٌ إِنْ
عَادَتِ الْعَقْرَبُ ، وَالْعَقُوبَةُ مُمْكِنَةٌ إِنْ أَصَرَ الْمُذْنِبُ .

وَهَبَّهَا لَمْ تَلَا حِظُّكَ بَعِينَ كَلِيلَةٍ عَنْ عِيُوبِكَ ، مِلْوُهَا
حَبِيبُهَا ، حَسَنٌ فِيهَا مَنْ تَوَدُّ ، وَكَانَتْ أَنَّ حَلَّتْكَ بِحُلَاكَ ،
وَوَسَمَتْكَ بِسِيَاكَ ، وَلَمْ تُعِرْكَ شَهَادَةً ، وَلَا تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَةً ،

(١) مثل يضرب لمن يرجع بالخيبة .

(٢) شطربيت هو : « أرب يبول الثعلبان برأسه » لقد هان من بالت عليه الثعالب « قاله رجل
من بني سليم كان يعبد صنماً ، فرأى يوماً ثعلباً يبول على الصم فكسره وأنشد هذا البيت وذهب إلى الرسول
وأسلم . »

(٣) البيت من قصيدة في الرثاء لأبي تمام .

(٤) نخرت : من النخير وهو صوت الأنف عند الغضب .

(٥) بسر : غضب .

(٦) عبس : أظهر العبوس والغضب .

(٧) أبدأت وأعدت : كررت كلاماً يسوءك .

(٨) يقل أبرق وأرعد إذا هدد .

(٩) هممت بشيء خطير كالقتل ونحو ذلك .

(١٠) الدمستق : من قواد الروم هزمه سيف الدولة ، والقذال : القفا .

بل صدقت سن بكرها فيما ذكرته عنك^١ ، ووضعت الهناء
مواضع النقب^٢ بما نسبته إليك ، ولم تكن كاذبة فيما
أثنت به عليك ، فالمعبدى تسمع به خير من أن تراه :

هجين القذال^٣ ، أرعن السبال^٤ ، طويل العنق والعلاوة^٥ ،
مفرط الحمق والغباوة^٦ ، جافى الطبع ، سبى الجابة والسمع^٧ ،
بغض الهيئة ، سخيף الذهب والجيفة^٨ ، ظاهر الوسواس ،
مُنتِن الأنفاس^٩ ، كثير المعاييب ، مشهور المثالب ، كلامك
تمتمة^{١٠} ، وحديثك غممة^{١١} ، وبيانك فهمة^{١٢} وضحكك
قهقهة^{١٣} ، ومشيك هرولة^{١٤} ، وغناك مسألة^{١٥} ، ودينك زندقة^{١٦} ،
وعلمك مخرقة^{١٧} :

مساو لو قسمن على الغوانى لما أمهرن إلا بالطلاق^{١٨}

(١) يقال صدقت سن بكرها : أى لم تقل إلا صدقا .

(٢) مثل يضرب لمن يضع الأمر فى موضعه ، والهاء : القطران ، والنقب مبادئ الحرب فى

البعير . . .

(٣) كناية عن خسة الأصل .

(٤) السبال : الشنب ، يريد أنه أحمق .

(٥) العلاوة : الرأس ، وطول العنق والرأس عند العرب دليل الحماقة .

(٦) الجابة : الإجابة .

(٧) التردد فى التاء .

(٨) الغممة : أن يسمع الصوت ولا تتبين الكلمات والحروف .

(٩) عى عن النطق بترديد الفاء .

(١٠) يريد أن ماله من سؤال الناس .

(١١) مخرقة : من الحرق وهو الحمق .

(١٢) البيت لأبى تمام من قصيدة فى الهجاء .

حتى إنَّ باقلاً^١ موصوفٌ بالبلاغةِ إذا قرَنَ بك ، وهَبْنَقَةً^٢
 مُسْتَوْجِبٌ لِأَسْمِ الْعَقْلِ إذا أُضِيفَ إِلَيْكَ ، وَطُوَيْسًا^٣ مأثورٌ
 عنه يُمْنُ الطائرِ إذا قِيسَ عَلَيْكَ ، فَوْجُودُكَ عَدَمٌ ، والاغْتِبَاطُ
 بك نَدَمٌ ، والخَيْبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، والجَنَّةُ مَعَكَ سَقَرٌ^٤ . كيفَ
 رَأَيْتَ لَوْمَكَ لِكَرَمِي كِفَاءً^٥ ، وَضَعْتَكَ لِشَرَفِي وَفَاءً ؟
 وَأَنْتَ جَهَلْتِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا ، وَالطَّيْرَ إِنَّمَا
 تَقَعُّ عَلَى الْأَفْهَى ؟ وَهَلَّا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لَا يَجْتَمِعَانِ ،
 وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ لَا يَتَقَارِبَانِ ، وَقُلْتَ : الْخَبِيثُ
 وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ^٦ ، وَتَمَثَّلْتَ :

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثَّرِيًّا سُهَيْلًا عَمَرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ^٧ ؟

وَذَكَرْتَ أَنِّي عَلَقٌ^٨ لَا يَبَاعُ مِمَّنْ زَادَ ، وَطَائِرٌ لَا يَصِيدُهُ
 مَنْ أَرَادَ ، وَغَرَضٌ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَنْ أَجَادَ ؟ مَا أَحْسَبُكَ إِلَّا

(١) باقل : يضرب به المثل في العي .

(٢) هبنقة : يضرب به المثل في الخبل وضعف العقل .

(٣) مطن بالمدينة في العصر الأموي كانوا يتشامون منه .

(٤) سقر : جهنم .

(٥) كفاء : مكافئاً ومناظراً .

(٦) إشارة إلى قوله تعالى : « لا يستوي الخبيث والطيب » .

(٧) البيت لعمر بن أبي ربيعة قاله حين تزوجت الثريا سهيل بن عمر بن عبد العزيز .

(٨) العلق : النفيس .

قد تَهَيَّأتَ لِلتَّهْنِيَةِ ، وَتَرَشَّحْتَ لِلتَّرْفِيَةِ^١ ! ولولا أَنَّ جُرْحَ
العَجْمَاءِ جُبَّارٌ^٢ ، للقيتَ من الكواعبِ ما لاقى يَسَارٌ^٣ ،
فماهمُ إِلَّا ببعضٍ ما هَمَمْتُ بِهِ ، ولا تعرَّضَ إِلَّا لَأيسرِ
ما تعرَّضتَ له ، أَيْنَ ادَّعَاؤُكَ رِوَايَةَ الْأَشْعَارِ وتعاطيكَ حَفْظَ
السَّيْرِ والأخبارِ ، أما ثابَ إِلَيْكَ قولُ الشاعر :

بَنُو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ وَتَعَقَّدُ فِي أَكْفَائِهَا الْحَبِطَاتُ^٤
وهلَّا عَشَّيْتُ^٥ ولم تَغْتَرَّ ، وما أَشْكُ أَنَّكَ تَكُونُ وافِدَ
الْبَرَاجمِ^٦ أَوْ تَرْجِعُ بِصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ^٧ ، وهل عَضَلَنِي^٨
هُمَامُ بَنٍ مُرَّةً فَأَقُولُ : زَوْجٌ مِنْ عُوْدٍ ، خَيْرٌ مِنْ قَعُودٍ .
ولعمري لو بلغتُ هذا المبلغَ لارتفعتُ عن هذه الحِطَّةِ ،

(١) الترفية : الرفاهية .

(٢) حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، والعجاء : البهيمة ، والجبار : الدم الهدر ، والمعنى
أن البهيمة إذا جرحت لا دية لها ولا قصاص ، ويريد ابن زيدون أن يستبين بابن عبدوس .

(٣) يسار : عبد دميم آذته مولاته حين توهم أنها تحبه .

(٤) البيت للفرزدق ، وهو في هجاء حى الحبطات ، والمعنى أن بنى دارم يصهرون إلى بنى مسمع ،
أما الحبطات فيصهرون إلى من يشابههم في الخسة .

(٥) عشيت : رفقت .

(٦) وافد البراجم : رجل من تميم أحرقه عمرو بن هند ، والبراجم خنسة من أولاد حنظلة ،
والعرب تضرب المثل بوافد البراجم لأن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلاً من بنى تميم لثأر له عندهم ،
وكان قد آلى أن يحرق منهم مائة فبينما هو يلتبس بقية المائة إذ مر رجل اسمه عمار فاشتتم رائحة القتار
فظن أن الملك اتخذ طعاماً فعدل إليه فقبل له : من أنت ، فقال : أنا وافد البراجم ، فألقى في النار .

(٧) المتلمس : شاعر جاهلي وقصته مع عمرو بن هند ملك الحيرة .

(٨) عضل المرأة : منعها من الزواج ، وكان همام بن مرة قد منع بناته الأربع من الزواج وخرجن
على رغبته فضرب به ذبهن المثل .

وَلَا رَضِيتُ بِهَذِهِ الْخَطَّةِ ، فَالنَّارُ وَلَا الْعَارُ ، وَالْمَنِيَّةُ وَلَا الدُّنْيَةُ ،
وَالْحَرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ بِشَدِيدِهَا ^١ :

فَكَمْ فِي أَبْنَاءِ قَوْمِي مَنْكَحُ وَفَتَيَانُ هَزَّانَ الطَّوَالُ الْغَرَانِقَةُ ^٢

وَمَا كُنْتُ لِأَتَخَطَّى الْمِسْكَ إِلَى الرَّمَادِ ، وَلَا أَمْتَطِيَ الثَّوْرَ

بَعْدَ الْجَوَادِ ، فَإِنَّمَا يَتَيَمَّمُ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً ، وَيَرَعَى الْهَشِيمَ ^٣ ،

مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمَ ^٤ ، وَيَرْكَبُ الصَّعْبَ ^٥ مَنْ لَا ذُلُولَ لَهُ .

وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا غَرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبَوتِي إِلَيْهِ ، وَشَهِدْتَ مَسَاعِفَتِي

لَهُ ، مِنْ أَقْمَارِ الْعَصْرِ ، وَرِيَا حِينَ الْمِصْرِ ، الَّذِينَ هُمْ الْكَوَاكِبُ

عُلُوِّهِمْ ، وَالرِّيَاضُ طِيبَ شِيمِ :

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقُلْ لَا قِيَتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

تَحِنْ قِدْحُ لَيْسَ مِنْهَا ^٦ ، مَا أَنْتَ وَهُمْ ؟ وَأَنْتَى تَقَعُ مِنْهُمْ ؟

وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَאוُ عَمْرٍو فِيهِمْ ، وَكَالْوَشِيظَةِ ^٨ فِي الْعَظَمِ بَيْنَهُمْ .

(١) هذه أمثلة لمن يفضل الهلاك على قبح الأعدوة .

(٢) اسم قبيلة ، والغرانقة الشباب ، والبيت للأعشى .

(٣) الهشيم : النبت اليابس .

(٤) الجميم : النبت الرطب .

(٥) الصعب : الذي لا يطيع فهو ضد الذلول .

(٦) البيت لشاعر يسمى العرنس .

(٧) مثل يضرب لمن يتشبه بقوم ليس منهم ، والقدح : أحد قدام المير .

(٨) الوشيظة : النتوء في العظم .

وإن كنت إنما بلغت قعر تابوتك^١ وتجافيت عن
 بعض قوتك^٢ ، وعطرت أردانك^٣ ، وجرت هميانك^٤ ،
 واختلت في مشيتك^٥ ، وحذفت فضول لحيتك^٦ ، وأصلحت
 شاربك^٧ ، ومططت حاجبك^٨ ورققت خط عذارك^٩ ، واستأنفت
 عقد إزارك^{١٠} ، رجاء الاكتنان فيهم^{١١} ، وطمعا في الاعتداد
 منهم^{١٢} ، فظننت عجزا^{١٣} ، واخطأت الغرض^{١٤} . والله لو كساك
 محرق البردين^{١٥} ، وحللك مارية^{١٦} بالقرطين^{١٧} ، وقلدك
 عمرو^{١٨} الصمصامة^{١٩} ، وحملك الحارث^{٢٠} على النعامة^{٢١} ، ما
 شككت فيك^{٢٢} ، ولا سترت أباك^{٢٣} ، ولا كنت إلا ذاك^{٢٤} .
 وهبك ساميتهم في ذروة المجد والحسب^{٢٥} ، وجاريتهم في

(١) كناية عن لزوم المنزل ، وقوله : وتجافيت عن بعض قوتك : أى أظهرت الكرم بما تستفضله من قوتك .

(٢) الأردن : الأكام .

(٣) الهميان هنا : السروال .

(٤) العذار : ما يثبت على الخلد من الشعر .

(٥) كناية عن التجميل في الثياب .

(٦) محرق : هو عمرو بن هند ملك الحيرة ، لقب بذلك لتحريقه مائة من العرب ، ويقال إن وفود العرب كانت عنده ، فأخرج بردين وقال : ليقيم أعز العرب قبيلة فليأخذها .

(٧) بنت ظالم زوجة أحد ملوك الفساسة بالشام اشتهرت بقرطين أهدتهما إلى الكعبة .

(٨) هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي اشتهر بسيفه الصمصامة وأدرك الإسلام وأسلم وأبلى في الفتوح .

(٩) النعامة : فرس الحارث بن عباد البكري سيد وائل في الجاهلية .

(١٠) ولا سترت أباك : أى لم تخف على شأنك ونسبك .

غاية الظرف والأدب ، أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى بَيْتٍ قَعِيدَتُهُ لِكَاعٍ^١
 إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبٌ خَالِي الذَّرَاعِ^٢ وَأَيْنَ مَنْ أَنْفَرِدُ بِهِ مِمَّنْ
 لَا أُغْلَبُ إِلَّا عَلَى الْأَقَلِّ الْأَخْسِ مِنْهُ^٣ ، وَهَلْ يَجْمَعُ لِي
 فِيكَ إِلَّا الْحَشَفُ وَسَوْءُ الْكَيْلَةِ^٤ ، وَيَقْتَرِنُ عَلَى بَكَ إِلَّا
 الْغَدَّةُ وَالْمَوْتُ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ^٥ :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمَ بْنَ عَمْرِو أَذَلَّ الْحَرُصُ أَغْنَاكَ الرِّجَالُ^٦
 مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ^٧ ، وَتَرْبَعَ بِذَلِكَ عَلَى
 ظُلْعِكَ^٨ ، وَلَا تَكُنْ بَرَاقِشَ^٩ الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعَنْزَ السَّوْءِ
 الْمُسْتَشِيرَةَ لِحَتْفِهَا ، فَمَا أَرَاكَ إِلَّا سَقَطَ بَكَ الْعِشَاءُ عَلَى
 سِرْحَانٍ^{١٠} ، وَبِكَ لَا بَطْبِي أَغْفَرَ^{١١} ، قَدْ أَعَذَرْتُ إِنْ أَعْنَيْتُ
 شَيْئًا ، وَأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا :

-
- (١) القعيدة : الزوجة . واللکاع : اللثيمة .
 (٢) خالی الذراع : لا يملك شيئاً كما يقال خالی اليد وهو كناية عن خلو اليد عن الزوجة .
 (٣) المعنى : كيف أوازن بين زوج أنفرد به ، وآخر لا أنال منه إلا فضلة غيري من الزوجات ؟
 (٤) مثل يضرب في الخلتين السيتين تجتمعان ، والحشف : أردأ القبر .
 (٥) امرأة من بني سلول . دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على عامر بن الطفيل ، فظهر في رقبته
 غدة ، ومات في بيت سلولية (من بني سلول) فقال : غدة كغدة البعير ، وموت في بيت سلولية .
 (٦) البيت لأنني العتاهية .
 (٧) تقدر بذرعك . تقيس الأمر بجهدك .
 (٨) مثل يضرب لمن يكلف نفسه ما لا يقدر عليه . وتربع : تقيم ، والظلع : المخرج في البعير .
 (٩) يشير إلى المثل : جنت على أهلها براقش ، وهي كلبة غزا أهلها قوم ، فلم يعرفهم حتى
 نبحت ، فكانت شوقاً عليهم .
 (١٠) السرحان : الذئب .
 (١١) مثل يضرب للشامة ، والأعفر : الذي لونه لون العقار أي التراب .

إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لَدَى الْحِلْمِ ١ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي ٢
وإن بادرت بالندامة ، ورجعت على نفسك بالملامة ،
كنت قد اشتريت العافية لك بالعافية منك ، وإن قلت :
جعجعة ولا طحن ٣ ، ورُبَّ صلفٍ تحت الرَّاعِدة ٤ ، وأنشدت :
لا يُؤيسنك من مُخَدَّرَةٍ قَوْلُ تَغْلِظُهُ وَإِنْ جَرَحَاهُ

فَعُدْتَ لِمَا نُهَيْتَ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتَعْفَيْتَ مِنْهُ ،
بَعَثْتُ مَنْ يَزْعِجُكَ إِلَى الْخَضِرَاءِ دَفْعًا ، وَيَسْتَحْثُكَ نَحْوَهَا
وَكَزًّا ٥ وَصَفْعًا ، فَإِذَا صَرْتَ إِلَيْهَا عَيْثَ أَكَّارُهَا بَكَ ٦ ،
وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُهَا ٧ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ يَدَاكَ ،
لِتَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ :
فَمَنْ جَهَلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

(١) مثل التحذير .

(٢) مثل التحذير أيضاً والبيت الحارث بن وعلة اليشكري .

(٣) مثل لمن يتوعد ولا يفعل ، والطحن : الطحين .

(٤) الصلف : قلة الخير ، وسحاب صلف : أى قليل الماء كثير الرعد . وهو مثل يضرب لمن يتوعد من غير أن يفعل .

(٥) البيت لبشار بن برد .

(٦) الخضراء : الناحية المزروعة من البلد .

(٧) الوكر : ضرب الظهر مع الدفع .

(٨) الأكارون : الفلاحون .

(٩) النواطير : جمع ناطور وهو البستاني .

٦ - الرسالة الجدّية

يا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي الَّذِي وَدَادِي لَهُ ، واعتدادي به ،
 واعتمادي عليه ، أَبْقَاكَ اللَّهُ مَاضِيَّ حَدِّ الْعِزْمِ ، وَارَى زَنْدِ
 الْأَمَلِ^١ ، ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ . إِنَّ سَلْبَتَنِي - أَعَزَّكَ اللَّهُ -
 لِبَاسَ نِعَمَائِكَ ، وَعَظَّلَتَنِي مِنْ حُلَى إِيْنَائِكَ ، وَأَظْمَأْتَنِي إِلَى
 بَرُودِ إِسْعَافِكَ ، وَنَفَضَتَ بِي كَفَّ حَيَاطَتِكَ ، وَغَضَمْتَ
 عَنِّي طَرَفَ حِمَايَتِكَ ، بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِيلِي لَكَ ،
 وَسَمِعَ الْأَصَمُّ ثَنَائِي عَلَيْكَ ، وَأَحَسَّ الْجَمَادُ بِاسْتِنَادِي إِلَيْكَ ،
 فَلَا غَرَوْ قَدْ يَغْصُ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاءُ الْمُسْتَشْفَى
 بِهِ . وَيُوْتِي الْحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ ، وَتَكُونُ مَنِيَّةُ الْمُتَمَتِّي فِي أُمْنِيَّتِهِ ،
 وَالْحَيْنُ قَدْ يَسْبِقُ جُهْدَ الْحَرِيصِ :

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمَرُّ عَلَى الْفَتَى وَتَهُونُ غَيْرَ شِمَاتَةِ الْحُسَّادِ
 وَإِنِّي لَا تَجَلَّدُ وَأَرَى الشَّامِتِينَ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا
 أَتَضَعُّعُ ، فَأَقُولُ : هَلْ أَنَا إِلَّا يَدٌ أَذْمَاهَا سِوَارُهَا ، وَجَبِي^٢
 عَضَّهُ إِكْلِيلُهُ^٣ ، وَمَشْرِفِي^٤ الْأَصْقَةُ بِالْأَرْضِ صَاقِلُهُ ، وَسَمْهَرِي^٥

(١) وري الزند : أخرج منه النار واقتدحه .

(٢) الإكليل : التاج .

(٣) المشرف : السيف .

(٤) السمهرى : الرمح .

عَرَضَهُ عَلَى النَّارِ مُثَقَّفُهُ ^١ ، وَعَبْدٌ ذَهَبَ بِهِ سَيِّدُهُ مَذْهَبٌ
الَّذِي يَقُولُ ^٢ :

فَقَسَا لِيَزْدَجُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلِيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ
هَذَا الْعَتَبُ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ ، وَهَذِهِ النَّبُوءَةُ غَمْرَةٌ ثُمَّ
تَنْجَلِي ^٣ ، وَهَذِهِ النَّكْبَةُ سَحَابَةٌ صَيْفٌ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ ،
وَلَنْ يَرِيْبَنِي مِنْ سَيِّدِي أَنَّ أَبْطَأَ سَيِّبُهُ ^٤ ، أَوْ تَأَخَّرَ - غَيْرَ
ضَنِينٍ - غَنَاؤُهُ ، فَأَبْطَأُ الدَّلَاءُ فَيُضَا أَمْلُوْهَا ، وَأَثْقَلُ
السَّحَابُ مَشْيًا أَحْفَلُهَا ، وَالذُّ السَّرَابِ مَا أَصَابَ غَلِيلاً ^٥
وَمَعَ الْيَوْمَ غَدٌ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . لَهُ الْحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ ^٦
وَلَا عَتَبَ عَلَيْهِ فِي إِغْفَالِهِ :

فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَرْنَ أُلُوفُ
وَأَعُودُ فَأَقُولُ : لَيْتَ شِعْرِي مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ
يَسْمَعْهُ عَفْوُكَ ، وَالْجَهْلُ ^٨ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلْمُكَ ،

(١) مثقفه : صانعه وصاقله .

(٢) هو أبو تمام .

(٣) النبوة : الجفوة . والغمرة : الشدة ، وهو مثل يضرب لليسر بعد العسر .

(٤) السيب : العطاء .

(٥) الغناء : المال والنفع .

(٦) الغليل : شدة العطش .

(٧) الاهتبال : الاهتمام وإتاحة الفرصة .

(٨) الجهل : الحق .

والتَّطَاوُلُ^١ الذى لم يستغرقه تطوُّلُكَ^٢ ، والتَّحَادُلُ الذى لم يَفْ به احتمالُكَ ، ولا أَخْلُو من أَن أَكُونَ بريئاً فأَيْنَ العدلُ ؟ أو مُسِيئاً فأَيْنَ الفضلُ ؟ :

إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ واسعٌ أو كان لى ذنبٌ ففضلُكَ أوسع

حَنَانِيكَ^٣ ! قد بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى^٤ ، ونالنى ماحسبى بِهِ وكَفَى ، وما أَرَانى إِلَّا لو أُمِرْتُ بالسَّجُودِ لآدَمَ^٥ فَأَبَيْتُ واستَكْبَرْتُ ، وقال لى نُوحٌ : ارْكَبْ مَعَنَا فقلت « سَأَوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » ، وَأُمِرْتُ بِبِنَاءِ الصَّرْحِ^٦ لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهٍ مُّوَسَّى ، وعكفتُ عَلَى الْعِجْلِ^٧ ، واعتديتُ فى السَّبْتِ^٨ ، وتعاطيتُ فَعَقَرْتُ^٩ ، وشَرِبْتُ من النهر الذى

(١) التطاول : الاستلاء .

(٢) التطول : الفضل .

(٣) حنانيك : رحمتك .

(٤) الزبى : جمع زبية وهى الحفرة فى المكان المرتفع ، وهو مثل يضرب حين يتفاقم الأمر .

(٥) يشير إلى استكبار إبليس عن السجود لآدم حين أمره الله بذلك فعصاه وحقت عليه اللعنة ،

وفى ذلك قال تعالى : « فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

(٦) يتمثل بقصة نوح حين فاض الطوفان فقال لابنه اركب معنا فعصاه فقال كما فى القرآن الكريم

« سَأَوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » ففرق .

(٧) يشير إلى قصة فرعون وأنه أمر هامان أن يبني له صرحاً أى قصرأ عالياً لعله يرى إله موسى .

(٨) يشير إلى قصة العجل الذى عبده بنو إسرائيل حين تأخر عليهم موسى .

(٩) يشير إلى قصة بنى إسرائيل حين نهاهم عن الصيد يوم السبت فخالفوا ما نهاهم عنه فحق بهم

العذاب .

(١٠) يشير إلى ناقة صالح وذنب من عقرها ، وإلى الآية الكريمة : « فقال لهم رسول الله ناقة الله

رسقيها فكذبوه فعقروها فهدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » .

ابتلى به جيوش طالوت^١، وقُدَّت الفيلَ لأبرهة^٢، وعاهدت قريشاً على ما في الصحيفة^٣، وتأولت في بيعة العقبة^٤، وانخذلت بثلت الناس يوم أحد^٥، وتخلّفت عن الصلاة في بني قريظة^٦، وجئت بالإفك^٧ على عائشة الصديقة^٨، وأنفت من إمارة أسامة^٩، وزعمت أن بيعة أبي بكر كانت فلتة^{١٠}، ورويت رمحي من كتيبة خالد^{١١}، ومزقت الأديم^{١٢} الذي

(١) كان طالوت قد حرم على قومه الشرب من نهر ، فخالفوه ووقعوا في الإنم .

(٢) يشير إلى قصة أبرهة عامل اليمن من قبل النجاشي وخروجه في جيش لهدم الكعبة .

(٣) هي الصحيفة التي كتبها قريش وتعاهدت فيها على مقاطعة لرسول .

(٤) بيعة العقبة بيعة مشهورة بين الرسول وأصحابه ، وقد يفهم من كلامه أن بعض الصحابة قد تأول فيها أى خالف الإجماع ، وهو ما لم يحدث مطلقاً .

(٥) يشير إلى واقعة أحد حين انخذل عن رسول الله ابن سلول ومن معه من المنافقين ، ورجعوا بنحو ثلث الجيش .

(٦) بنو قريظة : طائفة من اليهود ، وقد أمر النبي أصحابه بعد غزوة الخندق أن يصلوا العصر في بني قريظة يعنى بذلك أن يسرعوا في الذهاب إليهم ، على أن من تخلف لم يعتبر هذا ذنباً له !

(٧) قصة الإفك والكذب على السيدة عائشة رضي الله عنها مشهورة .

(٨) يشير إلى ما يروى من أن بعض الصحابة غضب حين ولي رسول الله عليهم أسامة بن حارثة .

(٩) قال عمر : كانت بيعة أبي بكر فلتة ، ولم يرد بقوله سوءاً بأبي بكر ، فن الخطأ أن يتمثل في الذنوب بهذه العبارة ، والشيعية يرون أن على بن أبي طالب كان أجدر بالخلافة من أبي بكر وعمر ولعله يشير إلى هذا الرأي .

(١٠) يشير إلى من حاربوا خالداً في أيام الردة .

(١١) يشير إلى أديم مزقه أبو لؤلؤة حين قتله وإلى قول الشاعر في رثائه :

جزى الله خيراً من إمام وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق

بَارَكْتَ يَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَضَحَّيْتُ بِالْأَشْمَطِ^١ ، الَّذِي عُنْوَانُ
السُّجُودِ بِهِ ، وَبَذَلْتُ لِقَطَامٍ^٢ :

ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدًا وَفَيْنَةً وَضَرَبَ عَلَى الْحُسَامِ الْمُسَمِّ

وَكَتَبْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ^٣ : أَنْ جَعِّعَ^٤ بِالْحُسَيْنِ ،
وَتَمَثَّلَ^٥ عِنْدَمَا بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ :

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرِ عِلْمُوا جَزَعَ الْخَزْرَجَ مِنْ وَقْعِ الْأَسْلِ

وَرَجَمْتُ الْكَعْبَةَ ، وَصَلَبْتُ الْعَائِذَ^٦ عَلَى الثَّنِيَّةِ - لَكَانَ^٧

فِيمَا جَرَى عَلَى مَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُسَمَّى نَكَالًا . وَيُدْعَى وَلَوْ عَلَى
الْمَجَازِ عِقَابًا :

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بَامِرٍ^٨ تَرَى حَابِسِيهِ لَهُ رَاجِمِينَ

فَكَيْفَ وَلَا ذَنْبَ إِلَّا نَمِيمَةً^٩ أَهْدَاهَا كَاشِحٌ^{١٠} ، وَنَبَأُ جَاءَ بِهِ

(١) الْأَشْمَطُ عُمَانٌ وَفِيهِ يَقُولُ حَسَنٌ :

ضَحُوا بِأَشْمَطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ يَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقَرَأْنَا

(٢) قَطَامٌ : صَاحِبَةُ ابْنِ مَلْجَمٍ قَاتَلَ عَلَى بَنِ أَبِي طَالِبٍ .

(٣) يُشِيرُ إِلَى قَتْلِ الْحُسَيْنِ .

(٤) جَعِّعَ : ضَيَّقَ الْخَنَاقَ .

(٥) الْمُتَمَثَّلُ يُزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ ، تَمَثَّلَ بِهَذَا الْبَيْتِ لِابْنِ الزُّبَيْرِ الَّذِي نَظَّمَهُ فِي وَاقِعَةِ أَحَدٍ وَذَلِكَ حِينَ
عَلِمَ يُزِيدُ هَزِيمَةً جِيُوشَهُ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ الْخَارِجِينَ عَلَيْهِ .

(٦) يُشِيرُ إِلَى رَجْمِ الْحَجَّاجِ الْكَعْبَةَ بِالْمَنْجَنِيْقِ وَقَتْلِهِ لِلْعَائِذِ بِهَا ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الزُّبَيْرِ ، عَلَى
الثَّنِيَّةِ وَهِيَ طَرِيقُ الْكَعْبَةِ .

(٧) جَوَابُ « لَوْ » الْمَذْكُورَةُ فِي الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ « لَوْ أَمَرْتُ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ فَأَبَيْتُ وَاسْتَكْبَرْتُ » .

(٨) كَاشِحٌ : عَدُوٌّ ، وَمِنْ هَذَا أَخَذَ يَبْرَأُ نَفْسَهُ مِنَ التَّهْمَةِ الَّتِي دَسَّهَا عَلَيْهِ الْهَامُونَ كَذِبًا .

فَاسِقٌ . وَهُمْ الْهَمَّازُونَ^١ الْمَشَّاءُونَ^٢ بِنَمِيمٍ ، وَالوَاشُونَ الَّذِينَ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا الْعَصَا^٣ ، وَالْغَوَاةُ الَّذِينَ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا^٤ صَحِيحًا ، وَالسَّعَاةُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ بِقَوْمِ الصَّدُقِ مُحَمَّدٌ إِلَّا مِنْهُمْ .
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً^٥ وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ^٦

وَاللَّهُ مَا غَشَشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ ، وَلَا انْحَرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاعِيَةِ^٧ ، وَلَا نَصَبْتُ^٨ لَكَ بَعْدَ التَّشْيِيعِ^٩ فِيكَ ، وَلَا أَزْمَعْتُ^{١٠} يَأْسًا مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ تَكْفَلْتُ بِهِ الثِّقَةَ عَنْكَ ، وَعَهْدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عَلَيْكَ . فَفِيمَ عَيْثَ الْجَفَاءِ بِأَذِمَّتِي^{١١} ، وَعَاثَ الْعُقُوقُ فِي مَوَدَّتِي^{١٢} ، وَتَمَكَّنَ الضِّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي ؟ وَلَمْ ضَاقَتْ مَذَاهِبِي ، وَأَكْدَتُ^{١٣} مَطَالِبِي ؟ وَعِلَامَ رَضِيَّتُ مِنَ الْمَرْكَبِ

(١) الهمازون : من الهمز وهو الغيبة .

(٢) المشاءون : الساعون بالنميمة .

(٣) كناية عن التفريق .

(٤) الأديم أى الجلد ، كناية عن الشخص كله .

(٥) البيت للنابعة .

(٦) الصاغية : الأذن ، وهى هنا كناية عن خاصة الشخص الذين يصغون إليه ويغشون مجلسه .

(٧) نصب : عادى .

(٨) أزعم : أؤدم .

(٩) الأذمة : الحرمات جمع ذمام .

(١٠) العقوق : كفران النعمة .

(١١) أكدت : بخلت .

بالتَّغْلِيْقِ ، بل من الغنيمَةِ بالإِيَابِ ١ ، وَأَنْتَى غَلَبَنِي الْمُغْلَبُ ٢
وَفَخَرَ عَلَى الْعَاجِزِ الضَّعِيفِ ، وَلَطَمْتَنِي غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ ٣ ؟
وَمَا لَكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُفْتَرَسَ ، وَتُدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمْزَقَ . أَمْ
كَيْفَ ، لَا تَتَضَرَّعُ جَوَانِحُ الْأَكْفَاءِ ٥ حَسَدًا لِي عَلَى الْخُصُوصِ
بِكَ ، وَتَتَقَطَّعُ أَنْفَاسُ النُّظَرَاءِ ٥ مَنَافَسَةً فِي الْكِرَامَةِ عَلَيْكَ ،
فَكَيْفَ وَقَدْ زَانَنِي قَدِيمُ خِدْمَتِكَ ، وَزَهَانِي وَسَمُ نِعْمَتِكَ ،
وَأَبْلَيْتُ الْبَلَاءَ الْجَمِيلَ فِي سِمَاطِكَ ٦ ، وَقَمْتُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ
عَلَى بَسَاطَتِكَ ؟

أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ غَرَقَصَائِدٍ هِيَ الْأَنْجَمُ اقْتَادَتْ مِنَ اللَّيْلِ أَنْجَمًا
ثَنَاءً يُظَنُّ الرُّوْضُ مِنْهُ مُنَوَّرًا ضُحًى وَيُخَالُ الْوَشْيُ فِيهِ مُنَمَّنِمًا
وَهَلْ لَبَسَ الصَّبَاحُ إِلَّا بُرْدًا طَرَزْتُهُ بِفَضَائِلِكَ وَتَقَلَّدَتْ
الْجَوَازُءُ إِلَّا عِقْدًا فَصَّلْتُهُ بِمَآثِرِكَ ، وَاسْتَمَلَى الرَّبِيعُ إِلَّا ثَنَاءً
مَلَأْتُهُ بِمَحَاسِنِكَ ، وَبَثَّ الْمِسْكُ إِلَّا حَدِيثًا أَذْعَتْهُ فِي مَحَامِدِكَ ؟

(١) يشير إلى قول امرئ القيس :

لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمَةِ بالإِيَابِ

(٢) المغلب : الضعيف .

(٣) في المثل لو ذات سوار لطمتنى . أى اللطم ضميف .

(٤) انتقل ابن زيدون إلى بيان إخلاصه للممدوح وكيف كان من مداحه وخاصته .

(٥) الأكفاء : النظراء .

(٦) السباط : الصف .

ما يومٌ حليمةَ بَسْرٍ^١ ، وإن كنتُ لم أَكُذِّكَ سَلِيباً ،
 ولا حَلَيْتُكَ عُطْلاً ، ولا وَسَمْتُكَ غُفْلاً ، بل وجدتُ آجِراً
 وجِصّاً فبنيتُ ، ومكانَ القولِ ذا سَعَةِ فَقُلْتُ . حاشَ لَكَ
 أَنْ أُعَدَّ مِنَ الْعَامِلَةِ النَّاصِبَةِ^٢ ، وَأَكُونَ كَالذُّبَالَةِ الْمَنْصُوبَةِ
 تُضَى لِلنَّاسِ وَتَحْتَرَقُ^٣ ، فَلَكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ بِكَ
 - وَبِي فِيكَ - أَوْلَى .

ولعمري إِنَّ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أَتَحَوَّلَ إِذَا بَلَغْتَنِي الشَّمْسُ
 وَنَبَا بِي الْمَنْزِلُ ، وَأَصْفَحَ^٤ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تُقَطِّعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ ،
 وَلَا أَسْتَوِطِي الْعَجْزَ ، وَلَا أَطْمِئِنُّ إِلَى الْغُرُورِ ، فَيُضْرَبَ بِي
 الْمَثَلُ : « خَامِرِي أُمَّ عَامِرٍ^٥ » . وَإِنِّي مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّ الْجَلَاءَ^٦
 سِبَاءٌ^٧ ، وَالنُّقْلَةُ مُثْلَةٌ^٨ :

وَمَنْ يَغْتَرِبَ عَنْ قُوِّهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجْرَّاً وَدَسَحَبَا

(١) مثل يضرب في كل أمر مشهور .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « وجوه يومئذ خاشعة عامله ناصبة تصلى نارا حامية » .

(٣) نثر قول العباس بن الأحنف :

صرت كَأَنِّي ذِبَالَةٌ نَصِبتُ تَضْوَاءَ النَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ

(٤) هنا ثارت نفس ابن زيدون وأخذ يهدد بفراقه للوطن وأنه لا يصبر على الهوان .

(٥) أصفح : أضرَب .

(٦) مثل يضرب لمن عرف الدنيا وتقايها ولم تمنعه معرفته أن يميل إليها ويفتر بها .

(٧) الجلاء : النزوح عن الوطن .

(٨) السبأ : الأسر .

(٩) مظلة : فكال وعقاب .

وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ وَإِنْ يُسَىُّ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارَ فِي رَأْسِ كَبْكَبًا^١
لَعَارِفٌ أَنَّ الْأَدَبَ الْوَطَنُ الَّذِي لَا يُخْشَى فِرَاقُهُ ،
وَالْخَلِيطُ الَّذِي لَا يُتَوَقَّعُ زِيَالُهُ^٢ ، وَالنَّسَبُ الَّذِي لَا يُجْنَى ،
وَالْجَمَالُ الَّذِي لَا يُخْفَى . ثُمَّ مَا قِرَانُ السَّعْدِ بِالْكَوَاكِبِ أَبَى
أَثَرًا ، وَلَا أَسْنَى خَطَرًا ، مِنْ اقْتِرَانِ غِنَى النَّفْسِ بِهِ ،
وَانْتِظَامِهَا نَسَقًا مَعَهُ ، فَإِنَّ الْحَائِزَ لِهَمَا ، الضَّارِبَ بِسَهْمِ
فِيهِمَا - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ - أَيُّمَا تَوَجَّهَ وَرَدَ أَعَذَبَ مِنْهُلٍ ، وَحَطَّ .
فِي جَنَابِ قَبُولٍ فَتَنَزَلَ ، وَضُوحِكَ قَبْلَ انْزَالِ رَحْلِهِ ، وَأُعْطِيَ
حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ :

وَقِيلَ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَمَقِيلٌ^٣
غَيْرَ أَنَّ الْمَوْطِنَ مَحْبُوبٌ ، وَالْمَنْشَأُ مَأْلُوفٌ ، وَالْمَلِيبُ يَحْنُ
إِلَى وَطْنِهِ ، حَنِينَ النَّجِيبِ^٤ إِلَى عَطْنِهِ ، وَالكَرِيمُ لَا يَجْفُو
أَرْضًا فِيهَا قَوَابِلُهُ^٥ ، وَلَا يَنْسَى بَلَدًا فِيهَا مَرَاضِعُهُ :

(١) كَبْكَب : اسم لجلل في الحجاز .

(٢) الزِيَال : المفارقة .

(٣) مقيل : من القيلولة وهي هنا تقابل « مبيت » فيراد بها قضاء اليوم كله .

(٤) هنا هذات ثورة ابن زييدون ، فأخذ يعلن أنه لن يزائل جوار أبي الحزم ابن جهور ولا مدينته التي هي وطنه وبلده .

(٥) النجيب : الكريم من الإبل ، والعطن : مبارك الإبل حول الماء .

(٦) القوابل : جمع قابلة وهي التي تستقبل المولود عند نزوله .

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعَجٍ^١ إِلَى وَسَلَمَى أَنْ يَصُوبَ^٢ سَحَابُهَا
 بِلَادُهَا حَلَّ الشَّبَابِ^٣ تَأْمِيً^٤ وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسِّ جِلْدِي تَرَابُهَا
 هَذَا إِلَى مُغَالَاتِي بِعَقْدٍ^٥ جَوَارِكٍ ، وَمُنَافَسَتِي فِي الْحِظِّ
 مِنْ قُرْبِكَ ، وَاعْتِقَادِي أَنَّ الطَّمْعَ فِي غَيْرِكَ طَبْعٌ^٦ ، وَالْغِنَى
 مِنْ سِوَاكَ عَفَاءٌ^٧ ، وَالْبَدَلَ مِنْكَ عَوَزٌ^٨ ، وَالْعِوَضَ لَفَاءً^٩ :
 وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِي زَادَنِي ضَنْناً بِهِ نَظَرِي إِلَى الْأُمَرَاءِ
 وَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا^{١٠} ، وَفِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ ،
 وَاسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ^{١١} .

فَمَا هَذِهِ الْبَرَاءَةُ^{١٢} مِمَّنْ يَتَوَلَّاهُ؟ وَالْمَيْلُ عَمَّنْ يَمِيلُ إِلَيْكَ؟
 وَهَلَّا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فَيْكَ ، وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ لَكَ :
 يَأْمَنُ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ وَجَدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ^{١٣}

(١) منعج : موضع .

(٢) يصبوب : يهطل .

(٣) التَّأْمِي : جمع تَمِيمَةٍ وَهِيَ الْعَوْدَةُ الَّتِي تَعْلُقُ عَلَى الصَّبِيِّ لِاتِّقَاءِ الْحَسَدِ .

(٤) الْعَقْد : الضَّحَانُ وَالْعَهْدُ .

(٥) الطَّبْع : الدَّيَاةُ وَالْحَسَةُ .

(٦) عَوَز : فَاقَةٌ .

(٧) لَفَاء : خِصَّة .

(٨) مَثَلٌ يَضْرِبُ فِي الشَّيْءِ الَّذِي يُفْضَلُ غَيْرُهُ .

(٩) الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ : نَوْعَانِ مِنَ الشَّجَرِ سَرِيعَا الْإِتْقَادِ ، وَاسْتَمَجَدَ : زَادَ نَاراً وَاتَّقَاداً ، وَهُوَ مَثَلٌ يَضْرِبُ أَيْضاً فِي الشَّيْءِ الَّذِي يُفْضَلُ غَيْرُهُ .

(١٠) رَجَعَ ابْنُ زَيْدُونَ يَسْتَعِطِفُ ابْنَ جَهْوَرٍ مَتَذِللاً خَاضِعاً لَعَلَّهُ يَلِينُ لَهُ .

(١١) الْبَيْتُ الْمَتْنِي .

أُعِيذُكَ وَنَفْسِي مِنْ أَنْ أَشِيْمَ خُلْبًا^١ ، وَأَسْتَمْطِرَ جَهَامًا^٢ ،
وَأَكْدِمَ فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ^٣ وَأَشْكُو شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْعُقْبَانِ
وَالرَّخَمِ^٤ . وَإِنَّمَا أَبَسَسْتُ^٥ لَكَ لَتَدْرَ ، وَحَرَكْتُ لَكَ الْحَوَارِ^٦
لِتَحِنَ^٧ ، وَنَبَّهْتُكَ لِأَنَامَ ، وَسَرَّيْتُ إِلَيْكَ ، لِأَحْمَدَ السُّرَى
لَدَيْكَ . بَعْدَ الْيَقِينِ أَنَّكَ إِنْ سَنَيْتَ^٨ عَقْدَ أَمْرِي تَيْسَّرَ ،
وَمَتَى أَعْذَرْتُ^٩ فِي فَكِّ أَسْرِي لَمْ يَتَعَذَّرْ ، وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ .
بَأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمَرُ النِّعْمَةِ ، وَالشَّفَاعَةُ زَكَاةُ الْمَرْوَعَةِ ، وَفَضْلُ
الْجَاهِ ، تَعَوُّدُ بِهِ ، صَدَقَةٌ :

وَإِذَا امْرُؤٌ أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ^{١٠}
لَعَلِّي أُلْقِيَ الْعَصَا بِذِرَاكِ^{١١} ، وَتَسْتَقِرُّ بِي النَّوَى فِي ظِلِّكَ ،
وَأَسْتَأْنِزُ التَّادِبَ بِأَدْبِكَ ، وَالْإِحْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ ، فَلَا

(١) شام خلباً : نظر إلى برق لا يصحبه مطر .

(٢) الجهام : السحاب لا غيث فيه .

(٣) مثل يضرب لمن يريد الشيء من غير موضعه .

(٤) نثر ابن زيدون هنا قول المتنبي :

ولا تشك إلى قوم فتشتمهم شكوى الجريح إلى العقبان والرخم

(٥) أبسست : رفقت . وتدر : تسيل ، كناية عن تحوله إلى الرضا .

(٦) الحوار : ولد انشاقة .

(٧) سنى : سهل .

(٨) أعذرتى : طلب العذر .

(٩) البيت لأبي تمام .

(١٠) الذرى : الكنف والجانب .

أَوْجِدَ لِلْحَاسِدِ مَجَالَ لِحِظَةٍ ، وَلَا أَدْعَ لِلْقَادِحِ مَسَاغَ
لِفِظَةٍ ، وَاللَّهُ شَهِيدُكَ مِنْ إِطْلَافِي^١ بِهِذِهِ الطَّلِبَةِ ، وَإِشْكَائِي^٢
مِنْ هَذِهِ الشُّكُوفِ ، بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ بِهَا مَكَانَ الْمَصْنَعِ^٣ ،
وَتَسْتَوِدُّعُهَا أَحْفَظَ مُسْتَوْدَعٍ ، حَسْبَمَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَهُ ، وَأَنَا
مِنْكَ حَرِيٌّ بِهِ ، فَذَلِكَ بَيْدٌ^٤ ، وَهَيْنٌ عَلَيْكَ .

* * *

وَلَمَّا تَوَالَتْ غُرُرُ هَذَا النُّشْرِ ، وَاتَسَقَّتْ دُرَرُهُ . فَهَزَّ
عِطْفَ غُلُوفِهِ ، وَجَرَ ذَيْلَ خَيْلَاتِهِ ، عَارِضَهُ النِّظْمُ مُبَاهِيًا ،
بَلْ كَايِدُهُ مُدَاهِيًا ، حِينَ أَشْفَقَ مِنْ إِنْ يَعْطِفَكَ اسْتِعْطَافُهُ ،
وَتَمِيلَ بِنَفْسِكَ أَلْطَافُهُ ، فَاسْتَحْسَنَ الْعَائِدَةُ مِنْهُ ، وَاعْتَدَّ
بِالْفَائِدَةِ لَهُ ، فَمَا زَالَ يَسْتَكِدُّ الذَّهْنَ الْعَلِيلَ ، وَالْخَاطِرَ
الْكَلِيلَ ، حَتَّى زَفَّ إِلَيْكَ عَرُوسًا مَجْلُوءَةً فِي أَثْوَابِهَا ، مَنْصُوصَةً^٥
بِحَدِيثِهَا وَمَلَابِئِهَا^٦ ، وَهِيَ هِيَ :

الْهَوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ ! وَالْمُنَى فِي هَبُوبِ ذَاكَ النِّسِيمِ

(١) إِطْلَافِي : مِنْ أَطْلَبَهُ أَيْ أَعْطَاهُ مَا طَلَبَهُ .

(٢) إِشْكَائِي : إِزَالَةُ شُكُوفِي .

(٣) الْمَصْنَعُ : الصَّنِيعُ ، مَصْدَرٌ مِمَّى .

(٤) الْعَائِدَةُ : الصَّنِيعُ وَالْمَعْرُوفُ

(٥) مَنْصُوصَةٌ : مَجْلُوءَةٌ .

(٦) الْمَلَابِ : الزَّعْفَرَانُ .

سَرَّنَا عِيشَنَا الرِّقِيقُ الْحَوَاشِي لو يدومُ السرورُ للمستديمِ-
وَطَرٌ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقْضَى زمنٌ ما ذِمَامُهُ^١ بالذميمِ-
إِذْ خَتَامُ الرِّضَا الْمُسَوِّغُ مِسْكٌ ومزاجُ الوصالِ من تَسْنِيمِ^٢-
وَعَرِيضُ^٣ الدَّلَالِ غَضٌّ جَنَى الصبوةِ نَشْوَانٌ من سُلَافِ النعيمِ-
طَالَمَا نَافَرَ الْهَوَى مِنْهُ غِرٌّ لم يَطُلْ عَهْدُ جِيدِهِ بِالتَّمِيمِ^٤-
زَارَ مُسْتَخْفِيًا وَهِيَهَاتَ أَنْ يَخْ في سُرَى الْبَدْرِ فِي الظَّلَامِ الْبَهِيمِ-
فَوَشَى الْحَلَى إِذْ مَشَى وَهَفَا الطَّ يَبُ إِلَى حِسِّ كَاشِحٍ بِالنَّمِيمِ-
أَيُّهَا الْمُؤَذِّنِي بِظُلْمِ اللَّيَالِي لَيْسَ يَوْمِي بِوَاجِدٍ^٥ مِنْ ظُلُومِ
قَمَرُ الْأَفْقِ إِنْ تَأَمَّلْتَ وَالشَّمْسُ سُ هَمَا يُكْسِفَانِ دُونَ النُّجُومِ
وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُ يَنْجُو بِالمَصَابِ الْعَظِيمِ نَحْوَ الْعَظِيمِ
بَوَّاءَ اللَّهِ جَهْورًا شَرَفَ السُّو دَدٍ فِي السَّرِّ وَاللُّبَابِ الصَّمِيمِ-
وَاحِدٌ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأُمُّ رَ فَكَانَ الْخَصُوصُ وَفَقَ الْعُمُومِ-

(١) الذمام : العهد .

(٢) التسنيم : ماء الجنة ، وفي القرآن الكريم : « يسقون من رحيق نخوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم » .

(٣) غريض الدلال : مملوء به .

(٤) غرض : ناضر .

(٥) التميم : جمع التميمة وهي العوذة .

(٦) واجد : حاقط .

(٧) السرو : الشرف .

قَلَدَ الْغُمْرُ^١ ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ وَاکْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ
 خَطَرُ^٢ يِقْتَضِي الْكَمَالَ بِنَوْعِي خُلِقَ بَارِعٌ وَخُلِقَ وَسِيمٌ^٣
 أَهَذَا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو وَالْعَصَا بَدَأَ قَرَعَهَا لِلْحَلِيمِ^٤
 مَا عَنَانَا أَنْ يَأْنِفَ السَّابِقُ الْمَرَّ بَطَأَ فِي الْعِتْقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ
 وَبَقَاءُ الْحَسَامِ فِي الْجَفْنِ يَثْنِي مِنْهُ بَعْدَ الْمَضَاءِ وَالتَّضْمِيمِ^٥
 أَفْصَبُ^٦ مَثْنٍ خَمْسَاءَ مِنَ الْآيِ أَمْ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمِ
 وَمَعْنَى مِنَ الضَّنَى بِهَنَاتٍ نَكَاتٌ^٧ بِالْكُلُومِ قَرَحَ الْكُلُومِ
 سَقَمٌ لَا أَعَادُ فِيهِ وَفِي الْعَا ثِدٌ أَنْسُ يَفِي بِبُرْءِ السَّقِيمِ
 نَارُ بَغْيٍ سَرَتْ إِلَى جَنَّةِ الْأَمِّ نَلْظَاهَا فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ^٨
 بَابِي أَنْتَ إِنْ تَشَأْ تَكُ بَرْدًا وَسَلَامًا كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ
 لِلشَّفِيعِ الثَّنَاءِ ، وَالْحَمْدُ فِي صَوِّ بِي الْحَيَا^٩ لِلرِّيَاحِ لَا لِلْغُيُومِ

(١) الغمر : قليل التجربة .

(٢) خطر : شرف .

(٣) وسيم : وقور .

(٤) تضمين للمثل المشهور : « إِنْ الْعَصَا قَرَعَتْ لَذَى الْحَلِيمِ » .

(٥) السابق : الفرس ، المرتبط : اسم مكان ، العنق في الخيل : الكرم والتطهير : تمام الحسن فيها ، يشبه نفسه ، وهو في الاعتقال ، بالصافن الذي سُمِّ مكانه الذي ربط فيه لعنقه وكرمه .

(٦) إشارة إلى أنه قضى في السجن خمسمائة يوم .

(٧) نكأ : أدمى . الكلوم : الجروح . القرح : ما بالجرح من فساد .

(٨) الصريم : الليل الأسود .

(٩) الحيا : الغيث .

وزعيم^١ بآن يُذللَ لى الصَّع
 وودادُ يُغَيِّرُ الدهرُ ماشا
 وثناءُ أرسلتهُ سلوةَ الظَّا
 فهو ريحانةُ الجايسِ ، ولا فخرُ
 ومتى تبدلِ الصنِيعَةَ يُولِع
 لك تمامُ الخِصالِ بالتَّميمِ -
 هاكها - أعزك الله - يَبْسُطُها الأملُ ، ويقبِضُها الخجلُ ،
 لها ذنبُ التقصيرِ ، وحرمةُ الإخلاصِ ، فهَبْ ذَنْباً لِحُرْمَةٍ ،
 واشفعِ نعمةً بنعمةٍ ، لِيَتَنَّتَى لَكَ الإحسانُ من جِهَاتِهِ ،
 وتَسْلُكَ إلى الفضلِ من طُرُقَاتِهِ ، إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) زعيم : كفيل .

(٢) مثابى : رجوعى .

الباب الرابع

الموشحات الأندلسية

الفصل الأول

نشوء الموشحات - قالبها الشعري

مما لا شك فيه أن لحياة اللهو والمجون ولانتشار السمر والغناء في الأندلس أثراً في اختراع الموشح وظهوره في تلك الأرض ذات الطبيعة الوارفة الظلال . فالشعر الخفيف ، كما نعلم ، مادة الغناء ، فإذا كان انتشار الغناء في الأندلس قد استدعى ظهور الموشح ، فإنه أيضاً قد حدد له وزنه وحرره من قيود الشعر التقليدي وقالب الأوزان المعروفة وعبودية القافية الوحيدة . فالفهضة الغنائية إذاً كانت من دواعي ظهور هذا الفن الجديد ، إلا أن هناك دراسات تبين العلاقة بين الشعر الفرنسي - الإسباني القديم الذي كان ينشده شعراء جنوبي فرانسة المعروفون بشعراء التروبادور Troubadours وبين فن الموشحات ^(١) . فالشعر الغنائي الذي كان ينشده شعراء التروبادور في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي (وفي هذا القرن كانت الموشحات معروفة في الأندلس) قد شابه في أغراضه أغراض الموشحات ، وفي طليعتها الحب والغزل والطبيعة والمدح والحماسة والهجاء ، واتفق معها في بعض قوالبه كالقصائد المسماة (البالاد) ^(٢) و (الأغاني الوجدانية) ^(٣) . فهذان النوعان من شعر شعراء التروبادور يتألفان من أسماط وأجزاء تشبه ، إلى حد ما ، في ترتيبها أسماط الموشحات وأجزاءها وتتعدد فيها الأوزان والقوافي ، أضف إلى ذلك أن التروبادور كانوا يعتمدون في نظمهم على الموسيقى والغناء كما هو الشأن في الموشحات . ولكن هذا التشابه لا يكفي ليحل لنا مشكلة التأثير المتبادل . ونرى أن النتائج التي انتهى إليها بعض

(١) راجع كتاب الدكتور نيكل : « الشعر الأندلسي وصلته بشعر التروبادور » (نشر بالإنجليزية في بلتي مور) . وانظر عرضاً لهذا الكتاب للدكتور عمر فروخ في مجلة « الأديب » بيروت ، نيسان سنة ١٩٤٧

(٢) La ballade

(٣) La chanson courtoise

الباحثين في بيان الروابط التي تربط بين الموشحات والشعر الأجنبي الذي كان يتأخم المسلمين في إسبانيا أو يتسرب إلى أوساطهم — أن هذه النتائج لا تزال تحتاج إلى مناقشة ولا يمكننا أن ننظر إليها كحقيقة لا يعتورها الشك . ولكن إن شككنا في مدى هذا التأثير وشكله فلا يمكننا أن ننكر وجوده ، فالطبيعة الجديدة ، سواء أكانت خاصة بالأندلس أم بما يحيط بها وبما يردها من أصدقاء ، قد لعبت دورها في اختراع فن الموشح كما لعب الشعر العربي دوره في حياة الإسبانيين وشعرهم وفي الشعر الأوربي الذي انبثق عن الشعر التروبادوري نفسه . وما نحن نرى أن الغناء العربي قد طبع الغناء الأندلسي بطابعه ، ولا يزال للمس آثار هذا الطابع في الأغاني الإسبانية حتى الآن .

فلنقبل إذاً تأثير الوسط الجديد في اختراع فن الموشحات دون أن نذهب مع بعض المتطرفين إلى أنه فن مستعرب . ولنقبل أيضاً أثر الشعر العربي فيما جاوره من شعر أجنبي في تلك الفترة ، ولنترك شرح هذه القضية إلى مجال آخر يتسع فيه تفنيد ما نكتب في هذا الموضوع . في مختلف اللغات ولا سيما الإسبانية مع بسط المصادر الأولى التي استند إليها الباحثون ، وهذا أمر يجب أن يفرد له بحث خاص وتعوزنا وسائله ، وهو لا يزال ، في حد ذاته ، في نطاق الجدل العلمي وموضوع بعض الأطروحات الأدبية .

أولية الموشح :

ليس الموشح من اختراع المشاركة ، وقد نسب بعض المؤرخين إلى ابن المعتز الموشحة التي مطلعها :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

وهي ، في الواقع ، ليست له وإنما هي لابن زهر الأندلسي ^(١) . ويعترف

(١) هو أبو بكر محمد بن زهر الإشبيلي من أسرة زهر المشهورة في الأندلس . ولد سنة ٥٠٧ هـ وكان طبيباً وأديباً ، اتصل بدولة المرابطين ثم بدولة الموحدين ومات مسموماً في آخر سنة ٥٩٥ هـ .

ابن بسام وابن خلدون وغيرهما ممن كتبوا في الموشح بأن فضل اختراع الموشحات يعود لأهل الأندلس .

وإذا كان المؤرخون قد اتفقوا على أن هذا الفن نتاج أندلسي فإنهم قد اختلفوا في مخترع الموشح ، فهناك روايتان مختلفتان تقدم كل منهما اسماً لمخترع هذا الفن يختلف عن الاسم الآخر .

فالرواية الأولى ، وهى ما يورده ابن بسام في ذخيرته ، تقول : « وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقتنا واختراع طريقتهما - فيما بلغنى - محمد بن محمود (حمود) القبري الضريير »^(١) .

أما الرواية الثانية ، وهى ما يذكره ابن خلدون في مقدمته ، فتقول : « وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مُقَدَّم بن مُعَاوِي القَبْرِي^(٢) من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني^(٣) وأخذ عنه أبو عمر^(٤) أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز^(٥) شاعر المعتصم بن صمّاح صاحب

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ، ص ١ .

(٢) هذا الاسم (مقدم بن معاوي القبري) قد أصابه تحريف وتصحيف في عدد من نسخ مقدمة ابن خلدون وطبعاتها فظهر على الشكل الآتي : مقدم بن معافر القبري . وهذا التحريف حمل المستشرق (دوسلان) في ترجمته الفرنسية لمقدمة ابن خلدون على أن يجعل مخترع الموشح بولوداً في قرية فارسية تناسب الاسم المحرف (القبري) . ولكن المستشرق (دوزي) قد أشار إلى هذا الخطأ في الجريدة الآسيوية : (Journal Asiatique. XIV, 186 année 1869) وقال يجب أن نقرأ القبري عوضاً عن القبري نسبة إلى قرية قبرة في الأندلس .

(٣) كانت خلافته من سنة ٢٧٥ إلى سنة ٣٠٠ هـ .

(٤) لا (أبو عبد الله) كما ورد خطأ في مقدمة ابن خلدون .

(٥) إن أول من برع في هذا الفن وحدد أصوله بعد ظهوره هو عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ، أما عبادة القزاز فهو أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز وقد جاء متأخراً عن عبادة بن ماء السماء واشتهر هو أيضاً بموشحاته في عصره - القرن الخامس - ولكنه لم يكن أول من برع فيها كما يقول ابن خلدون . انظر الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثاني ، ص ٢٩٩ .

المرية . . . وزعموا أنه لم يسبقه وشّاح من معاصرين الذين كانوا في زمن الطوائف (١) .

فهل كان محمد بن محمود القبري غير مقدم بن معافى القبري ؟ كان الشك يعتورنا في حل هذه المعضلة ، وكنت أظن أن الرجلين رجل واحد وأن مخترع الموشح ما هو إلا محمد بن محمود القبري كما جاء في الذخيرة أما مقدم بن معافى الذى يورده ابن خلدون فما هو إلا تحريف لذلك الاسم (٢) .

ولكن الدكتور عبد العزيز الأهواني أزاح النقاب عن هذه القضية عندما أوضح في مقال نشره في مجلة الأندلس الإسبانية (٣) أن كلا الشاعرين الأندلسيين المنسوبين إلى قرية قَبْرَة معروفان ولهما تراجم مدونة (٤) وأن محمد بن محمود كان ضريراً أما مقدم بن معافى فلم يكن كذلك ، وأن هناك نصاً جديداً ظهر منذ حين وهو يثبت الروایتين : رواية ابن بسام ورواية ابن خلدون المنقولة عن البحارى ، وهذا النص مأخوذ عن كتاب مزية المرية لابن خاتمة الأنصارى وقد نقله عنه المقرئ فى أزهار الرياض . ولهذا كله يرى الدكتور الأهوانى أن ليس من داع لأن نفترض أن أحد الاسمين تحريف عن الثانى .

لأشك في أننا نقر ونعترف ، بعد هذا التحقيق ، بأن مقدم بن معافى

(١) هذه الرواية ينقلها ابن خلدون عن الحجارى عن طريق ابن سعيد فى تابه (المقتطف فى أزهار الطرف) وهو كتاب مخطوط فى القاهرة وفى الأسكوريال .

(٢) انظر كتابنا : La poésie profane sous les Ayyubides, P. 172. كان المستشرق الإسبانى غارسيا غومس يزعم هذا الزعم أيضاً . انظر ما كتبه فى مجلة الأندلس :

Al-Andalus, II, 1934, p 215-222 :

(٣) Al-Andalus, XIII, 1948, P. 28-31

(٤) انظر ترجمة مقدم بن معافى القبري فى بغية الملتبس للضبي رقم الترجمة ١٣٨٦ وفى الحلة السيرة لابن الأبار ص ٨٥ وفى المقتبس لابن حيان ص ٤٦ و ٦٥ . أما ترجمة محمد بن محمود القبري فتجدها فى بغية الملتبس رقم الترجمة ٢٨٥ . ويروى الدكتور الأهوانى أن الثعالبي فى يتيمة الدهر يذكر فى عداد الشعرا الأندلسيين من اسمه محمد بن محمود الوليد الغنوى ويقول إن هذا الاسم ربما كان محرفاً عن اسم شاعرنا محمد بن محمود القبري .

شخص آخر مستقل غير محمد بن محمود . ولكن ألا يحق لنا أن نعجب مع المشرق غاريسيا غومس^(١) من أن يكون مخترع الموشح شاعرين أندلسيين كلاهما من قرية واحدة هي قبرة وكلاهما من عصر واحد هو عصر الأمير عبد الله بن محمد المرواني ؟

نعم لنا الحق في أن نعجب ، كما كان لنا الحق في أن نتردد حول شخص مخترع هذا الفن وحول حقيقة اسمه .

ولكن ليس من الواجب ، على الرغم من عجبنا ، أن نعتقد بضرورة وجود مخترع واحد لفن متعدد المنابع كالموشح ، هذا الفن الذى أسهم في تكوينه عدد من المؤثرات الاجتماعية والإقليمية والأدبية والغنائية . وإننا لنجد طبيعياً ألا يكون ظهوره قد بدأ فجأة بل لابد ، في بادئ الأمر ، من محاولات مختلفة تظهر على ألسنة عدد من الشعراء ، شأنه في ذلك شأن كثير من الفنون الجديدة التى تتعثر في فاتحة عهدها ثم لا تلبث أن تجد معالمها الواضحة وأسسها الجلية على يد من مارسها واهتم بها ووجد فيها هواه ومبتغاه .

لهذا يمكننا أن نقول إنه منذ نهاية القرن الثالث الهجرى بدأت محاولات شعرية في هذا الفن الجديد ، إلا أن المحاولات التى قام بها هذان الشاعران وغيرهما ممن لم تصلنا أسماءهم كانت محاولات ابتدائية ، لهذا كسدت موشحاتهم ولم يروها الناس ، ولم تصلنا أيضاً موشحات ابن عبد ربه الذى زعم بعضهم خطأ أنه مخترع الموشح . وكان علينا أن ننتظر مجيء الشاعر عبادة ابن ماء السماء (لا عبادة القزاز كما يذكر ابن خلدون^(٢)) المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ١٠٤٠ م لنرى الموشح قد أصبح فناً قائماً بذاته له أسسه وقواعده وله أثره وجماله وشعراؤه . وفي هذا الصدد يقول ابن بسام :

« وكان أبو بكر (عبادة بن ماء السماء) في ذلك العصر شيخ الصناعة

(١) انظر تعليقه على مقال الدكتور الأهواى في العدد نفسه من مجلة الأندلس الإسبانية .

(٢) انظر ص ٣٨٧ من هذا الكتاب الحاشية رقم ٥ .

وإمام الجماعة ، سلك إلى الشعر مسلماً سهلاً فقالت له غرائبه مرحباً وأهلاً . وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها ووضعوا حقيقتها ، غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا منادها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تُسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه ، واشتهر بها اشتهاً غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته » (١) .

وهكذا أخذ الموشح ، ابتداء من القرن الرابع الهجري ، يزدهر ويسمو في سماء الأندلس ، وتتابع شعراء وشاحون على جانب من العبقرية كأبي بكر عبادة ابن ماء السماء ، وعبادة القزاز، وابن اللبابة (٢) والأعمى التّطّيلي (٣) وابن بّقى (٤) وابن باجه (٥) وأبي بكر بن زُهر ، وابن سهل (٦) وإسان الدين بن الخطيب (٧) وتلميذه ابن زمرك (٨) وغيرهم . وقد عجز كثير من المتأخرين عن تقليد موشحات هؤلاء الشعراء وبلوغ عبقريتهم في هذا الفن ، حتى بقيت موشحاتهم إلى اليوم مثلاً يحتذى .

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ، ص ١ - فوات الوفيات للكتّبي ج ١ ص ١٩٩ .

(٢) هو محمد بن عيسى أبو بكر اللخمي اتصل بالمعتمد ومدحه وأكثر من التردد عليه في سجنه بأغماط وانتقل إلى سيورقة وتوفي سنة ٥٠٧ هـ .

(٣) هو الأديب أبو جعفر أحمد بن هريرة كان صديقاً وفاقاً للوشاح أبي بكر ابن بّقى ، وأخباره قليلة ، وهو رأس الوشاحين في عصر المرابطين عاش في مبدأ القرن السادس الهجري في مرسية ثم انتقل منها وتوفي سنة ٥٢٠ هـ .

(٤) أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن بن بّقى القرطبي ، وشاح بارع توفي سنة ٥٤٠ هـ .

(٥) هو أبو بكر محمد بن باجة الأندلسي الشرقسطي ، انطلسوف الشاعر المشهور ، كان متقناً

لصناعة الموسيقى مات مسموماً بمدينة فاس ٥٣٣ هـ .

(٦) هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلي شاعر إشبيلية وشاحها ، له ديوان مطبوع ، توفي غريباً سنة ٦٤٩ هـ وهو في الأربعين .

(٧) هو أبو عبد الله لسان الدين محمد المعروف بابن الخطيب ، ولد سنة ٧١٣ هـ بمدينة غرناطة

وكان وزيراً لأبي الحجاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر ثم لابنه ، اتهم بالخيانة والزندقة ففر إلى المغرب ، وسعى أعداؤه به حتى أسلموه فسجن بفاس وخنق بسجنه سنة ٧٧٦ هـ . وكان شاعراً كاتباً مؤرخاً فقيهاً متفلسفاً .

(٨) هو أبو عبد الله بن زمرك ولد بغرناطة سنة ٧٣٣ هـ وكان وزيراً للغنى بالله من ملوك بني الأحمر ،

قتل سنة ٧٩٧ هـ .

ويظهر أن جميع هؤلاء الوشاحين الأندلسيين لم يبينوا لنا بصورة واضحة قواعد الموشح ، وإن كنا نرى ، هنا وهناك ، في كتب الشعر والتراجم التي تتحدث عن الأندلسيين كالذخيرة ونفح الطيب ، بعض الإشارات إلى أصول هذا الفن . ولعل ابن سناء الملك الشاعر المصرى الذى ولد بالقاهرة سنة ٥٥٠ هـ وقضى فيها أكثر أيامه منعماً حتى توفى سنة ٦٠٨ هـ ، هو أول من قام بهذه المهمة فحاول في كتابه « دار الطراز » ^(١) أن يحدد قواعد هذا الفن الشعرى ويبين خصائصه وطرق نظمه وأوزانه ، فكان بذلك الشاعر الأول المنظم لقواعد الموشح في المشرق والمغرب . والمؤرخون ، عندما يذكرون ابن سناء الملك ، يشيرون إليه كأول مشرقى كان له فضل إدخال فن الموشحات إلى الشرق . إلا أن الشاعر المصرى لا يتردد ، هو نفسه ، في الاعتراف بقصوره عن مجارة الأندلسيين في هذا الفن . ومن المؤكد أن موشحاته لا تبلغ جودة موشحات الأندلسيين .

لقد قلنا إن هذا الفن الجديد لم يحدث فجأة على شكله التام ، وهو أيضاً لم ينظمه الشعراء دون أن يلقى مقاومة من النقاد . فقد كان يرى فيه المحافظون خروجاً على القديم وبدعة شعرية لم يألفوها ، فعابوا لذلك أصحابه في الغرب وفي الشرق واعتبروه ضعفاً وظاهرة من ظواهر الانحطاط الأدبى .

ومما لا شك فيه أن ظهوره في عصور الانحطاط إلى جانب أثره الضار في اللغة ، يؤيد هذا القول ، ولكن يجب ألا ننسى أن بعض المحاولات في الخروج على نظام القصيدة التقليدية قد ظهرت عند المشاركة منذ صدر الدولة العباسية عندما ضاقت الحياة العباسية في بغداد بنظام القصيدة وحاولت التحرر من قيودها لتجارى البيئة الحضرية الجديدة . لذا قام بعض الشعراء كمسلم بن الوليد وأبى نواس وأبى العتاهية بابتكار بعض الأوزان وينظمون فيها ، كما اخترعت مولاة للبرامكة (المواليا) وكانت تراثهم به . ولما حملت إلى الرشيد ،

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب الذى قمنا بتحقيقه ونشره .

وكان قد منع من يرثيهم بشعر ، قالت الجارية ليس هذا شعراً لأنه عامى ملحون ، وهو فى الواقع شعر عامى على وزن البسيط كانت تصيح الجارية بعد كل قطعة منه (واموالياه) ، وإلى جانب التحرر من الوزن بدأ تجديد فى القافية فظهرت الخمسات ، وهو أن يؤتى بخمسة أقسمة من وزن وقافية ثم بخمسة أخرى من الوزن وقافية أخرى إلى آخر القصيدة ، كالقصيدتين المنشورتين فى ديوان ابن زيدون تحت عنوان موشح^(١) فهما من الخمسات لا من الموشحات ، لمحافظة أسماطها على وزن واحد فى الأبيات والأقفال وعدم اختلاف قوافى الأقفال عن قوافى الأبيات إلا فى الجزء الأخير من القفل ، وقد ظهر أيضاً ، فيما يتعلق بالقافية ، المسمّط وهو أن يبتدئ الشاعر بيت مصرع ثم يأتى بأربعة أقسمة على غير قافيته ، ثم يعيد قسيماً على قافية البيت الأول ، وربما خلا من البيت المصرع وكان على أقل من أربعة أقسمة كقول القائل :

غزالٌ هاجَ لى شَجَنّا فَمِتْ مُكابِداً حَزَنّا
عميد القلب مُرْتَهِنّا بذكرِ اللهوِ ولطربِ

وظهرت المزدوجات وهو أن يؤتى بشطرين من قافية ثم بآخرين من قافية أخرى كقول أبى العتاهية :

حسبك ما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
إن الشباب حجة التصابى روائح الجنة فى الشباب

ويقال إن أول من نظم المزدوج بشار ثم تبعه أبان بن عبد الحميد وأبو العتاهية ، ولكن نقاد الشعر كابن رشيق رأوا فيه عبثاً واستهانة بالشعر ، حتى إن فحول الشعراء ابتعدوا عن هذه الأنواع التى عدوها مظهراً من مظاهر العجز والضعف

وفضلوا التزام القافية الواحدة . فليس غريباً إذاً أن يلاقى الموشح مقاومة ، وهو أكثر حرية من هذه الأنواع ، وأن يبتنى في نظر المحافظين والنقاد دليلاً على الانحلال الشعري .

إلا أن سكان الجزيرة الأندلسية على الرغم من ذلك استساغوه وأقبلوا عليه لملاءمته لهوى نفوسهم ، ولأنه استمد مقوماته وعناصر وحيه من هذا الوسط الأندلسي الذي عاش فيه متناغماً مع حياة شعرائه الذين مالوا إلى السهل ونشدوا اللهو والإمتاع والموسيقى . لذلك لم يجدوا حرجاً في أن يغرفوا من معينه في مختلف الأغراض الشعرية متجاهلين ما فيه من إسفاف وضعف ، بل لعل هذا الضعف اللغوي ما كان ليبدو لهم واضحاً لبعدهم عن مواطن اللغة ومنابعها الأصلية ولاختلاطهم بعناصر أجنبية . ولهذا بقيت الموشحات غذاء الأندلسيين يجدون فيها ذلك اللحن الموسيقي وتلك النشوة المتصلة التي لا تعرف اليقظة إلا على بأس جديد وهو جديد . وكان ابتداء فن الموشح فتحاً جديداً في التفلت من قيود الوزن والقافية .

وسنرى عند الكلام على أوزان الموشحات كيف أن ابن سناء الملك يجعلها ملازمة للموسيقى والغناء تستمد منهما أوزانها ونغمتها وتهزأ بعد ذلك بقواعد العروض وبحجور الشعر التقليدية .

تعريف الموشحات وعناصرها :

ذكر ابن سناء الملك في كتابه دار الطراز معرفاً للموشح فقال : « الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص . وهو يتألف في الأكثر من ستة أفعال وخمسة أبيات ويقال له التام ، وفي الأقل من خمسة أفعال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع . فالتام ما ابتدئ فيه بالأفعال ، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات » .

وقد سُمي هذا الفن بالموشح لما فيه من ترصيع وتزيين وتناظر وصناعة فكأنهم شبهوه بوشاح المرأة المرصع باللؤلؤ والجوهر .

ويحسن بنا لفهم أجزاء الموشحة ونظامها أن نورد هنا موشحاً يكون تطبيقاً لما نقول :

قال الأعمى التطيلي في موشح له ^(١) :

ضاحك عن جمان	سافر عن بدر	ضاق عن الزمان	وحواه صدرى
جزء ١	جزء ٢	جزء ٣	جزء ٤

آه ممّا أَجِدَ شَفَنِي ما أَجِدَ ١ جزء مركب
 قامَ بى وَقَعَدَ باطِشٌ مُتَّعِدَ ٣ جزء مركب
 كلما قلتُ قد . قال لى أين قد ٣ جزء مركب

فطلع الموشح المؤلف من أربعة أجزاء يسمى اصطلاحاً القفل الأول ،
 والقفل الثانى هو :

وانثنى خُوطَ . بان ذا مَهْزٍ نَضِرِ عابِثَتُهُ يَدانِ لِلصَّبَا والقَطَرِ

وما بين هذين القفلين يطلق عليه اسم البيت ، وليس من الضروري أن يكون بيتاً من الشعر مؤلفاً من شطرين كما هو معروف فى القصيدة التقليدية .
 والأقفال أجزاء مؤلفة يلزم أن يكون كل قفل منها متفقاً مع بقيتها فى وزنها وقوافيتها وعدد أجزائها .

والأبيات هى أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة يلزم فى كل بيت منها أن يكون متفقاً مع بقية أبيات الموشح فى وزنها وعد أجزائها لا فى قوافيها .

ونلاحظ إذا تلونا هذا الموشح بكامله أن القفل قد تكرر ست مرات مع المحافظة على قوافى أجزائه فى جميع الأقفال . وأن البيت قد تكرر خمس مرات ولم تلتزم قافية واحدة فى جميع الأبيات .

ومثل هذه الموشحة تامة لأنها تبتدئ بقفل وتنهى بقفل . والنوع الذى يبتدئ بالبيت وينتهى بالقفل يسمى أقرع كما ذكرنا .

وأقل ما يتركب القفل من جزئين فصاعداً إلى ثمانية أجزاء وعشر أجزاء .

وأقل ما يكون البيت ثلاثة أجزاء (كما هو فى الموشح المذكور) وقد يكون فى النادر من جزأين وقد يكون من ثلاثة أجزاء ونصف ، وهذا لا يكون إلا فيما أجزاؤه مركبة ، وأكثر ما يكون خمسة أجزاء .

والجزء من القفل لا يكون إلا مفرداً ، والجزء من البيت قد يكون مفرداً فيسمى البيت بسيطاً ، وقد يكون مركباً ، والمركب لا يتركب إلا من فقرتين أو من ثلاث أو من أربع فقر ، وقد يتركب فى الأقل من خمس فقر ،

مما تقدم نرى أن القفل فى هذا الموشح مؤلف من أربعة أجزاء والبيت مؤلف من ثلاثة أجزاء مركبة من فقرتين .

ولنوجز فيما يلى خصائص الأقفال والأبيات التى أشرنا إليها

القفل :

يتركب القفل من جزأين فأكثر إلى ثمانية أو عشرة وقد أوصله ابن سناء الملاك إلى أحد عشر .

البيت :

هو إما بسيط أو مركب .

فإن تألف البيت من أجزاء مفردة سمي بسيطاً .

وإن تألف كل جزء منه من فقرتين أو أكثر سمي مركباً .

والبيت البسيط يتألف من ثلاثة أجزاء أو أربعة أو خمسة . فمثال البيت

المؤلف من ثلاثة أجزاء قول ابن بلى :

عَبَثَ الشَّوْقُ بِقَلْبِي فَاشْتَكَيْ أَلَمَ الْوَجْدِ فَلَبِثْتُ أَذْمَعِي
(قفل من جزأين)

جزء ١	أَيُّهَا النَّاسُ فَوَادِي شَغِفُ
جزء ٢	وَهُوَ فِي بَغْيِ الْهَوَى لَا يُنْصِفُ
جزء ٣	كَمْ أَدَارِيهِ وَدَمْعِي يَكْفُ

أَيُّهَا الشَّاذُّ مَنْ عَلَّمَكَا بِسَهَامِ اللَّحْظِ قَتَلَ السَّبْعِ
(قفل من جزأين)

أما المركب من الأبيات فهو ما كان كل جزء منه مركباً من فقرتين أو ثلاث
أو أربع أو خمس فقر . فإذا لاحظنا أن البيت نفسه يكون مكوناً من ثلاثة
أجزاء أو أكثر ، نرى أنه يحدث من ذلك صور كثيرة .

فمثال البيت المركب من فقرتين وثلاثة أجزاء موشح الأعمى التطيلي الذي
قدمناه ، وهذا الموشح الذي يذكره ابن سناء الملك ^(١) :

كَذَا يَقْتَادِسُنَا الْكُوكَبِ الْوَقَادِ إِلَى الْجَلَّاسِ مَشْعَشَةَ الْأَكْوَاسِ

بيت من فقرتين أو ثلاثة أجزاء	أَقِمْ عُذْرِي فَقَدْ آتَى أَنْ أَعْكُفُ عَلَى خَمْرِ يَطُوفُ بِهَا أَوْطَفُ كَمَا تَذَرِي هُضِيمُ الْحَشَا مُخْطَفُ
------------------------------	--

ومثال البيت المركب من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء هذا الموشح الذي يذكره
أيضاً ابن سناء الملك ^(٢) :

(١) دار الطراز ص ٥٥ .

(٢) دار الطراز ص ٦٣ .

بيت من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء		من لى به يرنو بمقلتي ساجر إلى العباد ينأى به الحسن فينشئ نافر صعب القياد وتارة يدنو كما احتسى الطائر ماء الثماد
---------------------------------	--	---

* * *

نلاحظ أن الأندلسيين حاولوا أن يفتنوا في الأفعال والأبيات ، وعدد
أجزائها ، والتزام قوافيها ، ليصلوا من ذلك إلى أنواع جديدة تحمل أسماء
جديدة ، فمن ذلك أن يسموا القفل لازمة إذا كان القفل بيتين صدرهما قافية
واحدة وعجزاهما كذلك ، ثم يأتي بعد ذلك البيت ثلاثة أجزاء ، كل جزء
فقرتان ، متفقة صدرها في القافية وكذلك أعجازها ، ثم يأتي القفل وبعده
بيت وهكذا إلى النهاية .

مثال ذلك قول ابن زمرك :

لازمة		بالله يا قامة القضيب ومُخْجَلِ الشمس والقمر مَنْ مَلَّكَ الحُسْنَ فِي القُلُوبِ وَأَيَّدَ اللِّحْظَ بِالْحَوَرِ
-------	--	--

* * *

من لم يكن طبعه رقيقا لم يدر ما لذة الصبا
 فرب حُرٌّ غدا رقيقا نملكه نفحة الصبا
 نشوان لم يشرب الرحيقا لكن إلى الحسن قد صبا

* * *

فَعَذَّبَ الْقَلْبَ بِالْوَجِيبِ وَنَعَّمَ الْعَيْنَ بِالنَّظَرِ
وَبَاتَ وَالِدَعُ فِي صَبِيبٍ يُقَدِّحُ فِي قَلْبِهِ الشَّرَرَ^١

لازمة

هذا وكل قفل مع البيت الذى يليه يسمى بالسمط ، ونرى أن الموشحة تتألف من عدة أسماط متشابهة فى أفعالها مختلفة فى أبياتها ، وهذا ما يكون نوعاً من الترصيع يقربه من وشاح المرأة الذى شبهت به الموشحات .
وقد ذكر ابن سناء الملك فى كتابه « دار الطراز » أمثلة على جميع ما ذكرنا يمكن الرجوع إليها لتسهيل الإيضاح .

الخرجة :

وآخر قفل من الموشح يسمى الخرجة ، ويفضل الوشاحون أن تكون عامية لبعث المزى والظرف فى الموشحة ، إلا فى المديح . وفى ذلك يقول ابن سناء الملك :
« والشرط فيها أن تكون حجاجية^(٢) من قبل السخف ، قزمانية^(٣) من قبل اللحن ، حارة محرقة ، حادة منضجة ، من ألفاظ العامة ، ولغات الداصة ، فإن كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال ما تقدمها من الأبيات والأقوال خرج الموشح من أن يكون موشحاً اللهم إلا إن كان موشحاً مدحٍ وذكر الممدوح فى الخرجة فإنه يحسن أن تكون الخرجة معربة كقول ابن بلى :

إِنَّمَا يَحْيَى سَلِيلُ الْكَرَامِ وَاحِدُ الدُّنْيَا وَمَعْنَى الْأَنَامِ

وقد تكون الخرجة معربة وإن لم يكن فيها اسم الممدوح ولكن بشرط أن تكون ألفاظها غزلة جداً ، هزأزة سحرارة خلابة ، بينها وبين الصبابة قرابة ،

(١) العذارى المائسات ص ٩٤ .

(٢) نسبة إلى الشاعر أبى عبد الله الحجاج البندادى المشهور بمجونه توفى سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م

(٣) نسبة إلى ابن قزمان القرطبي شاعر الزجل المشهور توفى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م .

وهذا مُعْجِزٌ مَعُوزٌ وما يوجد منه في الموشحات سوى موشحين أو ثلاثة كقول ابن بَقي :

لَيْلٌ طَوِيلٌ وما مُعِينٌ يَاقْلَبُ بَعْضُ النَّاسِ أَمَّا تَلِينٌ؟

فمن قدر أن يقول هكذا فليعرب وإلا فليغرب» (١).

ويجعل الوشاحون الخرجة في الغالب على ألسنة الصبيان والنسوان والسكاري أو على ألسنة الحيوانات كالحمائم أو المجردات كالغرام والحرب ويمهدون لها بكلمة قال أو غنى أو ما يقارب ذلك كقول عبادة :

إِنْ الْحَمَامَ فِي أَيْكِهَا تَشْدُو

قُلْ هَلْ عَلِمَ أَوْ هَلْ عُمِدَ أَوْ كَانَ كَالْمَعْتَصِمِ وَالْمَعْتَصِدِ مَلِكَانَ

وهناك صفات أخرى للخرجة ذكرها ابن سناء الملك في كتابه «دار

الطراز» .

الفصل الثانى

أوزان الموشحات - أغراضها وفنها وقيمتها

أوزان الموشحات :

تنقسم الموشحات ، بشكل عام ، إلى قسمين من ناحية أوزانها ، فمنها ما جاء على أوزان أشعار العرب ، ومنها ما لا وزن له فيها ولا إلام له بها كما يقول ابن سناء الملك ^(١) .

أما القسم الأول : أى ما جاء على ببحر الشعر المعروفة ، فيعدّه الوشاحون مرذولاً وهو فى نظرهم أشبه بالخمسات منه . بالموشحات ^(٢) ولا ينظمه إلا الضعفاء من أصحاب صنعة التوشيح ، إلا إذا اختلفت قوافى قفله فإنه يخرج باختلاف قوافى الأقفال عن الخمسات كقول ابن زهر فى موشحته الشهيرة التى هى من بحر الرمل :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
وهم يستحسنون أن يحجروا فيه ويخرجوه عن الوزن المعروف بإدخال كلمة
أو حركة تتخلل فقراته . فمثال الكلمة قول ابن بى :

صبرتُ والصبرُ شِيمةُ العانى ولم أقل للمطيل هُجرانى مُعَذِّبى كَفَانى
فهذا من المنسرح وأخرجه منه قوله : « معذبى كفانى » .
ومثال الحركة :

يا ويح صبُّ إلى البرق له نظرُ وفى البكاء مع الورق له وطَرُ
فهذا من البسيط ، والتزام حركة الخفض فى البرق والورق أخرجه عن وزنه .

(١) دار لطراز ص ٣٣ .

وقد تكون أفعال الموشح موافقة لأساته في الوزن وقد تكون مخالفة لها ، وقد شرح ابن سناء الملك في كتابه مختلف سخالات (١) .

أما القسم الثاني : فهو ما خالف أوزان العرب ولم يخضع لعروض الشعر التقليدي وكان غرضه الغناء أكثر من الإنشاد وهو الكثير الشائع في الموشحات ، وقد أشار إليه ابن سناء الملك بقوله :

« والقسم الثاني من الموشحات هو ما لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب . وهذا القسم منها هو الكثير ، والجمل الغفير ، والعدد الذي لا ينحصر ، والشارد الذي لا ينضبط . وكنت أردت أن أقم لها عروضاً يكون دفتراً لحسابها ، وميزاناً لأوتادها وأسبابها فعر ذلك وأعوز ، لخروجها عن الحصر وانفلاتها من الكف ، وما لها عروض إلا التلحين ولا ضرب إلا الضرب ، ولا أوتاد إلا الملاوى ، ولا أسباب إلا الأوتار ، فهذا العروض يعرف الموزون من المكسور ، والسالم من المزحوف ، وأكثرها مبنى على تأليف الأرفع ، والغناء بها على غير الأرفع مستعار وعلى سواه مجاز » (٢) .

وقال في مكان آخر من كتابه :

« والموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين : قسم مستقل التلحين به ولا يفتقر إلى ما يعينه عليه ، وهو أكثرها ، وقسم لا يحتمله التلحين ولا يمشى به إلا بأن يتوكأ على لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً للمغنى كقول ابن بقل :

مَنْ طَالِبٌ ثَارَ قَتْلِي ظَبْيَاتُ الْحَدُوجِ فَتَنَاتُ الْحَمِيجِ

فإن التلحين لا يستقيم إلا بأن يقول : لالا بين الجزأين الجيمين من هذا القفل » (٣) .

(١) دار الطراز ص ٣٥ - ٣٨ .

(٢) دار الطراز ص ٣٥ .

(٣) دار الطراز ص ٣٧ .

يتبين مما تقدم أن العرب إنما اخترعوا الموشحات من أجل الغناء ، فيجدر بنا إذن ألا نطلب من الشاعر الوشاح أن يتقيد بوزن قديم معروف تقيداً شديداً . إن الذى يميز هذا الفن ويكسبه جمالا ليس العروض المقنن بل حرية الوزن ، وهى - مع هذا - حرية تقودها أذن موسيقية وضرورات التلحين ، وعلى هذا فليس العجز هو الذى جعل العرب يحجمون عن إيجاد عروض مقنن للموشح كعروض الشعر العربى التقليدى بل وجدوا ذلك يتنافى مع روح هذا الفن الخاضع للحرية والتجديد والتلحين والغناء . ونلاحظ أن المستشرق الألمانى (هارتمان) فى كتابه القديم عن الموشح قد حاول إرجاع أوزان الموشحات إلى ١٤٦ وزناً أو بجزءاً مشتقة من بحور الشعر العربى الستة عشرة ، ولكن لا يمكننا أن نرى فى هذه المحاولة إلا التصنع والتكلف ، إذ هناك موشحات تشذ عن الأوزان التى ذكرها هارتمان ولا تخضع لها ^(١) .

أغراضها ومعانيها ولغنها وقيمتها :

قال ابن سناء الملك : « الموشحات يعمل فيها ما يعمل فى أنواع الشعر من الغزل والمدح والثناء والهجو والمجون والزهد ، وما كان منها فى الزهد يقال له المكفر ، والرسم فى المكفر خاصة أن لا يعمل إلا على وزن موشح معروف وقوائى أقفاله ، ويختم بخرجة ذلك الموشح ليدل على أنه مكفره ومستقيل ^(٢) ربّه عن شاعره ومستغفره » .

يتبين لنا من هذا القول أن الموشح قد نظم فى أكثر أغراض الشعر المعروفة ، ولكن لما كانت الموشحات قد اخترعت فى سبيل الغناء كان من الطبيعى أن تنظم بكثرة فى الأغراض التى تناسب هذا الفن كالغزل ووصف مجالس اللهو والخمر ووصف الطبيعة . كما أنهم قد نظموها فى المدح بغية التكسب ، ولأن قصور الخلفاء والأمراء كثيراً ما كانت تضم مجالس الغناء الفخمة فيجد الشاعر والمغنى

فرصة لإيصال مدحه إلى آذان الأمير عن طريق الغناء فتزداد نشوة الممدوح وهو في طربه ويزيد إغداقه وكرمه .

ويظهر أن الموشحات خلقت لتصف حياة الدعة والأنس والهناء ، ولهذا كلما تعرضت لهذه الأغراض بدا تأثيرها وظهرت جدتها وكانت أعلق بالنفوس ، ولا سيما عندما تتعرض لوصف الطبيعة — وما أكثر ما تتعرض — فتصورها بألوانها وأصباغها ، وطيورها وبلابلها ، وأزهارها وأشجارها ، وجداولها وعبيرها ، ويتجلى لنا حب الأندلسى لوطنه ، واختلاط الطبيعة بروحه ، وكيف أنها ملتقى العشاق وساحة اللهو والطرب ، ومبعث السلوان والحنين .

فلنسمع هذه الموشحة الشهيرة لابن زُهر، إننا لا نجد فيها من المعانى ما يجلب انتباهنا ولكنها تخلق لنا جوًّا حبيباً وتدغدغنا بموسيقاها فنبعث فينا هذه النشوة الحبيبة، نشوة من يرى منظراً طبيعياً ندياً تظلمه الأضواء الخفيفة وتعبق فيه الأشداء المرنحة ينشرها الريحان العائم على الماء الواجم في جريانه :

ما للموَلِّه من سُكْرِهِ لَا يُفْقِ يا له سكران
من غيرِ خمرٍ ما للكئيبِ المَشُوق يندُب الأوطان

هل تستعاد أيا مَنَا بالخليج وليالين —
أو يستفاد من النسيم الأريج مسك دارينا
أو هل يكاد حسن المكان البهيج أن يُحَيِّنَا

* * *

روضٌ أَظَلَّه دوحٌ عليه أنيقٌ مورقُ الأفنان

والماء يجري وعائثٌ وغريقٌ من جنى الريحان^١

وكذلك موشحة ابن سهل الإشبيلي ، إنها تلعب فينا بألفاظها الغزلية وموسيقاها ،
على أننا لا نجد فيها من المعاني ما يسترعى الانتباه ، وإنما هي قصيدة مرنحة نشعر
بجلاوة قوافيها المتواترة ونغماتها العذبة :

هل درى ظبي الحِمَى أن قد حَمَى قلب صبَّ حلَّه عن مكِنِس
فهو في حرٍّ وخفقٍ مثلما لعبت ريح الصِّبا بالقَبَس

* * *

يا بدوراً أشرقَتْ يومَ النوى غُرّاً تسلك بي نهجَ الغرر
ما لقلبي ، في الهوى ، ذنبٌ سوى منكم الحسنُ ومن عيني النظر
أجتنى اللذاتِ مكلومَ الجوى والتذاذي من حبيبي بالفكر

* * *

كلما أشكوه وجدى بَسَما كالرُّبى بالعارضِ المنبجِس
إذ يقيمُ القطرُ فيها مأتماً وهي من بهجتها في عُرْس

* * *

أيها السائلُ عن جرمي لديه لى جزاء الذنبِ وهو المذنبُ
أخذت شمسُ الضحى من وجنتيه مشرقاً للشمس فيه مغربُ

(١) مقدمة ابن خلدون . انظر أيضاً الموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ٣١ طبع مكتبة صادر ،

ذَهَبَ الدَّمْعُ بِأَشْوَاقِي إِلَيْهِ وَلَهُ خَدٌّ بِلَحْظِي مُذْهَبٌ

يَنْبِتُ الْوَرْدُ بِغَرْسِي كُلَّمَا لَا حَظَّتُهُ مَقْلَتِي فِي الْخُلْسِ
لَيْتَ شَعْرِي أَى شَيْءٍ حَرَمًا ذَلِكَ الْوَرْدَ عَلَى الْمَغْتَرِسِ ؟

وهكذا فإننا لا نجد في معاني الموشحات جِدَّةً وعمقاً . وإنما هي لطيفة حلوة على ابتذالها ، يستسيغها الذوق لنعومة خيالها وبريق صورها التي تتآلف مع ألوان الطبيعة وتأخذ منها عطرها وغضارتها وأشكالها .

وهذه المعاني التافهة يسترها طلاء خارجي مستمد من ضروب البيان والبديع . إلا أن الشاعر كثيراً ما يفرق في استعمال هذا الطلاء فتبدو موشحته كغادة بالغت في الزينة واستعمال المساحيق فخسرت الكثير من جمالها ولكنها على الرغم من ذلك قد استطاعت أن تحافظ على رشاققتها ومشيئها المرقصة فألمتنا بهذا الغنج الذي تبديه عن البحث عن معانيها والغوص على أسرارها . ويبدو لنا أن الوشاح الأندلسي لم يكن همه البحث عن معنى مبتكر ، بل لعله لم يستطع أن يأتي بمعنى مبتكر دقيق بعد أن عجز عن إدراك هذه الغاية في الشعر التقليدي . وإنما يبغي من موشحاته خلق أجواء الحب وإثارة عواطف الحنين وشطحات الخيال بعبارات ساذجة لينة تحف بها موسيقى هادئة تصويرية حيناً ومركبة ملهية حيناً آخر فتطرب لها الروح وتخلد لنوع من الطمأنينة والنسيان والنشوة والمرح .

هذه المعاني الساذجة التافهة إن عبرت عنها موسيقى ناجحة على الأغلب فإنها لم تحوها قوالب متينة من الألفاظ والعبارات . فلغة الموشحات يغلب عليها الضعف

والركاكة . وهى فى لينها وحريتها واثلافلها مع روح العامة قادت اللغة الشعرية إلى الركاكة وأساءت من هذه الناحية إلى اللغة العربية . فأصبح الشاعر الوشاح لا يجد حرجاً فى التساهل اللغوى طالما يبنى إرضاء الأذواق العامة كما ترضى الأغاني الشعبية هذه الأذواق . وكانت الموشحات قفزة من القفزات التى أدت إلى الشعر الشعبي العامى المسمى بالزجل .

على أنه يجب ألا يفهم من ذلك أن الموشحات هى وحدها التى أدت إلى ظهور شعر الزجل . لأن هذا الشعر فى نظرننا كان دائماً نتيجة طبيعية لانتشار اللهجات العامة على ألسنة الناس واستساغتها فى جميع أنماط أحاديثهم وتناجهم الأدبى . وهذا الانتشار يمكن أن يحدث فى كل زمن وفى كل بقعة تضعف فيها السليقة العربية . ولذا فإن الموشحات ليست السبب كله فى ظهور شعر الزجل . إنها لم تدع إلى نشوئه لأنه نشأ من نفسه . وإنما تطورت باتجاهه وساعدت على انتشاره ورواجه . ولعل الموشحات كانت تحمل فى طياتها بذور هذا الانحراف عندما نص شعرائها على أن تكون الحرجة عامية وعندما رأينا أن لغتها فى الأغلب الأعم مهلهلة ضعيفة .

ولكن من الإنصاف أن نقول إن الموشحات لم تهو إلى هذا الدرك من الضعف والبعد عن الأساليب الفصيحة إلا فى عصور الانحطاط . وقد قدّر شعراء العصر الحديث ميزات الفنى وخصائصها فحرروها من العامة وعادوا بها إلى اللغة الفصحى ، وقام شعراء المهجر ينظمون فيها أشعاراً فصيحة صحيحة فياضة برقيق المعنى وجرس الموسيقى مبتعدين عن الإغراق فى ضروب البيان والبديع . وإذا رأينا أن شعراء الأندلس وغيرهم من المغاربة قد افتنوا فى استعمال هذه الحلية اللفظية فما ذلك إلا لأنهم كانوا فى عصر التأنق اللفظى فخضعوا لتياره طائعين ولم يدروا ، وقد جرفهم التيار ، أن شعرهم قد أصبح فى جميع مظاهره آنية فارغة تزينة الزخارف .

هذه هى أغراض الموشحات وخصائص معانيها وصفاتها العامة فهل استطاعت أن تثبت وجردها كمن ناجح ؟

لا مراء في أن الموشحات قد لاقت ، لدى ظهورها ، رواجاً وانتشاراً سريعين لاعتمادها على الغناء ولإلغائها للنفوس الهانئة ، فثلث بذلك العصر الذي نشأت فيه والأرض التي ترعرعت تحت سمائها ، وهي أرض الأندلس في مطلع القرن الرابع الهجري وما بعده . ولكن لا يمكننا أن نقول إن الموشحات قد مثلت وجه الشعر العربي المزدهر .

فنحن إذا نظرنا إليها من خلال تاريخ الشعر العربي ، نراها ظاهرة من ظواهر الانحطاط ، إذ أنها في أوج ازدهارها في بلاد الأندلس لم تبلغ قوة الشعر التقليدي ولا صفاء خياله وعمق معناه وقوة لغته . ولعل ذلك ناجم عن أن الحرية التي جاء بها الموشح لم تقتصر على الوزن والقافية بل شملت اللغة والأسلوب وقادتهما إلى العامية والإسفاف كما ذكرنا . ولو قدر لشعراء عباقرة ، وهم يستثمرون حرية هذا الفن ، أن يحترموا نقاء اللغة وقوة الأسلوب القديم وأن يرتفعوا عن سفاسف القول إلى روعة معاني الشعر التقليدي وصحة أسلوبه ، لكان هذا التجديد الذي جاءت به الموشحات تجديداً ناجحاً . إذ لا يمكننا أن نجحد المجال الرحب الذي فتحه هذا الفن أمام الشعر العربي ، ولكن الذي يدهشنا أن المحاولات التي جرت في هذا المضمار لم تكن موفقة اللهم إذا استثنينا بعض موشحات مشاهير الوشاحين الأندلسيين كابن زهر وابن بقي وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب ، وموشحة ابن سناء الملك التي يقول في مطلعها :

كلّلى ، ياسحبُ تيجان الرُّبى بالحلى

واجعّلى ، سواردا منعطف الجدول

تجاه هذا الفقر في الموشحات نتساءل : هل كان الموشح شكلاً غريباً عن عبقرية اللغة العربية التي لم تتألق ببهاء إلا في الشعر القديم والأدب التقليدي بصورة عامة ؟ أم أن الموشح لم يقدر له شعراء عباقرة كأبي نواس والبحتري وابن الرومي والمتنبي ومن لف لفهم لكي يرفعوه إلى المكانة التي يستحقها والتي توحى بها ميزاته ؟ إن ظهوره في عهد الانحطاط يؤيد ما قلناه من أنه ظاهرة من ظواهر هذا

الانحطاط . ولكننا نعتقد بأن شعراء أقوياء ذوى ثقافة لغوية متينة يستطيعون أن يستعملوا هذا الفن متجنين مساوئه التى أشرنا إليها مستثمرين خصائصه الموسيقية البادية فى حرية الوزن وتعدد القافية ، وعندئذ يمكنهم أن يرفعوا هذا الفن الجديد إلى مكانة الشعر الكلاسيكى دون أن يفقدوه ميزاته الأصلية . إذ لا يخفى أن الموشح إذا روعيت فيه الفصاحة شائق جميل وهو شعر الحب والنجوى واللهو أكثر من أن يكون شعر التأمل والفلسفة ، ولذا نغتنر له أحيانا سداجة معانيه ولكننا لا نغتنر له ركافة أسلوبه وهلهلة ألفاظه وضعف لغته .

وصفوة القول : يجب أن نشير إلى الموشح كفتح جديد فى الأدب العربى جرير بأن يقدم لنا نتائج أفضل مما قدم حتى الآن . ولا يجب أن نطلب منه وأن يكون غذاء الذهن والفكر بل يكفيننا منه ما يثيره فينا من عاطفة وخيال وما تخلق موسيقاه فى نفوسنا من لذة محبة .

الفصل الثالث

مختارات من الموشحات

١

قال عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ :

مَنْ وَلى فِي أُمَّةٍ أَمْرًا وَلَمْ يَعْدِلْ يعزل إِلَّا لحاظًا الرشيًّا الْأَكْحَلْ

* * *

جُرْتُ فِي حَكْمِكَ فِي قَتْلِي يَا مُسْرِفُ

فَانْصِفْ فَوَاجِبُ أَنْ يُنْصَفَ الْمُنْصِفُ

وَارَأْفْ فَإِنْ هَذَا الشُّوقَ لَا يِرَافُ

عَلَّيْ قَلْبِي بِذَاكَ الْبَارِدِ السَّلْسِلِ يَنْجَلِي مَا بِفَوَادِي مِنْ جَوَى مُشْغَلِ

* * *

إِنَّمَا تَبْرَزُ كِي تَوْقَدَ نَارَ الْفِتَنِ

صَنِمَا مُصَوَّرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ حَسَنِ

إِنْ رَمَى لَمْ يَحْظَ مِنْ دُونِ الْقُلُوبِ الْجَنَنِ

كَيْفَ لِي تَخَلُّصٌ مِنْ سَهْمِكَ الْمُرْسَلِ فَصِلْ وَاسْتَبْقِنِي حَيًّا وَلَا تَقْتُلْ

* * *

يا سنى الشمس ويا أبهى من الكوكبِ
يا منى النفس ويا سوئلى ويا مطلبى
ها أنا حلّ بأعدائك ما حلّ بى
عُدِّلِي من ألم الهجران فى مَعَزِلِ والخَلَى فى الحُب لا يسأل عمن يلى

* * *

أنت قد صيرت بالحسن من الرُّشد غى
فاتعدُّ فى طرفى حبك ذنباً على
فاتعدُّ وإن تشا قتلى شيئاً فشى
أَجْمَلِ ووالنى منك يد المفضِّل فهى لى من حسنة الزهن المُقْبَل

* * *

ما اغتذى طرفى إلا بسنى ناظريك
وكذا فى الحب ما بى ليس يخفى عليك
وكذا أنشدُ والقَلْبُ رهينٌ لديك
يا على سللت جفنيك على مقتلى فابقِ لى قلبى وجُدْ بالفضل يا موئلى^١

* * *

(١) انظر هذه الموشحة فى فوات الوفيات للكتبى ، ج ١ ص ٢٠٠ .

قال أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ، من شعراء المعتصم بن
صهاح صاحب المرية ، عاش في القرن الخامس الهجرى :

بِأَنى ظيُّ حِمى تَكْنُفُهُ أُسْدُ غِيلِ
مَذْهَبِي رَشْفُ لَمَى قَرَقَفُهُ مَسْئِلِ
يَسْتَبِي قَلْبِي بِمَا يَعْطِفُهُ إِذْ يَمِيلُ
ذَواعْتِدالُ يُعْزَى إِلَى ذِي نِعْمَةٍ ثابِتِ
فِي ظِلالٍ تَحْتَ حُلَى قَطْرِ الندى بايِتِ
وَفْتورُ ذُو غَنْجٍ ذُو مَرْشَفٍ أَلْعَسِ
الْعَبِيرُ فِي أَرْجٍ وَالْحَسَنُ فِي مَلْبَسِ
كَمْ يَشِيرُ وَجَدَ شَجٍ بِالذَّنْفِ مَكْتَسِ
ذُو اعْتِلالٍ لَوْ عُلِّلَا أَنْطَقَ عَنْ ساكِتِ
وِغْزالٍ لَوْ مُقْلَا أَلْحَظَ عَنْ باهِتِ
نَيْرُ حَدِّ الهوى أَنْ يَجِدُوا حَدَّهُ
كَوْثَرُ سِرِّ الصَّدَى أَنْ يَرِدُوا وَرْدَهُ
انْظُرُوا مُحَمَّدًا وَاتَّئِدُوا عِنْدَهُ
فِي هِلالٍ لَوْ يَجْتَلَى جَلَّ عَنْ الناعَتِ
وَزُلالٍ لَوْ بُذِلَا يَرْتَقِي لِلْقانَتِ

بَدُرُ تَمْ شَمْسُ ضُحَى غُضْنُ نَقَا مِسْكُ شَمِّ
 مَا أَتَمْ مَا أَوْضَحَا مَا أَوْرَقَا مَا أَنَمْ
 لَا جَرَمَ مَنْ لَمَحَا قَدْ عَشِقَا قَدْ حُرِمَ

فَالْوَصَالُ مَا قَدْ خَلَا مِنْ أَمَلٍ فَايَتِ
 وَالْخِيَالُ مَا قَدْ عَلَا مِنْ نَفَسٍ خَافَتِ

قَاتِلِي أَهْنُ دَمَا مَنْ قَدْ غَدَا مُلْحِدَا
 وَاصِلِي كُنْتَ فَمَا عَمَا بَدَا قَدْ عَدَا
 سَايِلِي مُسْتَفْهِمَا جَيْشُ الرَّدَى أُعْتِدَا

لَا سَوَالٌ عَنْ مَبْتَلَى يَنْحَتُ فِي صَامَتِ
 لَيْنَالُ مَا أَمَّلَا وَالْأَمْرُ لِلشَّامَتِ

كَمْ يَتِيهَ كَمْ وَكَمْ يَا بَى الْجَوَى أَنْ يَحُولُ
 أَرْتَضِيهِ وَإِنْ حَكَمَ حُكْمَ الْهَوَى فِي الْعَقُولِ
 قَلْتُ فِيهِ وَالْحَبُّ لَمْ يَرْضَ سِوَى مَا أَقُولُ

الْجَمَالَ وَقَفُّ عَلَى ظَبْيِ بَنَى ثَابِتِ
 لَا زَوَالٌ فِي الْحَبِّ لَا عَنْ عَهْدِهِ الثَّابِتِ

قال محمد بن عيسى بن محمد أبو بكر اللخمي الأندلسي المشهور بابن اللبانة
المتوفى سنة ٥٠٧ هـ :

في نرجس الأحداق وسوسن الأجياد نبت الهوى مغروس بين القنا المياد

* * *

وفي نقا الكافور والمندل الرطب
والهودج المزور بالوشى والعصب
قُضِبُ من البلور حُمين بالقُضْبِ
نادى بها المهجور من شدق الحب

أذابت الأشواق روى على أجساد أعارها الطاووس من ريشه أبراد

* * *

كواعبُ أتربُ تشابهتُ قدًا
عَضَّتْ على العناب بالبردِ الأندى
أَوْصَتْ بى الأوصابُ وأغرَّتِ الوجدًا
وأكثرُ الأحبابُ أعدى من الأعدا

تفتّر عن أعلاق لآلى أفراد فيه اللّمي محروس بألسن الأغماذ

* * *

من جوهر الذكرى عَطَّلْ نَحُورَ الحُورِ
 وَقَلَّدْ الدُّرَا سِلَاقَةَ المنصورِ
 جَاوَزْ به البحرَا وَاخْرِقْ حِجَابَ النُورِ
 وَقُلْ له شِعْرَا بِفَضْلِكَ المشهورِ

جَمَعْتَ فِي الْآفَاقِ تَنَافُرَ الْأَضْدَادِ فَأَنْتَ لَيْثُ الْخَيْسِ^١ وَأَنْتَ بَدْرُ النَّادِ

* * *

خَرَجْتُ مُحْتَالَا أَبْغَى سَنَى الْبَرْقِ
 أَقْطَعُ أُمِّيالَا غَرْبًا إِلَى شَرْقِ
 مُؤْمَلًا حَالَا يَكُونُ مِنْ وَفْقِي
 فَقَالَ مَنْ قَالَا وَفَادَ بِالْصَدَقِ

دَعْ قِطْعَكَ الْآفَاقِ يَا أَيُّهَا الْمُرْتَادُ وَاقْصِدْ إِلَى بَادِيَسْ خَيْرِ بَنِي حَمَّادِ

* * *

يَا مَنْ رَجَا الطَّلَا وَأَمَّلَ التَّعْرِيسَ
 إِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْلَا بِطَائِلِ التَّائِيسِ
 لَا تَعْتَمِدْ إِلَّا عَلَى عُلا بَادِيَسْ

من فَرْقِهِ أَعْلَى قَدْرًا من البرجيس
مواطنُ الأرزاقِ أولئك الأمجادُ فاحطط . رجال العيس وانقض بقاء الزاد^١.

* * *

٤

قال الأعمى التطيلي وهو من الوشاحين المشهورين في مطلع القرن السادس
توفي سنة ٥٢٠ هـ :

ضاحكٌ عن جمانٍ سافر عن بدرٍ ضاقَ عنه الزمانُ وحواه صدى
آه مما أَجِدُ شَفْنِي ما أَجِدُ
قامَ بي وَقَعْدُ باطشٍ متشدُّ
كلما قلتُ قَدْ قالَ لى أينَ قَدْ
وانشَىْ نَحْوَ. بَانَ ذَا مِهْزٍ نَضِرِ عابِثَتُهُ يَدَانِ اللَّصْبَا وَالْقَطْرِ
ليس لى مِنْكَ بَدْ خُذْ فَوَادى عن يَدِ
لم تدعُ لى جَلَدٌ غيرَ أَنى أَجْهَدُ
مكرع من شُهدِ واشتياقِ يشهدُ
ما لَبِنتِ الدنانَ ولذاكَ الثغرِ أينَ مَحْيَا الزمانَ من حُمَيَّا الخمرِ
بى هوى مضمَرٌ لَيْتَ جُهدِى وَفَقُّهُ

كلما يظهر ففؤادى أفقه
 ذلك المنظر لا يداوى عشقه
 بأبي كيف كان فلكى درى راق حتى استبان عذره وعذرى
 هل إليك سبيل أو إلى أن أياسا
 ذُبتُ إلا قليل عبرة أو نفسا
 ما عسى أن أقول ساء ظنى بعسى
 وانقضى كل شأن وأنا أستشرى خالعا من عنان جزعى وصبرى
 ما على من يلوم لو تناهى عنى
 هل سوى حب ريم دينه التجنى
 أنا فيه أهيم وهو بى يغنى
 قدر أيتك عيان ليس عليك ساتدري سايطول الزمان وستنسى ذكرى

* * *

٥

قال يحيى بن بى القرطبي ، وهو وشاح بارع فى عصر المرابطين ، توفى
 سنة ٥٤٠ هـ :

عَيْثَ الشَّوْقِ بِقَلْبِي فَاشْتَكَيْ أَلَمَ الْوَجْدِ فَلَبِثْتُ أَدْمَعِي

* * *

أَيُّهَا النَّاسُ فَوَادَى شَغِيفُ
 وَهُوَ مِنْ بَغْيِ الْهَوَى لَا يُنْصَفُ
 كَمْ أَدَارِيهِ وَدَمْعِي يَكِفُ
 أَيُّهَا الشَّادِنُ مِنْ عَلَمِكَا بِسَهَامِ اللَّحْظِ قَتَلَ السَّبْعِ-

* * *

بَدْرُ تَمَّ تَحْتَ لَيْلٍ أَغْطِشُ
 طَالَعُ فِي غَصْنِ بَانَ مُنْتَشِرِ
 أَهْيَفُ الْقَدِّ بِخَدِّ أَرْقِشِ
 سَاحِرُ الطَّرْفِ وَكَمْ ذَا فَتَكَ بِقُلُوبِ الْأُسْدِ بَيْنَ الْأَضْلَعِ

* * *

أَيُّ رَيْمٍ رُمْتُهُ فَاجْتَنِبَا
 وَانْثَنِي يَهْتَزُّ مِنْ سُكْرِ الصَّبَا
 كَقَضِيبٍ هَزَّهَ رِيحُ الصَّبَا
 قُلْتُ: هَبْ لِي يَا حَبِيبِي وَصَلِّكََا وَاطَّرِحْ أَسْبَابَ هَجْرِي وَدَعِ-

* * *

قَالَ: خَدَى زَهْرُهُ مُدَّ فَوَّفَا
 جَرَدَتْ عَيْنَايَ سَيْفًا مُرْهَفَا

حَذَرًا مِنْهُ بَأْنٌ لَا يُقْطَفَا
إِنَّ مَنْ رَامَ جَنَاهُ هَلَكَ فَاَزِلْ عَنْكَ عِلَالَ الطَّمَعِ^١

* * *

ذَابَ قَلْبِي فِي هَوَى ظَبِي غَرِيرٍ
وَجْهُهُ فِي الدَّجْنِ صَبِيحٌ مُسْتَنِيرٍ
وَفَوَادِي بَيْنَ كَفْيَيْهِ أَسِيرٌ
لَمْ أَجِدْ لِلصَّبْرِ عَنْهُ مَسْلَكًا فَانْتَصَارِي بَانْسِكَابِ الْأَذْمَعِ

* * *

٦

وله أيضاً هذه الموشحة :

أَدِرْلُنَا أَكْوَابُ يُنْسِي بِهَا الْوَجْدُ وَاسْتَصْحَبِ الْجُبْلَاشُ كَمَا اقْتَضَى الْعَهْدُ

* * *

دِنْ بِالْهَوَى شَرُّعَا مَا عَشْتِ يَا صَاحِ
وَنَزَّهُ السَّمْعَا عَنْ مَنْطِقِ اللَّاحِي
وَالْحَكْمُ أَنْ يُدْعَى إِلَيْكَ بِالرَّاحِ

(١) علال الطمع : استداره باستمرار ، من عل الناقة : حلبها صباحاً ومساءً وظهراً .
(٢) انظر : فنج الطيب ج ٥ ص ٣٦٧ - ٣٧٢ (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) وانظر الموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ١٦ ، طبعة مكتبة صادر ، بيروت .

أَنَامِلُ الْعُنَابِ وَنَقْلَكَ الْوَرْدُ حَفًّا بِصِدْغَى آسٍ يَلْؤِيهِمَا الْمَخْدُ

لِلَّهِ أَيَّامُ دَارَتْ بِهَا الْبَخْمَرُ
وَالرُّوْضُ بِسَامُ بَاكَرَهُ الْقَطْرُ
وَصَلُّ وَأَنْغَامُ وَأَوَّجُهُ زُهْرُ

فَنَحْنُ بِالْأَصْحَابِ قَدْ ضَمْنَا عِقْدُ وَأَفْرَطُ الْإَيْنَاسِ مِمَّا لَهُ حَدُّ

بَيْنَا أَنَا شَارِبُ لِلْقَهْوَةِ الصَّرْفِ
وَبَيْنَنَا تَائِبُ لَكِنْ عَلَى حَرْفٍ^١
إِذْ قَالَ لِي صَاحِبُ مِنْ جَمَلَةٍ الظُّرْفِ
أَمِيرُنَا قَدْ تَابَ غَنٌّ لَهُ وَاشْدُ وَاعْرِضْ عَلَيْهِ الْكَاسَ عَسَاهُ يَرْتَدُّ^٢

٧

قال أبو بكر محمد بن باجة الأندلسي السرقسطي المتوفى سنة ٥٣٣ هـ :

جَرِّرِ الذَّيْلَ أَيُّمَا جَرِّ وَصِلِ الشُّكْرَ مِنْكَ بِالشُّكْرِ

(١) تائب على حرف : أى على وجه واحد ، كأن يتوب عن معصية ولا يتوب عن أخرى .

(٢) الموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ٢٢ دار الطراز ص ٤٧ .

خَضَّبَ الزَّندَ مِنْكَ بِاللَّهَبِ
 مِنْ لَجِينٍ قَدْ حُفَّ بِالذَّهَبِ
 تَحْتَ سِلْكٍ كَجَوْهَرِ الْحَبِيبِ
 مَعَ أَحْوَى وَأَعَذِبِ الشَّنْبِ
 أُودِعْتُ كَفُّهُ مِنَ السَّحَرِ جَامِدَ الْمَا وَذَائِبَ التَّبَرِ

* * *

هَاكَ نَوْرَ الصَّبَاحِ قَدْ لَاحَا
 وَنَسِيمَ الرِّيَاضِ قَدْ فَاحَا
 فَتَاهَبَ وَشَعْشَعَ الرَّاحَا
 لَا تَقِدْ فِي الظَّلَامِ مَصْبَاحَا
 حِينَ تَنْهَلُ أَدْمَعُ الْقَطَارِ فَعَلَى الرُّوضِ نَاسِمٌ عِطْرِي

* * *

فَهَمُومٌ رَاحَتْ بِأَفْرَاحِ
 فِي مَسَاءٍ وَعِنْدَ إِصْبَاحِ
 وَالْغَوَادِي تَجُودُ بِالرَّاحِ
 وَهِيَ تَسْقِي الرَّبِّي بِأَقْدَاحِ

وقدودُ الأعْصانِ بالسُّكْرِ تنثني في غلائلِ خُصْر^١

* * *

طاب شربى من خمرِ خَمَّارٍ
بين مُردٍ وبين أبكارٍ
وجَنَيْنَا وردًا ولا حارٍ^٢
ويد الصبحِ زندها وارٍ^٣
قد جنتُ لى من أحسن الزهرِ جذوةً عنبريةً النَّشْر^٤

* * *

٨

قال أبو بكر محمد بن زهر الأشبيلي المتوفى سنة ٥٩٥ هـ وموشحته على نمط
موشحة ابن بقی^(٥) :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

* * *

ونديم همتُ في غرتِه

(١) النوادى : غيوم الصباح . الراح : أى المطر . الأقداح : يقصد بها هنا أوراق الزهر التى يرويه المطر .

(٢) حار : ترخيم حارس ، وهو مع غير النداء ضرورة .

(٣) زندها وار : أى نخرج ناره .

(٤) انظر : العذارى المائتات ص ٨٩ - ٩١ والموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ٢٦ .

(٥) انظر ص ٣١٦ من هذا الكتاب .

وَبُشْرِبِ الرَّاحِ مِنْ رَاحَتِهِ
 كَلِمَا اسْتَيْقِظَ مِنْ سَكْرَتِهِ
 جَذَبَ الزُّقَّ إِلَيْهِ وَاتَكَا وَسَقَانِي أَرْبَعًا فِي أَرْبَعِ

* * *

مَا لَعِنِي عَشِيْتُ بِالنَّظَرِ
 أَنْكَرْتُ بَعْدَكَ ضَوْءَ الْقَمَرِ
 وَإِذَا مَا شِئْتَ فَاسْمَعْ خَبْرِي
 عَشِيْتُ عَيْنَايَ مِنْ طَوْلِ الْبُكَاءِ وَبَكَاءِ بَعْضِي عَلَى بَعْضِي مَعِي

* * *

غُضْنُ بَانَ مَالٍ مِنْ حَيْثُ اسْتَوَى
 بَاتَ مِنْ يَهْوَاهُ مِنْ فَرْطِ الْجَوَى
 خَفِقَ الْأَحْشَاءُ مُوْهِنَ الْقُوَى
 كَلِمَا فَكَّرَ بِالْبَيْنِ بَكَى وَيَحَهُ يَبْكِي لِمَا لَمْ يَقَعِ

* * *

لَيْسَ لِي صَبْرٌ وَلَا لِي جَلْدُ
 يَا لِقَوْمِي عَذَلُوا وَاجْتَهَدُوا
 أَنْكَرُوا شُكْوَايَ مِمَّا أَجْدُ

مَثَلُ حَالِي حَقُّهُ أَنْ يُشْتَكَى كَمَدُ الْيَأْسِ وَذُلُّ الطَّمَعِ

كَبِدِي حَرَّى وَدَمْعِي يَكْفُ
يَعْرِفُ الذَّنْبَ وَلَا يَعْتَرِفُ
أَيُّهَا الْمُعْرِضُ عَمَّا أَصِفُ

قد نما حبك عندي وزكا لا تقل في الحب إني مدع^١

٩

وله أيضاً هذه الموشحة :

ما للمولاه من سُكره لا يُفِيْقُ ياله سكران
من غير خمر ما للكئيب المشوق يندب الأوطان

هل تستعاد أيا منّا بالخليج وليــــالينــــا
أو يستفاد من النسيم الأريج مسك دارينا^٢
أو هل يكاذ حسن المكان البهيج أن يُحيينا

(١) انظر : دار الطراز ص ٧٣ والموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ١٣ .

(٢) بلد بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند ويباع بها فصار ينسب إليها .

دَوْضُ أَظْلَهُ دَوْحٌ عَلَيْهِ أَنْيَقُ مَوْرُقُ الْأَفْنَانِ
وَالْمَاءُ يَجْرِي وَعَائِمٌ وَغَرِيقٌ مِنْ جَنَى الرِّيحَانِ

* * *

أَوْ هَلْ أَدِيبُ يُحْيِي لَنَا بِالْغُرُوسِ مَا كَانَ أَحْلَى
مَعَ الْحَبِيبِ وَصَافِيَاتِ الْكُؤُوسِ فَاسْقِنِي وَأَمَلَا
عَيْشُ يَطِيبُ وَمَنْزَهُ كَالْعُرُوشِ عِنْدَمَا تُجَلَّى
عَيْشُ لَعَلَّهُ يَعُودُ مِنْهُ فَرِيقٌ كَالَّذِي قَدْ كَانَ
أَضْغَاثُ فِكْرٍ تَحْدُو بِهِ وَتَسْبُوقُ هَذِهِ الْأَلْحَانِ

* * *

يَا صَاحِبِيَا إِلَى مَتَى تَعْذِلَانِي أَقْصِرَا شَيْئًا
قَدْ مِتُّ حَيًّا وَالْمُبْتَلَى بِالْغَوَانِي مَيِّتٌ حَيًّا
جَنَى عَلِيًّا عَذَبُ اللَّمَى وَالْمَعَانِي عَاطِرٌ رِيًّا
هَلَالٌ كِلَهُ غَزَالُ أَنْسٍ يَفُوقُ سَائِرَ الْغَزْلَانِ
يَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ لِي إِلَيْهِ طَرِيقٌ أَوْ إِلَى السُّلُوفَانِ

* * *

١٠

وله أيضاً هذه الموشحة وهى من مجزوء الخفيف :

سَلِّمِ الْأَمَرَ لِلْقَضَا فَهُوَ لِلنَّفْسِ أَنْفَعُ

وَاعْتَنِمِ حِينَ أَقْبِلَا

وَجَهَ بَدْرِ تَهْلَلَا

لَا تَقْلُ بِالْهَمُومِ لَا

كُلْ مَا فَاتَ وَانْقَضَى لَيْسَ بِالْحَزَنِ يَرْجِعُ

وَاصْطَبِحْ بَابِنَةَ الْكُرُومِ

مَنْ يَدَى شَادِنٍ رَخِيمِ-

حِينَ يَفْتَرُّ عَنْ نَظِيمِ-

فِيهِ بَرْقٌ قَدْ أَوْمَضَا وَرَحِيقٌ مَشْعَشَعٌ

أَنَا أَفْدِيهِ مِنْ رَشَا

أَهْيَفُ الْقَدِّ وَالْحَشَا

سُقَى الْحَسَنِ فَاَنْتَشَى

مذ تَوَلَّى وَأَعْرَضَا ففؤادى يَقَطْعُ

من لَصَبٌ غَدَا مَشُوقٌ
ظِلٌّ فِي دَمْعِهِ غَرِيقٌ
حِينَ أُمُّوا حِمَى الْعَقِيقِ
وَاسْتَقْلُوا بِذِي الْغَضَا أَسْفَى يَوْمَ وَدَّعُوا

ما تَرَى حِينَ أَظْعَنَا
وَسَرَى الرِّكْبُ مَوْهِنَا^١
وَاكْتَسَى اللَّيْلُ بِالسَّنَا
نُورَهُمْ ذَا الَّذِي أَضَا أُمَّ مَعَ الرِّكْبِ يُوشَعُ^٢

١١

قال إبراهيم بن سهل الإشبيلي المتوفى سنة ٦٤٩ هـ :

لَيْلُ الْهَوَى يَقْطَانُ وَالْحَبُّ تَرِبُ السَّهَرِ
وَالصَّبْرُ لِي خَوَّانُ وَالنُّومُ مِنْ عَيْنِي بَرَى

(٢) الموهن : نصف الليل . أو بعد ساعة منه .

(١) يوشع : أى يشوع بن نون ، والمراد أنه رد الشمس عن المغيب فبقى نورها ليلا .

* * *

يا زهرة الأنس روض المنى منك جديب
 لولاك لم أمس في الأهل والدار غريب
 رضاك للنفس مثل الصبا بعد المشيب
 والأمن للهفان واليسر بعد المعسر
 وجنة الرضوان بعد العذاب الأكبر

* * *

يسومنى مقلوب بسوم من يسبى القلوب^١
 ذاك المنى المطلوب يامدع صبر الكذب
 يا ظالماً محبوباً مذنباً حلوا الذنوب
 عابك لى بهتان فخاب سعى المفتري
 هل يقبل الظمان عيباً بماء الكوثر ؟

* * *

يا مُبْطِلاً عَنوَهْ أَعذر لمن لم يعشق
 يا ناصراً الصبوه على تُقى كلّ تقى
 يا مُظْهِراً الشقوة حسناء فى عين الشقى

(١) يسومنى : يكلفنى . مقلوب : اسم علم .

يا حجة الأشجان على السلو المدبر
يا شرك الأذهان يا قيد عين المبصر

* * *

عَيْنِي^١ من بعده لصرف ماء الدمع عَيْن^١
عَوَّضْتُ^٢ في بُعْدِهِ بالبدر رعى الفرقدين^٣
جُرِّعْتُ^٤ من فَقْدِهِ فوصله لا شك عَيْن^٢
إِذْ هَجَرَهُ كسلان والعيش طلق المنظر^٥
وتيهه يقظان^٦ وصده لم يشعر^٧

* * *

١٢

لابن سهل الأشبيل أيضاً هذه الموشحة الشهيرة :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكْنِس^٣
فهو في حرٍّ وخفقٍ مثلما لعبت ريح الصبا بالقَبَسِ

* * *

(١) العين الثانية : عين الماء .

(٢) العين : خيار الشيء والسحاب الماطر .

(٣) حمى الحمى : منعه ودفع عنه ، والمراد هنا أنه استقل وحده بقبه . المكْنِس : مأوى الظبي ، وقوله عن مكْنِس ، أى بدلا من مكْنِس ، فعن هنا للبدل .

يابدوراً أَطْلَعْتُ يَوْمَ النُّوَى غُرّاً تَسْلُكُ فِي نَهْجِ الْغَرَرِ^١
 مَا لِقَلْبِي فِي الْهَوَى ذَنْبٌ سِوَى مِنْكُمْ الْحَسَنُ وَمَنْ عَيْنِي النَّظَرُ
 أَجْتَنِي الْمَذَاتِ مَكْلُومَ الْجَوَى وَالتَّذَادِي مِنْ حَبِيبِي بِالْفِكْرِ
 كُلَّمَا أَشْكُوهُ وَجَدِي بَسَمًا كَالرُّبَى بِالْعَارِضِ الْمُنْبَجِسِ
 إِذْ يَقُمُ الْقَطَرُ فِيهَا مَأْتَمًا وَهِيَ مِنْ بَهْجَتِهَا فِي عُرْسِ

* * *

غَالِبٌ لِي غَالِبٌ بِالتَّوَدِّهِ بَأْبَى أَفْئِدِهِ مِنْ جَافٍ رَقِيقٍ
 مَا رَأَيْنَا مِثْلَ ثَغْرِ نَضَّاهُ أَقْحَوَانًا عَصِرَتْ مِنْهُ رَحِيقُ
 أَخَذْتُ عَيْنَاهُ مِنْهُ الْعَرَبْدَهُ وَفَوَّادِي سَكْرُهُ مَا إِنْ يُفْئِقُ
 فَاحِمُ الْجُمَةِ مَعْسُولُ اللَّمَى أَكْحَلُ اللَّحْظِ شَهْيُ اللَّعْسِ^٢
 وَجْهَهُ يَتَلَوُ الضُّحَى مَبْتَسِمًا وَهُوَ فِي إِعْرَاضِهِ فِي عَبَسِ^٣

* * *

أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ ذُلِّي لَدِيهِ لِي جَزَاءُ الذَّنْبِ وَهُوَ الْمَذَنْبُ
 أَخَذْتُ شَمْسَ الضُّحَى مِنْ وَجْنَتَيْهِ مَشْرِقًا لِلشَّمْسِ فِيهِ مَغْرِبُ
 ذَهَبْتُ أَدْمَعُ أَجْفَانِي عَلَيْهِ وَلَهُ خَدٌّ بِلَحْظِي مُذْهَبُ^٤

(١) الغرر : جمع غرة ، أى طلعة وجوه الحسان ، الغرر بالفتح : التعريض للهلكة .

(٢) الجملة : مجتمع شعر الرأس . المعس : سواد مستحسن فى الشفة .

(٣) الضحى وعبس : من سور القرآن ، وفيهما توريثان لطيفتان .

(٤) مذهب : مطلق بالذهب ، والمراد مورد خجلا .

يَنْسُبُ الْوَرْدُ بَغْرِي كُلَّمَا لَاحَظْتَهُ مَقَلْتِي فِي الْخَلْسِ
لَيْتَ شَعَرِي أَيْ شَيْءٍ حَرَمًا ذَلِكَ الْوَرْدَ عَلَى الْمَغْتَرِسِ ؟

* * *

كُلَّمَا أَشْكُو إِلَيْهِ حُرَقِي غَادَرْتَنِي مَقَلْتَاهُ دَنِفًا^١
تَرَكْتُ أَلْحَاطَهُ مِنْ رَمَقِي أَثَرَ النَّمْلِ عَلَى صُمِّ الصَّفَا
وَأَنَا أَشْكُرُهُ فِيمَا بَقِيَ لَسْتُ أَلْحَاهُ عَلَى مَا أَتْلِفَا
فَهُوَ عِنْدِي عَادِلٌ إِنْ ظَلَمَا وَعَذُولِي نُطْقُهُ كَالْخَرَسِ
لَيْسَ لِي فِي الْحَبِّ حُكْمٌ بَعْدَمَا حَلَّ مِنْ نَفْسِي مَحَلَّ النَّفْسِ

* * *

مِنْهُ لِلنَّارِ بِأَحْشَائِي اضْطِرَامٌ يَلْتَظِي فِي كُلِّ حِينٍ مَا يَشَا
وَهِيَ فِي خَدِيدِهِ بَرْدٌ وَسَلَامٌ وَهِيَ ضُرٌّ وَحَرِيقٌ فِي الْحَشَا
أَتَقَى مِنْهُ عَلَى حُكْمِ الْغَرَامِ أَسَدَ الْغَابِ وَأَهْوَاهِ رَشَا
قُلْتُ لَمَّا أَنْ تَبَدَّى مُعْلَمَا وَهُوَ مِنْ أَلْحَاطِهِ فِي حَرَسِ
أَيَّهَا الْآخِذُ قَلْبِي مَغْنَمَا اجْعَلِ الْوَصْلَ مَكَانَ الْخُمْسِ^٢

* * *

(١) الدنف : المريض .

(٢) الخمس : نصيب قائد الجيش من الغنيمة بتسكين الميم ، وضمت للشعر .

قال أبو الحسن المريني : من شعراء القرن السابع للهجرة ، يذكر ملاحيه
على سد قرطبة :

في نعمة العود والسلافة والروض والنهر والنديم^١
أطال من لامني خلافة فظل في نصحه مليم^٢

* * *

دعني على منهج التصابي ما قام لي العذر بالشباب
ولا تطل في المني عتابي فلست أصغي إلى عتاب
لا ترج ردّي إلى جواب والكأس يفتّر عن حباب
والغصن يبدى لنا انعطافه إذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدي لنا قطافه واختال في برده الرقيم

* * *

يا حبذا عهدى القديم ومن به همت مسعدي
ريم عن الوصل لا يريم مولع بالتودد
ما تم إلا به النعم طوعاً على رغم حسدي
معتدل القد ذو نحافة أسقمني طرفه السقيم

(١) السلافة : الخمر .

(٢) مليم وملوم : واحد .

ورام طرفى به انتصافه فخذ فى خده الكلم^١

غصن الصبا عاطرُ المُقبَّلِ ألقى من الأمن والأملِ
ظامى الحشا مفعمُ المخلخلِ حلو اللوى ساحرُ المقل^٢
لكل ما رامه توصَّلَ لم يخشَ رداً بما فعل
أشكو فيبدي لى اعترافه إن حاد عن نهجه القويم
لا أعدم الدهر فيه رافة فحق لى فيه أن أهيم^٣

لله عصرٌ لنا تقضى بالسد والمنبر البهيج
أرى اذكارى إليه فرضاً وشوقه دائماً يهيج
فكم خلعنا عليه غمضاً وللمصبا مسرحٌ أريج
وزد أطلال المنى ارتشافه حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انحرافه وهكذا الدهر لا يُديم

يا من يحثُّ المطى غرباً عرج على حضرة الملوك

(١) انتصافه : أخذ حقه منه . الكلم : الجريح ، والمراد أنه أدماه بأنظاره إذ احمر خجلاً .

(٢) ظامى الحشا : ضمر البطن . مفعم المخلخل : متلى الساق .

(٣) رافة : رافة .

وانثر بها ، إن سفحت غربا ، من مدمعٍ عاطلٍ سلوك^١
 واسمع إلى من أقام صبا واحك صداه لا فض فوك
 بلغ سلامي قصر الرصافة واذكر له عهدى القديم
 وحى عني دار الخلافة وقف بها وقفة الغريم^٢

* * *

١٤

هذه موشحة مشهورة لدى الوزارتين لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب ،
 شاعر الغنى بالله محمد بن أبي الحجاج أحد ملوك بني الأحمر ووزيره ، المتوفى
 سنة ٧٧٦ هـ قالها في الغزل وذكر الطبيعة ومدح بها سلطانه الغنى بالله ، معارضاً
 بها موشحة ابن سهل^(٣) :

جارك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
 لم يكن وصلك إلا حلماً في الكرى أو خلسة المختلس

* * *

إذ يقود الدهر أشتات المنى ننقل الخطو على ما ترسم
 زمراً بين فرادى وثنا مثلما يدعو الحجيج الموسم
 والحياء قد جلل الروض سنا فتغور الزهر فيه تبسم

(١) الغرب : الدمع .

(٢) الغريم : المدين .

(٣) انظر ص ٣٢٨ من هذا الكتاب .

وروى النعمانُ عن ماءِ السما كيفَ يَرَوِي مالِكٌ عن أنسٍ^١
فكساه الحسنُ ثوباً مُعلماً يَزْدَهِي منهُ بأبهى ملبَس

* * *

في ليالٍ كُتِمَتْ سرُّ الهوى بالدجى لولا شمسُ الغُرِّ
مال نجمُ الكأسِ فيها وهوى مستقيمَ السيرِ سعدَ الأثرِ
وطرُّ ما فيه من عيبِ سوى أنه مرَّ كالمح البصرِ

حينَ لذَّ النومُ شيئاً أو كما هجمَ الصبحُ هجومَ الحرسِ
غارَت الشهبُ بنا أو ربما أثرتُ فينا عيونُ النرجسِ

* * *

أى شىءٍ لامرئٍ قد خلصاً فيكونُ الروضُ قد مُكِّنَ فيه
تنهبُ الأزهارُ فيه الفرصا أمنتُ من مكره ما تتقيه
فإذا الماءُ تناجى والحصا وخلا كلُّ خليلٍ بأخيه

تُبصرُ الوردَ غيوراً برما يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الآسَ لبيأً فهما يسرقُ السمعَ بأذنى فرس

* * *

(١) النعمان : ملك الحيرة ، والمراد هنا شقائق النعمان . ماء السماء : أم المنذر وجدة النعمان ، والمراد هنا المطر . مالك : إمام المدينة وأحد الأئمة الأربعة . أنس : والده . والمراد : رواية مالك عن أبيه رواية صدق ، ومثلها رواية الشقيق عن أبيه المطر ، وصدقها باد في زهره وحسن منظره .

يا أَهْيَلُ الحى من وادى الغضا وبقلبي مسكنٌ أنتم به
ضاقَ عن وِجْدِي بكم رَحْبُ الفضا لا أبالي شرقه من غربه
فَاعِيدُوا عَهْدَ أنسٍ قد مَضَى تُعْتِقُوا عَبْدَكُمْ من كَرْبِهِ
واتقوا الله ، وَأَحْيُوا مُغْرَمًا يتلاشى نَفْسًا فى نَفْسِ
حَبَسَ القلبَ عليكم كَرَمًا أَفْتَرِضُونَ عَفَاءَ الحَبْسِ ١

* * *

وبقلبي منكم مُقْتَرِبٌ بأحاديثِ المُنَى وهو بعيدُ
قمرٌ أَطْلَعَ منه المَغْرِبُ شِقْوَةَ المُضْنَى به وهو سعيدُ
قد تساوى محسنٌ أو مذنبٌ فى هواه بين وَعْدٍ ووَعِيدُ
أَحْوَرُ المِقلَّةِ معسولُ اللَّمَى جالٌ فى النفسِ مجالَ النَّفْسِ
سَدَّدَ السَّهْمَ فَأَصْمَى إِذ رَمَى بفؤادى نبلةَ المُفْتَرِسِ

* * *

إن يكن جَارَ وَخَابَ الأَمَلُ ففؤادُ الصبِّ بالشوقِ يذوبُ
فهو للنفسِ حبيبٌ أَوَّلُ ليس فى الحبِّ لمحبوبِ ذنوبُ
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَثَلٌ فى ضلوعٍ قد بَرَاها وقلوبُ

(١) الحبس : جمع حبيس ، وهو الموقوف فى سبيل الله ، وهنا القلب المحبوس فى سبيل الحب .

حَكَّمَ اللَّحْظَ بِهِ فَاحْتَكَمَا لَمْ يُرَاقِبْ فِي ضِعَافِ الْأَنْفَسِ^١
يُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِمَّنْ ظَلَمَا وَيُجَازِي الْبَرَّ مِنْهَا وَالْمُسِي

مَا لِقَلْبِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا عَادَهُ عَيْدٌ مِنَ الشُّوقِ جَدِيدُ
جَلَبَ الْهَمُّ لَهُ وَالْوَصَا فَهُوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جَهْدٍ جَهِيدِ
كَانَ فِي اللَّوْحِ لَهُ مَكْتَبَا قَوْلُهُ : إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدُ^٢
لَا عِجٌّ فِي أَضْلَعِي قَدْ أَضْرِمَا فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ الْيَبَسِ
لَمْ يَدَعْ فِي مُهْجَتِي إِلَّا ذِمَا كِبْقَاءِ الصُّبْحِ بَعْدَ الْغَلَسِ^٣

سَلَّمِي يَا نَفْسُ فِي حُكْمِ الْقَضَا وَاعْمُرِي الْوَقْتَ بِرُجْعِي وَمَتَابُ^٤
وَدْعِي ذَكَرَ زَمَانٍ قَدْ مَضَى بَيْنَ عُنْتِي قَدْ تَقَصَّصْتُ وَعَتَابُ^٥
وَاصِرِي الْقَوْلِ إِلَى الْمَوْلَى الرِّضَى مُلْهُمُ التَّوْفِيقِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ
الْكَرِيمِ الْمُنْتَهَى وَالْمُنْتَمَى أَسَدِ السَّرِجِ وَبَدْرِ الْمَجْلِسِ^٦

(١) لَمْ يُرَاقِبْ : أَيْ لَمْ يَحَاذِرِ اللَّهَ .

(٢) اللَّوْحُ : أَيْ لَوْحُ قَضَاءِ اللَّهِ .

(٣) النَّمَاءُ : بَقِيَّةُ الرُّوحِ .

(٤) الرَّجْعِي : الرَّجُوعُ .

(٥) الْعُنْتِي : الرِّضَى .

(٦) أُمُّ الْكِتَابِ : الْفَاتِحَةُ أَوْ الْقُرْآنُ جَمِيعُهُ أَوْ لَوْحُ الْقَدَرِ الْمَحْفُوظُ .

يُنْزَلُ النُّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا يُنْزَلُ الْوَحْيُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

مُصْطَفَى اللَّهِ سَمَى الْمُصْطَفَى الْغِنَى بِاللَّهِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ^٢
 مِنْ إِذَا مَا عَقَدَ الْعَهْدَ وَفَى وَإِذَا مَا فَتَحَ الْخُطْبَ عَقَدَ
 مِنْ بَنَى قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ وَكَفَى حَيْثُ بَيْتُ النُّصْرِ مَرْفُوعُ الْعَمَدِ
 حَيْثُ بَيْتُ النُّصْرِ مَحْمَى الْحِمَى وَجَنَى الْفَضْلِ زَكَّى الْمَغْرِسِ
 وَالْهَوَى ظَلُّ ظَلِيلٌ خَيْمًا وَالنَّدَى هَبَّ إِلَى الْمُغْتَرَسِ

هَآكِهَآ يَا سَبْطُ أَنْصَارِ الْعُلَى وَالَّذِى إِنْ عَشَرَ الدَّهْرَ أَقَالَ
 غَادَةً أَلْبَسَهَا الْحُسْنَ مُلَا تَبَهَّرُ الْعَيْنَ جَلَاءً وَصِقَالَ^٣
 عَارَضْتُ لَفْظًا وَمَعْنَى وَحَلَى قَوْلَ مَنْ أَنْطَقَهُ الْحُبُّ فَقَالَ :
 « هَلْ دَرَى ظُبَى الْحِمَى أَنْ قَدْ حِمَى قَلْبَ صَبٍّ حَلَّاهُ عَنْ مَكْنَسِ »
 « فَهُوَ فِي حَرٍّ وَخُفْمٍ مِثْلَمَا لَعِبْتَ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ »

(١) رُوحُ الْقُدُسِ : جَبْرِيل .

(٢) سَمَى الْمُصْطَفَى : أَيْ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ كَاسْمِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى .

(٣) مُلَا : أَيْ مَلَاءَ ، جَمْعُ مَلَاءَةٍ .

هذه موشحة لأبي عبد الله بن زمرك ، تلميذ لسان الدين بن الخطيب وخلفه
وكاتب سر الغنى بالله ، المتوفى سنة ٧٩٨ هـ ، قالها يعارض موشحة ابن سهل :
« ليل الهوى يقظان ^(١) » ويمدح السلطان :

نواسمُ البستانُ تنثرُ سلكَ الزَّهرِ
والطلُّ فى الأغصانِ ينظِّمُه بالجواهرِ

* * *

وراحةُ الإصباحُ أضواءُ منها المشرقُ
تنشرُها أرواحُ فلا تزال تخفِقُ
والزهرُ زهرُ فاحٍ له عيونُ ترمُقُ
فأيقظُ الندمانُ يبصرنَ ما لم يبصرِ ^٣
جواهرُ الشبانُ قد عُرِضت للمشتري ^٤

* * *

قدحتَ لى زندا يا أيها البارِقُ

(١) انظر ص ٣٢٦ من هذا الكتاب .

(٢) الأرواح : جمع ريح .

(٣) يبصرن : الضمير يعود إلى عيون الزهر .

(٤) المشتري : كوكب طالعُه سعد . وفيد تروية .

أَذْكَرْتَنِي عَهْدًا إِذِ الشَّبَابُ رَائِقُ
 فَالشَّوْقُ لَا يَهْدَا وَلَا الْفَوَادُ الْخَافِقُ
 وَكَيْفَ بِالسَّلْوَانِ وَالْقَلْبُ رَهْنُ الْفِكْرِ
 وَسُحْبُ الْهَجْرَانِ تَحْجُبُ وَجْهَ الْقَمَرِ

* * *

لَوْلَا شَمْسُ الْكَاشِ مَدِيرُهَا بَيْنَ الْبُدُورِ
 وَعَرَجَ الْإِنْسَانِ مَنْ عَلَى رُبْعِ الصُّدُورِ
 لَكِنْ لَهَا وَسْوَاشِ يُغْرِى بَرَبَاتِ الْخُدُورِ
 كَمْ وَالهِ هَيْمَانُ بِصَبْحِ وَجْهِ مُسْفَرِ
 ضِيَاؤُهُ قَدْ بَانَ مِنْ تَحْتِ لَيْلٍ مُقْمَرِ

* * *

يَا مَطْلَعَ الْأَنْوَارِ كَمْ فِيكَ مِنْ مَرَأَى جَمِيلِ
 وَنُزْهَةَ الْأَبْصَارِ مَاضِرٌ لَوْ تَشْفَى الْغَلِيلِ
 يَا رَوْضَةَ الْأَزْهَارِ وَعَرَفُهَا يُبْرِى الْعَلِيلِ
 قَضِيْبُكَ الْفَتَّانِ يُسْقَى بِدَمْعِ هَمِيرِ
 فَلَاعِجُ الْأَشْجَانِ فِيضُ الدَّمُوعِ يَجْرِى

* * *

هل في الهوى ناصرٌ أو هل يُجار الهائمُ
لو كان لى زائرٌ طيفُ الخيال الحائمُ
ما بتُ بالساهرُ ودمعُ عيني ساجمُ
والحب ذو عدوانٍ يَجْهَدُ في ظُلمِ البرى
وصارمُ الأَجْهانِ مؤيدُ بالحورِ

* * *

رُحماكُ في صبٍّ أذكرنهُ عهدَ المصبا
بواعثُ الحبِّ قادتُ إليه الوَصبا^١
لم تهفُ بالقلبِ رِيحُ الصِّبا إلا هِبا^٢
بدليلةُ الأردانِ قد ضُمَّخَتْ بالعنبرِ
يشيرُ غصنُ البانِ منها بفضْلِ المَزرِ^٣

* * *

وطيئها حمْدُ فخرِ الماركِ المُجْتَبِى^٤

(١) الوصب : المرض .

(٢) هبا : أى ثار كالعنبر .

(٣) الفضل : الزيادة عن الحاجة .

(٤) المجتبى : المصطفى .

مَنْ يُرْجَحُ الطُّوْدُ مِنْ حِلْمِهِ إِذَا احْتَبَى^١
 قَدْ جَرَّدَ السَّعْدُ مِنْهُ حَسَاماً مُذْهَباً

فَالْبَأْسُ وَالْإِحْسَانُ وَالْغَوْثُ لِلْمُسْتَنْصِرِ
 تَحْمِلُهُ الرِّكْبَانُ تَحِيَّةً لِلْمُنْبِرِ

* * *

عِصَابَةٌ الْكِتَابُ حُقَّ لَهَا الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^٢
 تَخْتَالُ فِي أَثْوَابٍ حُقَّ لَهَا الْفَخْرُ الْجَسِيمُ^٣
 فَحَسْبُهَا الْإِطْنَابُ فِي الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ الْعَمِيمُ

خَلِيفَةُ الرَّحْمَنِ لَا زِلْتَ سَامِيَ الْمَظْهَرِ
 يَا مُورِدَ الظَّمَانِ وَرَأْسِ مَالِ الْمُعْسِرِ

* * *

خُذْهَا عَلَى دَعْوَى تُزْرِى عَلَى الرُّوضِ الْوَسِيمِ^٢
 جَاءَتْ كَمَا تَهْوَى أَرْقًّ مِنْ لَذَنِ النَّسِيمِ^٣
 قَدْ طَارَحَتْ شُكْوَى مَنْ قَالَ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ :

(١) احتبى : جلس عاقداً يديه على ركبتيه .

(٢) الوسيم : الجميل .

(٣) اللذن : اللين من كل شيء .

« لَيْلُ الْهَوَى يَقْظَانُ وَالْحَبُّ تَرْبُ السَّهْرِ »
« وَالصَّبْرُ لِي خَوَّانُ وَالنَّوْمُ مِنْ عَيْنِي بَرَى »

* * *

١٦

ولابن زمرك أيضاً هذه الموشحة قالها في ذكر الصبوح ومدح سلطانه ابن الأحمر :
ريحانةُ الفجرِ قد أَطَلَّتْ خضراءُ بالزُّهْرِ تَزْهَرُ
ورايةُ الصبحِ قد أَظَلَّتْ في مَرْقَبِ الشَّرْقِ تُنْشَرُ

* * *

فالشَّهْبُ مِنْ غَارِقِ الصَّبَاحِ تَرَعَدُ خَوْفًا وَتَخْفِقُ
وَأَدْهَمُ اللَّيْلِ فِي جِمَاحٍ أَعْنَتَهُ الْبَرْقُ يُطْلِقُ
وَالْأُفُقُ فِي مَلْتَقَى الرِّيحِ بِأَدْمَعِ الْغَيْثِ يَشْرِقُ
وَالسَّحْبُ بِالْجَوْهَرِ اسْتَهَلَّتْ فَالْبَرْقُ سَيْفُ مُجَوَّهَرٍ
صِفَاحِهِ الْمَذْهَبَاتُ سُلَّتْ فِي رَاحَةِ الْجَوِّ تُشْهَرُ

* * *

كَمْ لِلصَّبَا ثَمٌّ مِنْ مَقِيلٍ بِطَيْبِهِ الزُّهْرُ يَشْهَدُ
وَالنَّهْرُ كَالصَّارِمِ الصَّقِيلِ فِي حَلِيَةِ النُّورِ يُغْمَدُ

وربَّ قال وقيل للطير في حين تشدُّ^١
 فالسنُّ الورق فيه أملت مدائحاً عنه تشكُّر^١
 ونسمة الصبح حين كلت في سندس الروض تعثر^٢

* * *

والكأس في راحة النديم يجلو بها غيبَ الهُموم
 أقبست النار في القديم من قبل أن تُخلق الكروم
 والنهر في ملعب النسيم للزهر في عطفه رقوم
 فلبَّه النهر قد تحلَّت والطال في الحلّ جوهر^٢
 وبهجة الكون قد تجلَّت والروض بالحسن يبهز

* * *

يا غصن بانٍ يميل زهوا ريان في روضة الشباب
 لو كنت تُصغى لرفع شكوى أطلت من قصة العتاب
 ومن مثلي يبتُّ نجوى للبدر في رفرف السحاب
 عزائم الصبر فيك حلَّت وعقدة الصبر تزخر^٢
 قد أكثرت منك ما استقلت وليت لو كنت تشعر^٢

* * *

(١) الورق : الحام . تشكر : أى تشكر المطر نائمة عن الزهر .
 (٢) البة : موضع القلادة من الصدر .

* * *

كم ليلةً بئتها وبتاً ضديّن في السهد والرقادُ
 أسامرُ النجمَ فيك حتى علّمت أجفانها السهادُ
 أرقبُ بدرَ الدجى وأنا قد لُحْتُ في هالة الفؤادُ
 نفسي ولّيت ما تولّيت دَعُها على الشوق تصبّرُ
 لو سُمّتها الهجرَ ما تولّيت ولم تكنْ عنك تنفرُ

* * *

علّمها الصبرَ في الحروب سلطانها عاقدُ البنودُ
 معفرُ الصّيد للجنوبِ أغرُّ من حَفّ بالجنودُ^١
 يضربُ بالرعب في القلوبِ والبيض لم تبرح الغمودُ
 عنايةُ الله فيه جَلَّتْ بسعده الدينُ يُنصرُ
 والخلقُ في عصرِهِ تملّتْ غنائماً ليس تُحصِرُ^٢

* * *

مولاي يا نكتةَ الزمانِ دارَ ، بما ترتضى ، الفلكُ
 جَلَلَتْ باليمنِ والأمانِ كلَّ ملكٍ وما مَلَكُ

(١) الصيد : الملوكة والمتكبرون . الجنوب : جمع جنب .

(٢) تملّت : تمتعت .

لم يدرِ وصفى ولا عياني أَمَلِكُ أَنْتَ أَم مَلِكُ ؟
 جنودك الغلبُ حيث حلَّتْ بالفتح والنصرِ تخفُّرُ
 وعادة الله فيك دلَّتْ أَنَّكَ بالكُفْرِ تظفرُ

* * *

يا آية الله في الكمالِ ومخجلِ البدرِ في التامِ
 قُدِّمْتَ بالعِزِّ والجلالِ والدهرُ في ثغره ابتسامُ
 يختالُ في حُلَّةِ الجمالِ والبدرُ قد عاد في اختتامِ
 ريحانةُ الفجرِ قد أَظَلَّتْ خضرَاءُ بالزهرِ تَزهرُ
 ورايةُ الصبحِ قد أَظَلَّتْ في مَرَقَبِ الشرقِ تُنشرُ

* * *

١٧

ولابن زمرك أيضاً هذه الموشحة في التشويق إلى غرناطة ومدح الغنى بالله :

بالله يا قامةَ القضيبيِّ ومُخْجِلِ الشمسِ والقمرِ
 من مَلِكِ الحسنِ في القلوبِ وأَيَّدِ اللحظَ بالحوَرِ ؟

* * *

مَنْ لم يكن طبعه رقيقاً لم يدرِ ما لَذَّةُ الصِّبَا

فربُّ حُرٍّ غدا زقيقا تملكه نفحةُ الصِّبا
 نشوانٌ لم يشرب الرحيقا لكنْ إلى الحسن قد صبا
 فعذَّبَ القلبَ بالوجيبِ ونعمَ العينَ بالنظرِ
 وبات والدمعُ في صبيبٍ يُقدِّحُ من قلبه الشرُّ

* * *

عجبتُ من قلبي المُعنى يهفو إذا هبتِ الرياحُ
 لو كان للصَّبِّ ما تمنى لطار شوقاً بلا جناحُ
 وبلبلُ الدَّوحِ إذ تغنى أسهرَ ليلي إلى الصِّباحِ
 عساكَ إن زرتَ ، يا طيبي ، بالطيفِ في رقدةِ السَّحرِ
 أن تجعلَ النومَ من نصيبى والعينَ تحمى من السَّهرِ

* * *

كم شادنٍ قادٍ لى الحُتُوفِ بمرَّبعِ القلبِ قد سَكَنُ
 يسُلُّ من لحظه سُيوفاً فالقلبُ بالرَّوعِ ما سَكَنُ
 خلقتُ من عادتي ألُوفاً أحنُّ للآلفِ والسَّكَنُ
 غرناظةٌ منزلُ الحبيبِ وقربُها السَّوْلُ والوَطَرُ
 تبهرُ بالمنظرِ العجيبِ فلا عدا ربَّعها المطرُ !

* * *

عروسةٌ تاجها السبيكة وزهرها الحلى والحُللُ^١
 لم ترضَ من عزها شريكه بحسنها يُضربُ المثلُ
 أيدها الله من مليكه تملكها أشرفُ الدولِ
 بدولة المرتجى المهيبِ الملكِ الطاهرِ الأغرِ
 تختال في بُردها القشيبِ في حالة النور والزهر

* * *

كرسيها جنة العريف مرآتها صفحة الغدير^٢
 وجوهرُ الطلِّ في شُئوفٍ تحكمه صنعة القدير^٣
 والأنس فيه على صنوف فمن هديل ومن هدير
 كم خرَّق الزهر من جيوبِ وكَلَلِ القُضبِ بالدرُّ
 فالغصنُ كالكَاعبِ اللُعبِ والطيرُ تشدو بلا وتر

* * *

ولائم النصرِ في احتفالٍ وصرحُ دين الهدى جديدُ
 سلطانها شارعُ العوالى محمدُ الظافرُ السعيدُ^٤

(١) السبيكة : موضع بغرناطة .

(٢) جنة العريف : موضع في غرناطة كان مصيفاً لأمرء العرب ، ولا تزال آثاره قائمة .

(٣) الشئوف : ما يعلق في الأذان من الحلى .

(٤) شارع : مسدد .

وَمُخْجَلِ الْبَدْرِ فِي الْكَمَالِ سُلْطَانُهَا الْمُجْتَبَى الْفَرِيدُ
أَصْفَحْ مَوْلَى عَنِ الذُّنُوبِ أَكْرَمُ عَافٍ إِذَا قَدَرَ
وَشَمْسُ هَذِي بِلا مَغِيبٍ وَبَحْرُ جُودٍ بِلا حَسَرٍ^١

* * *

مَوْلَايَ يَا عَاقِدَ الْبُنُودِ تُظَلِّلُ الْأَوَّجَهَ الصُّبَاخُ
أَوْحَشْتَ، يَا نُخْبَةَ الْوُجُودِ ، غَرْنَاطَةً نَجْمَةً الصُّبَاخُ
سَافَرْتَ بِالْيُمْنِ وَالسُّعُودِ وَعُدْتَ بِالْفَتْحِ وَالنَّجَاحِ
يَا مُلْهَمَ الْقَلْبِ لِلْغُيُوبِ وَمُطْعِمَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ
أَسْمِعْكَ اللَّهُ عَنْ قَرِيبٍ : عَلَى السَّلَامِ مِنْ السَّفَرِ

* * *

١٨

هذه موشحة شهيرة لابن سناء الملك الشاعر المصري المتوفى سنة ٦٠٨ هـ ،
وقد قالها معارضاً موشحة عبادة بن ماء السماء^(٢) :

كَلِّى يَا سَحْبُ تَيْجَانِ الرَّبِّ بِالْحُلَى وَاجْعَلِ سِوَارَهَا مِنْ عَطْفِ الْجَدُولِ^٣

* * *

(١) بلا حسر : أى بلا نضوب .

(٢) انظر ص ٣٠٩ من هذا الكتاب .

(٣) تيجان الربى : أعاليها . الحلى أى أنواع الأزهار .

ياسما فيك وفي الأرض نجوم وما^١
 كلما أغربت نجماً أطلعت أنجماً
 وهى ما تهطل إلا بالطلا والدمى
 فاهطل على قطوف الكرم كى تمتلى وانقلى للذن طعم الشهد والقرنفل

* * *

تتقد كالكوكب الدررى للمرتصد
 يعتقد فيها المجوسى بما يعتقد^٢
 فائتد ياساقى الراح بها واعتمد
 وامل لى حتى ترانى عندك فى معزل قلل فالراح كالعشق إن يزديقتل

* * *

لا أليم فى شرب صهباء وفى عشق ريم
 فالنعيم عيش جديد ومدام قديم
 لا أھيم إلا بهذين فقم يا نديم
 واجل لى من أكويس صيرت من فوفل^٣ ألدلى من نكهة العنبر والمندل^٤

* * *

(١) المراد بنجوم الأرض أنواع الأزهار . وما : مسهل ماء .

(٢) يعتقد : أى يرى فيها الألوهية لأنها تتقد كعبودته النار .

(٣) الفوفل بالفتح والغم : نخلة كنخلة النارجيل تحمل كبائس فيها الفوفل أشبال القمر ، طيب

النكهة ، ويمضغ فيحدث طرباً فى النفس .

(٤) المندل : عود هندي طيب الرائحة .

خذ هني^١ واعطني كاسك مثل كاسي هني
 واستقني على رضابِ الفَطينِ المُلِينِ
 والهِنِي ببعض ما صيغَ من الألسنِ
 لو تُلي مدحُ سناه مع رشاً أكحلٍ لَدُلِّي على سنا الصهباءِ والسلسلِ

* * *

أزهرتُ ليلتُنَا بالوَصْلِ مذ أَسْفَرْتُ
 أَصْدَرْتُ^٢ بِزَوْرَةِ المَحْبُوبِ إِذْ بَشَّرْتُ
 أَخَرْتُ^٣ فَقَلْتُ لِلظُّلَمَاءِ إِذْ قَصَّصْتُ
 طَوَّلِي يَالَيْلَةَ الوَصْلِ وَلَا تَبْخُلِي وَاسْبِيلِي سِتْرَكَ فَالمَحْبُوبُ فِي مَنْزِلِي

* * *

من ظلمَ في دولة الحسنِ إِذَا مَا حَكَمَ
 فَالْأَلَمُ يَجُولُ فِي بَاطِنِهِ وَالنَّدَمُ
 وَالْقَلَمُ يَكْتُبُ فِيهِ عَنِ لِسَانِ الْأُمَمِ :
 مَنْ وَلِيَ فِي دَوْلَةِ الْحَسَنِ وَلَمْ يَعْدِلْ يَعْدُلِ الْحَظُّ الرِّشَا الْأَكْحَلُ

* * *

(١) هني : شيئٌ أَمَى كاسي .

(٢) أَصْدَرْتُ : أَمَى أَتَمْتُ لِأَمْرٍ .

(٣) جَعَلْتُ لَزِيْرَةً إِلَى آخِرِ اللَّيْلِ .

قال شهاب الدين العزّازيّ المشرق المتوفى سنة ٧١٠ هـ (١) :

يا ليلةً الوصلِ وكأسَ العُقارِ
دون استتارِ
علمتاني كيف خلعُ العِذارِ^٢

* * *

فاغتنمِ اللذاتِ قبلِ الذهابِ
وجَّأْ أذْيَالَ الصُّبَا والشَّبَابِ
واشربْ فقد طابتْ كوؤُسُ الشَّرَابِ

على خدودٍ تُنَبِّتُ الجُلْنَارَ^٣
ذاتِ احمرارِ
طَرَزَهَا الحَسَنُ بِاسِ العِذارِ

* * *

الراحُ لا شكَّ حياةً النفوسِ

(١) هو شهاب الدين أحمد بن عبد الملك العزّازيّ . كان بزازاً وكان ينظم الشعر للمطارحة والمفاكهة وقد أجاد الموشح خاصة . وفي شعره كثير من الألفاظ التي كان يحسن صوغها . وديوان شعره ناقص بدار الكتب المصرية . وفيه قسم خاص بالموشحات . توفي سنة ٧١٠ هـ . والعزّازيّ بفتح العين والزاي المخففة نسبة إلى عزّاز وهي بلدة قرب حلب . انظر : إعجام الأعلام لمحمود مصطفى ص ١٥١ .

(٢) خلع العِذار : ترك الحياء واتباع الهوى .

(٣) الجُلْنَار : زهر الرمان .

فحلّ منها عاطلاتِ الكؤوس
 وافتضّتها ، بين الندامى ، عروس
 تُجلى على خطّابها في إزار
 من النُّصار
 حبابهما قامَ مقامَ النُّثار^١

* * *

واجنّ من الوصلِ ثمارَ المني
 وواصل الكاس بما أمكنا
 مع طيّب الرفقة حلوى الجنى
 ذى مقلةٍ أفتك من ذى الفقار^٢
 ذاتِ احورار
 منصورٍ الأجفان بالانكسار

* * *

زارَ وقد حلّ عقودَ الجنّا
 يختالُ في ثوبِ الرضى والوفّا

(١) النُّثار : ما ينثر في العرس للحاضرين ، أو ما ينثر على العروس .
 (٢) ذو الفقار : سيف على بن أبي طالب .

فقلتُ : والوقتُ به قد صَفَا

يا لَيْسَةَ أَنْعَمَ فِيهَا وَزارُ
شَمْسِ النَّهَارِ

حَيَّتِ مِنْ دُونِ اللَّيَالِي الْقَصَارُ !

* * *

٢٠

هذه موشحة في التصوف قالها محيي الدين بن عربي الأندلسي ، ولد بمرسية
بالأندلس سنة ٥٤٦٨ هـ ونزح إلى الشرق وطوف في أنحاءه ومات بدمشق سنة ٥٥٤٣ هـ :

سرائرُ الأعيان ^١	لاحتُ على الأكوان	لِلنَّاظِرِينَ
والعائِقُ الغيران	من ذاك في حران ^٢	يَبْدَى الْأَنْيُنْ

* * *

يقولُ والوجدُ	أضناه والبعدُ	قد حيرَ
لما دَنَا البُعدُ	لم أَدْرِ من بُعدُ	مَنْ غَيْرَ
وهيَّم العبدُ	والواحدُ الفردُ	قد خيرَ
في البوح والكتان	والسرِّ والإعلان	في العالمين

(١) الأعيان : حقائق الأشياء المدركة بالعيان .

(٢) حران : رملة بالبادية ، كنى بها عن شدة الظمِّ للاتصال بالله تعالى . والحران أيضاً الشديد

العطش .

أما هو الديانُ يا عابد الأوثان أنتَ الضنين^١

كل الهوى صعبُ على الذى يشكو ذلَّ الحجاب^٢
يا من له قلبُ لو أنه يذكو^٣ عند الشباب
قد قربَ الربُّ لكنه إفكُ فأنو المتاب
ونادِ يا رحمانُ يا ربُّ يا منانُ إني حزينُ
أضناني الهجرانُ ولا حبيبُ دانُ ولا معينُ

فنيْتُ باللهِ عما تراه العينُ من كونه
فى موقف الجاهِ وصحْتُ: أينَ الأينُ؟ فى بيْنه ؟
فقالَ يا ساهى ما عاينتُ قطُّ. عَيْنُ بعينه^٤
أما ترى عيْلانُ وقيسَ أو مَنْ كانَ فى الغابرين ؟
قالوا الهوى سلطانُ إن حلَّ بالإنسانُ أفناه دين^٥

(١) عابد الأوثان : عابد الجسد المادى . أنت الضنين : أى أنت البخيل بقهره لتقوية الروح .

(٢) الحجاب : أى المادة التى تحجب الإنسان عن مشاهدة الله .

(٣) يذكو : يتقد بنور الصوفية .

(٤) الأين : التعب والإعياء .

(٥) بعينه : بذاته وجوهره وقربه ، أى أن العين إذا شاهدت ذاته لا ترى سواها من الموجودات .

(٦) الدين : الداء والغلبة والقهر والطاعة والذل ، وهذه المعانى كلها صالحة لتفسير كلام الشاعر .

كم مرة قالا : أنا الذى أهوى من هو أنا ؟ !
 فلا أرى حالا ١ ولا أرى شكوى إلا الفنا
 لست كمن مالا عن الذى يهوى بعد الجنى
 ودان بالسُلوان هذا هو البهتان للعارفين ٢
 سلوهم ما كان عن حضرة الرحمن والآفكين

* * *

دخلت فى بستان الأنس والقرب كمكنسه ٣
 فقال لى الرياح يختال بالعجب فى سندسه :
 أنا هو الإنسان مطيب الصب فى مجلسه
 جنان يا جنان ٤ اجن من البستان الياسمين
 وحلل الرياح ٥ بحرمة الرحمن للعاشقين !

* * *

(١) الحال : حالة نفسية يشعر بها الصوفى ، كلمذة الفقر ، وهى عارضة مفارقة ، فإذا ثبتت صارت مقاماً .

(٢) العارفون : اصطلاح صوفى يراد به شيوخ المتصوفة الذين بلغوا معرفة الحقائق الدنية والكشف الإلهى .

(٣) ككنسة : أى مكنس القرب من الله والأنس به . والمكنس : المأوى .

(٤) الجنان : أى حارس الجنة أو صاحبها ، وتطلق الجنة عند الصوفيين على جنة المطاعم اللذيذة والمشارب الهنية ثواباً للأعمال الصالحة ، وتسمى جنة الأعمال وجنة النفس أيضاً .

(٥) الرياح : أراد به تجليات الله أو حلوله ، وكذلك قال : أنا هو الإنسان على مذهب الحلوية .

المراجع

أ - مراجع عربية :

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) الحلة السيرة - نشر دوزي منها
مقتطفات ، مدريد ١٨٨٦ .

- التكملة لكتاب الصلة ، نشر جزءاً منه كوديرا في المكتبة الأندلسية (ج ٥ - ٦
مدريد ١٨٨٧ - ١٨٩٠) .

ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مجلدان ، طبعة مصر ١٣٠٤
ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - نشرت منه كلية الآداب بجامعة
القاهرة ثلاثة مجلدات : القسم الأول في مجلدين ، ثم المجلد الأول من القسم
الرابع . القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٥ .

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) : كتاب الصلة في تاريخ أئمة
الأندلس وعلماهم ومحدثهم وفقهائهم وأدبائهم - طبعة كوديرا في مجلدين ،
مدريد ١٨٨٢ - ١٨٨٣ .

ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف - طبعة دمشق ثم طبعة القاهرة ١٩٥٠ .

ابن حمديس : ديوان ، طبعة بالرم ١٨٨٣ ، روما ١٨٩٧ وبيروت ١٩٦٠ .

ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك - لندن ١٨٧٣ .

ابن حيان : كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس (مخطوط وحيد في أكسفورد)
نشر الأب ملشور أنطونيا الجزء الخاص بإمارة المنذر وعبد الله ، باريس ١٩٣٧ .

ابن خفاجة : ديوان ، طبعة القاهرة ١٢٨٦ ، وطبعة مكتبة صادر ، بيروت ١٩٥١ .

ابن خلدون : المقدمة .

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوى السلطان الأكبر ، بولاق ١٢٨٤ هـ - ٧ أجزاء .

- ابن خلكان : وفیات الأعيان — القاهرة ١٣١٠ هـ ، جزءان .
- ابن خير (أبو بكر محمد) : الفهرسة ، فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف — نشره ريبيرا وكوديرا في سرقسطة ١٨٩٤ — ١٨٩٥ (B. A. H., t IX — X) .
- ابن رشيق : العمدة ، القاهرة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م جزءان في مجلد .
- ابن زيدون : ديوان ، طبعة كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة ، القاهرة ١٣٥١ / ١٩٣٢ . وطبعة على عبد العظيم ، القاهرة ١٩٥٧ .
- ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ١ و ٢ ، بتحقيق الدكتور شوقي ضيف ، طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٥ .
- ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات ، نشر الدكتور جودت الركابي — دمشق ١٩٤٩ .
- ابن شهيد الأندلسي : رسالة التوايع والزوايع — نشرها مع مقدمة طويلة بطرس البستاني ، بيروت ١٩٥١ .
- ابن عبد ربه : العقد الفريد — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤١ — ١٩٥٢ .
- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب — نشر دوزي الجزأين الأول (عن المغرب) والثاني (عن الأندلس) في لندن ١٨٤٨ — ونشر ليثي بروفنسال الجزء الثالث عن الأندلس في عصر الطوائف والمرابطين ، باريس ١٩٣٠ — وطبعت مكتبة صادر في بيروت الجزأين الأول والثاني سنة ١٩٥٠ .
- ابن غالب : فرحة الأنفس — مقتطفات في نفح الطيب .
- ابن قزمان : ديوان — نسخته الوحيدة مطبوعة بالتصوير الشمسي في براين ١٨٩٦ — ونشر الدكتور نيكل هذا الديوان بحروف لاتينية مع مقدمة وتعليقات وترجمة إسبانية لبعض قطعه في مدريد ١٩٣٣ .
- ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس — مدريد ١٩٢٦ (مع ترجمة إسبانية) .

ابن نباتة المصري : شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون — القاهرة ١٣٢١ هـ

ابن هاني الأندلسي : ديوان ، طبعة مصر وطبعة بيروت .

أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ١٣٢٥ هـ — ٤ أجزاء .

— تقويم البلدان ، طبعة دوسلان ، باريس ١٨٤٠ .

الأبشيهي : المستطرف من كل فن مستظرف ، القاهرة ١٣٣٠ هـ — جزآن .

أحمد الإسكندري وأحمد أمين ورفاقهما : الفصل في تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ١٩٣٦ .

أحمد ضيف : بلاغة العرب في الأندلس القاهرة ١٣٤٢ / ١٩٢٤ .

أخبار مجموعة ، في تاريخ الأندلس : كتاب مجهول المؤلف — نشره وترجمه للإسبانية لافونتي إي ألكنترا ، مدريد ١٨٦٨ .

الإدريسي : وصف إفريقية وإسبانيا — نص عربي وترجمة فرنسية ، نشرهما دوزي ودخويه ، لندن ١٨٦٦ .

بالثيا (آنخيل جنثالث) : تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ .

بطرس البستاني : أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ، بيروت ١٩٣٧ .

البكري (أبو عبيد عبد العزيز) : صفة إفريقية — طبعة دوسلان — الجزائر ١٩١١ .
الثعالبي : يتيمة الدهر — القاهرة ١٩٤٧ .

جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده — المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٣

— مقال في الأدب الأندلسي في مجلة الأبحاث التي تصدرها الجامعة الأميركية

في بيروت ، العدادن ٢ و ٣ من السنة الثانية ، حزيران — أيلول ١٩٤٩ .

جورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٦ .

الحجاري : المعجب في أخبار المغرب — مقتطفات في نفح الطيب .

حسين مؤنس : انظر بالثيا ، وغومس .

الحصري (أبو اسحاق) : زهر الآداب وثمر الآلباب — طبعة زكي مبارك ، القاهرة ١٣٤٤ — ١٩٢٥ ، ٤ أجزاء .

حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي — المطبعة البولسية ، حريصا — لبنان ١٩٥١ .
 خير الدين الزركلى : الأعلام — الطبعة الثانية فى عشرة أجزاء ، القاهرة ١٩٥٩ .
 سيد نوفل : شعر الطبيعة فى الأدب العربى ، القاهرة ١٩٤٥ .
 شوقى ضيف : الفن . ومذاهبه فى الشعر العربى ، منشورات مكتبة الأندلس ،
 بيروت ١٩٥٦ .

— الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، منشورات مكتبة الأندلس ، بيروت ١٩٥٦ .
 — ابن زيدون ، طبع دار المعارف ، بيروت ١٩٥٣ .
 الصفدى : نكت الهميان فى نكت العميان — طبعة أحمد زكى باشا . القاهرة
 ١٣٢٩ — ١٩١١ .

الصنوبرى : الروضيات — طبعة محمد راغب طباح ، حلب ١٣٥١ / ١٩٣٢ .
 الضبى (أحمد بن يحيى بن عميرة) : بغية الملتبس فى تاريخ رجال الأندلس — نشره
 كوديرا ، مدريد ١٨٨٥ .

عبد الرحمن البرقوقي : حضارة العرب فى الأندلس ، القاهرة ١٣٤١ / ١٩٢٣ .
 عبد المنعم الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار
 فى خبر الأقطار ، طبعه ليثى بروفسال مع ترجمة بالفرنسية ، القاهرة ١٩٣٧ وليدن
 ١٩٣٨ (النص العربى طبع القاهرة والترجمة الفرنسية طبع ليدن وكلاهما مجموع
 فى جزء واحد أنيق) .

عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص تاريخ المغرب — طبعة دوزى الثانية ،
 ليدن ١٨٨١ ، وطبعة القاهرة ١٣٢٤ / ١٩٠٦ . (ترجمه Fagnan للفرنسية
 بعنوان : Histoire des Almohades, Alger 1898)

على عبد العظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله ، القاهرة ١٩٥٧ .
 غومس (ميليو غارسية) : الشعر الأندلسى ، عربيه عن الإسبانية حسين مؤنس ،
 القاهرة ١٩٥٢ .

الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ، طبعة مصر ١٣٢٠ هـ .

— مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس ، طبعة مصر ، ١٣٢٥ هـ .

فيليب قعدان الخازن : العذارى المائسات فى الأزجال والموشحات ، طبعة الأرز ، جونية ١٩٠٢ .

كامل كيلانى : نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى ، القاهرة ١٣٤٢ / ١٩٢٤ .
لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى تاريخ غرناطة — القاهرة ١٣١٩ هـ .

— أعمال الأعلام فىمن بويج قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام — طبعة ليثى بروفنسال ، باريس ١٩٣٤ .

المتنبى : ديوان — شرح العكبرى ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٩٣٦ .

محمد بن شاکر الكتبى : فوات الوفيات ، مصر ١٢٩٩ هـ .

محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، القاهرة ١٩٤٩ .

محمد كرد على : غابر الأندلس وحاضرها — القاهرة ١٩٢٣ .

— الإسلام والحضارة العربية ، القاهرة ١٩٣٦ ، جزءان .

محمود مصطفى : الأدب العربى وتاريخه — الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٣٧ .

— إعجام الأعلام ، المطبعة الرحمانية ، مصر ١٣٥٤ / ١٩٣٥ .

مصطفى صادق الرائى : تاريخ آداب العرب ، فى ثلاثة أجزاء (فى الجزء الثالث بحث عن الموشح) القاهرة ١٩٤٠ .

مصطفى عنانى : إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون — القاهرة ١٩٠٦ .

المعتمد بن عباد : ديوان — (جمعه أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد) ، مطبوعات وزارة المعارف العمومية — القاهرة ١٩٥١ .

المقرى (شهاب الدين أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، بولاق ١٠٧٩ هـ . أعاد نشره فى عشرة

مجلدات محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

الموشحات الأندلسية : الأعداد ١٨ و ١٩ و ٢٠ ، طبع مكتبة صادر فى بيروت

النويرى (شهاب الدين أحمد : نهاية الأرب فى فنون الأدب - طبعة القاهرة ١٩٢٣ - ١٩٣٥ ، ١١ مجلداً (طبع الجزء الخاص بتاريخ المغرب والأندلس فى مجلدين بمدريد سنة ١٩١٧ - ١٩١٩) .

نيكل : مختارات من الشعر الأندلسى - نشرت بإشراف الدكتور عمر فروخ ، بيروت ١٩٤٩ .

ياقوت الحموى : معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب - ٢٠ جزءاً ، القاهرة ١٩٣٨ .

- معجم البلدان ، ٨ أجزاء ، القاهرة ١٩٠٦ .

ب - مراجع غير عربية :

Blachère) Rīn (: *Un pionnier de la culture arabe orientale en Espagne au X^e siècle Sa vie de Bagdad*, in *Hespéris*, t. X, 1930, PP. 15 - 36.

— *La vie et l'oeuvre du poète - épistolier andalou Ibn Darrag al Qastalli*, in *Hespéris*, t. XVI, 1923, PP. 99-121.

— *Un poète arabe du XIV^e siècle de l'hégire) X^e siècle de J. C.) Abou-Tayyib al-Moutanabbi*, Paris 1935.

Brockelmann : *GAL* — *Geschichte der Arabischen Littiratur*, Leyde 1943-1949, 2 vol. +) supplément 1 - III (, Leyde 1937 - 1912.

Cour § **A ī** (: *Un poète arabe d'Andalousie*] Ibn Zaidoun, Constantine 1920.

Dozy § **Rī** § : *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides*) 711 - 1110). nouvelle édition revue et mise à jour par Lévi-Provençal, Leyde 1932, 3 Vol.

— *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age*, 3 éd. Leyde - Paris 1881, 2 vol.

Encyclopédie de l'Islam : éd. française, 4 volumes et 1 vol. de supplément, Leyde 1908 - 1938.

Groetz § **Hī** § : *Les juifs d'Espagne*) 945 - 1205 (, trad. G. Stenne, Paris 1872.

Hartmann § **M.** § : *Das arabische Strophen Gedicht. Das Muwassah*, Weimar 1897.

Jeanroy § **Aī** (: *La poésie lyrique des Troubadours*, Toulouse - Paris 1934, 2 vol

Lévi-Provençal § **Eī** § : *Histoire de l'Espagne musulmane*, Paris 1950 - 1953, 3 tomes) T. I, La conquête et l'Emirat hispano - umayyade « 710 - 912 ». T. II, Le Califat umayyade de Cordoue « 912 - 1031 ». T. III, Le siècle du Califat de Cordoue ,

— *L'Espagne musulmane au X^e siècle. Institutions et vie sociale*, Paris 1932.

— *La civilisation arabe en Espagne*, nouvelle édition, Paris 1948.

Marçais § **G.** § : *Manuel d'art musulman. L'architecture*, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile ; 2 vol. Paris 1926 - 27.

— *Echanges artistiques entre l'Egypte et l'Islam occidental*, in *Hespéris*, XIX, fac. 1 - 2) 1931 (, PP. 95 - 106.

Massé § **Hî** § *Ibn Zaidûn*, in *Hespèris*, t. I) 1921 (, PP. 183 - 193.

Menéndez Pidal § **Rî** § : *Poesia arabe y poesia europae*, dans la *Revista Cubana* janvier - mars 1937, aussi dans *Bulletin Hispanique*, octobre - décembre 1938.

Nykl § **Aî Rî** § : *ispano - Arabie Poetry*, Baltimore 1946.

Pérès § **Hî** § : *La poésie andalouse en arabe classique au XI siècle*, Paris 1937.

Rikabi § **Jawdat** § : *La poésie profane sous les Ayyûbides et ses principaux représentants*, Paris 1949.

Simont § **Fî Jî** § : *Historia de los Mozarabes de Espana*, Madrid 1903.

Tarrasse § **Hî** § : *L'art hispano - mauresque des origines au XIII siècle*, Paris 1932

ج - دوريات ومجموعات ومجلات :

مجلة الآداب - بيروت .

مجلة الأبحاث - الجامعة الأميركية ، بيروت .

مجلة الأديب - بيروت .

مجلة الثقافة - القاهرة .

مجلة الكاتب المصري - القاهرة .

مجلة الكتاب - القاهرة .

مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق .

مجلة المشرق - بيروت .

مجلة معهد المخطوطات العربية - تصدرها الجامعة العربية ، القاهرة .

Al-Andalus Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada.
(تصدر مرتين في العام ابتداء من عام ١٩٣٣) .

Bi Ai Hi : *Bibliotheca arabico hispana*.

Hespéris publié par l'Institut des hautes études marocaines, Paris

Ji Ai : *journal asiatique*.

Ri Ei Ii : *Revue des études islamiques*.

فهرس الأعلام وأسماء الأماكن والقبائل

ح = حاشية

ابن بشكوال : ٥٦ ، ٥٧ ح ، ١١٦

ابن بقی : ٨٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨ ،

٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٧ ،

٣١٦ ، ٣٢١

ابن بلیطة : ١٥٤

ابن البطار المالقی : ٥٧

ابن تومرت = محمد بن تومرت

ابن جامع : ٧٦

ابن جبیر : ١١٦

ابن الجهم : ٢١٢

ابن الحداد (أبو عبد الله) : ٥٢ ،

١٢٢

ابن حزم : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ،

٥٥ ، ٧١ ، ٧٧ ، ١١٦

ابن حمديس : ٥ ، ٩٧ ، ١٠٠ ،

١٠١ ، ١٠١ ح ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٨ ، ١٢٣ ،

١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩

ابن حوقل : ٣٨ ، ٣٩

ابن حیان : ٥٥ ، ١٦٥ ، ١٧٥ ،

٢٥٦ ، ٢٨٨

ابن خاتمة الأنصاري ٢٨٨

ابن خاقان = الفتح بن خاقان

ابن الخطيب = لسان الدين بن الخطيب

ابن خفاجة : ٥ ، ٧٣ ، ٧٦ ،

١٠١ ح ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ،

أ

آدم : ٢٦٩

الآستانة = القسطنطينية

آش (واد) : ٩٨

أبان بن عبد الحميد : ٢٩٢

إبراهيم بن جعفر بن علي : ١١٧

أبرهة (عامل اليمن) : ٢٧٠

إبليس : ٢٦٩ ح

أبولون : ٤٤

الأبيض (الشاعر) : ٧١

ابن الأبار : ٥٧ ، ٣٩ ، ٢٨٨ ح

ابن أبي أصيبعة : ٥٧ ح

ابن أبي علاقة : ٧٢

ابن الأحمر = محمد بن يوسف النصري

ابن الأرقم : ٦٤

ابن أعلى الناس : ١٠٤

ابن باجة : ٢٥ ، ٥٥ ، ٨٦ ،

١١٦ ، ٢٩٠ ، ٣١٩

ابن بدرود : ٥٦

ابن بسام : ٥٥ ، ٦٣ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ٧٣ ح ، ٧٧ ، ٨٨ ،

٩٠ ح ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٦٦ ،

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٠٣ ،

٢٠٤ ، ٢٤٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،

٢٨٩

١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،
 ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
 ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
 ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ،
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩ ،
 ٢٦٢ ح ، ٢٧٣ ح ، ٢٧٤ ح ،
 ٢٧٥ ح ، ٢٧٦ ح ، ٢٧٧ ح ،
 ٢٩٢ .

ابن سعيد : ٥٨ ، ٢٨٨ ح

ابن سفر المريني : ١٣١

ابن السكيت : ٧١

ابن سلام : ٧١

ابن سلول : ٢٧٠ ح

ابن سناء الملك : ٢٩١ ، ٢٩٣ ،

٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،

٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ ،

٣٤٨ .

ابن سهل : ١٠١ ح ، ١٣٣ ، ١٥٦ ،

١٥٧ ، ٢٩٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ،

٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٨

ابن السيد البطلينيوسي : ٧٢

ابن سيده : ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥

ابن شرف (شاعر) : ٧٧ ، ٧٩

ابن شهيد : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،

٥١ ، ٧٣ ح ، ٧٧ ، ٩٢ ،

١٠١ ح .

ابن صارة الأندلسي : ١٥٣

١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٣ ،

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،

١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،

١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٤٩ ، ١٥٠

ابن خلدون : ١٢ ، ٢٣ ح ، ٣٠ ح ،

٣٧ ، ٦٥ ، ٧٢ ح ، ٨٨ ،

٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩

ابن خلكان : ٨٩ ، ٩٠

ابن خير = محمد بن خير

ابن دراج القسطلتي : ٣٨ ، ٩٠ ،

٩١ ، ١٠١ ح

ابن رشد : ٢٩ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ١١٦ ،

ابن رشيق : ٧٢ ، ٧٣ ، ٢٨٢

ابن الرومي : ٧٢ ، ١٢٨ ، ٢٠٥ ،

٣٠٧

ابن الزبيري : ٢٧١ ح

ابن زمرك : ٤٧ ، ٥٨ ح ، ١٠١ ح ،

٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ،

٣٤٥

ابن زهر الأندلسي : ٦٩ ، ٢٨٦ ،

٢٩٠ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ،

٣٢١

ابن زيدون : ٦ ، ٢٣ ، ٤٧ ،

٥٥ ، ٦٣ ، ٩٨ ، ١٠١ ح ،

١٢٢ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،

١٣٤ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،

١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،

١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،

١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،

ابن النديم : ٩٩
 ابن هانئ الأندلسي : ٤٧ ، ٦٤ ،
 ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠١ ح ،
 ١١٤ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٥١ ،
 ١٥٢ .
 ابن وهبون : ١٢٠ ، ١٥٦
 أبو بحر بن عبد الصمد : ٩٧
 أبو البقاء الرندي : ٥٧ ح ، ١١٥
 أبو بكر (رضي الله عنه) : ٢٧٠
 أبو بكر بن ذكوان : ١٦٥ ، ١٨٢
 أبو بكر بن زهر = ابن زهر الأندلسي
 أبو بكر بن زيدون : ١٦٤ ، ١٨٧
 أبو بكر بن العربي (قاضي) : ٦٦
 أبو بكر بن عمار = ابن عمار
 أبو بكر بن مسلم : ١٦٣ ، ١٦٤ ،
 ١٦٥ ، ١٧٦ ، ١٧٩
 أبو بكر الخزوي الأعمى : ١١٦
 أبو تمام : ٦٩ ، ١٢٨ ، ٢١٢ ،
 ٢٢٤ ح ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ح ،
 ٢٦٠ ح ، ٢٦٨ ح ، ٢٧٧ ح
 أبو جعفر الأندلسي الغرناطي : ٩٩
 أبو جعفر المنصور : ١٦
 أبو جميل زيان (أمير بلنسية) :
 ٥٧ ح .
 أبو الحجاج يوسف : ٢٩٠ ح
 أبو الحزم بن جمهور : ٢٤ ، ١٦٢ ،
 ١٦٥ ح ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،
 ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ،
 ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ،
 ٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ،

ابن طفيل (فيلسوف) : ٢٩ ، ٥٦ ،
 ١١٦ .
 ابن عبد ربه : ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠١ ح ،
 ١١٨ ، ١٥٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩
 ابن عبد الغفور : ٧٣
 ابن عبدوس : ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٥٢ ح
 ٢٦٢ ح .
 ابن عبدون : ٥١ ، ٥٥ ، ٥٧ ،
 ٧١ ، ٧٥ ، ٩٧ ، ١٠١ ح ،
 ١١٤ .
 ابن العذارى : ٣٨ ، ٤٠
 ابن عمار : ٢٤ ، ٦٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ٧٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠١ ح ،
 ١٨٦ ، ١٨٧ .
 ابن العميد : ١٩١
 ابن غالب : ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٥
 ابن قزمان : ٥٦ ، ٧٠ ، ٧١ ،
 ٧٢ ح ، ٢٩٨ ح .
 ابن لبّال : ٧٥
 ابن اللبّانة : ١١٤ ، ٢٩٠ ، ٣١٣
 ابن مرتين : ١٨٦ ، ١٨٧
 ابن المعتز : ٧٠ ، ٧٣ ، ١٠٣ ،
 ١٠٥ ، ١٢٩ ، ٢٨٦
 ابن مقانة (شاعر) : ٧٧
 ابن المكوي : ١٧٥ ، ١٧٦
 ابن ملجم : ٢٧١ ح
 ابن المناصف : ٧١
 ابن ميمون : ١١٦
 ابن نباتة : ١٦٧ ، ١٨٩
 ابن النحاس النحوي : ٦٩ ، ٧٠

أبو القاسم خلف بن عباس : ٥٥
أبو لؤلؤة : ٢٧٠ ح

أبو معشر (منجم عباسي مشهور) :
٢٥٦

أبو نواس : ٧٢ ، ٨٧ ، ١٠١ ،
١١٨ ، ٢٥٨ ح ، ٢٩١ ،
٣٠٧

أبو الوليد بن جهور : ١٣٣ ، ١٧٥ ،
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ،
١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٧ ،
٢٣٩ ، ٢٤٩ .

أبو يحيى بن إبراهيم : ١٤٥
أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
(من الموحدين) : ٢٩
أبو يوسف يعقوب (من الموحدين) :
٢٩

أحمد (واقعة) : ٢٧٠ ، ٢٧١ ح
أحمد أحمد بلوى : ٩٤ ح
أحمد بن فرح الحياتي : ١٥٤
أحمد بن المعتصم : ٢٢٤ ح
أحمد ضيف : ٢٠٥

الأحنف بن قيس : ٢٥٤ ، ٢٧٢
إدريس الحسني : ٢٣ ، ١٨٣
الإدريسي : ١١٦

أرجونة (حصن في قرطبة) : ٣٠
أردشير : ٢٥٣

أرسطاطاليس : ٥٦ ، ١٦٥ ، ٢٥٦
أرغون (مقاطعة) : ٢٥
أسامة بن حارثة : ٢٧٠

٢٧٥ ح ، ٢٧٦ ح .

أبو الحسن بن الربيع : ١٤٦
أبو الحسن بن محمد بن الربيع
القيرواني : ٤٥ ح

أبو الحسن بن نزار (شاعر) : ١٣١
أبو الحسن بن نعيم : ١٠٧
أبو الحسن المريني : ٣٣١

أبو الحسين بن سراج (وزير) :
٤٨

أبو حفص بن برد : ١٣٤ ، ١٧٧ ،
١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٢٤ .

أبو حيان : ٥٨ ح .
أبو الربيع (من أمراء الموحدين) :
٧١

أبو زياد الكلابي : ٧٠
أبو الطيب = المتنبي
أبو عامر بن شهيد = ابن شهيد
أبو العباس بن ذكوان : ١٦٥ ح
أبو عبد الله (آخر ملوك الأندلس) :
٣١

أبو عبد الله بن عبد العزيز (أمير
بلنسية) : ١٨٣
أبو عبد الله محمد اللخمي الرندى :
٥٨ ح

أبو العتاهية : ٦٩ ، ١٠٥ ، ٢٦٥ ح
٢٩٢ ، ٢٩١

أبو العلاء = المعري
أبو علي القالي : ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ح
أبو القاسم بن رفق : ٢٣٢
أبو القاسم بن العطار : ٤٩ ، ١٥٣
أبو القاسم التوزي : ٢٠٥

امرؤ القيس : ٩١ ، ١٢٧ ، ٢٧٣ ح
 أم السعد بنت عصام الحميري : ٩٨
 أم العلاء بنت يوسف الحجازية : ٩٨
 أم الكرام بنت المعتصم بن صمدح : ٩٨

أندلس : ٩ ، ١٠
 أنس (والد مالك) : ٣٣٤
 أنشودة رولان (ملحمة) : ١٧
 إياس = إياس بن معاوية (قاض
 اشتهر بذكائه) : ٢٢٤ ح ، ٢٥٥
 إيزابيلا : ٣١
 إيطاليا : ١٩
 أيوب بن حبيب اللخمي : ١٤
 إيننا (مدينة) : ١٨٩

ب

باخوس : ٤٤
 باديس بن حبوس : ٧٨ ، ٣١٤
 الباسك (مقاطعة) : ١٧
 باقل : ٢٦١
 بترارك (شاعر إيطالي) : ١٢٥ ح
 بثينة بنت المعتد : ٩٨
 بجانة (كورة بإقليم المرية) : ٩٨
 بجاية (مدينة بالمغرب) : ٧٢ ، ١٠٤
 البحتری : ٧٢ ، ٧٣ ، ١٢٨ ،
 ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٣٠٧
 بدر (مولى عبد الرحمن الداخل) :
 ١٥

البرابرة : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ،
 ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٧٧ ،
 ١١٥ ، ١٦١ .

إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين :
 ١٠٦

إسحق الموصلي : ١٧ ، ٨٥
 الإسكندر : ٢٥٣
 الإسكندرية : ٨٩

إسكوريال : ٢٨٨ ح
 أشات (واد) : ١٣١ ، ١٣٢
 إشبيلية : ٩ ، ١٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ،
 ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٤٩ ،
 ٥١ ح ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٤ ،
 ٦٨ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
 ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١١٧ ،
 ١١٩ ، ١٣١ ، ١٥٣ ، ١٦٢ ،
 ١٦٤ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ،
 ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ، ٢٤٢ ،

٢٩٠ ح

اعتماد = الرميكية
 الأعشى : ٦٩ ، ٢٦٣ ح
 الأعمى التطيلي : ٧٥ ، ١٠١ ح ،
 ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣١٥ .
 الأغاني (كتاب) : ٢١
 أغمات (مدينة في المغرب) : ٢٧ ،
 ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١١٥ ،
 ٢٩٠ ح .

أفلاطون : ١٦٥ ، ٢٥٦
 الإفليلي : ٧٣
 البيرة (مدينة في الأندلس) : ١٦٣
 ألتارو (أسقف) : ٨٦
 ألمانيا : ١٩
 ألفونس السادس : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
 امرأة العزيز : ٢٥٣

٥٤ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٢٩٠ ح

بنو إسرائيل : ٢٦٩ ح

بنو الأفتس : ٥٧ ، ٩٧ ح ،
١١٤ ، ١٦٢ .

بنو جهور : ٢٤ ، ٦٣ ، ١٦٢ ،
١٧٥ ، ١٨٢ .

بنو حمّاد : ٣١٤

بنو دارم : ٢٦٢ ح

بنو ذكوان : ١٨٢

بنو ذى النون : ١٦٢

بنو عبّاد : ٢٤ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٧٧ ،

١١٤ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ،

١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ، ٢٤٦ .

بنو العباس : ٨٩

بنو قريظة : ٢٧٠

بنو لحم : ٢٣ ، ١٦٢

بنو مروان : ٨٢

بنو مسمع : ٢٦٢ ح

بنو مصمودة (قبائل) : ٢٨

بنو نصر = بنو الأحمر

بنو نَصْرَة : ١٥

بنو هود : ١٦٢

بواتيه (مدينة في فرانسة) : ١٤

بوران (ابنة كسرى) : ٢٥٤

بيتيك (إقطاع) : ٩

بيروت : ٩٠ ، ٩٢ ، ١٨٨ ح .

ت

الروبادور : ٣٢ ح ، ٥٢ ، ٨٠ ،

٢٨٥

تطيلة (مدينة في الأندلس) : ٧٥

براقش : ٢٦٥

البرامكة : ٢٩١

برجة (مدينة في الأندلس) : ٧٧

برشلونة : ١٤

برقة : ٨٩

البرنة (جبال) : ١٦

بروكلمان (مستشرق) : ٧٤ ح ،

١٨٨ ح .

البستاني (بطرس) : ٩ ح ، ١١ ح ،

١٢ ، ٢٣ ح ، ٢٦ ح ، ٢٨ ح ،

٣٠ ح ، ٧٣ ح ، ٧٤ ح ، ٩٢ .

بشار بن برد : ٢٥٧ ، ٢٦٦ ح ،

٢٩٢

بطليموس : ٢٥٦

بطليوس (مدينة في الأندلس) :

٢٤ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٥٥ ، ٧٦ ،

٧٧ ، ٩٧ ح ، ١٦٢ ، ١٨٤ ،

١٩٦ .

بغداد : ٢٠ ، ٢٨ ، ٦٨ ، ٨٤ ،

٨٥ ، ١٨٩

بقراط : ١٦٥ ، ٢٥٦ .

بكة (واد في الأندلس) : ١٢

بكر (قبيلة) : ٢٥٥

بالرم (مدينة في صقلية) : ١٠١

بلج بن بشر : ١٥ ، ٣٤ ، ٣٦ ،

٣٧

بلقيس : ٢٥٤

بلنسية (مدينة في الأندلس) : ٢٣ ،

٥٧ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٦

بليونس : ٢٥٦

بنو الأحمر : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،

الحارث بن عباد البكري : ٢٦٤
 الحارث بن ويلة يشكري : ٢٦٦ ح
 حامد عبد المجيد : ٩٤ ح
 حبيب - أبو تمام
 حبيب الصقلی : ٣٩
 الحجاج : ٢٥٥ ، ٢٧١ ح
 الحجارى : ٢٨٨
 الحرّة (واقعة) : ٢٧١
 حسان بن ثابت : ٢٧١ ح
 حسانة التيمية : ٩٨
 الحسن بن على : ٢٣
 الحسين : ٢٧١
 الحصرى : ٧٠
 حفصة بنت الحاج الركونية : ٦٣ ،
 ٩٨ ، ١٦٨
 حفصة بنت حمدون الحجازية : ٩٨
 الحكم الأول : ١٧
 الحكم بن عبد الرحمن الناصر : ٢١ ،
 ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٥ ،
 ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٦١
 الحكم الثانى = الحكم بن عبد الرحمن
 الناصر
 حلب : ٩٩ ، ٣٥١ ح .
 حمدة بنت زياد المؤدب : ٦٣ ،
 ٩٨ ، ٩٩
 حمدة العوفية : ٩٩
 الحمراء (قصور) : ٣٠ ، ٣١

خ

خالد بن الوليد : ٢٧٠
 الخندق (غزوة) : ٢٧٠ ح
 الخوارزمي : ١٩١

تغلب (قبيلة) : ٢٥٥

تميم (قبيلة) : ٢٦٢ ح .
 تور (مدينة فى فرانسة) : ١٤

ث

الثعالبي : ٦٩ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٢٨٨ ح
 ثعلب (نحوى) : ٧١

ج

جؤذر (من الصقالبة) : ٤٠
 جابر بن حيان = ابن حيان
 الجاحظ : ٧٢ ح ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ح
 جان جالك روسو : ١٢٤
 جالينوس : ٢٥٦
 جبرائيل جيور : ٢٠ ح ، ٣١ ح ،
 ٣٢ ح .
 جبل طارق : ٩ ، ١١
 جذيمة الأبرش : ٢٥٤
 جرير : ٦٩
 الجزيرة الخضراء : ١١ ، ٢٣
 جماس : ٢٥٤
 الجعد (مولى لبنى الحكم) : ٢٥٧
 جليقية (مقاطعة) : ٣٩ ، ٤٠
 جوهر الصقلی : ٨٩

ح

حاتم الطائي : ٢٥٤
 الحاجب المنصور : ٢١ ، ٢٢ ، ٣٦ ،
 ٣٧ ، ٥٣ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ،
 ١١٦ ، ١٦١

د

- دارا (ملك الفرس) : ٢٥٣
 الداني (الشاعر) : ٩٦ ، ٩٧
 الدمستق (من قواد الروم) : ٢٥٩
 دمشق : ١١٩ ، ٣٥٣
 دوزى (مستشرق) : ٣٩ ح ، ٢٨٧ ح
 دوسلان (مستشرق) : ٢٨٧ ح
 دولة بنى الأفطس : ٢٤
 الدولة الجهورية : ٢٤
 الدولة الحمودية : ٢٣
 دولة ذى النون : ٢٤
 الدولة الزيرية : ٢٣
 الدولة العامرية : ٢٣
 الدولة العبادية : ٢٣
 الدولة اليهودية : ٢٣

ذ

- دبيان (قبيلة) : ٢٥٥
 ذو الرمة : ٦٩

ر

- رايسك (مستشرق) : ١٨٩
 الرصافة : ١٦ ، ٨٣
 الرمادى (شاعر) : ٥١ ، ٩١
 الرميكية (زوجة المعتمد) : ٩٢ ،
 ٩٣ ، ٩٨
 رولان : ١٧
 روما : ١٠١
 الرومان : ١٠
 الرون (نهر) : ١٤
 الرين (نهر) : ١٧

ز

- الزباء : ٢٥٤
 زرياب : ١٧ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦
 الزقاق : (بحر) : ١١ ، ١٢
 الزلُاقة (واقعة شهيرة) : ٢٧
 زناتة (قبائل) : ٢٧
 الزهراء (قصر) : ٢٠ ، ١٧٩
 زهير بن نمير : ٩٢
 زيد بن مهلهل : ٢٥٤

س

- السامري : ٢٥٥ ح
 سبتة (مدينة) : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ،
 ١٥ ، ٢٦
 سجلماصة : ٧١
 سحبان : ٢٥٥
 سراج الدولة بن عباد : ١٨٧
 سرقسطة : ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
 ٢٥ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ١٦٢

- سعيد بن محمد العاصى المروانى : ١٥٥
 السليك بن السليكة : ٢٥٤
 سليمان بن الحكم : ٩١
 سليمان المستعين بالله (خليفة أموى
 فى عهد الفتنة) : ١٦١ ح
 السموعل : ٢٥٤
 السنغال : ٢٦
 سهل بن هارون : ٢٥٧
 سهيل بن عمر بن عبد العزيز :
 ٢٦١ ح
 السوس (جبل) : ٢٨

ض

الضبي : ٢٨٨ ح
الضحاك : ٢٥٤

ط ، ظ

طارق بن زياد : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ،
١٤ ، ٣٤
طالوت : ٢٧٠
طرطوشة : ١٨٤ ، ١٩٦
طريف (مرفأ) : ٩ ، ٢٦
طريف بن مالك النخعي : ١١
طليطلة : ١٣ ، ٢٤ ، ٦٨ ، ٧٨ ،
١٦٢ ، ١٨٦
طنجة : ٢٦
طُوبَس : ٢٦١

ع

عائشة (أم أبي عبد الله آخر ملوك
الأندلس) : ٣١
عائشة (الصديقة) : ٢٧٠
عائشة القرطبية : ٦٣
عامر بن مالك : ٢٥٥
عبادة بن ماء السماء : ١٦٣ ، ٢٨٧ ح ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠٩ ،
٣٤٨
عبادة القزاز : ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،
٣١١
العبادية (جارية المعتمد) : ٩٨
العباس بن الأحنف : ٢٠٥ ،
٢٧٤ ح

سيبويه : ٧١

سيد نوفل : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٢٥ ح

ش

شارل مارتل : ١٤
شارلمان : ١٦ ، ١٧
الشريف الرضي : ٧٣ ، ٢٠٥
شقر (مدينة في شرق الأندلس) :
١٠٦
شهاب الدين العزازي : ٣٥١
شوقي (أحمد) : ٢١٢
شوقي ضيف : ١٦٥ ح ، ٢٠٤
شيرين (زوجة كسرى) : ٢٥٤

ص

الصاحب بن عباد : ٨٨ ، ١٩١
صاعد البغدادي : ٣٨ ، ٧٢
صبح (زوجة الحكم) : ٢١
الصفدي : ٧٥ ، ١٨٩ ، ٢١٢
صفي الدين الحلي : ٢١٢
الصقالبة : ١٩ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ،
٣٩ ، ٤٠
صقر قریش = عبد الرحمن الداخل
صقلية : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٣٧
الصلاح الكتبي : ٨٨
الصُمَيْل : ١٦
صنهاجة (قبيلة) : ٢٦
الصنوبري : ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٣ ح ،
١٢٩

عبد الملك بن رزين : ١٥٤
 عبد الله بن قَظَن : ١٤
 عبد الملك بن مروان بن الحكم : ٨٣
 عبد الواحد المراكشي : ٧٧
 عبد الوهاب المراكشي : ٧٠
 عيس (قبياة) : ٢٥٥
 عثمان بن إبراهيم بن النضر : ١٥٥
 عثمان بن عفان : ٢٧١ ح
 العرنيس (شاعر) : ٢٦٣
 عروة بن جعفر : ٢٥٤
 العروضية (مولاة عبد الرحمن بن
 غلبون الكاتب) : ٩٨
 عزاز (قرية قرب حلب) : ٣٥١
 عكَم المَدَنِيَّة (مغنية) : ٨٤ ح
 علي بن أبي طالب : ٢٧٠ ح ،
 ٢٧١ ح ، ٣٥٢ ح
 علي بن أحمد (من شعراء بلنسية) :
 ١٥٥

علي بن حزم اللحياني : ٧٠
 علي بن حمود الناصر : ٧٨
 علي بن يوسف بن تاشفين : ٢٧
 علي عبد العظيم : ١٨٨ ح
 عمر بن أبي ربيعة : ١٣٢ ، ٢٦١ ح
 عمر بن الأفطس : ٥٥
 عمرو بن الأهتم : ٢٥٥
 عمر بن الخطاب : ٢٥٥ ، ٢٧٠ ح
 عمر بن سعد : ٢٧١
 عمر بن معديكرب : ٢٦٤ ح
 عمرو بن هند : ٢٦٣ ح ، ٢٦٤ ح
 عمر بن يوسف الخنطلي : ١٥٥

عبد الحميد بن يحيى = عبد الحميد
 الكاتب : ٢٥٧

عبد الرحمن الثالث : ١٥ ، ١٦ ،
 ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٥ ،
 ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ،
 ٥٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١٦١

عبد الرحمن الثاني : ١٧ ، ٣٥ ، ٨٥
 عبد الرحمن خليفة : ١٨٨
 عبد الرحمن الداخل : ١٥ ، ١٦ ،
 ١٧ ، ١٨ ، ٣٥ ، ٥٣ ، ٨٢ ،
 ٨٤ ، ٨٣

عبد الرحمن الغافقي : ١٤
 عبد الرحمن المرتضى (خليفة أموى
 فى عهد الفتنة) : ١٦١ ح
 عبد الرحمن المستظهر بالله (خليفة
 أموى فى عهد الفتنة) : ١٦١ ح
 عبد الرحمن الناصر = عبد الرحمن
 الثالث

عبد العزيز الأهواني : ٢٨٨ ، ٢٨٩ ح
 عبد العزيز بن موسى بن نصير :
 ١٣ ، ١٤

عبد الله (جد عبد الرحمن الثالث) : ١٩
 عبد الله بن الزبير : ٢٧١ ح
 عبد الله بن محمد المرواني : ٢٨٧ ،
 ٢٨٩

عبد الله بن ياسين (فقيه) : ٢٦
 عبيد الله الحجاج : ٢٩٨ ح
 عبد المؤمن بن علي (من الموحدين) :
 ٢٨ ، ٢٩ ، ٥٦

عبد المحسن الصورى (شاعر) : ٧٣

الفرس : ٥٩

فرعون : ٢٦٩ ح

الفضل بن يحيى : ٢٥٨ ح

فضل المنذية (مغنية) : ٨٤

الفندال : ٩ ، ١١

فندالسيا : ٩

فهرسة ابن خير (كتاب) : ٦٩ ،

٧١

فردان (مدينة) : ٣٩

ق

قارون : ٢٥٣

القاهرة : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٨٠ ح

قبرة (قرية في الأندلس) : ٢٨٧ ح ،

٢٨٨ ، ٢٨٩

قتيبة (من قواد العرب شهورين) :

٢٥٥

قرطبة : ٩ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ،

١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،

٣٠ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ،

٤٨ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٦٨ ،

٧٠ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٩٠ ، ٩٢ ، ١٤٦ ، ١٦١ ،

١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،

١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،

١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢١٨ ،

٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٣٣١ .

قريش : ٢٧٠

القسطنطينية : ١٩ ، ٢٠ ، ٣٨ .

قشتالة : ١٤ ، ٢٦ ، ٣٨ .

غ

غارسيا غومس (مستشرق) : ٢٨٨ ح

٢٨٩

غالب بن رباح : ٧٦

غانم الخزومي : ٧٨

غاية المني (جارية المعتصم بن

صمادح) : ٩٨

غرناطة : ٩ ، ٢٣ ، ٣٠ ، ٣١ ،

٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٨ ، ١٦٣ ،

٢٩٠ ح ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ح

الغزالي : ٢٨ ، ٥٦

الغسانية البجانية (شاعرة) : ٩٨

الغنى بالله (من ملوك بني الأحمر) :

٢٩٠ ح ، ٣٣٣ ، ٣٣٨ ، ٣٤٥

غيطة (ملك القوط) : ١٠ ، ١١ ،

١٢

غيلان : ٢٥٧

ف

فائق النظاي (من الصقالبة) : ٤٠

فاس : ٣١ ، ٢٦ ، ٢٩٠ ح

الفاطميون : ٢٠ ، ٣٧

الفتح بن خاقان : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،

٥٥ ، ٧٣ ، ١١٦ ، ١٧٩ ،

١٨٥ ، ٢١٢ ، ٢٤٢

فحص البلوط (جبال) : ٣٨

فرانسة : ١٤ ، ١٩ ، ٢٨٥

فرديناند الأول : ٢٤

فرديناند الثالث : ٣٠ ، ٣١

الفرزدق : ٦٩ ، ٧١ ، ٢٦٢ ح

١١ ح ، ١٢ ح ، ٣٤ ، ٤٤ ح ،
 ٥١ ح ، ٥٢
 ليون (مدينة في فرانسة) : ١٤

م

المؤتمن بن المقتدر بالله : ٢٣
 ماردة (مدينة) : ١٢
 مارية بنت ظالم : ٢٦٤
 مالقة : ٢٣ ، ١٨٣
 مالك بن أنس : ٢٥٧ ، ٣٣٤
 مالك بن نورية : ٢٥٤
 المأمون بن ذى النون : ٢٤ ، ١٨٦
 مانى (صاحب مذهب المانوية) :
 ٢٥٧

المبرد : ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٢ ح
 المتلمس : ٢٦٢
 المتنبي : ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٨٩ ،
 ٩٠ ، ٩١ ، ١١٤ ، ١١٧ ،
 ١٢٩ ، ٢٠١ ، ٢٢٣ ح ، ٢٢٥ ح ،
 ٢٥٨ ، ٢٧٦ ح ، ٢٧٧ ح ، ٣٠٧
 المتوكل بن المظفر (ملك بطليوس) :
 ٢٥ ، ١٦٢

المجر (بلاد) : ٣٨
 المجنون (مجنون ليلى) : ٢٠٥
 محمد بن تومرت : ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٦
 محمد بن خير : ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
 ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣
 محمد بن محمد القبرى : ٢٨٧ ،
 ٢٨٨ ، ٢٨٩
 محمد بن محمود الوليد الغنوى : ٢٨٨ ح
 محمد بن هود : ٣٠

ك

قطام : ٢٧١
 القوط : ١٠ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٥٩
 قيس بن زهر : ٢٥٥
 قيصر : ٢٥٣

كاتالون (مقاطعة) : ٣٩
 ككب (جبل في الحجاز) : ٢٧٥
 كرمونا (جبال) : ٣٨
 كسرى : ٢٥٣
 كلبة (جبل) : ١١
 كليب بن ربيعة : ٢٥٤
 كليمان هوار (مستشرق) : ١٢
 كامل كيلانى : ١٨٨ - ٢٠٥
 كندة (قبيلة) : ٩١
 الكندى (فيلسوف) : ٢٥٦
 كور (مستشرق) : ١٦٥ ، ١٧٦ ،
 ١٧٨

ل

لذريق (ملك الإسبان) : ١٠ ، ١١
 ١٢ ، ١٦
 لسان الدين بن الخطيب : ٤٣ ، ٤٧ ،
 ٥٨ ح ، ٦٣ ، ١٠١ ح ، ١٣٣ ،
 ٢٩٠ ، ٣٠٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٨
 لمتونة (قبيلة) : ٢٦
 اللوار (نهر) : ١٤
 لومبارديا (مقاطعة) : ٣٩
 ليبسك (مدينة) : ١٨٩
 ليقى بروفنسال (مستشرق) : ٩ ح ،

المظفر (ملك بطليوس) : ٢٤ ،

٢٥ ، ٧٧ ، ١٦٢ ، ١٨٤ ،

المظفر بن الحاجب المنصور : ٢٢ ،

٧٧ ، ١٦١ ،

المعتصم بن صمّاح : ٥٢ ، ٥٥ ،

٦٤ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٢٨٧ ، ٣١١ ،

المعتضد بن عبّاد : ٢٤ ، ٥٥ ، ٧٧ ،

٩٢ ، ١٦٢ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ،

١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،

٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ،

المعتمد بن عبّاد : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ،

٢٧ ، ٧٣ ، ٦٤ ، ٥٥ ، ٧٦ ،

٧٧ ، ٧٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،

٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ح

١١٥ ، ١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٦٢ ،

١٦٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٤٩ ،

٢٩٠ ح

المعزّي : ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٣ ح ،

٧٧ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٢٠٥ ،

المعزّ (خليفة فاطمي) : ٨٩ ، ١٢٠ ،

المقتدر بالله : ٢٣ ،

المقتدى بأمر الله (خليفة عباسي) :

٢٧

مقدّم بن معافى القبرى : ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،

المقرى : ١٢ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٥ ،

٦٤ ، ٦٧ ح ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ،

٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١ ،

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٣٠ ،

١٣٢ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ،

محمد بن يوسف النصرى : ٥٨٠ ، ٣٠ ،

٣٤٢

محمد راغب الطباخ : ٧٣ ح

محمد عبد الله عنان : ٣٠ ح ، ٥٤ ح

محمد المهدي (خليفة أموى فى عهد

الفتنة) : ١٦١ ح

محيي الدين بن العربى : ١١٩ ، ٥٧ ،

٣٥٣

مخزوم (قبيلة قرشية) : ١٦٣ ،

المدينة المنورة : ٨٤ ح ، ٢٧١ ح

المرابطون : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،

٢٩ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٥٥ ، ٥٦ ،

٨٠ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١٦٤ ،

٢٨٦ ح ، ٢٩٠ ح

مراكش : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ١٠٠ ،

مرسية (مدينة) : ٣٠ ، ٥٧ ، ٧١ ،

٧٥ ، ١١٩ ، ٢٩٠ ح ، ٣٥٣ ،

المرية (مدينة) : ٣٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ،

٦٤ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٢٨٨ ، ٣١١ ،

المستظهر بالله (خليفة أندلسي) :

٧٧

المستعين الأموى : ٢٣ ،

المستكفى بالله (خليفة أموى فى عهد

الفتنة) : ١٦١ ح ، ١٦٦ ،

مسلم بن الوليد : ٢٩١ ،

المصامدة (جبال) : ٢٧ ، ٢٨ ،

مصر : ٨٩ ، ٩٠ ،

مصطفى صادق الرافعى : ٧١ ح ،

٨٢ ح

مصطفى عنانى : ١٨٩ ،

مصمودة (قبائل) : ٢٧ ،

نزهون القلاعية الغرناطية : ٦٣ ،

٦٨ ، ١١٦

النطف (رجل من تميم) : ٢٥٣

النظام (من أئمة المعتزلة) : ٢٥٦

النظامية (مدرسة) : ٢٨ ، ٦٨

النعمان بن المنذر : ٢٣ ، ٣٣٤

نوح : ٢٦٩

النورمانديون : ١٠٠

نويورة (معشوقة ابن الحداد) : ٥٢ ،

١٢٢

نيكل (مستشرق) : ٢٨٥ ح

هـ

هارتمان (مستشرق) : ٣٠٢

هارون الرشيد : ٨٥ ، ٢٥٨ ح ،

٢٩١

هامان : ٢٦٩ ح

هبنقة : ٢٦١

هرم بن قطبة : ٢٥٥

هرمس : ٢٥٦

هزان (قبيلة) : ٢٦٣

هشام الأول : ١٧

هشام بن الحكم بن عبد الرحمن

الناصر : ٢١

هشام بن عبد الملك : ١٤ ، ١٦

هشام الثالث (المعتمد بالله = آخر

خلفاء بني أمية في الأندلس) :

٢٢ ، ١٦١ ، ١٦١ ح ، ١٦٦

هشام المؤيد : ٤٤

هشام بن مرة : ٢٦٢

الهمداني : ١٩٨

١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٨٨ .

المنازى (الشاعر) : ٩٩ ، ١٠٠

المنصور = الحاجب المنصور

المنصور بن أبي عامر = الحاجب

المنصور

مهجة القرطبية (جارية ولادة) :

٦٣ ، ٩٨

المهدي = محمد بن تومرت

المهدي بن تومرت = محمد بن تومرت

المهدية (قرية في إفريقية) : ١٠٠

المهلب : ٢٥٥

مهلهل : ٢٥٤

مهيار الديلمي : ٧٣

الموحدون : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،

٣٢ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٦ ،

٥٧ ، ٧٧ ، ١١٦ ، ٢٨٦ ح

موسى (النبي) : ٢٦٩

موسى بن ميمون : ٥٦

موسى بن نصير : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ،

١٤ ، ٣٤ ، ٣٦

الموصل : ١٨٩

ميمون الغابد : ١٢

ميورقة (جزيرة شرق الأندلس) :

١٠٠ ، ٢٩٠ ح

ن

النابغة الذبياني : ٢٧٢ ح

الناصر = عبد الرحمن الثالث

النجاشي : ٢٧٠ ح

نجدة الصقلي : ٤٠

ى

يحيى بن إبراهيم : ٢٦

يحيى بن عمر : ٢٦

يحيى الخدج : ٧١

يذنب (جبل) : ١٢٧

يزيد بن معاوية : ٢٧١ ح

يليان (عامل لقيصر الروم) : ١٠ ،

١١ ، ١٢

يوسف (عليه السلام) : ٢٥٣

يوسف بن تاشفين : ٢٥ ، ٢٦ ،

٢٧ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١١٥

يوسف بن هارون = الرمادى (الشاعر)

يوسف الفهرى : ١٦

هنرى به رس (مستشرق) : ٤٣ ،

٤٥ ، ٤٦ ، ٦٦ ، ١٢١

هواره (قبائل) : ٢٤

هيرت (مستشرق) : ١٨٩

و

ولادة بنت المستكفى : ٦٣ ، ٩٨ ،

١٢٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ،

١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٨ ، ٢١١ ،

٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٣٧ ،

٢٤٢ ، ٢٥٢ ح .

الوليد بن عبد الملك : ١١ ، ١٣

فهرس الكتاب

الصفحة

المقدمة ٥

الباب الأول

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ٩

الفصل الأول : الأندلس : المعنى الجغرافى والعنصرى - الفتح . ٩ - ١٣

الفصل الثانى : عهد الولاة - الدولة الأموية : إمارة قرطبة المستقلة

وعبد الرحمن الداخل حتى خلافة عبد الرحمن الثالث ١٤ - ١٨

الفصل الثالث : خلافة قرطبة وعبد الرحمن الثالث - الحكم بن

عبد الرحمن الناصر - الحاجب المنصور - استبداد

العامريين ١٩ - ٢٢

الفصل الرابع : ملوك الطوائف - دولة المرابطين - دولة الموحيدين -

دولة بنى الأحمر - السمات المميزة لهذه الأدوار ٢٣ - ٣٣

الفصل الخامس : عناصر الشعب الأندلسى - الصقالبة . ٣٤ - ٤٢

الفصل السادس : شخصية الأندلسى ٤٣ - ٤٦

الفصل السابع : سمات العصر الأندلسى فى السياسة والاجتماع والفكر -

إدارة المجتمع الأندلسى - الحضارة الأندلسية والحياة

الفكرية ٤٧ - ٦٠

الباب الثاني

- الشاعر الأندلسي — أغراض الشعر الأندلسي — شعر الطبيعة . . . ٦٣
- الفصل الأول : الشاعر الأندلسي وطرق التعليم — فهرسة ابن خير . ٦٣ — ٧٤
- الفصل الثاني : طبقات الشعراء ، حياة الشاعر وشروطه الاجتماعية . ٧٥ — ٨١
- الفصل الثالث : الآثار الأدبية الأولى وذكر لأشهر الأدباء والشعراء —
 زرياب والنهضة الغنائية — نحو أدب أندلسي —
 طائفة من الأدباء : ابن عبد ربّه — ابن هاني —
 أحمد بن دراج القسطلّي — بعض شعراء ملوك
 الطوائف — النساء الشاعرات — ابن حمديس —
 ابن خفاجة ٨٢ — ١١٣
- الفصل الرابع . أغراض الشعر الأندلسي : المدح — الرثاء — الهجاء —
 الحكمة — الزهد — التصوف — الشعر الحماسي —
 الوصف — الغزل — الحمر ١١٤ — ١٢٣
- الفصل الخامس : شعر الطبيعة — بواعث شعر الطبيعة في الأندلس
 وخصائصه الخاصة — منتخبات من شعر الطبيعة في
 الأندلس ١٢٤ — ١٥٧

الباب الثالث

ابن زيدون

- الفصل الأول : ابن زيدون : البيئة التاريخية والسياسية — مولد
 ابن زيدون ونشأته وثقافته — ابن زيدون وولادة ١٦١ — ١٧٤
- الفصل الثاني : ابن زيدون في بلاط بني جهور وبني عباد : الشاعر

في بلاط أبي الحزم وسجنه — الشاعر في بلاط
أبي الوليد — ابن زيدون في بلاط بني عباد — موت
الشاعر ١٨٧—١٧٥

الفصل الثالث : آثار ابن زيدون وأدبه : الديوان — الرسالة الهزلية —
الرسالة الجدية — خصائص الرسالتين الأساوية —
أغراض ابن زيدون الشعرية : الغزل — المدح —
الاستعطاف والشكوى — بقية الأغراض — خصائصه
الفنية — منزلته ٢٠٦—١٨٨

الفصل الرابع : مختارات من آثار ابن زيدون : الغزل — الشكوى
والاستعطاف — المديح — الرثاء ، الرسالة الهزلية —
الرسالة الجدية ٢٨١—٢٠٧

الباب الرابع

الموشحات الأندلسية

الفصل الأول : نشوء الموشحات — قالها الشعري : أولية الموشح —
تعريف الموشحات وعناصرها — الخرجة ٢٩٩—٢٨٥

الفصل الثاني : أوزان الموشحات — أغراضها ومعانيها ولغتها وقيمتها ٣٠٨—٣٠٠

الفصل الثالث : مختارات من الموشحات : موشحة لعبادة بن ماء
السما — موشحة لعبادة التراز — موشحة لابن اللبانة —
موشحة للأعشى التطيلي — موشحتان لابن بقي —
موشحة لابن باجة — ثلاث موشحات لابن زهر —
موشحتان لابن سهل — موشحة لأبي الحسن المريني —

الصفحة

موشحة للسان الدين بن الخطيب - ثلاث موشحات	
لابن زمرك - موشحة لابن سناء الملك - موشحة لشهاب	
الدين العزازي - موشحة لمحبي الدين بن عربي	٣٥٥ - ٣٠٩
المراجع	٣٦٤ - ٣٥٦
فهرس الأعلام	٣٧٩ - ٣٦٥
فهرس الكتاب	٣٨٤ - ٣٨١

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

في الأدب الأندلسي

يتناول هذا الكتاب عرضاً وافياً للحياة السياسية والاجتماعية والفكرية لبلاد الأندلس في مختلف أدوارها التاريخية ، ثم يتعرض لبيان الشروط الاجتماعية والثقافية التي عاشها الشعراء في الأندلس ويأتى على ذكر طائفة من الأدباء والشعراء موضحاً سمات الشعر الأندلسي . ويتناول هذا الكتاب بعد ذلك شعر الطبيعة كغرض بارز من أغراض الشعر الأندلسي ، ثم يفرد بحثاً خاصاً عن ابن زيدون يدرس فيه جوانب هذا الشاعر الفذ بروح جديدة . يعقب ذلك دراسة لفن جديد عرف نشأته وازدهاره في بلاد الأندلس ألا وهو فن الموشحات ، فيوضح قواعده وأوزانه وخصائصه ويكشف عن منزلته في الأدب العربي . وعلى هذا فالكتاب يعد أوفى دراسة عن مظاهر الأدب في الأندلس والفنون الشعرية التي ازدهرت فيها . وهو يقدم لنا فضلاً عن ذلك عدداً من النصوص المشرحة التي يصعب العثور عليها مجمعة في كتاب غيره .